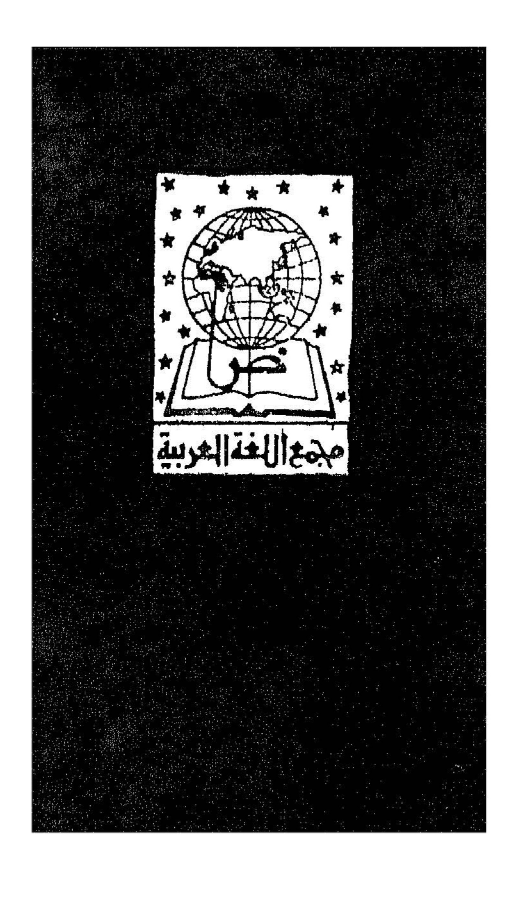


مجمع اللغـة العربية بالقاهرة
٢٦ شارع مراد بالجيزة

اهداءات ٢٠٠٣

أ.د / شوقى ضيف
رئيس مجمع اللغة العربية

مجلة مجمع اللغة العربية

(تصدر مرتين في السنة)

الجزء الثامن والعشرون

رمضان ١٣٩١هـ = نوفمبر ١٩٧١م

المشرف على المجلة :

د. إبراهيم أنيس

أمين التحرير :

إبراهيم الترزي

الفهرس

تصدير :

بحوث ومقالات :



من التراث اللغوى :

شخصيات مجمعية :

اعضاء راحلون :

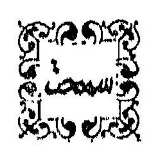
من أنباء المجمع :

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

دور "الكومبيوتر" في البحث اللغوي

للدكتور إبراهيم أنيس



لنفسى هنا ... أى فى عرين الأسـ باستعمال هذا اللفظ الأجنبى « الكومبيوتر » إلى أن يضع له مجمعنا الموقر لفظا عربيا ! !

و « الكومبيوتر » هو فى حقيقة أمره جهاز علمى له ذاكرة خارقة فوق مقدور البشر ، وقدرة هائلة على سرعة الحساب ، وعلى ضخامة الكمّ الذى يقوم بحسابه . فمما يعطيه « الكومبيوتر » من نتائج فى زمن قصير قد يتطلب من مجموعة من الدارسين عمرا كاملا ربما يقدّر بعشرات السنين .

وإذا كان هذا هو أوضح ما يتميز به « الكومبيوتر » فهل يكفى أن يطلق عليه اسم الحاسب الآلى ، مع علمنا بالكمّ البالغ الضخامة وبسرعة البرق فى حسابه وتذكره؟! وهل يغنى عنا شيئا أن نضيف إلى هذا الاسم كلمة « الإلكترونى » لمجرد تمويه الاسم على القارئ ؟ !

وقد جرى ذكر « الكومبيوتر » فى ندوة تضمّ صفوة من أهل العلم واللغة أعضاء مجمع اللغة العربية ، وتناول الحديث ما يمكن أن يطلق عليه باللغة العربية فى ضوء ما نسمع عن إمكانياته ومجالات تطبيقه ، واقترح له اسم « الحسّابة الآلى » على أساس أن التاء هنا لزيادة المبالغة ، أى مثل علاّمة وفهّامة ! ! ولكننا آثرنا فى تلك الندوة أن ننتظر رأى مجلس المجمع ومؤتمره بهذا الصدد .

على أن فكرة استخدام « الكومبيوتر » فى البحوث اللغوية قد ظلّت تداعب خيالى منذ سمعت عن مجالات تطبيقه ، ولكنى لم أجرؤ على مصارحة أحد بذلك إلى أن حدثنى فى هذا الشأن الأستاذ الكبير الدكتور « محمد كامل حسين » متسائلا : لماذا لا نستخدم « الكومبيوتر » فى بحوث لغتنا العربية ؟ وكأنى بعد هذا القول قد صحوت من غفوة وقد غمرنى قدر كبير من الحماس ، لاسيا بعد أن تذكرت ما عانيت من جهد وإرهاق ومعى عدد من تلاميذى طلبة كلية دار العلوم فى الاستقراء والإحصاء بالطرق التقليدية ، حين قمت بالبحث منذ سنين فى محاولة للاهتداء إلى نسبة شيوع الأوزان فى الشعر العربى ، وكذلك فى إحصاء أبواب الفعل الثلاثى ، وجموع التكسير ، وغير ذلك مما نشر فى كتبى أو فى مجلة مجمع اللغة العربية ، ومما لو قد أتيح لنا حينئذ أن نطبّق فيه ما يسمى الآن « بروجرام الكومبيوتر » لوفرنا جهدا كبيرا وزمنا طويلا ، ولجئنا بنتائج أدق وأشمل .

ومع تعدُّد المجالات التى استخدم فيها « الكومبيوتر » فى بلادنا حتى الآن يبدو أنها فى الأعم الأغلب تستهدف إما تحقيق معدّلات أكبر فى كفاءة الإنتاج بالشركات والبنوك والمؤسسات التجارية والصناعية ، أو تيسير الأمور الإدارية بوفرة البيانات ودقتها فى الوزارات والهيئات ، التى مهمتها الأساسية الخدمات العامة لجمهور المواطنين .

ولا نكاد مع الأسف نرى عندنا توسعا كافيا فى تطبيق « الكومبيوتر » للحصول على النتائج الأكاديمية البحتة ، التى لا تتطلع إلاّ إلى تطور فى نظرية علمية ، أو تقدم فى البحث المبحث ذاته ، بصرف النظر عن النفع المادى العاجل ! !

ومن هذا القليل فى مجالات تطبيق « الكومبيوتر » ، أو ربما يكون أبرزها استخدامه فى البحث اللغوى .

وقد آن الأوان لنا نحن أبناء العربية أن نحاول الإسهام فى ذلك المجال . ولا أشك لحظة فى أن ما سنحققه عن هذا الطريق سيغيّر من آرائنا بصدد كثير من الظواهر فى لغتنا العربية .

وكان القدماء من علماء العربية يشيرون أحيانا فى ثنايا كتبهم إلى ما سموه بكثرة الاستعمال ، ويعلّلون به ظواهر لغوية معيّنة ، ولكنهم لم يبيّنوا لنا فى وضوح حدود ما سموه بكثرة الاستعمال ، بل كثيراً ما اختلفوا فى نسبته .

وربما يكون تفكير هؤلاء القدماء بصدد « كثرة الاستعمال » هو الذى تباور بعدهم فى ذلك البحث الذى قام به أحد أساتذة جامعة « هارفارد » ، ووقفنا عليه فى الثلاثينات أى قبل أن يظهر « الكومبيوتر » فى عالم المستحدثات [1] .

وخطرت لى وأنا أفكر فى دور « الكومبيوتر » فى البحث اللغوى تلك الملاحظات السريعة التى ترددت فى كتب بعض علماء العربية من القدماء حين يشيرون إلى ما يمكن أن يعدّ علامات لتمييز الكلمة العربية من الكلمة الأعجمية مثل قولهم :

(١) لا تجتمع الجيم والقاف فى كلمة عربية الأصل ، ولذلك تُعَدُّ كلمة « المنجنيق » من الألفاظ الأعجمية .

(٢) لا تقع الطاء مع الجيم فى كلمة عربية ، ولذلك عدّت كلمة « الطاجن » أعجمية .

(٣) لا تجتمع الصاد والجيم فى الكلمات العربية الأصل ، فمثل « صولجان » وكذلك « الجصّ » مما اقترضه العرب .

(٤) لاتقع النون وبعدها راء فى اللفظ العربى ، فمثل «نرجس » كلمة أعجمية .

1) Ziph. G, K. selected studies of the Principle of relative frequency in language Harvard 1932,

(٥) لا تكون الزاى بعد دال فى كلمة عربية ، فمثل « مهندز » كلمة أعجمية تغيرت حتى صارت الآن على الصورة المألوفة « مهندس » ..

(٦) لا تجتمع الزاى أو الذال مع السين فى كلمة عربية ، فكلمة « ساذج » معربة عن الفارسية .

ثم تساءلت بعد أن تذكرت كل ذلك وقلت : هل من سبيل إلى الوقوف على ملامح جديدة فى نسيج الكلمة العربية ؟ ! وانتهزت فرصة زيارتى للكويت بوصفى أستاذا زائرا للجامعة هناك ، وتحدثت مع القائمين بالعمل على جهاز « الكومبيوتر » وعلى رأسهم الدكتور على حلمى موسى الأستاذ بقسم الفيزياء ، وطال الحديث والتفكير ، وتكفل الدكتور حلمى بوضع مشروع أو « بروجرام كومبيوتر » كما يسمونه . لنهتدى عن طريقه إلى تلك الملامح على أساس إحصاءات فى الحروف الأصلية لموادّ لغتنا العربية . وأنجز أستاذ الفيزياء الجزء الأول من هذا المشروع الرائع ، وتمّ طبعه فى الكويت على نفقة الجامعة هناك ، كما تمّ توزيعه على جميع أعضاء المجامع اللغوية فى البلاد العربية . وعلى أقسام اللغات وأقسام الرياضة والإحصاء فى كلياتنا الجامعية .

وبقى علينا نحن اللغويين أن نفيد منه ، وأن نستنبط على أساسه ما قد يعن لنا من آراء جادة أصيلة فى بحوث لغتنا العربية .

ويكفى أن أشير هنا إلى أنى بعد أن تصفحت تلك الإحصاءات بدت لى وجهة نظر جديدة بصدد كثير من ظواهر اللغة العربية ، وأرجو أن أستكمل بحثها ونشرها فى المستقبل القريب إن شاء الله .

وبالله التوفيق .

نوفمبر سنة ١٩٧١ م

ابراهيم أنيس
المشرف على المجلة

المعجم الكبير

للدكتور إبراهيم مدكور

قد لا يكون ثمة لغة توافر لها من المعجمات مثل ما توافر من قديم للغة العربية ، ففى القرن الثانى للهجرة افتتح الخليل بن أحمد عصر المعجمات الكبرى ، ووضع «كتاب العين» المشهور ؛ وتنافس الباحثون من بعده فى وضع معجمات متلاحقة فى أحجام مختلفة ، وفى تبويب متنوع . ولا يكاد يخلو قرن من ظهور معجم عربى ، وربما ظهر فى القرن الواحد عدة معاجم . وقد وصل إلينا معظم المعجمات القديمة ، وبين أيدينا اليوم قدر منها لا بأس به ، ومنه ما ترجم إلى بعض اللغات الأوربية .

٢ ـ وللمعجمات القديمة قيمة تاريخية لا تنكر ، فهى غزيرة المادة ، وثيقة الرواية ، وفيها معين لا ينضب فى شرح الألفاظ الغريبة والعبارات الغامضة . ولكنها لا تخلو من عيوب مشتركة ، كالحشو والتكرار ، ونقص التعريفات أو غموضها ، وخلط المعلومات وبخاصة ما اتصل منها بالتاريخ والجغرافيا ، أو الكيمياء والطبيعة . وتبويبها معقد ، وفى الرجوع إليها عناء لا يقوى عليه عامة الدارسين . ولا يتمشى الأساس الذى تقوم عليه مع سنة التطور ، فهى تضيق دائرة اللغة ، ولا تقبل إلا ما أخذ به فى الجاهلية وصدر الإسلام ، وتقف بالاحتجاج عند القرن الثانى للهجرة . وقد ارتحظ هذا عليها منذ زمن ، وأريد تداركه حديثا بوضع معجمات عربية جديدة تتمشى مع المنهج السليم .

٣ ـ ولا شك فى أن فن التأليف المعجمى نما وتطور على مر الزمن ، وبلغ القمة فى

كلمة ألقيت فى مؤتمر المستشرقين الثامن والعشرين الذى عقد فى كانبرا باستراليا فى المدة من ٦ إلى ١٣ من شهر يناير ١٩٧١

القرن التاسع عشر الذى ظهرت فيه معجمات هامة فى لغات شتى ، مثل : « لا روس » فى الفرنسية ، و « أكسفورد » فى الإنجليزية ، و « أدلونج » فى الألمانية ومعجم أكاديمية بطرسبورج فى الروسية. وهى تحرص جميعا على الدقة والوضوح ، وتعنى بترتيب المواد ، وتحديد مدلول الألفاظ ، وتجارى تقدم العلم والفن . ونحا بعض المعجمات العربية الحديثة نحوها ، « كالمنجد » الذى ظهر فى أوائل هذا القرن ، وجاء محاكاة صادقة لمعجم « لاروس الصغير » .

٤ ـ ويوم أن أنشئ مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، أريد به أن يضطلع ، بين أعبائه المختلفة ، بوضع معجم تاريخى للغة العربية . وشاءت الصدف أن يكون بين أعضائه المؤسسين لغوى أوربى كبير ، هو المستشرق الألمانى فيشر الذى عنى بالمعجمات العربية منذ أخريات القرن الماضى ، ورغب فى أن يخرج معجما عربيا تاريخيا على غرار « معجم أكسفورد ولم يتردد المجمع فى أن يوفر له أسباب البحث ، وأن يتعاقد معه على نشر معجمه الذى كان يأمل أن يخرجه فى سبع سنوات ، ولكن حالت الحرب العالمية الثانية دونه وما يريد . وعبثا حاول المجمع أن يلم شعث ما تفرق من أصوله ، ولم يقف من جهود ٤٠ سنة إلا على جزازات غير مستوفاه

* * *

٥ ـ ويوم أن يئس المجمع من إخراج معجم فيشر التاريخى ، أخذ نفسه بوضع ما سماه « المعجم الكبير » ، وأخرج منه عام ١٩٥٦ نموذجا فى نحو ٥٠٠ صفحة عده تجربة دعا المتخصصين إلى قراءتها وتسجيل ملاحظاتهم عليها . ثم استمر فى عمله ، واستطاع فى منتصف العام الماضى أن يخرج الجزء الأول من معجمه الكبير الذى أقدمه اليوم . وهو مقصور على حرف الهمزة ، ويقع فى نحو ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير . وقد جاء كما ترون ثمرة جهود طويلة متصلة ، ووليدة خبرة واسعة . أعد مادته محررون دربوا فى كنف المجمع وتحت إشرافه ، وراجعها خبراء متخصصون

فى علوم اللغة ، وفى اللغات السامية والفارسية والتركية . ثم عرضت على لجنة المعجم الكبير من بين أعضاء المجمع ، وهم من كبار رجال الأدب واللغة والعلم والفلسفة ، ولم يتردد هؤلاء فى أن يرجعوا إلى زملائهم المجمعيين الآخرين فى نواحى تخصصهم المختلفة .

٦ ــ ونستطيع أن نقرر أن هذا المعجم لون جديد فى عالم المعجمات العربية ، فيه تأصيل وتحقيق ، فذُكِرَ فى صدر المادة النظائر السامية إن وجدت ، وفى هذا ما يربط العربية بأخواتها السامية ، وما يفتح بابا لدراسة مقارنة . وأُشير بعد هذه النظائر إلى معانى المادة الكلية ، متدرجة من الحسى إلى المعنوى ، ومن الحقيقى إلى المجازى .

وفيه جمع واستيعاب ، ورجوع إلى المصادر الأُولى ، وتعويل ما أمكن على النصوص الثابتة ؛ فلم يقتصر فيه على الأخذ من المعجمات القديمة ، ومنها المطبوع والمخطوط ، بل أُضيف إليها كتب الأدب والعلم والتاريخ . وللغة نطاق واسع وميادين كثيرة يجب تتبعها والأخذ عنها . واستشهد فيه ما أمكن على المواد توضيحا للمعنى ، وتأييدا للاستعمال . ورتبت الشواهد ترتيبا طبيعيا ، فبُدِئ بالقرآن ، وتلاه الحديث ، ثم جاء بعدهما النص المنثور ، ومنه المثل ، ثم ختم بالشعر ، واستشهد بالقديم والحديث على السواء ، واللغة كل متصل الأجزاء ، يرتبط حاضره بماضيه ، ومن القصور أن نقف بها عند حدود زمنية معينة .

وعنى فيه عناية خاصة بالوضوح والدقة ، فرتب ترتيبا دقيقا ، وبوب تبويبا سهلا . بُدِئ فيه بالفعل الثلاثى ، مع ضبط عين مضارعه وذكر مصادره ، ثم تلاه الثلاثى المزيد بحرف أو أكثر ، وجاء بعدهما الرباعى بأنواعه . ولم تذكر المشتقات لأنها قياسية ، وختم بالأسماء مشتقة كانت أو جامدة ، وذكرت معها جموع التكسير وحدها فى الغالب . والتزم فى كل هذا الترتيب الحرفى ، ولكن فى حدود المادة اللغوية ، تمشيا مع طبيعة العربية وأنها لغة اشتقاقية . وصيغت التعريفات فى عبارة مختصرة وأُسلوب سهل ، ووضحت النصوص المأثورة والشواهد المعقدة .

ولم يكن بد لمعجم القرن العشرين أن يتابع العلم فى سيره وتطوره ، وأن يسجل لغته الخاصة ، وهى جزءٌ من اللغة العامة فأورد من القديم اصطلاحات الفقهاء والمحدِّثين والمناطقة والعروضيين . واكتفى من المصطلحات الحديثة بما شاع استعماله فى الأوساط العلمية والحياة العامة ، أو كان وثيق الصلة بالاستعمال الأدبى واللغوى ، ووقف فى ذلك كله عندما أقره مجمع اللغة العربية ، وعرض المعجم أيضا لأعلام الأشخاص ، فعرَّف بها فى اختصار وأنزلها منزلتها فى تاريخ الفكر الإنسانى . ولأسماء بعض الأماكن ذكر متصل فى الأدب العربى ، ولا مناص من الإشارة إليها ، وإن عز تحديد مواقعها أحيانا . وأُضيف إليها أسماءُ القارات والدول والمدن الشهيرة ، وما كانت له قيمة تاريخية ، أو نسب إليه علماءُ مشهورون .

* * *

فى هذا المعجم جوانب ثلاثة أساسية : جانب منهجى هدفه الأول دقة الترتيب ووضوح التبويب ، وجانب لغوى عنى فيه بأن تصور اللغة تصويرا كاملا ، فيجد فيه طلاب القديم حاجتهم ، ويقف عشاق الحديث على ضالتهم . وفيه أخيرا جانب موسوعى يقدم ألوانا من العلوم والمعارف تحت أسماء المصطلحات والأعلام ، وروعى فى هذا الجانب الجمع بين القديم والحديث ما أمكن ، فذكرت معطيات العلم العربى ، وأُضيف إليها ما جاء به العلم الحديث . وفى هذا كله عمق ودقة ، وأصالة وتجديد ، ويسر وتيسير .

ابراهيم مدكور
الأمين العام للمجمع



أكثر من واحد ..

للدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج

هل من الخطأ فى اللغة أن يقال : كذا اسم لأكثر من واحد ؟
وهل يتعين أن يقال : كذا اسم لغير واحد ؟

يقول بعض العلماء : إنه يجرى على ألسنة كثير من الباحثين وأقلامهم - عندما يعرض لهم فى بعض المقامات علم من الأعلام ، قد سمى به عدة أشخاص أو عدة أشياء - أن يقولوا : إنه « اسم لأكثر من واحد » وهذا تعبير خطأ لا تسمح به قواعد اللغة العربية .

وذلك أن صيغة « أفعل التفضيل » تقتضى زيادة المفضل على المفضل عليه فى المعنى المشترك بينهما ، كما يقال : « زيد أعلم من عمرو ، وبكر أكرم من خالد » .

فالمثال الأول يفيد أن زيدا وعمر كلاهما عالم ، وأن ما عند زيد من العلم أعظم مما عند عمرو .

والمثال الثانى يفيد أن كلا من بكر وخالد كريم ، وأن بكرا أوسع كرما من خالد .

قالوا : وهذا المعنى الذى يقتضيه « أفعل التفضيل » لا يثبت فى العبارة التى هى موضوع البحث : « كذا اسم لأكثر من واحد » فإنه ليس فى الواحد كثرة يشترك بها مع ما فوقه من الأعداد .

فلا يصح حينئذ أن يصاغ فيه « أفعل التفضيل » من معنى الكثرة ، إنما الذى

يمكن أن يكون صحيحا هو أن يقال : « كذا اسم لغير واحد » أى لاثنين أو ثلاثة أو ما فوق ذلك .

هذا ما يقوله أولئك العلماء ، وهو قول يدل على أنهم لم يعطوا مسألة « أفعل التفضيل » حقها من الدراسة المستوعبة ، ولم يتتبعوا الاستعمالات المختلفة التى وردت بها صيغة « أفعل » فى اللغة العربية ، بل وقفوا عندما اشتهر من أحكام هذه الصيغة .

إن دلالة الصيغة على المفاضلة بين أمرين بزيادة أحدهما على الآخر فى المعنى المشترك بينهما ليست الحكم الوحيد لأفعل التفضيل ، وإنما ذلك إذا لم يقصد به شئ آخر غير تلك المفاضلة ، فإذا قصد به معنى آخر غير المفاضلة ــ وذلك كثير فيما ورد فى اللغة ــ فإن غاية ما يستفاد من الصيغة إنما هو ثبوت المعنى للطرف الذى يطلق عليه اسم المفضل ، ولا تفيد اشتراك الطرف الآخر فى هذا المعنى :

(ا) فإذا قيل : « زيد أقصر من عمرو » كان ذلك محتملا أمرين .

« الأول » المفاضلة بين زيد وعمرو فى القصر على أساس اشتراكهما فى أصل هذا المعنى مع زيادة زيد فيه على عمرو .

« الثانى » ألا يكون المقصود المفاضلة بينهما على هذا الوجه ، وإنما يكون المقصود إفادة ثبوت القصر لزيد ، على حين أن عمرا يكون طويل القامة ، وأن طول قامته بين لا شبهة فيه ، ولكن لما كان الكلام فى معرض خاص هو بيان قامة كل منهما جئ بالعبارة فى صورة المفاضلة ، أى أن المراد بها إفادة أن قامة زيد قصيرة ، على حين أن قامة عمرو طويلة بينة الطول ، وأنها لا تشاركها فى القصر .

(ب) وإذا قيل : « كل إنسان أحق بماله » فليس المعنى فيه على أن صاحب المال يشاركه غيره فى ثبوت حق له على هذا المال ، وأن حق صاحب المال أكبر وأعظم من حق غيره عليه .

ليس المعنى على ذلك ، فإنه ليس لأحد غير صاحب المال حق فيه أو عليه ، وإنما الحق كله لصاحبه .

(ج) ثم إنه لا ينكر فى اللغة ولا فى المنطق أن ينسب شئ إلى شئ آخر بالكبر أو الصغر أو المساواة ، فيقال : هذا أكبر من ذاك أو أصغر منه أو مساو له ، بل إن كل شئ يمكن أن ينسب إلى غيره على هذا الوجه ، وهو حينئذ لا بد أن يكون واحدا من هذه الثلاثة ، فهى لا تجتمع فيه جميعها . ولا اثنان منها ، كما لا يمكن أن يخلو منها كلها .

والواحد مع ما فوقه من الأعداد لا يخرج عن هذا القانون ، فهو لا بد أن يثبت له أحد هذه الأمور الثلاثة ، وينفى عنه الاثنان الآخران ، فلا يمكن أن يقال : إنه مساو لما فوقه أو أكبر منه ، بل يتعين أن يقال : إنه أقل مما فوقه وأصغر منه ، وإذا صح أن يقال : إن الواحد أقل من الاثنين وأصغر منهما فإنه يصح بالضرورة أن يقال : إن الاثنين أعظم من الواحد وأكبر منه وأكثر ، وذلك لا يوجب أن يكون هذا الواحد عظيما أو كبيرا أو فيه كثرة ، فإن وجوب مشاركة المفضل عليه للمفضل فى أصل المعنى الذى تجرى فيه المفاضلة بينهما إنما يكون فى « أفعل » الذى جاء على الوجه الذى اشتهر به كما قدمنا ؛ فأما إذا كان على غير هذا الوجه فإنه لا يوجب تلك المشاركة.

* * *

(د) هذا واستعمال « أفعل التفضيل » على هذا الوجه الذى ليس فيه مشاركة بين اثنين فى أصل معنى الصيغة لا ينبغى أن يقال إنه شاذ أو ضعيف ، فإنا نجده قد ورد فى آيات كثيرة من الكتاب العزيز كما يتبين مما يلى :

١ ــ قال الله تعالى : « أفمن يَهْدِى إلى الحق أحق أن يُتَّبَع أم منْ لا يَهِدِّى إلا أنْ يُهْدَى » .
(٣٥ يونس) .

٢ ـ وقال تعالى : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم » (٢٢ الملك) .

ففى الآية الأولى إشارة إلى القول الذى يتعين أن يكون جوابا فى هذا المقام إذا كان مما يطلب فيه جواب ، وذلك القول المتعين هو أن الأحق بأن يتبع إنما هو ذلك الذى يهدى غيره إلى الحق ، وليس هو الذى لا يهتدى إلا إذا هداه غيره .

لكن ذلك لا ينبغى أن يفهم على أساس « أفعل التفضيل » الذى يقتضى المشاركة بين أمرين فى معنى مع زيادة أحدهما على الآخر فيه ، فإن من لا يهتدى إلا إذا هداه غيره ليس له جدارة أن يكون أو حقية أن يكون متبوعا يهتدى به غيره ، فليس هناك معنى مشترك بين الطرفين يزيد فيه أحدهما على الآخر .

فصيغة « أفعل » فى قوله سبحانه « أحق أن يتبع » ليس المراد بها إلا أن من يهدى غيره إلى الحق هو الجدير وحده أن يُتبع وأن يَقتدِىَ به غيره .

وكذلك الحال فى آية الملك « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم » .

فإن القول المتعين بإزاء هذه المقابلة ـ وهو ما ترشد إليه الآية الكريمة ـ هو أنه لا شك أن الذى يمشى سويا على صراط مستقيم هو الأهدى والأرشد ، وليس هو من يمشى مكبا على وجهه ، متخبطا فى سيره ، لا يدرى أين هو ولا أين يذهب . لكن هذه الصيغة : « أهدى » لا يصح أن يفهم منها فى الآية أن كلا من السائر على الصراط المستقيم والمتخبط الهائم على وجهه قد ثبتت له الهداية ، وأن حظ الأول منها أعظم من حظ الثانى ، فإن هذا الثانى ليس له حظ من الهداية أصلا

(ﻫ) ومما وردت فيه صيغة « أفعل » لغير المفاضلة التى تقتضى اشتراك اثنين فى معنى مع زيادة أحدهما فيه على الآخر قوله تعالى :

٣ـ « أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة » . (٤٠ فصلت)

٤ ـ وقوله سبحانه : « قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون » (١٥ الفرقان)

واسم الإشارة فى قوله سبحانه : « أذلك خير » راجع إلى السعير والعذاب به كما دل على ذلك قوله تعالى : « بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا » .

٥ ـ ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم » : (٦٢ الصافات)

واسم الإشارة فى هذه الآية راجع إلى أنواع النعيم التى فصلتها الآيات قبل ذلك لعباد الله المخلصين ، والتى أشير إليها فى قوله سبحانه : « إن هذا لهو الفوز العظيم ، لمثل هذا فليعمل العاملون » .

٦ ـ وكذلك قوله عز وجل : « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم » . (١٠٩ التوبة) .

ففى هذه الآيات وردت كلمة « خير » ، وهى « أفعل تفضيل » لكنها لا تفيد المفاضلة بين الأمرين المتقابلين على أساس اشتراكهما فى أصل الخيرية مع زيادة أحدهما فيها ، فإنه لا خير مطلقا فى جانب من يلقى فى النار ، أو من يكون جزاؤه عذاب السعير ، أو من يكون طعامه من شجرة الزقوم التى تنبت فى أصل الجحيم ، أو من أسس بنيانه على حافة جرف هار انهار به فى نار جهنم .

لا خير فى شىء من ذلك ، وإنما الخير كل الخير فى الطرف الآخر

المقابل ، وهو من يأتى آمنا يوم القيامة ، ومن يكون جزاؤه جنة الخلد التى وعد الله المتقين ، والتى فيها نزله ومستقره الكريم ، وكذلك من أسس بنيانه على تقوى الله ورضوانه .

(و) ومما يتضح فيه المعنى الذى قررناه – وهو أن صيغة « أفعل » قد ترد غير مراد بها المفاضلة بين أمرين بحيث يكونان مشتركين فى أصل المعنى مع زيادة أحدهما فيه – قوله تعالى :

٧– « الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا » . (٣٤ الفرقان)

فإنه لا يمكن أن تكون صيغة « أفعل التفضيل » هنا فى كلمتى « شر وأضل » لإفادة المفاضلة التى تقتضى الاشتراك فى أصل معناهما مع زيادة أحد الطرفين فى هذا المعنى على الآخر ، فإن هذين الطرفين أحدهما الكفرة الفجار المنكرون للبعث وهم أصحاب النار ، أما الطرف الآخر فهو الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه المؤمنون الأخيار . ولا شك أن « ضلال السبيل وشر المكان » أمران مقصوران على فريق الكافرين الذين هم أصحاب الجحيم .

(ز) ومن هذا القبيل الذى يتضح فيه المراد قوله تعالى :

٨– « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا » . (٢٤ الفرقان) فإنه ليس المعنى على أن أصحاب الجنة لهم فى الآخرة مستقر ومقيل خيراً وأفضل من مستقر أصحاب النار ومقيلهم مع إثبات أصل الخيرية والحسن لمستقر هؤلاء ومقيلهم .

ليس المعنى على ذلك ، فإنه ليس فى مستقر أهل النار أو مقيلهم شئ من الخير أو الحسن ، وإنما ذلك مقصور على مستقر أهل الجنة ومقيل أهل الجنة .

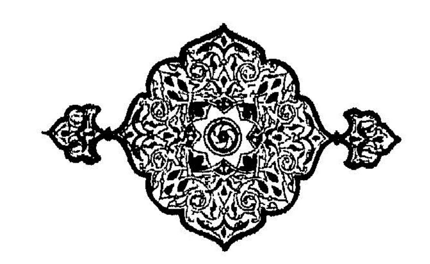
هذا ـ وإنى أرى هنا أن أنهى القول فى هذه المسألة التى قام عليها هكذا أكثر من دليل ، (ولا أحب أن أقول : التى قام عليها غير دليل) كما كان يريد المخالفون .

أرى أن أختم هذا القول بآية بينة من الكتاب العزيز ، وهى الآية الثانية عشرة من سورة النساء ، التى يقول الله تعالى فيها : « وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث » . فإن قوله سبحانه : « فإن كانوا أكثر من ذلك » معناه الذى لا يصح خلافه هو : فإن كانوا أكثر من أخ واحد أو أكثر من أخت واحدة. ولا يجرؤ أحد أن يقول إن معناه : فإن كانوا أكثر من الاثنين : الأخ والأخت معا ، وذلك أن كلمة « أو » فى الآية هى للدلالة على أحد الشيئين ، وليست للدلالة على الاثنين جميعا .

هذا نص قرآنى فيه الدلالة الكافية الشافية ، التى تقطع الشك وتسد باب الجدل ، والله ولىّ التوفيق .

عبد الرحمن تاج

عضو المجمع





للأستاذ علي الجندى

كان عمر بن أبي ربيعة – إذا رأى شابا – شاب شعره ، وصاح :

واشباباه ! واشباباه !

ويقول الأصمعيّ : أفضل أنماط الشعر : المراثى ، والبكاء على الشباب ، ولقد بكت العرب الشباب ، وما وفته حقّه !

ومن الشعراء الذين بكوا الشباب بكاء حارا ! وتوجّعوا للمشيب توجّعا عميقا ؛ الطائى الأكبر «أبو تمام»

وكان «أبو تمام» مخلصا فى بكائه وتوجّعه ؛ لأن المشيب نزل به مبكّرا قبل الأوان ! ويكفى أن نعرف أنه مات فى نحو الأربعين من عمره ، ومعنى ذلك أنه شابَ فى شرخ الشباب ؛ إذ لابدّ أن المشيب سبق وفاته بمدة طويلة .

فمن ذلك قوله :

شاب رأسي وما رأيت مشيب الرأس
إلّا من فضل شيب الفؤاد

وكذاك القلوب فى كل بُؤْس
ونعيم طلائعُ الأجساد

زارنى شخصُه بطلعة ضَيْمٍ
عَمَرت مجلسى من العُوّاد

نال رأسى من ثُغْرة الهم داءٌ
لم ينله من ثُغْرة الميلاد

ومعنى البيت الأخير : أنه لم يشب شيبا طبيعيا ، بل وجد الشيبُ من الهم فرجة نفذ منها إلى رأسه ! لأن من شأن الهمّ أن يُشيب صاحبه ؛ كما قال المتنبى :

والهم يخترم الجسيمَ نحافةً
ويُشيب ناصيةَ الصبىِّ ويُهْرِم

وفى معنى وفود الشيب المبكر ؛ يقول أبو نواس :

وإذا عَدَدْتُ سِنِىَّ كَمْ هىَ لم أجِدْ
للشيب عُذْرا فى النُّزول براسى

ويقول البهاء زهير :

وليس مشيبا ما ترون بعــارضى
فلا تمنعونى أن أهيم وأطربــا

فما هو إلا نُــور ثغر لثمته
تعلّق فى أطراف شعرى فألهبا

وأعجبنى التجنيس بينى وبينــه
فلما تبدى أشنبا[1] رحت أشيبا

وأراد أبو تمام « بثغرة الميلاد » : الوقت المناسب الذى يهجم عليه الشيب فيه ، لأنه يجد السبيلَ ممهّدا حينئذ إلى الحلول برأسه ، شأنه فى ذلك شأن كل إنسان تعلو به السن .

وزبدة قوله : أنه يعلن فى شكوى مرة : أن هذا الضيف غير المحتشم ، تسلّل إليه من ناحية الهموم والأحزان ، لا من ناحية انصرام الشباب ، وتقادم العمر ، ومن أجل ذلك حُقّ له أن يتوجع ويتفجع !

وقد أخذ عليه القاضى الجرجانى قوله : «شيب الفؤاد » فذكر : أنه مما استقبح من استعاراته ، ثم قال : وزعموا أنه لما أنشَد ذلك بحضرة أحمد بن أبى دُوَاد قال من حضر : وكيف يَشيب الفؤاد ؟

فقال أبوتمام مرتجلا :

وكذاك القلــــوبُ فى كلِّ بؤس
ونعيم طلائــــعُ الأجساد

ونحن لا نقر هذا النقد ، ولا نقيم له وزنا ، لأن القلب يصحّ أن يوصف بالشباب والشيخوخة تَجوُّزا ، على معنى التفتح للحياة ، والاستمتاع بمباهجها ومسراتهــا ، وعلى معنى اليأس منها والتجهُّم لها ، والصدّ عن نعمائها وزَهرتها ، وكلُّنا يحسّ ذلك إحساسا واضحا ، ويلمسه فى تجاربه مع الناس ، فهذا فتى حزين النفس ، حرِج الصـــدر ، كاسف البال ، لا يشعر بلذة العيش فى رَيّق العمر ، ونَضْرة الصِّبا ؛ لأن قلبه قد هرم وشاخ ، وهذا شيخ بلغ أرذل العمر ؛ وهو ضاحك الوجه والثغر ، متوهّج النفس ؛ كثير التفاؤل ، آخِذًا من متع الحياة بحظ موفور ؛ لأنه يحمل قلبا غضا فتيّا ، واسع الآمال ، ذاخرا بالعواطف الجياشة ، لا يبالى

(١) الشنب : ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الأسنان وبريق .

هذه الغضون التى رسمتها السنون على الجبين ! وبخاصّة إذا كان شاعرا ؛ لأن الشعراء لا يعترفون بشهادة الميلاد ! ولا يجاوزون سِنَّ العشرين أبدا .

وقد أخذ المتنبي قول أبي تمام ، فنقل شيب الفؤاد إلى الكبد ، فقال :

إلا يَشِبْ فلقد شابت له كبِدٌ
شيبا إذا خَضبَتْه سلْوةٌ نَصَلا[1]

وأخذه ابن زيدون فقال :

فشبت وما للشيّب وَخْطٌ بمفرقى
ولكن لشيب الهمّ فى كبدى وَخْط

فاعترفا بأن الكبد تشيب ، وأرادا بالكبد : القلب ، لأن من عادة العرب أن تستعير لفظ الكبد للقلب ، حتى لتنسب إليها الخفوق ، كقول عُرْوة بن حِزام :

كأنّ قَطاةً عُلقّت بجناحها
على كبدى من شدّة الخفقان[2]

ونخرج من هذا : على أن القلوب منها مايهرَم والجسم فى الرّيعان ، ومنها مايظل أخضر ناضرا عامرا بالأحاسيس المشبوبة ، والأمانى الباسمة الناعمة ، وصاحبه هامةُ اليوم أو الغد[3] !

وفى هذا المعنى يقول المتنبي – وقد ذكر النفس بدل القلب – :

وفى الجسم نفس لا تَشيب بشيبه
ولو أنّ مافى الوجه منه حِراب
يُغيِّر منّى الدهرُ ماشاء غيرَها
وأبلغ أقصى العمر وهْى كَعاب

وقال كاتب هذه السطور – فى معنى شباب القلب مع شيخوخة الجسم – من قصيدة يصف بها شيخا متصابيا :

ويحَ الشُّيوخ من القلو
ب الحائماتِ على الغديرْ
سَكنوا وما برِحتْ خوا
فقَ بين أحناء الصّدورْ
لم ينضُب الزيتُ المُضىء
بها ، ولا خمَد السّعير

(١) نصل الخضاب ؛ : ذهب : يريد أنه لا يكاد يسلو ؛ حتى يعود إلى حبه

(٢) يرى بعضهم : أن الشاعر يريد الكبد حقيقة للمبالغة ، لأن الكبد لا تخفق ؛ فنسبة الخفوق إليها ، أبلغ من نسبته إلى القلب .

(٣) هامة اليوم أو غد : أى يموت اليوم أو غدا .

مَنهومة بالحسن هـــا
زئـة بأحكام الدُّهور

خرقاء تَمْضِى لاتبـــا
لى بالعَـذُول ولا العَذير

وضعيفة الحَبّات تحتَ
شَغافهـــا أَسَدٌ هصور

يبْلَى الشّبابُ وتستجِدّ
صبابةً بدُمَى الخُـــدور

سلب الكبيرَ وقارَه
وقرارَه عبثُ «الصغير»(١)

فليس أبوتمام إذاً مخطئا فى قوله ، ولا متجاوزا مايسلِّم به الأَلِبّاء ، ولكن هذا الشاعر قد سبق عصره فى كثير من أخيلته ومعانيه ، فلم يفهمه بعض النقاد، ورموه بأنه خالف عمود الشعر المعروف .

وقد أَخذ عليه الآمدى أَيضا قوله : «عمرتْ مجلسى من العواد» — وكان يتعصب عليه — فقال : لاحقيقة لهذا ولا معنى ؛ لأنا ما رأينا ولا سمعنا: أَن أَحدا جاءه عُوّاد يعودونه من الشيب ! ولا أَن أحدا أمرضه الشيبُ ، ولا عزاه المعزون عن الشباب !
وهذا خَلْف من القول !

وقد كفانا الشريف المرتضى ، مئونة الرد على هذا النقد المغرض ، فقال : وهذا من الآمدى قلّة بصَر فى نقد الشعر ، وضعف بصيرة بدقيق معانيه ، التى يغوص عليها حُذّاق الشعراء ، ولم يُرِد أَبوتمام العيادة الحقيقية التى يغشى فيهـــا العواد مجالس المرضى ، وذوى الأَوجاع ، وإنما هذه استعارة وتشبيه ، وإشارة إلى الغرض خفية ، فكأَنه أراد أن شخص الشيب — لما زارنى — كثر المتوجّعون لى ، والمتأَسفون على شبابى والمتفجعون من مفارقته ، فكأَنهم فى مجلس عُوّاد لى ، لأَن من شأْن العائد ، أَن يتوجّع ويتفجّع ! فكنى بقوله المذكور ، عن كثرة من تفجّع وتوجّع لمشيبه ، وهَذا من أَبى تمام كلام فى نهاية الحسن والبلاغة ، وما المَعيب إلاّ من عابه ، وطعن عليه .

---

(١) الصغير : كناية عن القلب الصبى .

ونزيد على ماقاله المرتضى : أن الشعراء صرّحوا : بأن تبكير الشيب وذهابه برسوم الشباب الناضر ، من الخطوب الجسام ؛ كمصيبة الموت سواء بسواء .

وقد جرت العادة أن يعزّى الناس بعضهم بعضا فى ذلك !

وفى هذا يقول داود بن جهوة :

سأبكى بدمع أو دم أشتفى بـه
فهل لى عذرٌ إن بكيْت على نفسى

سلام على الدنيا ولذةِ عيشها
سلامَ غدُوٌ أو رَواحٍ إلى رمس

وأنكرت شمسَ الشّيب فى ليل لِمّتى
لعمرى لَلَيْلى كان أحسنَ من شمسى

كأن الصِّبا والشيبُ يطمِسُ نوره
عروسُ أناس مات فى ليلة العرْس

فهذا شاعر يبكى على نفسه قبل أن يموت ؛ لأنه اعتبر الشيب موتا !

ثم هو يشبِّه صباه الذى طمس نوره الشيبُ ، بالعروس ؛ تخترمه المنون فى ليلة زفافه ! فأين تجب التعزية ، إن لم تجب فى هذا الموطن ؟ !

ونجد شاعرا آخر ، هو محمود الورّاق يُعجَب من حمق الناس ، وغفلتهم فى تعزية من يفقد بعض حُطام الدنيا وعَرَضها ، ولا يعزّونه إذا بزّه المشيب حُلّة الشباب ! فيقول :

أليس عجيبا بأنّ الفتى
يُصاب ببعض الذى فى يديْه

فمن بين باكٍ له مُوجَع
وبين مُعَزٍّ مُغِذٍّ[1] إليه

ويسلُبه الشيبُ شَرْخَ الشبا
ب فليس يُعزّيه خَلْق عليه

وقد جعل ابن الرومى فقد الشباب ، نهاية البلاء ، وغاية المصائب ! فقال :

أرى المرءَ مذ يلْقَى التراب بوجهه
إلى أن يُوارَى فيه رهنَ المَعَاطب

وإن لم يُصَبْ إلّا بشرْخ شبابه
لكان قد استوفَى جميعَ المصائب

وإذا كان العزاء واجبا فى مصيبة واحدة ، فكيف به فى جميع المصائب ؟ !

(١) أغذ السير ، وفى السير : أسرع .

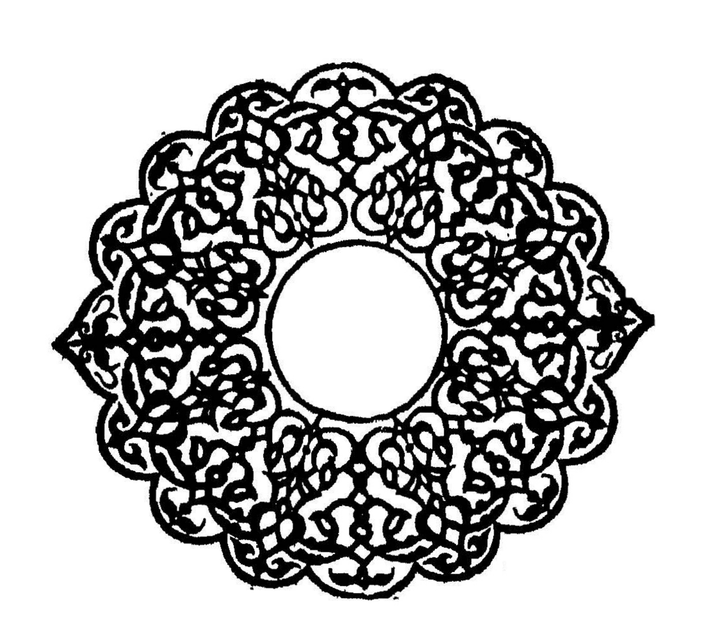
ولعل من الغريب أن نرى المتنبي يبكى على الشباب ، وهو يرفُل فى وشيه ،ويمرح فى عِنانه ، فيقول :

ولقد بكيْت على الشباب ولِمّتى
مسودةٌ ولماء وجهى رونــــقُ
حذَرًا عليه قبل يومِ فراقِـــــهِ
حتى لَكِدْت بماء جفنى أشرَق

والعبرة فيما تقدم : أنه يجب أن نتلقّى كلام النُّقاد بالاحتراس فى تناولهم الشعر ، وألاّ نلقى إليهم القِياد المطلق بلا تأمل وتمحيص ، وخاصّة حين يتعلق النقد بشاعر عالم مثقف فيلسوف كأبى تمام، عدل عن نهج عصره فى تعاطى الشعر.

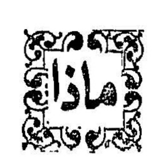
ولا ريبة أن الآمدى والقاضى الجرجانى من نقّاد الأَدب الحُذّاق وقد عرفا بالذوق السليم ،وثُقوب الفطنة ، فسَقَطُهما قليل ، وغير خطير ، ولكن الاحتراس يكون أوجب ، حين يكون الناقد من علماء النحو أو اللغة ، فقد عرف هؤلاء من قديم بالتحامل على الشعراء ؛ بحكم تزمّتهم ،ووقوفهم عند حدود الألفاظ ، وقصورهم عن متابعة الشعراء فى أخيلتهم المجنّحة الموشية .

على الجنــدى
عضو المجمع



لغتنا في عصر الانحطاط

للأستاذ أنيس المقدسي



يراد بعصر الانحطاط ،
وكيف كانت لغتنا فيه ؟

سؤال نحاول أن نجيب عليه بما يلي :

بين مؤرخي الأدب العربي من يذهبون إلى أن انقضاء العصر العباسي في بغداد كان انقضاء لعصر الازدهار في اللغة العربية وآدابها . والواقع أن الأمر لم يكن كذلك ؛ فإن العربية برغم ما أصاب أهلها من ضعف وتأخر في الحياة السياسية ظلت قرونا بعد سقوط الخلافة العباسية ساطعة الأنوار في شتى الأقطار . فقد نبغ في تلك الأثناء من أهل الأدب والعلم فيها عدد كبير – خصوصا في مصر والشام والأندلس حيث كثرت المدارس والمعاهد واتسع مجال التعليم للطلاب . ومن يراجع أسماء الأعلام الذين عرفوا في اللغة والأدب والتاريخ وسائر العلوم ما بين القرنين السابع والعاشر للهجرة (أي ما بعد سقوط العباسيين حتى قيام الأتراك العثمانيين) قد يأخذه العجب من صمود اللغة أمام الزعازع السياسية التي قضت على سلطان العرب وأقامت مكانهم أعاجم من مغول وفرس وأتراك وسواهم – وإليك بعض هؤلاء الأعلام مع سني وفاتهم بحسب التاريخ الميلادي [1] .

في اللغة – ابن مالك صاحب الألفية (١٢٧٧) ، ابن منظور صاحب لسان العرب (١٣١٢) ، ابن هشام صاحب المغني (١٣٥٩) ، الفيروز اباذي صاحب القاموس المحيط (١٤١٤)

في الأدب والشعر – التلعفري (١٢٧٦) ، البوصيري (١٢٩٥) ، صفي الدين الحلي (١٣٤٩) ابن مكانس (١٣٩١) ، ابن نُباتة (١٣٩٦) ، الوطواط (١٣١٨) ، ابن

(١) آثرنا هنا التاريخ الميلادي تسهيلا لكثيرين من القراء في العصر الحاضر

فهد (١٣٢٤)، ابن حجة الحموى (١٤٣٣)، الأبشيهى (حوالى ١٤٠٠)، لسان الدين بن الخطيب (١٣٧٤).

في التاريخ والجغرافيا – ابن العديم (١٢٦١)، ابن سعيد المغربى (١٢٧٤)، ابن خلِّكان (١٢٨٢)، القزوينى (١٢٨٣)، ابن العبرى (١٢٨٦)، ابن الطقطق (١٣١٠) أبو الفداء (١٣٣٤)، ابن شاكر الكتبى (١٣٦٢)، صلاح الدين الصفدى (١٣٦٢)، ابن خلدون (١٤٠٥) القلقشندى (١٤١٨) المقريزى (١٤٤١)، ابن حجر العسقلانى (١٤٤٨)، أبو المحاسن تغرى بردى (١٤٦٩).

ومن أصحاب الموسوعات – النويرى (١٣٣١)، الطوسى (١٣٧٣)، العمرى (١٣٤٧)، جلال الدين السيوطى (١٥٠٥).

هذا فضلا عن أعلام عُرفوا فى سائر مجالات العلم كالطب والفلك والرياضيات والطبيعيات وسواها.

فالعربية فى العصور التى تلت العصر العباسى لم تفقد حيويتها ولم تعدم رجالها بل ظلت إلى أمد طويل الأداة المثلى للأدب والعلم والتأليف. والحقيقة أن ما نسميه أو ما اصطلحنا أن نصفه بالانحطاط اللغوى لم يبرز ويشِعْ فى اللغة إلا فى ظل الحكم العثمانى؛ أى ما بين القرن السادس عشر للميلاد وأواخر القرن التاسع عشر – وخصوصا فى القرن الثامن عشر إلى منتصف التاسع عشر – ذلك بأن حكّام العهود السابقة للعهد العثمانى، وإن كانوا من الأعاجم، فإنهم لم يحاولوا تجريد العربية من امتيازاتها كلغة العلم والأدب والثقافة فى زمانهم، بل هم أنفسهم تعرّبوا؛ إذ جعلوا مراكز حكمهم فى قلب البلاد العربية واعتمدوا لغة البلاد فى معاملاتهم الرسمية وغير الرسمية. أما الأتراك العثمانيون فقد حكموا العرب من عاصمة بعيدة عن مناطقهم هى القسطنطينية على البوسفور التى عرفت إبّان حكمهم بالآستانة وتعرف اليوم باستنبول. فلم يتعربّوا بل ظلّوا متمسكين بلغتهم التركية على أنها لغة الدولة. ولم تكن العربية عندهم أكثر من لغة الدين يدرسونها للتفقه فى العلوم الإسلامية والاستعانة بها على إدارة مصالحهم فى المناطق العربية من سلطنتهم الواسعة. ولا ينكر أن بعضهم أتقنها، على أن الوسائل

فى مختلف الشئون ، ككتب التاريخ والأدب والعلم والقصص وما إليها . فهذه كانت منذ أقدم العهود يعتمد فيها على العموم الأسلوب السهل المرسل الخالى من التصنع الفنى . وظلت كذلك حتى دخلت العهد العثمانى ، إلا أنها أخذت فى هذا العهد تفقد ماكان لها سابقًا من جودة النسج ومتانة التركيب ، ومازالت حتى وصلت فى أواخره إلى دركة الركاكة والرثاثة . وها نحن للتمثيل ننقل هنا بعض نصوص من كتب تاريخية أو جغرافية وضعت فى عهود سابقة للعهد العثمانى ثم نقابلها بأمثالها من مؤلفات العهد المذكور .

من كتاب (أحسن التقاسيم) لأبى عبدالله المقدسى المتوفى سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٨ م) قوله يصف دمشق :

« ودمشق هى مصر الشام ودارة الملك أيام بنى أمية ، وثَم قصورهم وآثارهم . بنيانها خشب وطين ، وأكثر أسواقها مغطاة . وهى بلد قد خرقته الأنهار وأحدقت به الأشجار ، وكثرت به الثمار مع رخص الأسعار – لاترى أحسن من حماماتها ولا أعجب من فوّاراتها ، ولا أحزم من أهلها. وهى طيبة جدا غير أن فى هوائها يبوسة ». إلى قوله يصف جامعها : « قد رفعت قواعده بالحجارة الموجهة كبارا مؤلفة ، وجعل عليها شُرف بهيّة ، وجعلت أساطينها أعمدة سوداء ملساء على ثلاثة صفوف واسعة جدا ؛ وفى الوسط إزاء المحراب قبة كبيرة ، وأُدير على الصحن أروقة متعالية بفراخ فوقها ؛ ثم بُلّط جميعه بالرخام الأبيض ، وحيطانه إلى قامتين بالرخام المجزّع ثم إلى السقف بالفسيفساء الملونة . . . . ومن أعجب شىء فيه تأليف الرخام المجزّع كلٌّ شامة إلى أختها . ولو أن رجلا من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد كل يوم صيغة وعقدة أُخرى . »

ومن كتاب (المسالك والممالك) للاصطخرى وهو أيضا من أهل القرن الرابع الهجرى ، وصفُه لتجار فارس إذ يقول :

« وأما تجارهم فالغالب عليهم محبة المال والحرص . فأما أهل سيراف (ميناء على الخليج) والسواحل فإنهم يسيرون فى البحر حتى ربما غاب أحدهم عامّة عمره فى البحر . ولقد بلغنى أن رجلا من أهل سيراف ألف البحر حتى ذُكر أنه لم يخرج

من السفينة نحوا من أربعين سنة . وكان إذا قابل البر أخرج صاحبه لقضاء حوائجه فى كل مدينة - يتحول من سفينة إلى أخرى إذا انكسرت أو تشعّثت فاحتيج إلى إصلاحها . وقد أُعطوا من ذلك حظا جزيلا حتى إن أحدهم يبلغ ملكه أربعة آلاف ألف دينار ، فتراه فى لباسه لا يتميز من أجيره » .

وهذا نص من كتاب (مروج الذهب) للمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦هـ.قال فى وصف له لأرض سبأ فى اليمن : «ذكر أصحاب التاريخ القديم أن أرض سبأ من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها وأكثرها جنانا وغيطانا ، وأفسحها مروجا ، على بنيان حسنٍ مقيم وشجر مصفوف ، ومساكب للماء متكاثفة وأنهار متفرقة . وكان أكثر من مسيرة شهر للراكب المجد على هذه الحال . فكان أهلها فى أطيب عيش وأرفهه ، فى نهاية الخصب وطيب الهواء وصفاء الفضاء ، وتدفق المياه ، وقوة الشوكة واجتماع الكلمة ، وكانت بلادهم فى الأرض مثلا . فمكثوا على ذلك ماشاء الله من الأعصار ، لا يعاندهم ملك إلا قصموه ، ولا يوافيهم جبّار إلا كسروه ، فذلّت لهم البلاد وأذعن لطاعتهم العباد » .

ومن كتاب (نزهة المشتاق) للشريف الإدريسى المتوفى سنة (٥٤٨هـ) ننقل‌ها ا النص من وصفه لمدينة المرية بالأندلس - قال : « وكانت المرية قبل الآن تحوى من صنوف آلات النحاس والحديد إلى سائر الصناعات مالا يُحدّ ولا يكيّف. وكان بها من فواكه واديها الشىء الكثير الرخيص. . . وكانت المرية إليها تقصد مراكب البحر من الإسكندرية والشام كله . ولم يكن بالأندلس أيسر من أهلها مالا ، ولا أتجر منهم فى الصناعات وأصناف التجارات تصريفا وادخارا . والمدينة فى ذاتها كبيرة كثيرة التجارات ، والمسافرون إليها كثيرون » ، إلى قوله : «وموضع المرية من كل جهة استدارت به صخور مكدسة وأحجار صلدة مضرّسة لا تراب بها ، كأنها غربلت أرضها من التراب »

وإذا تدرجنا فى التاريخ إلى القرن السابع الهجرى يطالعنا كتاب (الكامل) لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ ﻫ فنقرأ فيه مثلا وصفه لزلزال فى بلاد الشام إذ يقول : «فى هذه السنة (أى ٥٦٥ ﻫ) كانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة لم ير الناس مثلها ، وعمّت أكثر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها. وأشدُّها كان بالشام ، فخرَّبت كثيراً من دمشق وبعلبك وحمص وحماة وشيزر وحلب وغيرها . فتهدمت أسوارها وقلاعها وسقطت الدور على أهلها ، وهلك منهم مايخرج عن الحد» ــ إلى قوله ذاكرا ماكان لحاكمها الأمير نور الدين من الاهتمام بتفقدها :« وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج . ثم أتى حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ماليس بغيرها من البلاد ، فإنها كانت قد أتت عليها.... فأقام بظاهرها وباشر عمارتها بنفسه . فلم يزل كذلك حتى أحكم أسوار البلاد وجوامعها .»

ونصٌّ آخر ننقله من أواخر هذا القرن . وهو من وصفٍ فى (رحلة ابن جُبير) لإحدى الأميرات الحاجات حين وصولها إلى المسجد النبوى فى المدينة . قال :

«وصلت راكبة فى قبتّها وحولها قباب كرائمها وخَدَمها ، والقرّاءُ أمامها ، والفتيان الصقالب بأيديهم مقامع الحديد يطوفون حولها ويدفعون الناس أمامها إلى أن وصلت إلى باب المسجد المكرّم. فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها ومشت إلى أن سلَّمت ع النبى (ص) ، والخَوَل أمامها ، والخدّام يرجّعون أصواتهم بالدعاء إشادةً بذكرها . ثم وصلت إلى الروضة الصغيرة التى بين القبر الكريم والمنبر ، فصلَّت فيها تحت الملحفة ، والناس يتزاحمون عليها والمقامع تدفعهم عنها» .

هذه نماذج من لغة التأليف فى كتب التاريخ والجغرافيا وما إليها خلال العهدين العباسى والمغولى ، وهى على العموم من الأسلوب المرسل السهل المحافظ على أصالة التركيب وصحة اللغة مع تفاوت فى درجات الجودة ، فى سبك الكلام وبلاغة الإنشاء ، بالنسبة لاختلاف درجات المؤلفين.

والذى يبدو ، أو يمكن استنتاجه ، أن لغة التأليف لم يطرأ عليها تغير يذكر قبل العهد العثمانى (أى قبل القرن السادس عشر للميلاد) . ففى أوائله يطالعنا ابن إياس بتاريخه (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) وهو كتاب ذو أهمية وفائدة عظيمة من الوجهة التاريخية ، ولكنه من الوجهة اللغوية ركيك العبارة ، شأن بعض المؤلفات الأخرى فى ذلك القرن ، برغم أنه قرنٌ أنشأ عددا غير قليل من أعلام المؤلفين واللغويين : وإليك مثالا من أسلوب ابن إياس — قال : « وفى صفر رسم السلطان بنفى زين الدين الاستادار إلى القدس ويقيم به . فلما خرج إلى سبيل ابن قايماز بعث السلطان إليه من فتشه فلم يوجد معه غير ثلاثمائة دينار وبعض فضة . وكان قد وشى به عند السلطان بأن معه مال . ثم رسم بإعادته إلى القاهرة وطلع إلى القلعة فأدخلوه البحرة ، وأحضر إليه السلطان فى يومه بالمعاصير ، وعصره فلم يقرّ بشىء من المال ، فأجاب بأن يبيع أوقافه ويرضى السلطان . فتكلم ناظر الخاص يوسف بأمره وأحضر بين يدى السلطان . وقيل إن السلطان لم يعصره فى هذه المرة بل ضربه بالدهيشة . . . . فلما حضر بين يديه تكلم له تمراز الدوادار الثانى ، فأخلع عليه السلطان وأعاده للاستادارية » . وفى نص آخر يقول : « وفى جمادى الأولى رسم السلطان للعسكر بأن فى يوم الجامكية يصعدوا إلى القلعة بالشاش والقماش لقبض الجامكية (مايترتب لهم من مال). وأراد أن يمشى على النظام القديم . فدارت الطواشية على المماليك السلطانية وأعلموهم بذلك ، فما وافق العسكر على ذلك وبطّل تلك الإشاعة عن قريب » . وأكثر لغته على هذا النسق .

ولعلنا لا نبعد عن الصواب إذا استدللنا على ذلك من مؤلفات أديب من أبرز أدباء ذلك القرن هو عبد الغنى النابلسى . ففى كتابه (الرحلة القدسية) نلمس تكلّفا مع هلهلة فى العبارة لم نعهدها فى كتب السابقين من كتاب العصرين العباسى والمغولى ، كما يظهر لك من النص التالى ، إذ يصف خروجه من بيت المقدس . قال :

«عزمنا على الخروج من هاتيك البلاد والتوجه إلى الأهل والاولاد ، فحضر

لوداعنا جملة من أصحابنا، فسرنا على بركة الله تعالى. وخرجنا من باب العمود، وخرج معنا إلى مقام الشيخ جرّاح سادة من أهل الكرم والجود، وفات معنا صاعدا هاتيك العقبة الكدود، بعض الأصحاب إلى أن وصلنا إلى خان البيره، فنزلنا هناك على مياه كثيرة، ورياض نضيرة. ثم سرنا إلى قرية سنجل، وبتنا وكانت ليلة عطِره، لكنها من اللصوص خطِرة. حتى انتفض الصباح عن صبغة الليل، وشمّر الدجى لمسيره الذيل».

ومنها يصف زيارته لقبر النبي موسى بعد توديعه من كان يشيّعه من الرفاق فيقول: «فسرنا بعد طلوع الشمس بساعتين، حين انتهاء وداعنا وحصول أول البين. ولم نزل فى الطريق، حتى وصلنا إلى حمى ذلك الفريق، بعد قطعنا كل فج عميق. وكان دخل وقت الظهر وفات، وكادت أن تدرك المشاة الوفاة، من شدة الذعر، وكثرة الوعر. فأشرفنا من ذلك الشاهق العالى، ووجدنا ذلك النور المتلالى. وأقبلنا على ذلك الكثيب الأحمر، وقد بنى حوله بالجص والحجر الأغبر. ولم نزل نازلين، وفى السير مسرعين، إلى أن وصلنا ذلك الحرم الأمين. فدخلنا من الباب، مع الجماعة والأصحاب. وبدأنا بصلاة الظهر مع الجماعة، وبادرنا بأداء الفرض والطاعة، ثم قمنا إلى جهة المزار العظيم، والقبر الذى أشرقت عليه أنوار الكليم»

فالمتأمل فى إنشاء هذا المؤلف الذى كان من أكبر أُدَباء القرنين السابع عشر والثامن عشر لا يسعه إلا أن يرى فرقا بين لغته ولغة المؤلفين ذوى الأصالة السابقين. على أن النابلسى فى تأليف كتبه لم ينحرف كثيرا عن الأصول ولم ينحدر إلى الدركة التى انحدر إليها غيره من مؤلفى العهد العثمانى، وبخاصة بعض مؤرخى النصف الأول من القرن التاسع عشر، كما سنرى بعد.

ومن هذا القبيل رحلة مصطفى البكرى الصديقى المتوفى فى أواسط القرن الثامن عشر دوّنها ولا تزال مخطوطة فى خزانة الكتب الخالدية بالقدس بعنوان (الحلة الذهبية فى الرحلة الحلبية). وقد لخصها المرحوم أحمد سامح الخالدى فى مجلة الرسالة (مصر) مج ١٦ – ٩٧٦

وهذا مثال منها فى وصف مدينة حمص .
قال : « ولم يعشم لنا نصيب ، بدخول مدينة حمص العجيب ، تكوينا ومزدرعا وأمواها ، لأن الخراب حتى فى ظهوره تباهى . وكان أكثر خرابها من قبيلة (الموالى) ، الذين من والاهم لم يوال المُوالى . على أن فيها من المزارات والسادات الكثير ، ويغلب على أهلها البلاهة والتغفل مع الجدّ والتشمير . ولقد دخلتُ جامعها الكبير ، فرأيته آية فى التعمير ، فصليت فيه الظهر والعصر بنفر غير كبير » .

وما بين هذا القرن (الثامن عشر) ومنتصف القرن التاسع عشر تزداد لغة التأليف تدهورا وانحطاطا . ويظهر لنا ذلك فى مؤلفات الأمير حيدر الشهابى والشيخ عبدالرحمن الجبرتى . حتى إن الشيخ رفاعة الطهطاوى المتوفى ١٨٧٣ والذى يعدّ من كبار رواد نهضتنا كان مع سعة معارفه يسفّ أحيانا فيخلط فى كتابته الكلام الصحيح الجيد بالعبارات الساذجة العامية ، على أنه كان أفضل إنشاء وأمتن عبارة من الجبرتى وحيدر الشهابى وطبقتهما من المؤلفين – وهاك نماذج من لغة التأليف فى عصرهما .

فالجبرتى المتوفى ١٨٢٥ وهو من علماء عصره . قال فيه زيدان : « أصله من جبرت وهى الزيلع فى الحبشة . وكان والده من كبار العلماء الفلكيين . أما ابنه المؤرخ عبدالرحمن فقد درس فى الأزهر وتمكن من علوم عصره ». ولما جاء الفرنساويون مصر تعين كاتبا فى الديوان . وانقطع بعدئذ إلى التأليف وقد بلغ السبعين من العمر . وعاصر أهم الحوادث التى جرت فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر . وأهم مؤلفاته (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) . وعنه ننقل النص التالى للتمثيل على أسلوبه ؛ بل على أسلوب عصره العام – قال فى ج ١ ص ٢٥٨ من طبعة مصر ١٣٢٢ هـ :

«ولما حضر حمزة باشا – سنة تسع وسبعين ومائة وألف – المذكور واليا على مصر ، وطلع إلى القلعة ، فعرضوا له أمر صالح بيك ، وأنه قاطع الطريق ومانع الغلال والميرى ، وأخذوا فرمانا بالتجريد

(١) درجع كتابة آدا ؛ اللغة العربية ج ٤ ص ٢٨٣

عليه . وتقلد حسين بك كشكش حاكم جرجا أمر التجريدة ، وشرعوا فى التشهيل والخروج . فسافر حسين بيك وصحبته محمد بيك أبو الذهب وحسن بيك الازباوى ، فالتطموا مع صالح بيك لطمة صغيرة ، ثم توجه (أى صالح بيك) وعدّى إلى شرق أولاد يحى . وكان حسن بيك شبكة مملوك حسين بيك قد نفاه على بيك أمير الحج إلى قبلى (أى إلى الجنوب) . فلما توجه حسين بيك بالتجريدة ، وعدّى صالح بيك شرق أولاد يحيى انفصل عنه (عن صالح) وحضر إلى سيده حسين بيك وانضم إليه كما كان » . ثم يقول :

« ورجع محمد بيك أبو الذهب وحسن بيك إلى مصر . وتخلف حسين بيك يريد الذهاب إلى منصـــبه بجرجا وأقام فى المنية . فأرسل إليه على بيك (أمير الحج المذكور) فرمانا بنفيـــه إلى جهة عينها له ، فلم يمتثل لذلك ، وركب فى مماليكه وأتبـــاعه وأمرائه وحضر إلى مصر ليلا فوجد الباب الموصل لجهة قناطر السباع مغلوقا فلم يفتحوه . فكسره وذهب إلى بيته . وبقى الأمر بينهم على المسالمة أياما » الخ الخ . .

وكتاب الجبرتى معظمه على هذا النسق الركيك الإنشاء والذى يكثر فيه الكلام العامى والتراكيب العامية ، مع أن المؤلف من أهل العلم ومن تلامذة الأزهر وكتابه من المراجع التاريخية التى يعتمد عليها فى الاطلاع على أحوال مصر السياسية فى ذلك العهد .

أما الامير حيدر الشهابى فمن لبنان أو قل من بلاد الشام توفى ١٨٣٥م وتاريخه معروف ولغته أضعف من لغة الجبرتى وأدنى إلى العامية . وهذا نموذج منه :

« ثم بعد ذلك حضر الجزار من الشام لعكا وترك متسلما بالشام محمد آغا أمينه[1] ، الرجل الظالم ، حتى إنكان الجزار نسى أحدا من أهل الشام وما ظلمه ، يفكر فيه متسلمه . ثم بعد وصوله إلى عكا بعشرة أيام خرج باكرا إلى باب السرايا قبل طلوع الشمس وأمر بتكسير أبواب المدينة ، وجعل يرسل غلمانه يقبضوا على من يأمرهم

(١) ص ١١٢ من النسخة التى صدرت فى بيروت سنة ١٩٠٥ للاب شبلى والأب خليفة .

عنهم من العمال والكتّاب ، وأهالى عكا ، ويحضرهم إليه . وبعد قليل استاقوا لبين يديه أكثر من مائتين نفر ، فأرسلهم جميعا إلى السجن ، ثم قبض على النواب أيضا وحبسهم . وكان كلما رأى إنسانا يدعوه إليه وينظر فى وجهه ويكشف رأسه وينظر به ، فالذى يقول إن به نيشان يرسله إلى الحبس ، والذى ما يجد به نيشان يطلقه . وبعده أحضر الفعالة وعمل بهم كذا ، وقبض على جملة منهم ومن النجارين وأرباب الصنايع الأُخر حتى أمتلات المحبوس من الناس .

وفى ثانى الأيام دعى عسكر المغاربة وأمرهم أن يخرجوا جميع المحبوسين إلى خارج البلد ويقتلوهم ، ففعلوا ما أمرهم به حتى صار يوم مهول لا يسمع فيه غير أصوات عويل وبكاء وندب من الأمهات والعيال والأولاد والبنات والإخوة الذين ترملوا وتيتموا ، ثم من المقتولين ، ولا يرى فيه غير جثث القتلى كالغنم مطروحين خارج البلد صايرين طعاما لوحوش الأرض . ثم عند المساء أمر المنادى فى شوارع المدينة فى عكا : أن كل من يخرج يدفن ميته على الصمت ، وأن الامرأة التى تبدى عويلا تقتل فضلا عن الرجال .

ثم بعد ذلك أرسل جنودا وقبضوا على أهل البر من الفلاحين والمشايخ وأصحاب المقاطعات ، وهؤلاء قتل البعض منهم ، والبعض كان يقطع آذانهم وأنفهم ويطلقهم »

فمما ورد فى هذين الكتابين وفى سواهما من كتب هذا العهد لكتّاب كانوا يعدّون من كبار المؤرخين والأدباء نستطيع أن نرى إلى أية دركة وصلت لغة التأليف قبيل الحركة التى قام بها روّاد النهضة الأدبية الحديثة .

هذا من حيث الأسلوب العام فى تأليف الكتب من تاريخية وسواها مما يراد بها سرد المعلومات لا الأناقة الفنية . فإذا تحولنا إلى الترسّل الفنى — أى كتابة الرسائل والخطب الأدبية — وجدنا الأمر نفسه ، بل ماهو أشد وأدهى . ولكى نستجلى الفرق بين الترسل الفنى فى عصر الانحطاط وما سبقه من العصور الكتابية ، نستعرض الآن بلمحة خاطفة الأطوار التى مر فيها عبر تاريخنا الأدبى وهى على العموم كما يلى :

الطور الأول ـ ويشمل صدر الإسلام إلى أواخر العهد الأموى . وينتظم مانقله لنا الرواة من رسائل وخطب . وهي على العموم تتّسم بطابع خاص من الجزالة والإيجاز المُحكم الخالى من التصنع . فيجرى الكلام فيها جريانا طبيعيا دون حشو أو تكلّف أو تطويل .

الطور الثانى ـ ويشمل القرن العباسى حتى القرن الرابع الهجرى . وفيه يتحول الترسل عن الإيجاز إلى التوسع والتبسط. فتطول الرسائل ، ويأخذ الكتّاب بإنشاء الفصول فى الأغراض . وأظهر مزاياه الإنشائية توازن العبارات وحسن النسيج لديباجة الكلام ، ويمثله عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ والتوحيدى وطبقتهم .

الطور الثالث ـ يبتدىء من القرن الرابع الهجرى ويمتد إلى القرن العاشر فيشمل معظم العصر العباسى ثم العصر المغولى حتى صدر العصر العثمانى ، وهو طور التأنق البديعى ويسوده التفنن فى استعمال السجع وتكلف المحسنات اللفظية والمعنوية . ومن مشاهيره (وهم كثر) ابن العميد والصابي والقاضى الفاضل وابن الأثير والعماد الأصبهانى وابن زيدون ولسان الدين بن الخطيب وأمثالهم ، فضلا عن أصحاب المقامات، ومن جرى مجراهم

الطور الرابع ـ ويمتد من نهاية الطور الثالث حتى ابتداء النهضة الحديثة فى القرن السابق لقرننا الحالى : وهو الموسوم بطور الانحطاط . وللانحطاط الترسلى فيه مظهران : مظهر الزخرفة البديعية المستهجنة ومظهر الإسفاف المبتذل . وهاك أمثلة على كل من هذين المظهرين :

فمن تكلّف الزخرفة المستهجنة ، ديباجةُ مكتوبٍ إلى أحد الأكابر ننقلها من كتاب بعنوان (مجموع إرشادات فى لطائف المكاتبات وتحائف المراسلات)[1] :

«إن أرضا تشرفت بمواطئ تلك الأقدام ، وتمسكت بأذيال ذلك الهمام ، لجديرة أن تقبّل بسواد الأحداق ، دون بياض الأوراق وتلثم بالأفواه والمحاجر ،دون ثغور السطور والمحابر ، غبّ إهداء لطايف تحيات نشرها فائح طيّب الشميم ، وشرايف دعوات ذكرها صالح مقرونة الإجابة من رب رحيم ، إلى جناب الولى الكريم ،

---

(١) مخطوطة فى مكتبة عيسى اسكندر المعلوف وكان قد تكرم رحمه الله وسمح لنا بالاطلاع عليها والاستفادة منها .

من اتخذ إفاضة المعروف وإغاثة الملهوف مذهبا ، واختص بعموم النفع فى الأرض مشرقا ومغربا ، المشار إليه بالمعالى ، ولا زال كرمه مخيّم آمال الراغبين ، ومحط رحال الطالبين ، معروض العبد الذليل ، لحضرة المولى الجليل ، هو أنه . . . الخ الخ .

وعلى غرار هذه المجموعة (من القرن الثامن عشر الميلادى) مجموعة «رسائل سعيدية» نشرتها دار الطباعة المغربية فى تطوان[1] . ومنها هذه القطعة من رسالة لأبى فارس القشتالى وزير السلطان المغربى أبى العباس أحمد المنصور بعث بها إلى قائد الأساطيل البحرية . قال فيها بعد مقدمة طويلة كثيرة الزخرفة : «هذا ودرر ودّكم كانت تقدمها إلينا على البعد أمواج البحار وعرف ولائكم ما زالت تهديه للقلوب على شحط الدار نسمات الأسحار ، وعقائد إخلاصكم بلسان الاشتهار هنا وهناك فى القديم تتلى ، وعقائل مصافاتكم على منصات الوفاء تجلى» ، وهكذا إلى آخر الرسالة .

وهذه قطعة أخرى من إحدى رسائل ذلك العهد تمثل ما وصل إليه من زخرفةٍ مستهجنة أساليبُ الترسل المتصنع فى ذلك العهد[2] . (وهى مرسلة من أحدهم إلى رجل كبير) :

«يقبّل الأرض المقبّلة بشفاه المقل لا بشفاه الثغور ، الضاربة سرادق المجد فوق هام النسرين وهالات البدور ، المتخذة الجوزاء نطاقا ، والثريا شنفا وأقراطا والنجوم قلائد وأعلاقا» . . . إلى قوله : «ووصف أشواق زنادها له بين القلوب رى ووري ، وعضبها الماضى الشبّا له فى أديم القلب شقّ وفرى ، وشكوى فراق تمنته الأعداء فجاء على وفق الاقتراح ، وعدم المحب معه صبرا من حيث راح . قد حل عرى التجلد والاقتدار ، ودار بكؤوس منونه فأزهق الأرواح من وقت دار . . . إن المملوك منذ استولى عليه بعد مولانا وفراقه وذاق صاب هجره وبعده المرير مذاقه ، ما خيطت جفونه على سنة مع وجود إبر أهدابه ، ولا ألف جنبه المضطجع منذ فارقه ظبى الكناس وانحصر مع ليث الفراق فى غابه . . قد نبذ الإخوان والأخدان ظهريّا ، وهز إليه نخلة ودادهم فتساقطت عليه حشفا وكان يجد بقرب مولانا رطبا جنيّا» . وهى

---

(١) تحقيق الأستاذ عبد الله كنون .

(٢) راجعها وراجع أمثالها فى كتابنا (تطور الأساليب النثرية) ص ٣٤٥ – ٣٥٨

رسالة طويلة وكلها على هذا النسق المزخرف الذى أولع به مترسلو عهد الانحطاط تقليدا لمن اشتهر فى العصور السابقة بالمقدرة على صنع الكلام ،وتحليته بأنواع السجع والبديع فأساءوا إلى اللغة من حيث أرادوا الإحسان.

فإذا قابلت بين هذا الأسلوب الغث الممل الذى كان يسود الترسل الأدبى إبّان القرنين السابقين للنهضة ، وما كان عليه الترسل أيام عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ وأمثالهم منذ أواخر العصر الأموى حتى أواسط وأواخر العصر العباسى تبين لك إلى أية دركة بلغ الانحطاط فى إنشاء المترسلين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وبعض القرن التاسع عشر من العهد العثمانى .

وأحط من الترسل الأدبى فى هذا العهد الترسل الديوانى ؛ فالمراسلات الديوانية جمعت إلى غثاثة الزخرفة البديعية الإسفاف والابتذال العامى حتى على أقلام الخاصة من المراسلين . ومن أراد الاطلاع على ذلك بتفصيل فليراجع المؤلفات التالية حيث يجد المئات من الشواهد :

تاريخ الأمير حيدر الشهابى .

الأصول التاريخية لأسعد رستم وقد جمع فيه المؤلف عددا كبيرا من مراسلات الحكام.

كتاب الأنيس المفيد نشر دى ساسى .

محررات سياسية لفيليب وفريد الخازن

مخطوطة مجموع إرشادات فى لطايف المكاتبات وتحائف المراسلات (فى مكتبة عيسى المعلوف)

تطور الأساليب النثرية لأنيس المقدسى . وسواها .

فلما حدث الانبعاث الأدبى على أيدى رواد النهضة الحديثة أخذت اللغة تخلع عنها أطمار عهد الانحطاط ،ثم خطت إلى الأمام فتخلصت تدريجيا من التكلف البديعى الغث والإسفاف المبتذل . ولم تكد تبزغ شمس القرن العشرين حتى كانت قد جرت شوطا واسعا فى هذا السبيل .

وها نحن اليوم فى إبّان هذا القرن وقد استطاعت اللغة أن تعيد مجدها الغابر فى اختيار الألفاظ الحية الناصعة والتراكيب الحرة البليغة ، لا فرق فى ذلك بين الترسل الفنى ولغة التآليف العلمية على أنواعها . وقد كان لتقدم الصحافة شأن فى هذا التجدد كما كان لرقى المعاهد العلمية وتقدم الحياة الحضارية فى مختلف الأقطار العربية .

انيس المقدسى
عضو المجمع من لبنان

فى تاريخ الطب عند العرب

للدكتور عبد الحليم منتصر [١]



الحق أن نقول إن المصريين القدماء ، كانوا مركز الإشعاع الحضارى للعالم كله ، هم واضعو أسس كثير من العلوم ، ومنها الطب والكيمياء . ويعتبر « امحوتب » أول طبيب ورد ذكره فى التاريخ ، كان وزيرا للملك زوسر من ملوك الأسرة الثالثة منذ نحو خمسة آلاف سنة ، وقد اشتهر امحوتب بمهارته فى الطب والفلك والحكمة والفلسفة ، حتى خلد عصر مليكه «زوسر» بتشييده هرم سقارة ، وحتى رفعه المصريون إلى مصاف الآلهة ورسموه إلها للطب . ويروى «هيرودتس» أن الطب يمارس فى مصر على طريقة الاختصاص ، فالطبيب يعالج مرضا واحدا ، لا جملة أمراض ، والبلاد تعج بالأطباء ، فبعضهم لأمراض العيون ، وبعضهم لأمراض الرأس ، وبعضهم للأسنان . . . وهكذا . ويذكر أن قيروش ملك الفرس أرسل مرة إلى مصر فى طلب مختص بالعيون ليستخدمه فى بلاطه .

وتحتوى بردية « ابيرس » ويرجع تاريخها إلى ١٥٥٠ ق . م . على كثير من الوصفات الطبية ، مع ذكر مركبات مفرداتها ، وفيها ذكر لأسماء بعض الأمراض مثل الرمد الحبيبى ، وأمراض المفاصل والديدان وغيرها . كما ورد فيها ذكر للمرض المعروف الآن باسم البلهارسيا

(١) اعتمدنا فى هذه الدراسة على مصدرين رئيسيين هما : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ومقدمة فى تاريخ الطب العربى للدكتور التيجانى الماحى ، بالاضافة إلى مصادر أخرى وردت فى المتن .

أما بردية « ادوين سميث » ويرجع تاريخها إلى ١٦٠٠ ق . م . ، فأغلب محتوياتها جراحية ، وفيها وصف شامل للجروح ، وطرق علاجها والكسور البسيطة والمركبة واستعمال الجبائر والختان وغيرها من جراحات بسيطة ، وفيها يبتدئ الطبيب وصف الأعراض والعلامات ثم ينتقل إلى تشخيص الإصابة ، ويختتم بالعلاج . وكذلك تحوى برديات « كاهون » وشستر بيتى « وبرلين » ولندن » وبردية أمراض النساء ،وصف كثير من الأمراض وطرق العلاج ، وتحديد تركيب وكمية الجرعة من الدواء ، وطريقة تناوله ، وكان القدماء يعتمدون كذلك على الرقى والعزائم والطلاسم السحرية . كما دلت دراسة هذه الوثائق كذلك على أن المصريين القدماء عرفوا استعمال المقيئات والأشربة والحقن الشرجية والغرغرات والمراهم ويستنشقون الأدوية والأبخرة وعرفوا كذلك الأقمعة واللبخ والمزقات والأدوية المدرة للبول والمعرقة ، ومارسوا الفصد ، واستعملوا الأفيون والأدوية المسكنة والمفرحة ، وخواص الشوكران (سم سقراط) وأملاح النحاس وزيت الخروع والصبر والكزبرة والنعناع والمر والمصطكى والزعفران وحب الزلم والبيروح وغيرها . كما عرفوا الرمد الحبيبي والألتهابات الرمدية الأخرى والشعرة والظفرة والمياه الزرقاء وكان لهم اعتقاد فى الحسد ويتخذون لها الطلاسم والتمائم . وعرفوا استعمال الجبائر واستخدموا الحجامة . وكان المصريون القدماء أول من عرف الخمائر واستعملوها فى صناعة الخبز . وذكر هيرودتس أن قدماء المصريين كانوا يتعاطون الأدوية المسهلة مرة فى الشهر ، ويتناولونها ثلاثة أيام متتالية وبالجملة فقد وضع المصريون القدماء أساس الطب ، واقتبسه منهم اليونان والأشوريون والبابليون وغيرهم .

أما فى بلاد اليونان ، فيعتبر «ابقراط» المعلم الإنسانى الأول لمهنة الطب ولد عام ٤٦٠ ق . م . من أسرة تنتمى لطائفة اسقلبياد . وهو أول من رتب الطب وبوبه ، وبناه على أسس علمية صحيحة ، وقد رفع من آداب المهنة ووضع تقاليدها الحسنة ، وهو أول من بنى الطب على أساس التجربة العلمية الصحيحة وطهره من الخرافات والأساطير ، وقد خلف

ابقراط سبعة وثمانين كتابا ورسالة فى شئون الطب ، وقد نقل العرب عددا من كتبه ، منها «الفصول» و «عهد ابقراط» و «الكسور» و «تقدمة المعارف» والأمراض الحادة والاخلاط والأمراض الوافدة والماء والهواء وطبيعة الإنسان . وكان يقول لا تشرب الدواء إلا وأنت تحتاج اليه . وأن الجسد يعالج على خمسة اضرب ، ما فى الرأس بالغرغرة وما فى المعدة بالقيء ، وما فى البدن باسهال البطن ،وما فى الجسد بالعرق وما فى العمق وداخل العروق بارسال الدم.

وفى جامعة الإسكندرية القديمة نبغ عدد من أساتذتها فى علوم الطب وخاصة التشريح ، لأنهم وجدوا فى كنف البطالمة ما يمنع العدوان الذى يناله من يقدم على تشريح الموتى فى تلك العصور ، واستطاع علماء التشريح فى الأسكندرية أن يسبقوا غيرهم فى وصف صمامات القلب والأثنى عشر وبعض أجزاء الدماغ الهامة . كما عرفوا الأعصاب بنوعيها الحسى والمحرك ، وميزوا بينها وبين الأوتار العضلية ، ومن أشهر أطبائهم اوريباسوس وهيروفليس واراسيترساتوس ، ولكن أشهرهم على الإطلاق كان جالينوس ؛ الذى يحتل المكان الثانى بعد ابقراط ؛ وكان أحب الأطباء إلى العرب ، وقد ترجموا من كتابه بالإضافة إلى الستة عشر كتابا المشهورة ، نحو ثمانية وخمسين كتابا ، وأشهر تراجمه حنين بن اسحق ،وعيسى بن يحيى ،أما ديسقوريدوس فهو أبو الصيدلة ، وكتب ديسقوريدس موسوعة نباتية ، نقلت إلى العربية تحت اسم كتاب الحشائش ، ومنهم بولس الأيجنطى (٦٢٥ ـ ٦٩٠ م) وأعماله الجراحية مشهورة ،وقد وصف عملية ثقب الجمجمة واستخراج حصاة المثانة بالشق ، كما قام باستئصال اللوزتين ،وبزل الاستسقاء ،وبتر الثدى ـ يقول عنه القفطى كان مقامه بالأسكندرية وكان خبيرا بعلل النساء كثير المعاناة لهن ،والقوابل يلقينه ويسألنه عن أمور النساء ، ولذلك سمى بالقوابلى ، ومن تصنيفه كتاب الكناش فى الطب وكتاب علل النساء .

أما الطب الفارسى فقد بدا فى عصر جمشيد ، فهو الذى أظهر علوم الصناعة الطبية وتعرف خواص الأدوية فشاعت هذه الصناعة بين الناس فى ذلك الزمان . وفى عهد أسرة الكيانبين استقدم دارا

عددا من الأطباء المصريين لبلاطه الخاص وكان عظيم الثقة بهم فنشروا وصفاتهم بين الفرس وفى عهد الأسرة الساسانية جمعت نصوص الزندافستا . وكان الطب عند الفرس خليطا من التقويم والرقى وبعض المبادئ الطبيعية العلمية .

وقد نقل العرب أسس طبهم من الشعوب القديمة التى تجاورهم ، وخاصة الكلدان والفرس والهنود ، وأضافوا إلى ذلك من تجاربهم وكان لديهم فى العصر الجاهلى طريقتان للعلاج ، تعتمد الأولى على الكهانة والعرافة . وتعتمد الثانية على العقاقير من نباتية ومعدنية ، وكذلك الكى والحجامة والفصد ومن أشهر أطبائهم فى الجاهلية «ابن حِزيم» حتى كانوا يقولون «أطب من ابن حزيم» ، ثم الحارث بن كلدة الثقفى . ومن أقواله ، من سره البقاء ولابقاء ، فليبادر بالغداء وليخفف الرداء وليقل غشيان النساء ، وللحارث من الكتب كتاب «المحاورة فى الطب» ومنهم النضر ابن الحارث بن كلدة .

ومنهم ابن أبى رمثة التميمى ، وكان طبيبا عالما بصناعة الجراحة . وكان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وبظهور الإسلام ، نشأ ضرب جديد من الطب ، يسمى بالطب النبوى ، يشتمل على مجموعة من الأحاديث الخاصة بالمرضى ، تحتوى على وصفات لعلاج بعض الأمراض.

وقد ألف كتابين من الجزء السابع من البخارى يتألف الأول من اثنين وعشرين بابا تشتمل على ثمانية وثلاثين حديثا عن عيادة المرضى والدعاء لهم ، ويحوى الثانى ثمانية وخمسين بابا تشتمل على واحد وتسعين حديثا ، جاء فيها ذكر بعض العلل كالصداع والشقية والرمد والجذام والحمى واستطلاق البطن وذات الجنب (التهاب الرئة) والطاعون ولسعة الحية والعقرب . وفيها إشارات للمداولة بالعسل شرابا وبالكى والاحتجام من الشقيقة ، ووصف ألبان الإبل ، وإشارة إلى الأثمد وماء الكماة للرمد واستعمال الحية السوداء ، خمس أو سبع منها تسحق ثم تقطر فى أنف المريض مع قطرات الزيت ، والعود الهندى سعوطا لذات الرئة ، واراقة الجسم بالماء البارد للحمى . وقوله عليه السلام إذا سمعتم بالطاعون بارض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها .

ومن الذين قاموا بدراسة موضوع الطب النبوى « الذهبى » وفيه يقول « أن قواعد الأطباء أن أخلاق النفس تابعة لمزاج البدن ، فكلما كانت أخلاق النفس أحسن كان مزاج البدن أعدل » والحموى ، فى كتابه الأحكام النبوية فى الصناعة الطبية وابن قيم الجوزيه فى كتابه الطب النبوى ؛ ويقول ابن خلدون فى ذلك إنه صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات . فقد كان يقول أنتم أعلم بأمور دنياكم ، فلا ينبغى أن يحمل شىء من الطب الذى وقع فى الأحاديث المنقولة على أنه مشروع ، فليس هناك ما يدل عليه اللهم إلا إذا استعمل على وجهة التبرك . ويقول صاعد الأندلسى « كانت العرب فى صدر الإسلام لا تعنى بشىء من العلم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها حاشا صناعة الطب ، فأنها كانت موجودة عند أفراد من العرب غير منكرة عند جماهيرهم لحاجة الناس اليها ولما كان عندهم من الأثر من النبى (صلعم) حيث يقول : يا عباد الله تداووا فأن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء إلا واحدا وهو الهرم .

وفى العصر الأموى اشتهر من الأطباء « ابن اثال » وكان طبيبا لمعاوية بن أبى سفيان ، وكان خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة وقواها . وأبو الحكم وحفيده عيسى ومنهم ابن ماسرجويه الطبيب البصرى فى زمن عمر بن عبد العزيز ، وله كتاب قوى الأطعمة ومنافعها ومضارها ، وكتاب قوى العقاقير ومنافعها وسضارها ، ثم عبد الملك بن ابحر الكنانى ، وكان طبيبا عالما ماهرا ، وكان عمر بن عبد العزيز يستطبه ويعتمد عليه فى صناعة الطب .

ومنهم يتاذون الطبيب وقد اختص بخدمة الحجاج بن يوسف ، وقال ابن قتيبه إن الحجاج قال له مرة صف صفة آخذ بها نفسى ولا أعدوها قال يتاذون « لا تتزوج من النساء إلا شابة ولا تأكل من اللحم إلا فتيا ، ولا تأكله حتى ينعم طبخه ، ولا تشربن دواء إلا من علة ، ولا تأكل عليه شيئا ، ولا تحبس الغائط والبول ، وإذ أكلت فى النهار فنم ، وإذا أكلت فى الليل فتمشى ولو مائة خطوة » .

وقد اشتهر فى أواخر عهد الأمويين « زينب » طبيبة بنى أود : يقول عنها

ابن أبي أصيبعة «كانت عارفة بالأعمال الطبية » خبيرة بالعلاج ومداواة آلام العين والجراحات مشهورة بين العرب بذلك .

ويروى ابن النديم أن خالد بن يزيد ابن معاوية بن أبي سفيان كان شغوفا بالكيمياء ، استخدم عددا من العلماء ترجموا له الكثير من الكتب اليونانية والنجوم . وكانت الكيمياء قديما منصبة على العثرر على أكسير الحياة وحجر الفلاسفة . وبالرغم من ذلك يقول برثوليه « لقد بلغ جابر بن حيان فى الكيمياء ما بلغه أرسطو فى المنطق .

وكان الوليد بن عبد الملك أول من أنشأ المارسيتانات فى الإسلام ، فقد أنشأ مارستانا بدمشق عام ٨٨ هـ ، جعل فيه الأطباء ، وذكر الطبرى أن الخليفة المذكور أمر بحبس المجذومين وأجرى لهم الأرزاق ، وهذا أول محجرشيد فى الإسلام

وكان يختيشوع ممن اشتهروا فى الطب فى عهد العباسيين ، وله كناش التذكرة ثم ابنه جبريل وقدر ما جمعه جبريل فى شتى خدمته فى عهد الرشيد والمأمون بمقدار ٥ر٢ مليون جنيه استرليني ، أكثرها من مال البرامكة ، وخلف جبريل ابنه يختيشوع بن جبريل وكان طبيبا حاذقا : وكان ابنه سعيد آخر أفراد هذه لأسرة الطبية العظيمة التى انفردت بخدمة بلاط العباسيين مدى قرون ثلاثة ، وأفرادها موضع تقدير الخلفاء ومحل ثقتهم .

وقد مرت الترجمة فى العصر العباسى بثلاثة أدوار ، الأول من خلافة أبي جعفر المنصور إلى وفاة هارون الرشيد أى من عام ١٣٦ - ١٩٣ هـ . وقد نبغ فى هذا العهد عدد من التراجمة ، نذكر منهم من عنى بنقل كتب الطب خاصة من أمثال يحيى بن البطريق ، وجورجيوس بن بختيشوع وعبد الله بن المقفع ويوحنا ابن ماسويه وغيرهم ، ويبتدئ الدور الثانى من ولاية المأمون ١٩٨ - ٣٠٠ هـ واشتهر من التراجمة قسطا بن لوقا البعلبكى ، وحنين بن اسحق ، وابنه اسحق بن حنين وعيسى بن يحيى ، وثابت بن قرة الحرانى ، وقد بذل المأمون جهده فى استخدام التراجمة ، وكان ينفق فى ذلك بسخاء ، وكان يحرض الناس على قراءة الكتب ويرغبهم فى تعليمها ، واقتدى به

الكثيرون من أهل دولته فى بغداد فتقاطر إليها المترجمون من أنحاء جزيرة العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والسنسكريتية والنبطية واللاتينية وغيرها ، وكثر فى بغداد الوراقون وباعة الكتب وتعددت مجالس الأدب والمناظرة ، وأصبح هم الناس البحث والمطالعة ، وظلت تلك النهضة مستمرة بعد المأمون إلى عدة من خلفائه .أما تراجمة الدور الثالث الذى يبتدئ من ٣٠٠ﻫ وينتهى فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، فكانوا أكثر اشتغالا بنقل المنطق والطبيعة ، منهم متى بن يونس ، وسنان بن ثابت بن قره ، ويعد حنين بن اسحق العبادى (١٩٤ ﻫ ـ ٢٦٤ ﻫ) شيخ تراجمة العصر العباسى ، بلغ اهتمامه بترجمة الآثار اليونانية مبلغا عظيما ، فكان يجوب الأقطار فى طلبها والحصول عليها ، مثال ذلك كتاب البرهان لجالينوس الذى كان نادر الوجود فى القرن الثالث الهجرى ، والذى قال عنه حنين إننى بحثت عنه بحثا دقيقا ، وجبت فى طلبه أرجاء العراق وسوريا وفلسطين ومصر إلى الاسكندرية ولم أظفر إلا بما يقرب من نصفه فى دمشق ، وقد ترجم حنين إلى العربية سبعة من كتب أبقراط ، وترجم إلى السريانية من كتب جالينوس «خمسة وتسعين ، وترجم إلى العربية منها تسعة وثلاثين ، كما راجع وأصلح ما ترجمه تلاميذه ، ستة إلى السريانية ، وسبعين إلى العربية ، كما ارجع وأصلح معظم الخمسين كتابا التى كانت ترجمت إلى السريانية ، ونقل أيضا ثلاثة من كتب أوريبا سوس خلاف ما نقله من كتب الفلسفة وغيرها لأفلاطون وأرسطو ، وبلغت تآليفه الخاصة نحو ثلاثين كتابا ، ومن أشهر تآليفه كتاب العشر مقالات فى العين ، ويعتبر هذا الكتاب أقدم ما ألف فى أمراض العين بطريقة علمية منظمة ، وقد نشره وحققه ما يرهوف ، ومن أخلد أعماله ترجمة كتاب التشريح لجالينوس .

أما ابنه اسحق ، فقد كان أوحد عصره فى علم الطب ، وكان يلحق بأبيه فى النقل وفى معرفته باللغات وفصاحته فيها ، ولاسحق بن حنين جملة تآليف فى الطب والمنطق بلغت خمسة عشر ، خلاف ما ترجمه من كتب القدماء .

ومنهم أبو يعقوب يوحنا بن ماسويه ، خدم الرشيد والأمين والمأمون وعاش إلى عصر المتوكل ، وولاه الرشيد بيت الحكمة وقلده ترجمة الكتب اليونانية التى حصل عليها فى حروبه بأنقره وعمورية ، بلغت تصانيفه عند القفطى واحدا وعشرين كتابا . ومن ضمن مؤلفاته كتاب فى الجذام ، وهو أول من كتب فيه .

ومنهم ثابت بن قرة الحرانى (٢٢١ - ٢٨٨ هـ) وابناه ابراهيم وسنان ، وحفيداه ثابت وابراهيم ، وكانوا نقلة جيدين ، وبلغت مؤلفات ثابت ثلاثة وعشرين ، منها خمسة فى الطب وباقيها فى الحساب والهندسة والفلك ، غير ما نقل للأوائل من كتب المنطق والرياضيات والطب ، كان يجيد اللغة اليونانية ، كما يجيد السريانية والعبرية وترجم فى المنطق والرياضيات والطب والتنجيم ، ونبغ ابنه سنان بن ثابت فى صناعة الطب . ومنهم قسطا بن لوقا البعلبكى . كان طبيبا حاذقا عالما باللغات اليونانية والسريانية والعبرية ، نقل كتبا كثيرة من اليونانية إلى العبرية - أحصى ما نقل وفسر وشرح - فبلغت خمسة وثلاثين كتابا .

وفى أواخر عصر الترجمة - بعد منتصف القرن الرابع الهجرى - ظهرت بشائر عهد جديد هو عهد التأليف ، واشتهر من هؤلاء المؤلفين فى الطب أربعة وهم :

على بن سهل الطبرى : صاحب كتاب فردوس الحكمة وحفظ الصحة ، ومنافع الأطعمة والأشربة .

محمد بن زكريا الرازى : صاحب كتاب الحاوى ، والمنصورى فى التشريح ، ومحنة الطبيب ومنافع الأغذية ، وقد اجمع المستشرقون المشتغلون بتاريخ الطب على أن الرازى أعظم طبيب أنجبته النهضة الإسلامية . وقد تتلمذ على الطبرى ، وله رسالة فى الجدرى والحصبة قال عنها المستشرق « نيوبرجر » أنها حلية فى جيد الطب العربى . ويعد الرازى أول من ابتكر خيوط الجراحة المسماة بالقصاب وأول من عمل مراهم الزئبق وأول من أنشأ مقالات خاصة فى أمراض الأطفال وله كلمات مأثورة فى العلاج - منها ، مهما قدرت أن تعالج بالأغذية ، فلا تعالج بالأدوية ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب « ومنها » إذا كان الطبيب عالما والمريض مطيعا فما أقل لبث العلة » ومنها ينبغى للطبيب أن يوهم

المريض بالصحة ويرجيه بها ، وإن كان غير واثق بذلك ، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس ، ومنها ينبغى للطبيب ألا يدع مساءلة المريض عن كل ما تتولد منه علته.

على بن العباس المجوسى : يقول عنه القفطى «طبيب فاضل كامل ، فارسى الأصل ، صنف كتابا أسماه الملكى » وهو المعروف بكامل الصناعة - اشتمل على علم الطب ، مال الناس إليه فى وقته ، ولزموا درسه ، إلى أن ظهر كتاب القانون لابن سينا ، فمالوا اليه وتركوا الملكى بعض الترك ، والملكى فى العمل أبلغ والقانون فى العلم أثبت .

ولد المجوسى بالأهواز ببلاد فارس ، ولم يذكر أنه ألف غير كتاب الملكى المعروف بكامل الصناعة ،وهو مقسم إلى ٢٠ مقالة تحتوى على أبواب عديدة ، والمقالتان الأولى والثانية قاصرتان على فصول فى التشريح كانت المرجع الرئيسى لعلم التشريح فى سالرنو ، بايطاليا وفى غيرها فى المدة بين عام ١٠٧٠ - ١١٧٠ م وقد حوت مقدمة « الملكى » نقد الأساطين فى الطب اليونانى والعربى مثل أبقراط وجالينوس اوريباسوس وبولس الايجنطى والرازى فقال أن أبقراط يميل إلى الايجاز والغموض وأن جالينوس يميل إلى التوسع والتطويل ، إلى قلة عناية ، واوريباسوس وبولس الايجنطى بالتشريح - وقال عن كتاب الحاوى للرازى أن ضخامته وتكاليفه تجعل الحصول عليه مطلبا وعرا ، ونعت المنصورى فى التشريح للرازى بشدة الاختصار ويقول ابن المجوسى فى كتابه الملكى « ومما ينبغى لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازما للبيمارستانات ومواضع المرضى ، كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم مع الأستاذين الحذاق من الأطباء ، كثير النقد لأحوالهم والأعراض الظاهرة فيهم ، متذكرا لما كان قد قرأه من تلك الأحوال ، وما يدل عليه من الخير والشر. ويتألف كامل الصناعة من جزأين يشتمل الأول على عشر مقالات ، الأولى عن الأمزجة والطبائع والأخلاط والثانية والثالثة فى التشريح ، والرابعة فى الهواء والرياضة والحمام والأغذية ؛ والست الباقية فى أسباب الأمراض وأعراضها وعلاماتها . ويتألف الجزء الثانى من عشر مقالات ، قاصرة على المداواة وطرق العلاج . وتختص الأخيرة بالصيدلة وتقع فى ثلاثين بابا ويتميز بلغته وسلاسته ودقته .

ابن سيناء يقول :

لما عظمت فليس مصر واسعى

لما غلا ثمنى عدمت المشـــترى

يعتبر كتابه القانون فى الطب أشهر كتبه على الاطلاق وهو موسوعة علمية ضافية ، وهو خلاصة الفكر اليونانى والعربى ،ويمثل القمة التى وصلت إليها الحضارة العربية فى فنون الطب تجربة ونقلا ، تبلغ عدد كلماته قرابة المليون كلمة ، واشتهر القانون فى أوروبا شهرة عظيمة فى القرون الوسطى ، وبلغ من المكانة مابلغته كتابات جالينوس وأبقراط وكان الكتاب المدرسى فى الطب فى جامعتى مونبليه ولوقان فى أواسط القرن السابع عشر ، وقد طبعت ترجمته إلى اللاتينية ست عشرة مرة فى الثلاثين سنة التى كانت غاية القرن الخامس عشر ، وأُعيد طبعه عشرين مرة فى القرن السادس عشر ، وهذا لايمثل إلاالطبعات الكاملة منه. أما الطبعات التى تقتصر على جزء أو أجزاء منه فلا حصر ،لها وقد طبع القانون بالعربية مرتين الأُولى بروما سنة ١٥٩٣ والثانية بمصر (بولاق سنة ١٢٩٤ هـ) وابن سينا أول من كشف ووصف عضلات العين الداخلية وأول من حاول التفرقة بين اليرقان الناشى من انحلال الكريات الدموية وبين الذى ينشأُ من انسداد القنوات الصفراوية ، وسبق غيره إلى معرفة بعض الأَمراض التى تنتقل بوساطة مياه الشرب ، وأنه عزاها إلى حيوانات دقيقة لا ترى بالعين يتعاطاها الإنسان فى الماء دون أن يحس بها . كما وصف بدقة الحالات الإكلينيكية الخاصة بأَمراض الجلد والأَجهزة البولية والتناسلية والعصبية .

وأهم مميزات الطب العربى فى ذلك العصر .

تأَثره بنظرية الاخلاط الأَربعة Four Humours Theory واتخاذها أساسا للباثولوجيا العربية ، وتقول هذه النظرية أن ظواهر الكون تتكون من عناصر أربعة ، الماء والهواء والتراب والنار ، ولها صفات أربع ـ الحرارة والجفاف والرطوبة والبرودة ـ ويقابل هذه العناصر والصفات أخلاط أربعة فى الإنسان ، الدم والصفراء والبلغم وإفراز الطحال (سوداء) والأخلاط حسب تعريفهم هى أجسام سيالة ، يستحيل لها الغذاء ، فالدم له خواص الهواء (حار رطب) والصفراء لها خواص النار (حارة جافة)

والبلغم له صفات الماء (بارد رطب) والطحال خاصية التراب (بارد جاف) . وتذهب النظرية إلى أن الإنسان لا يكون فى حالة الصحة إلا بتعادل هذه الأخلاط تعادلا تاما يكسر كل منها سورة الآخر بلا غلبة ، وإلى أن المرض ينشأ من وفرة إحداها وتغلبه على بقية الأخلاط أو من ضعفه وتغلب بقية الأخلاط عليه ، فمن توفر لديهم البلغم وغلب بقية الأخلاط الأخرى سموهم أصحاب المزاج البلغمى . والمزاج السوداوى ينشأ من زيادة إفراز الطحال ومثل ذلك المزاج الدموى والصفراوى . وقسمت العلل إلى بلغمية وسوداوية وصفراوية .

ويعتبر كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لأبى القاسم الزهراوى أول كتاب جراحى عند العرب .

كذلك تميز الطب العربى بإدخال الكثير من الأدوية المفردة والمركبة وعمل الاقربازينات وقد ساعد العرب معرفتهم للنبات ومهارتهم فى الكيمياء ، فأصبحت كتبهم تعج بالمركبات والمستحضرات المعدنية والنباتية والحيوانية ، التى أدخلوها لعلاج بعض الأمراض ، وأدخلوا فى الصيدلة ، الكثير من مواد النبات ، السنامكى والجوز المقىء ، والراوند وخيار شنبر وغيرها وبرعوا فى ا ستعمال الأشربة وتحضير المراهم والأدهنة واللعوق وكان أول أقربازين ألف فى العصر العباسى ألفه سابور بن سهل المتوفى سنة ٢٥٥ ﻫ وكان المعول عليه ، إلى حين ظهور أقربازين امين الدولة ابن التلميذ المتوفى سنة ٥٦٠ ﻫ ومن أطباء العرب المشهورين الكندى ، وله واحد وعشرون كتابا فى الطب .

وأمين الدولة بن التلميذ - يقول عنه ابن خلكان سلطان الحكماء ، مقصد العالم فى علم الطب أبقراط عصره وجالينوس زمانه ، له تصانيف منها كتاب الأقربازين المشهور ، وسنان بن ثابت بن قرة وله تصانيف جيدة فى الفلسفة وعلم الهيئة والفلك والهندسة ، واشتهاره بهذه العلوم يضارع اشتهاره بالطب . وكان الخليفة المقتدر أول من فرض على الأطباء تأدية امتحان للحصول على أجازة تخولهم ممارسة المهنة ، وأناط بسنان بن ثابت أن يقوم بامتحانهم وتثبيت من يصلح منهم ، ومنع من لا يصلح . وأحصى عدد الأطباء ببغداد لأمين الدولة فبلغوا قرابة ثمانمائة وستين ، وفى أيام المستنجد فوضت رئاسة الطب

ببغداد لأمين الدولة بن التلميذ ونيط به القيام بامتحان المتطببين .

ومنهم يوحنا بن سرافيون – يقول عنه القفطى أنه كان طبيبا فى صدر الدولة العباسية ، وأبو الحسن أحمد بن محمد الطبرى – من أهل طبرستان عاش فى القرن الرابع الهجرى كان فاضلا عالما بصناعة الطب ، وكان طبيبا للأمير ركن الدولة ، وله الكتاب المعروف بالمعالجات الابقراطى ، يقول ابن أبى أصيبعة إنه من أجل الكتب وأنفعها . فقد استقصى فيه الأمراض ومداواتها على أتم ما يكون .

وعيسى بن على الكحال – قرأ على حنين بن اسحق ، وكان مشهورا بالحذق فى أمراض العين ومداواتها ، وكتابه المعروف بتذكرة الكحالين ، كان يمارس طب العيون فى بغداد ويعتبره المستشرقون أكبر طبيب للعيون أنجبته العصور الوسطى وقد ترجم كتابه إلى اللاتينية ومات فى[٦] أواسط القرن الثانى عشر الميلادى. وتتألف تذكرة الكحالين من ثلاث مقالات ، الأولى فى حد العين وتشريحها وطبقاتها ورطوباتها وأعصابها وعضلاتها ومن أين نبات كل طبقة ومن أين يأتى غذاؤها ، والثانية فى عاد أمراضها الظاهرة للحس ، وأسبابها وعلاماتها وعلاجاتها ، والثانية فى أمراضها الخفية عن الحس وعلاماتها وعلاجاتها ونسخ أدويتها . وقد أشار المؤلف إلى أنه اعتمد على ما قرأه فى كتب جالينوس وحنين بن اسحق وغيرهم من الكحالين المشهورين مع يسير مما شاهده من مشايخ زمانه فى صناعة الكحل

أبو الحسن أحمد بن محمد الطبرى : من أهل طبرستان ، عاش فى القرن الرابع الهجرى كان فاضلا عالما بصناعة الطب ، وكان طبيبا للأمير ركن الدولة وله الكتاب المعروف بالمعالجات الابقراطية ، استقصى فيه ذكر الأمراض ومداواتها على أتم ما يكون كما يقول ابن أبى أصيبعة ، وصف فى مقدمته نوعين من الأطباء الطبيب الذى ليس بفيلسوف ، وهو الذى يقتصر علمه وهمته على علاج الداء فحسب ، مع قلة المعرفة والبعد عن الفلسفة ، والطبيب الفيلسوف ، هو من يسمو بعلمه وإدراكه إلى طلب الغاية ، ولم يقتصر من كل صناعة على أقل ما يمكن . ويقع المخطوط فى ٨٨١ صفحة ومقسم إلى عشر مقالات الأولى فى الفصول التى لا يستغنى الطبيب الذى ليس بفيلسوف عن

معرفتها لئلا يكون غفلا إذا سئل عن شيء منها ويقول أنه ذكرها على وجه الإخبار بها والتعريف لا على جهة التعليم لأن التعريف لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه ، والتعليم يحتاج إلى ذلك .

ابن جزلة : أبو على يحيى بن عيسى ابن جزلة ، ولد ببغداد سنة ١٠٧٤م ،يقول أنه كان يطب أهل محله وسائر معارفه بغير أجرة ولا جعالة ، احتسابا ومروءة ، ويحمل إليهم الأدوية بغير عوض وله ، كتاب «تقويم الأبدان » وكتاب البيان فيما يستعمله الإنسان ، وله رسالة فى مدح الطب ذكر ابن خلكان أنه أوقف كتبه قبل وفاته ، وكان يدرك عظيم فائدة الموسيقى فى شفاء الأمراض وفى ذلك يقول «والموسيقى من الأدوات النافعة فى حفظ الصحة وردها وتختلف بحسب اختلاف طباع الأمم ، وقديما وصفت هذه الصناعة لحث النفوس إلى السنن الصحية ، استعملها الأطباء فى شفاء الأبدان المريضة ، فموقع الألحان من النفوس السقيمة موقع الأدوية من الأبدان المريضة ، وأفعاله فى النفوس ظاهرة من مشى الجمال عند الحداء ، وشرب الخيل عند الصفير ، ومرح الأطفال لسماع الغناء ، وهو يحدث أريحية ولذة ، ويعين على طول الصلاة والدراسة ، والأطباء يستعملونه فى تخفيف الآلام على مثال ما يستعمله الحمالون لتخفيف الأثقال .

ابن أبى أصيبعة : هو موفق الدين أحمد بن أبى القاسم بن أبى أصيبعة ، ولد فى دمشق سنة ١٢٠٣م ودرس الطب هناك ، ثم نزح إلى مصر واستزاد منه وتتلمذ لابن البيطار المالقى ، واشتغل فى بيمارستانات القاهرة ، وألف كتابه المشهور «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، يضم تراجم الأطباء من عهد اليونان إلى عصره ويعتبر مصدرا من المصادر الهامة فى تاريخ الطب العربى .

ابن النفيس : على بن أبى الحَزم القرشى ، كان إماما فى علم الطب الإيضاحى ، صنف كتاب الشامل فى الطب تدل فهرسته على أنه يكون فى ثلاثمائة جزء ، أنجز منها ثمانين سفرا وهو الآن وقف بالبيمارستان المنصورى فى القاهرة وله أيضا شرح القانون لابن سينا فى عدة أسفار ، وكتاب موجز القانون ، وكتاب شرح تقدمه المعارف ، وكتاب تشريح

القانون ، وفيه وصف للرئة وسبق غيره إلى كشف الدورة الدموية الرئوية .

موفق الدين عبد اللطيف البغدادى — ولد فى بغداد سنة ١١٦٢ م — ٥٥٧ ه درس الطب والفلسفة واشتغل بتدريسها حينا من الزمان بدمشق وحلب ، ثم رحل إلى مصر حيث التقى بموسى بن ميمون وتمكن فى مصر من دراسة العظام دراسة دقيقة واستطاع أن يكشف أخطاء جالينوس التى وردت فى وصفه للهيكل البشرى . فمن ذلك عظم الفك الأسفل فالكل أجمعوا على أنه عظمتان بمفصل وثق عند الحنك ،وقولنا الكل إنما نعنى هاهنا جالينوس وحده ، الذى شاهدناه من حال هذا العضو أنه عظم واحد وليس فيه مفصل أصلا ، واعتبرناه ما شاء الله من المرات فى أشخاص كثيرة تزيد على ألفى جمجمة ، فلم نجده إلا عظما واحدا .

التميمى : محمد بن أحمد بن سعيد ، نشأ فى بيت المقدس درس الطب ، وكان له غرام فى تركيب الأدوية ، له عدة معاجين . له كتاب يقع فى عدة مجلدات سماه مادة البقاء ، بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الوباء .

أبو يعقوب اسحق بن سليمان الإسرائيلى : ولد أبو يعقوب بمصر عام ٨٥٠ ه ، يقول عنه ابن أبى أصيبعة «كان يكحل فى أوليته ثم سكن القيروان ولازم اسحق ابن عمران طويلا إلى أن نيف على مائة سنة » وذكر ابن جلجل أنه كان عالما بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف الألحان والهندسة وطبائع الأعداد والهيئة وعلم النجوم ، وله مؤلفات جليلة .

نجيب بن عمر السمرقندى : هو نجيب الدين أبو حامد محمد بن على بن عمر السمرقندى ، أرخ له ابن أبى أصيبعة ،قال إنه صاحب كتاب الأسباب والعلامات ،وكتاب الأقرباذين ،مات مقتولا فى سمرقند عندما دخلها التتار (جنكيز خان سنة ٦١٧ ه) قال السمرقندى فى مقدمة لكتاب الأسباب أنه جمعه لنفسه مع القانون لابن سينا ومن المعالجات البقراطية للطبرى ، وكامل الصناعة لعلى ابن العباس المجوسى ، وقد اشتهر كتاب الأسباب من أجل شرح نفيس بن عوض

يترك لغلامه صرف الأدوية والأشربة للمرضى نزاهة بنفسه أن يأخذ من أحد شيئا .

ابن جلجل – هو سليمان بن حسان الطبيب الأندلسى المعروف بابن جلجل ولد بقرطبة سنة ٣٣٢ هـ عنى بعلم الطب فغلب عليه وعرف به وبلغ منه الغاية ، طلبه وهو ابن أربع عشرة وافتن فيه وهو ابن أربعة وعشرين وكان طبيبا فاضلا خبيرا بالمعالجات جيد التصرف فى صناعة الطب، وله بصيرة واعتناء بقوى الأدوية المفردة .

وكتابه المعروف بطبقات الأطباء ، والحكماء من المصادر الهامة فى موضوعه ، نقل عنه القفطى وابن أبى أصيبعة ولابن جلجل أيضا كتاب تفسير أسماء الأدوية المفردة ، وكتاب مافات ديسقوريدوس من أسماء النبات .

ابن وافد – هو ابن المطرف عبد الرحمن اللخمى بن وافد ، ولد بطليطلة سنة ٣٨٧ هـ يقول عنه صاعد فى طبقاته «أحد أشراف أهل الأندلس ، عنى عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وتفهمها ومطالعة كتب أرسطو وغيره من الفلاسفة ، وتمهر فى علوم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد فى عصره ، ألف فيها كتابا جليلا لا نظير له ، وله فى الطب منزع لطيف ومذهب نبيل ، وذلك أنه لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن التداوى بالأغذية أو ما كان قريبا منها ، فان دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوى بمركبها ما وصل إلى التداوى بمفردها ، فاذا اضطر إلى تركيب لم يكثر التركيب ، وله نوادر محفوظة وغرائب مشهورة فى الابراء من العلل الصعبة ، والأمراض المخوفة بأيسر العلاج وأقربه ، وله خمسة كتب أخرى فى الطب ذكرها ابن أبى أصيبعة .

الشريف الإدريسى – هو عبد الله محمد بن محمد عبد الله بن إدريس الحسنى ولد بقرطبة سنة ٤٩٣ هـ – وحل بصقلية فى كنف مايكها روجر الثانى ، وألف كتابا فى الجغرافيا سماه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، وصنع له كرة أرضية من الفضة واشتهر الإدريسى بكتابه المسمى الجامع لصفات أشتات النبات »يقول ابن أبى أصيبعة كان فاضلا عالما بقوى الأدوية المفردة ، ومنافعها ومنابتها وأعيانها ، وله كتاب الأدوية المفردة ، أشار فيه إلى كتب النبات

التى استعان بها مثل كتاب الحشائش لديسقوريدوس ، والمفردات لاصطفن وجالينوس ، وكتاب الأدوية المفردة لحنين ابن اسحق ، وغيرها .

أبو القاسم الزهراوى - ولد بقرطبة سنة ٩٣٦ م اشتهر بممارسة الجراحة ، وكتابه المسمى التصريف لمن عجز عن التأليف موسوعة فى الطب والجراحة يمتاز بكثرة رسومه ووفرة أشكاله للآلات التى كان يستعملها وأكثرها من استنباطاته ، واستمر كتاب التصريف العمدة فى الأمور الجراحية مدى خمسة قرون ، ترجم مرات عديدة .

ابن زهر - أبو مروان عبد الملك بن زهر ، ولد بأشبيلية ودرس الطب عن أبيه ، يقول ابن أبى أصيبعة كان جيد الاستقصاء فى الأدوية المفردة والمركبة حسن المعالجة .

وقد شاع ذكره فى الأندلس وفى غيرها من البلاد ، واشتغل الأطباء بمصنفاته ، ولم يكن فى زمانه من يماثله فى مزاولة أعمال صناعة الطب، واشتهر كتابه التيسير فى المداواة والتدبير » وقد ضمنه وصف علة الجرب ولم يكن قد سبقه إلى وصفها غير الإسكندر الطرولى ، كما أنشأ فصولا فى وصف التهاب التامور المصلى ، والتهاب الأذن الوسطى ، وشلل البلعوم ، كما جاء فيه وصف لعملية استخراج الحصى من الكلية ، وفتح القصبة الهوائية ، وقد أصيب ابن زهر بخراج الحيزوم وترك وصفا شائعا للأعراض التى كان يشكو منها وقد ترجم التيسير وطبع مرارا .

ولقد أثر ابن زهر أثرا بليغا فى الطب الأوروبى ، وظل هذا التأثير بليغا إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادى .

وينتمى ابن مروان إلى أسرة عظيمة ، كُنى أفرادها جميعا « بابن زهر » ونبغ منهم عدد ليس بقليل فى المدة من القرن الحادى عشر والثالث عشر ، منهم .

(ا) محمد بن مروان بن زهر توفى سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣٠ م) .

(ب) أبو مروان عبد الملك محمد بن مروان .

(ج) أبو العلا زهر بن أبى مروان توفى سنة ٥٢٥ هـ - ١١٣٠

(د) أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء توفى سنة ٥٥٧ هـ – ١١٦١ م .

(هـ) أبو بكر محمد بن عبد الملك بن أبي العلاء (الحفيد) ٥٠٤ – ٥٩٦ هـ (١١١٠–١١٩٦ م) .

(و) أبو محمد عبد الله ابن الحفيد ولد سنة ٥٧٧ هـ – ١١٨١ م .

ابن رشد – أبو الوليد محمد بن أحمد ابن رشد أحد فلاسفة الإسلام المشهورين ولد بقرطبة ودرس الفلسفة والطب وألم بفلسفة أرسطو ، ألف فى الطب كتابه المشهور باسم «الكليات» وكان بينه وبين أبي مروان بن زهر مودة وكان يقصد من أبي زهر أن يؤلف كتابا فى الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما مثل كتاب كامل الصناعة . ومن مأثور كلام ابن رشد قوله من استقل بعلم التشريح ازداد إيمانا بالله ، وقد خلف ضمن مصنفاته فى الفلسفة مصنفات عديدة فى الطب .

ابن البيطار – كان رئيس العشابين فى مصر ، كان أوحد زمانه فى معرفة النباتات وكتابه الجامع فى الأدوية المفردة أشهر من أن يذكر ، وهو يحتوى على وصف ١٤٠٠ نوع من العقاقير منها ٣٠٠ لم يسبقه إلى وصفها أحد وترجم كتابه إلى اللغة اللاتينية وكان عليه المعول حين عصر النهضة الأوروبية ويعد ابن البيطار بحق خليفة ديسقوريدوس فى علم الصيدلة وله كتاب المغنى بالأدوية ، وكتابه الإبانة والإعلام بما فى المنهاج من الخلل والأوهام ، وكتاب الأفعال العجيبة والخواص الغريبة ، وشرح كتاب ديسقوريدوس .

ابن خاتمة – هو أحمد بن على بن محمد أبو جعفر بن خاتمة ، يقول المقرى «كان أستاذا أديبا بارعا كاتبا بليغا حاملا ، طبيبا ماجدا فاضلا عدلا ، توفى ٧٧١ هـ وقد كتب فى الوباء وأثبت حصول العدوى وتعتبر رسالته فى الوباء خير ما كتب فى موضوعها إلى فجر القرن السادس عشر .

ابن ميمون – هو أبو عمران موسى بن القرطبى ولد فى قرطبة سنة ١١٣٥م ، نزح إلى مصر وواصل الدرس والتحصيل بهمة لا تعرف الملل ، واحترف الطب ودخل خدمة صلاح الدين وعينه الملك الأفضل طبيبا له – وتوفى سنة ١٠٢٤ م وألف ابن ميمون عشرة تصانيف أهمها فصول القرطبى وتسمى أيضا فصول موسى بن ميمون ومنها ،

المقالة الفاصلة وسماها « السموم والتحرز من الأدوية القتالة » وقد أبرز فيها ابن ميمون الكثير من تجاربه الخاصة وله رسالة فى الربو وأخرى فى البواسير ، ومن أهم رسائله الرسالة الأفضلية وتبحث فى الحالات النفسية المختلفة كالغضب والحزن والسرور وأثرها فى الصحة وعلاجها برياضة النفس وتقويتها ، وتدل هذه الرسالة على أن موسى ابن ميمون كان عالما نفسانيا محنكا وأنه أدرك عظم الفائدة من تسخير قوى النفس فى علاج أمراض البدن ، وقد اشتهر بذلك حتى مدحه الشاعر بقوله :

أرى طب جالينوس للجسم وحده —
وطب أبى عمران للعقل والجسم .

وقد ذكر أن بعضا من أطباء الغرب قد عرفوا مبادئ التحليل النفسى واستخدموها .

أبو عبد الله الحناط الكفيف — من أهل قرطبة وقد اشتهر بالطب وقد توفى سنة ٤٣٧ هـ ، وقد اشتهر من النازحين إلى مصر من الأطباء موسى بن ميمون وابن البيطار التميمى كما اشتهر من أطباء مصر رشيد الدين أبو خليفة وابن رضوان والشيخ السديد

وقد ترجم كثير من كتب الطب العربية إلى اللاتينية واقترن اسم جامعة ساليرنو بأسماء بعض التراجم المشهورين الذين نقلوا علوم العرب إلى اللغة اللاتينية وأهم هؤلاء التراجمة « قسطنطين الأفريقى » ترجم كتاب كامل الصناعة لعلى بن عباس المجوسى ، ونقل أيضا لأبى يعقوب اسحق بن سليمان وابن الجزار ، وتبع قسطنطين تلميذه يوحنا اقليطس — وخرج ابن تالم الذى أتم نقل الحاوى للرازى إلى اللغة اللاتينية .

وتعتبر الحروب الصليبية التى شبت نارها عام ١٠٩٧ م وامتدت حتى ١٢٧٣ م من العوامل المهمة فى نقل العلوم العربية وخاصة الطب إلى بلاد الغرب ، فقد حمل كثير من المرضى والأطباء وغيرهم من الراجعين إلى أوطانهم الكثير من الوصفات العربية إلى بلادهم ، وكانت سالرينو أهم الثغور التى يرجع عن طريقها المحاربون العائدون إلى أوطانهم .

والخلاصة أن العرب أضافوا الكثير إلى علوم الطب والصيدلة والطب العام وأمراض العيون والبيمارستانات .

عبد الحليم منتصر
عضو المجمع

تحقيق لسان العرب

للأستاذ عبد السلام محمد هارون

٥٩٧ (حمض) ٤١٠ س ١٣ قول الأغلب :

* لا يحسن التحميض إلا سردا *

وفى تفسيره : «فإنه يريد التفخيد» ، صوابه «التفخيذ» بالذال . وبذلك صححت فى بيروت ١٤٠

الجزء التاسع

٥٩٨ - (خفض) ٤ - ٢٥ وبيروت ١٤٥ والمخطوطة ، قول الشاعر :

لو وصل الغيث لأَنْدى امرئٍ
كانت له قُبةُ سَحْقٍ بِجادْ

لكن فى المخطوطة : «امرأً» بالنصب ، وصوابه : «لأَبنين امرأً» ، كما فى اللسان (بنى ١٠٣) والحيوان ٥ : ٤٦١ والمخصص ٥ : ١٢٢ والخصائص ١ : ٣٦ وأمالى ابن الشجرى ٢ : ٢٠٦ .

كما أن صواب عجزه :

* كانت له قبَّةٌ سَحْقَ بِجادْ *

كما فى المراجع المتقدمة . وانظر تفسير البيت فى اللسان (بنى) .

٥٩٩ - (عرض) ٢٦ س ٢٣ وبيروت ١٦٥ والمخطوطة أيضا : «قال أبو ذؤيب يصف برذونا» ، وهو تحريف عجيب ، صوابه «يصف برْقا» ، وهو ما يقطع به الشعر من قول أبى ذؤيب :

أَمِنك برق أَبيت الليل أَرقبه
كأَنه فى عِراض الشام مصباح

٦٠٠ - (عرض) ٢٨ س ١٨ وبيروت ١٦٧ والمخطوطة : «تعرَّض ، أى أقمه فى السوق» .

---

(١) متابعة لما نشر فى الجزء ٢٦ من المجلة .

والعبارة مبتورة ، فالذى فى التهذيب ١ : ٤٦٨ : « تعرَّض به ، أى أقمه فى السوق » .

٦٠١ ـ (عضض) ٥١ س ٢٠ ـ ٢١ وبيروت ١٨٨ والمخطوطة أيضا : « وإذا كان القوم لابنين لهم فلا عليهم أن يروا عَضاضا » ، والنص بهذه الصورة محرف ، صوابه : «لابِنين فلا عليهم ألا يَروا عَضاضا » ، كما فى التهذيب ١ : ٤١ لابنين ، بكسر الباء ، أى أصحاب لبن ، أى لو كان عندهم لبن لاستغنوا عن الطعام . والعضاض ، بالفتح : ما يُعض عليه من طعام .

٦٠٢ ـ (عضض) ٥٣ س ١٢ وبيروت ١٩٠ والمخطوطة كذلك : « واللُّصَف والكلبة والعِتْر والتُّغْر » ، وجاءت « التغر » بالتاء المثناة المضمومة ، وصوابها « الثَّغْر » بالثاء المثلثة المفتوحة ، كما فى التهذيب ١ : ٧٥ . وانظر اللسان (ثغر ١٧٣) .

ومنه قول كثير :

وفاضت دموع العين حتى كأنما
بُرادُ القذى من يابس الثَّغر يُكحلُ

٦٠٣ ـ (عوض) ٥٥ س ١٥ وبيروت ١٩٢ والمخطوطة : « وأعضته وعوّضته ، إذا أعطيته بدل ما ذهب منه ، وقد تكرر فى الحديث ، والمستقبل التعويض » ، صوابه : « والمستعمل التعويض » كما فى مقاييس اللغة (عوض) . يعنى أن « عوَّضه » أكثر استعمالا من « أعاضه » .

٦٠٤ ـ (عوض) ٥٦ س ١٧ وبيروت ١٩٣ قولُ رشيد :

حلفتُ بما ثرات حول عوض
وأنصابٍ تُركن لدى السَّعيرِ

إنما هو « السُّعير » بهيئة التصغير ، كما سبق فى التنبيه رقم ٣٨١ ، وكما ورد مضبوطا هنا فى النسخة المخطوطة .

٦٠٥ ـ (فرض) ٧١ س ١٢ وبيروت ٢٠٦ والمخطوطة : « ليس فيها إلا نوًى معلَّق بالتفاريق » صوابه « بالثفاريق » بالثاء المثلثة . والثفاريق : جمع ثُفروق ، وهى أقماع البُسر والتمر .

٦٠٦ ـ (فضض) ٧٢ س ١٧ وبيروت ٢٠٧ والمخطوطة أيضا : « وفى حديث خالد ابن الوليد أنه كتب إلى مروان بن فارس » . وقد حار مصححو طبعة بولاق وقالوا : « كذا هو بالنسخ التى بأيدينا » ، والصواب إن شاء الله « إلى مرازبة فارس » كما فى اللسان

(خدم ٥٨) . والمرازبة : جمع مرزبان ، وهو الرئيس من العجم .

٦٠٧ - (قبض) ٨١س٨ وبيروت ٢١٥ قول الفقعسى :

* فى هجمة يَغْدِر منها القابض *

وليس للغدر هنا معنى ، إنما هى «يُغْدِر» من الإغدار ، يقال : أغدره ، أى تركه . وكذا أنشده وفسره ابن الأنبارى فى شرح السبع الطوال ٥٧١ . وجاءت رواية فى اللسان (عوض) :

* فى هجمة يُسْئر منها القابض *

يُسْئِر ، أى يُبقِى ، من السور ، وهو بقيّة الماء فى الإناء .

٦٠٨ - (حطط) ١٤٤س١٤وبيروت ٢٧٥ والمخطوطة : جاء فى تفسير قول الشماخ :

وإن ضربت على العِلاّت حطت
إليك حِطاط هادية شنونِ

«العِلاّت : الأعداء» ، صوابها «الأعذار» . والعِلة : العذر ؛ ومنه قوله :

* ما علتى وأنا جلدٌ نابلُ *

أى ما عذرى فى ترك الجهاد ومعى أُهبة القتال .

٦٠٩ - (حطط) ١٤٥س٨ وبيروت ٢٧٥ والمخطوطة أيضا :

كأنَّ مِحطًّا فى يدىْ حارثيةٍ
صَناع علَتْ منى به الجلدَ من عل

بدون ضبط لكلمة «عل» ، ووجه ضبطها «من علُ» بالضم ، كما فى جمهرة أشعار العرب ١٠٩ وهو من قصيدة مرفوعة الروىّ ، أوّلها :

تأبَّد من أطلالِ عمرة مأْسِلُ
وقد أقفرتْ منها شِراءُ فيذبلُ

٦١٠ - (خبط) ١٥٢س٢٣وبيروت ٣٨٣ : «قال علقمة بن عَبْدة» بإسكان باء «عبْدة» وأهمل ضبط الباء فى المخطوطة ووجه ضبطها : «عَبَدة» بفتح الباء . وفى الخزانة ١ : ٥٦٥ فى ترجمة علقمة هذا ، وهو علقمة الفحل : «وعبدة بفتح العين والباء . وأما عبْدة بن الطيب فهو بسكون الباء ، كذا فى الصحاح . والعبدة ، محركة ، بمعنى القوّة ، والسّمن ، وصلابة الطيب ، والأنفه» .

٦١١ - (خبط) ١٥٣س١٩وبيروت ٢٨٣ والمخطوطة أيضا : «قال دبّاق الدُّبيرى»

صوابه « أَبَّاق » . وفى اللسان (أبق) :
« وأبّاق : رجل من رجّازهم ، ويكنى أبا
قريبة » . وفى تاج العروس : « وأبّاق
كشدّاد : شاعر دُبيرى مشهور ، كنيته
أبو قريبة » .

٦١٢ – (خلط) ١٦٤س١٧ وبيروت
٢٩٤ : « قال بسّامة بن الغدير » وفى المخطوطة
« بسَامة » وكلاهما خطأ ، إنما هو –
« بشَامة » ، وهو من شعراء المفضليات
والبشامة : واحدة البشام ، وهو شجر ذو
ساق وأفنان وورق صغار أكبر من ورق
الصعتر ، ولا ثمر له . والغدير لقب أبيه
واسمه عمرو . وانظر المؤتلف والمختلف
للآمدى ٦٦ وما سبق فى التحقيق رقم ٥٦٧

٦١٣ – (خمط) ١٦٨س٦ وبيروت
٢٩٧ : « فإذا كان فيه طعم الحلاوة فهو
فوّهة » ، وفوّهة السكة والطريق والوادى
والنهر : فمه ، وهى غير مرادة بلا ريب .
وفى المخطوطة : « فُوهة » والحرف الأول
غير منقوط فيها . وصوابه : « قوهة »
بالقاف المضمومة وسكون الواو ، كما فى
اللسان (قوه) والصحاح (خمط) .

٦١٤ – (رهط) ١٧٧س٣ وبيروت
٣٠٥ وكذلك المخطوطة : قول رؤبة :

* هو الدليل نفراً فى أرهطه *

صوابه « الذليل » بالذال المعجمة ،
نظر فيه إلى قول الله فى كتابه : « أنا أكثر
منك مالا وأعزّ نفرا » .

وانظر ملحقات ديوانه ٨١ والخزانة
١ : ٢٢٤ وشرح شواهد الشافية ١٥٢

٦١٥ – (سجلط) ١٨٤س٨وبيروت
٣١٢ قول الشاعر :

أحبُّ الكرائن والضومرانْ
وشرب العتيقة بالسنجلاطْ

وفى المخطوطة : « والضومزان » بالزاى
وبدون ضبط للنون ، والوجه « والضومرانَ »
بالراء وبفتح النون ، ولا داعى لارتكاب
علة الحذف فى هذه العروض ، وإن كان
فتح النون فيه زحاف القبض ، كما أن
« السنجلاط » صواب ضبطها كسر الطاء ،
كما فى المخطوطة . وانظر ما سبق فى
التحقيق رقم ٤٠٤ فى مادة (ضمر)

٦١٦ - (شبط) ١٩٩س٢٢وبيروت ٣٢٧ قول الشاعر :

من شبابيط لُجَّةٍ وسط بحر
حَدَثَت من شحومها عجراتِ

وجاءت فى المخطوطة : «حَدَىت »بإهمالِ نقط الحرف الذى قبل التاء ، وليس لإحداهما وجه ، إنما هى «حُدُب » كما فى الحيوان ٣ : ٤٦٨ جمع حَدْباء ، وأصلها حُدْب بإسكان الدال ويجوز فى الشعر ضم عين فُعْل كما هنا ، وكما فى قول أبى سعيد المخزومى .

طوَى الجديدان ما قد كانت أنشُره
وأنكرتْنى ذوات الأَعينِ النُّجُلِ

٦١٧ - (شرط) ٢٠٤ س ٢١وبيروت ٣٣١ قول خالد بن قيس :

* ليتك إذْ رَهِبتَ آلَ مَوءله *

صوابه «رُهِنتَ » كما فى المخطوطة واللسان (فعل ، وأل) ومجالس ثعلب ٤٥٠ يخاطب بذلك مالك بن بُجرة ، وكان قد رهنَ عند بنى موءلة بن مالك ، فى دية على قومه .

٦١٨ - (فلط) ٢٤٧ س ١٦ وبيروت ٣٧٢ قول الراجز :

* شرِبتُ منه بين كُرهٍ ونَعط *

صوابه «ثعطْ » كما فى المخطوطة واللسان (ثَعَط) . والثعط ، بفتح الثاء المثلثة والعين المهملة : إنتان الماء .

٦١٩ - (قبط) ٢٤٨ س ١٨ وبيروت ٢٧٣ والمخطوطة أيضا قول الكميت :

لِيســاح كأنْ بالأتحميَّةِ مُسْبَعٌ
إزاراً وفى قبطية متجلببُ

صوابه «مُسْبِغٌ » كما فى التهذيب ، يقال : أسبغ إزاره ، أى أطاله وأوسعه

٦٢٠ - (قطط) ٢٥٦ س ٧ ، ٩ وبيروت ٣٨٠ وكذلك المخطوطة وتاج العروس قول رؤبة :

* تقليلُ ماقارعن من سُمِّ الطُّرَقْ *

صوابه «تفليل » بالفاء ، كما فى ديوان رؤبة ١٠٦ وكما يقتضيه تفسير تاج العروس من قوله : « وتفليل فاعل سوّى ، أى سوّى مساحيهن تكسيرُ ماقارعت من سم الطُّرَق . والطُّرَق : جمع طُرقة ، وهى حجارة بعضها فوق بعض » . والتفليل : التكسير . وقبل الشطر :

* سوّى مساحِيهنّ تقطيطَ الحُقَقْ *

٦٢١ ـ (قوط) ٢٦٢ س ١٤ وبيروت ٣٨٦ والمخطوطة ، قول الراجز :

* إذا استمى ادبيّها الغَطامطا *

وردت كلمة «ادبيها» بدون همز فى جميع النسخ ، وهو الأمر الذى أوقع مصحح الطبعة الأولى فى ريبة ، وكتب «قوله ادبيها كذا بالأصل . وحرّره» . وضبطت بضم الهمزة «أُدبيَّها» فى نوادر أبى زيد ١٧٣ . وقال أبو زيد : «يقال استمى خيرَها واستميت خيرَها ، أى اخترت خيرها» . والوجه عندى : «أُزبيَّها» . والأُزبى : الصوت . ويؤيده ما فى النوادر أن أبا حاتم رواه «أُربيَّها» بالراء . أما الغطامط فكذا ورد ضبطه بالفتح ، والذى فى اللسان والقاموس والتاج أنه بالضم صوت غليان ماء البحر.

٦٢٢ ـ (وسط) ٣٠٨ س ١ وبيروت ٤٢٩ والتاج ، قول القتال الكلابى :

من وسط جمع بنى قريظ بعد ما

هتفت ربيعـــــة يا بنى خوار

صوابه «يا بنى جوّاب» كما فى ديوانه ص ٣٦ والخصائص ٢ : ٣٦٩ وأمالى ابن الشجرى ٢ : ٢٥٨ كما أن «قريظ» صوابها «قريط» بالطاء المهملة كما فى المراجع المتقدمة وفى جمهرة ابن حزم ٢٨٢ أن قُرطاً وقُريطاً وقُريطة بطون من بنى كلاب يقال لهم القُرَطاء . وفى اللسان والمقتضب لياقوت أنهم : قُرط وقَرِيط ـ كأمير ـ وقُريط كزبير ، ويقال لهم القُروط . وانظر ما أثبتُّ فى تعليقى على الجمهرة . وجوّاب هذا اسمه مالك بن عوف بن عبد الله بن جعفر ابن كلاب . وهو الذى نفى بنى جعفر ابن كلاب وطردهم حتى لحقوا باليمن ببنى الحارث بن كعب ، فحالفوهم مدة ثم رجعوا إلى جوّاب وقومهم فاصطلحوا . انظر جمهرة ابن حزم ٢٨٤ . ومن أخوات البيت هذا البيت المشهور :

ولقد لحنت لكم لكيما تفهمـــــوا

ووحيْتُ وحياً ليس بالمـــرتاب

٦٢٤ ـ (عظظ) ٣٢٦ س ٢٢ وبيروت ٤٤٧ قول العجاج :

* وعظعظ الجبـــان والزِّئنى *

صوابه «والزِّئنيُّ» كما فى ديوان العجاج ٧١ والمقاييس ٤ : ٥٣ والزئنىّ

هو الكلب الصينى القصير القوائم .
وانظر له الحيوان ١ : ١٥٧ ، ٢/٣١١ : ١٧٩ / ٦ : ٣٧٢

٦٢٥ - (غنظ) ٣٢٩ س ٢١ - ٢٣ وبيروت ٤٥٠ والمخطوطة ، قول جرير :

ولقد لقيتَ فوارسًا من قومِنــــا
غنظوك غنظَ جرادة العيـــارِ

والصواب نسبة الشعر إلى ابن أدهم النعامى الكلبي ، كما فى التاج (جرد) . والشعر ليس فى ديوان جرير . وورد فى المقاييس (غنظ) وفى اللسان (عير) بدون نسبة .

٦٢٦ - (قرظ) ٣٣٥ س ١٣ وبيروت ٤٥٥ وكذا المخطوطة : « أن خزيمة ابن نهد كان عشور ابنته فاطمة » . صوابه «حزيمة » بالحاءِ المهملة المفتوحة كما فى تهذيب اللغة ٩ : ٦٧ ومختلف القبائل لابن حبيب ص ٢٠ وجمهرة أنساب العرب ٤٤٦ والمقتضب لياقوت الورقة ١٠٧ نسخة دار الكتب المصرية .

٦٢٧ - (بضع) ٣٦٢ س ٩١ وبيروت ٨ : ١٥ : «البِضْع ما لم يبلغ العِقْد ولا نصفَه » . صوابه « العَقْد » بفتح العين كما فى المخطوطة ، والمعجم الوسيط (عقد) . والعقد بالفتح هو العشرة والعشرون والثلاثون إلى التسعين . وأما العِقد ، بالكسر ، فهو آحاد العَقْد من الواحد إلى التسعة . وانظر حواشى نصر على القاموس فى مادة (بضع) والألف المختارة من صحيح البخارى الحديث ٨٩٦ ، ٩٢٥

٦٢٨ - (بضع) ٣٦٣ س ٤ وبيروت ١٦ والمخطوطة قول ساعدة الهذلى :

سادٍ تجرَّم فى البضيع ثمـــانيا
يَلْوِى بعَيقات البحار ويُجنَبُ

صوابه « يُلْوِى » من ألوى ، كما فى اللسان (اوى) عند إنشاد البيت . وانظر التحقيق رقم ٢٤٩

٦٢٩ - (بلع) ٣٦٧ س ١ وبيروت ٢٠ والمخطوطة : «وبلعاء أيضا فرس لأَبى ثعلبة » ، صوابه «لأُبىّ بن ثعلبة ، كما فى المخصص ٦ : ١٩٧ . وانظر الخيل لابن الأعرابى ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢

٦٣٠ - (جبع) ٣٩٠ س ٦ قول ابن مقبل :

وطِفلة غَيْر جُبّـــاعٍ ولا نَصف
من دلِّ أمثالهـــا باد ومكتومُ

صوابه «وطفلة» بفتح الطاء، وهى المرأة الناعمة، كما فى ديوانه ٢٦٨ وتهذيب اللغة ١ : ٣٨٨. ووردت بالضبط الصحيح أيضا فى بيروت ٤٠ أما المخطوطة فلم تضبط فيها الطاء .

٦٣١ ـ (جدع) ٣٩٢ س ٥ وبيروت ٤٢ والمخطوطة قول ابن مقبل :

* وغيث مريع لم يجدَّع نباتُه *

عجزه، كما فى ديوان ابن مقبل ٨ واللسان (هلل) :

* ولَتْه أهاليل السِّماكين مُعْشِبِ *

٦٣٢ ـ (جدع) ٣٩٢ س ٢٢ وبيروت ٤٣ : «على سوء ولائه وعلى الإذالة منك له»، صوابه «على سوء ولايةٍ» كما فى التهذيب ١ : ٣٤٧

٦٣٣ ـ (جزع) ٣٩٨ س ١٨، ١٩ وبيروت ٤٨ : «قال المعرىّ»، و «كما رواه المعرى»، صوابه «المِسْعرىّ»، كما فى المخطوطة والتهذيب ١ : ٣٤٤

٦٣٤ ـ (جزع) ٣٩٩ س ١٠ وبيروت ٤٩ والمخطوطة : «الجِزعة والكُثبة والغُرفة» وردت «الغرفة» بالفاء، وصوابها «الغُرقَة» بالقاف، كما فى التهذيب (جزع) واللسان (غرق)، وفيه : «والغرقة، بالضم : القليل من اللبن».

٦٣٥ ـ (جمع) ٤٠٦ س ٢٤ وبيروت ٥٥ قول ذى الرمة :

ورأس كجمّاع الثريا ومشفر
كِسِبْت اليمانىِّ قِدُّه لم يُجرَّدِ

وضبط «اليمانىّ» بالتشديد فيه إخلال بالوزن، صوابه «اليمانى» ولا تشديد فى الياء . و «لم يجرد» بالجيم، أى لم يجرد من الشعر، فيكون ذلك ألين له . وروى أيضا «لم يحرد» بالحاء المهملة، وكلاهما صحيح على أن تكسر قاف «قدُّه» فى الرواية الثانية، فيكون معناه : مِثاله لم يعوَّج . نص على ذلك فى اللسان (قدد ٣٤٣) وإن كان قد ورد فيه تحريف هناك لم أُنبه عليه فيما مضى، إذ جاء قبله «كَسَبْتُ اليمانى قدَّه» بجعل كسبتُ فعلاً، وقدَّه منصوبا بعد الفعل، وصوابها «كِسِبْتِ اليمانى» بكاف التشبيه التى يليها كلمة «سِبت» مكسورة السين بمعنى النعل .

٦٣٩ ـ (جمع) ٤٠٧ س ٤ وبيروت ٥٦ والمخطوطة : «قال قيس بن الأَسلت» ، وإنما هو أَبو قيس بن الأَسلت وهو شاعر معروف من شعراء المفضليات . وأَبو قيس هو كنية الشاعر ، واسمه صيفى بن الأَسلت ، وهو ممن اختلف فى إسلامه ، فقيل إنه أَسلم ،وقيل إنه وعد بالإسلام ثم سبق إليه الموت فلم يسلم . وترجمته وأَخباره فى الإصابة ٧ : ١٥٨ ، ٥ : ٢٥٧ ، ٤ : ٢٥٢ والأَغانى ١٥ : ١٥٤ وابن الأَثير ١ : ٢٨٤ . والبيت الذى رواه ابن منظور هو فى المفضليات ص٢٨٥

٦٣٧ ـ (جمع) ٤١٠ س ١٠ وبيروت ٥٨ والمخطوطة : «قال اللحيانى : كان أَبو زياد وأَبو الجراح» بإثبات بياض بين هذين العلمين . والواقع أَن الكلام ليس فيه انقطاع » كما فى المحكم لابن سيده ١ : ٢١٣

٦٣٨ ـ (خدع) ٤١٦ وبيروت ٦٤ والمخطوطة أَيضا ، قوله : «وغُول خَيدع منه ، وطريق خيدع » ، والخطأ فى ضبط الكلمة الأُولى من هذا النص يخفى على كثير ، وليس المراد الغول ذاك الحيوان الخرافى ، وإنما هو « غَول » بفتح الغين كما فى التهذيب ، والغَول ، بالفتح : بعد الأَرض والمفازة ، سميت بذلك لأَنها تغول السابلة ، أَى تقذف بهم وتسقطهم وتبعدهم . وانظر اللسان (غول ٢٢) .

٦٣٩ ـ (خدع) ٤١٩ س ٢٣ وبيروت ٦٧ والمخطوطة : «يقال للشواء المخذَّع والمغلَّس » ، وردت الكلمة الأَخيرة بالغين المعجمة ، وصوابها « المعلَّس » بالعين المهملة كما فى التهذيب ١ : ١٦ ونقله عنه صاحب التاج فى (علس) . وجاء فى اللسان (علس) : «والعليس : الشواء المنضج » . وأَما مادة (غلس) فبعيدة كل البعد عن هذا الاشتقاق .

٦٤٠ ـ (خرع) ٤٢١ س ٢٢ وبيروت ٦٩ : «الجنون والطَّوَفان والثَّوَل » . وضبطت « الطوفان » بفتح الطاء والواو فى النسختين ، ولكنها وردت مهملة الضبط فى المخطوطة ، وجاءت فى التهذيب بضم الطاء ، وهو الأَقرب إلى الصواب ، إذ أَن من معانيه البلاء والموت ، ومن معانيه أَيضا ظلام الليل ، كما فى قول العجاج :

* وعمَّ طُوفان البلاء الأَثْأَبا *

وللطَّوَفان ، بالتحريك أيضا وجهٌ ، إذ هو بمعنى الطَّواف والاستدارة بالشئ .

٦٤١ – (خشع) ٤٢٤ س ١٠ وبيروت ٧١ . جاء فى التعليق على حديث : «كانت الكعبة خُشعةً على الماء فدُحيت الأرض من تحتها» ، «ويروى خَشَفة بالخاء والفاء» ، والصواب «حشَفة بالحاء والفاء» أى بالحاء المهملة ، كما فى المخطوطة والتهذيب ١ :١٥١ . ويؤكده ماجاء فى اللسان (حشف) : «والحَشَفة : صخرة رخوة فى سهل من الأَرض» ، وجاء فى الحديث أن موضع بيت الله كانت حشفة ، فدحا الله الأَرض عنها .

٦٤٢ – (خشع) ٤٢٤ س ١٣ وبيروت ٧١–٧٢ : «والعرب تقول للجَثَمة اللاطئة بالأَرض» . وردت «الجثمة» بالجيم وفتح الثاء ، وجاء بعد ذلك أيضا : «وهى الجَثَمة» بالجيم كذلك وفتح الثاء ، ووردت الكلمتان فى المخطوطة بالجيم وإسكان الثاء فيهما . وصوابهما «الحثمة» بالحاء المهملة كما فى التهذيب ١ : ١٥١ واللسان (حثم) . وثاؤها تقال بالإسكان كما تقال أيضا بالفتح .

٦٤٣ – (خضع) ٤٢٥ وبيروت ٧٢ والمخطوطة ، قول الكميت :

إذ هن لاخُضُع الحدي — ث ولا تكشَّفت المَفاصِلْ

وردت كلمة «المفاصل» بالصاد المهملة وورد بهامش الأَصل فى نسخة «الثياب» وصوابه «المفاضل» بالضاد المعجمة ، كما فى تهذيب اللغة ١ : ١٥٥

وفى اللسان : «والمِفْضل والمِفْضلة ، بكسر الميم : الثوب الذى تتفضل به المرأة» ، أى تلبسه وحده .

٦٤٤ – (خضرع) ٤٢٨ س ١٦ وبيروت ٧٥ وكذلك المخطوطة ، قول الراجز :

خُضارعٌ رُدَّ إلى أَخلاقه — لمّا نَهَتْه النفْس عن أَخلاقه

صوابه «عن إنفاقه» إى إنفاقه للمال كما هى الرواية فى جمهرة ابن دريد ٣ : ٣٩٤ والمخصص ٣ : ١٤ . والخضارع : البخيل يتسمَّح .

٦٤٥ – (درع) ٤٣٥ س ١٣ والمخطوطة «قال أَبو الأَخرر» براءين مهملتين . وفى بيروت ٨١ والتاج : «أَبوالأَخرز»

راء بعدها زاى . وهذه طينٌ على بلّة ، صوابها « أبوالأخزر » ، كما فى الصحاح واللسان (قمجر) . وأبوالأخزر الحمانى راجز معروف ، ترجم له صاحب المؤتلف ٥٢ وقال : «أحدُبنى عبدالعزى بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . وعبدالعزى هو حمان ، راجز محسن مشهور » . وذكر فى اللسان (قمر ٤٢٨) «أبو الأخزر الحُمّانى » فأصاب فى الاسم وأخطأ فى النسبة ، إذ هو «الحِمّانى » بكسر الحاء لاضمها . وأضاف اللسان أن اسمه «قتيبة » . والأخزر : الذى أقبلت حدقتاه إلى أنفه .

٦٤٦ - (دعع) ٤٣٩ س ١٧ وبيروت ٨٥ : حديث : «اللهمّ دُعّها إلى النار دعًّا » ، وفى المخطوطة : «دَعّها » ، وتقرأ هذه فى الكتابة القديمة «دِعَّها » ، إذ كانوا لايضعون الكسرة تحت الشدة فوق الحرف ، إنما يجعلون الكسرة حيثما كانت فى أسفل الحرف . ومهما يكن فإن صوابها «دُعَّهما » بضمير الاثنين . والحديث بتمامه فى مسند أحمد ٤ : ٤٢١ من حديث أبى بَرزة قال : «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فسمع رجلين يتغنيان وأحدُهما يجيب الآخر وهو يقول :

لايزال حوارىٌّ تلوح عظامه
زوى الحرب عنه أن يجنَّ فيقبرا

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انظروا من هما ؟ قال : فقالوا : فلان وفلان . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم اركسهما ركسا ودُعَّهما إلى النار دعًّا » .

وفى البيت المذكور مايسميه العروضيون «الخزم » .

٦٤٧ - (ذرع) ٤٤٨ س ١٩ وبيروت ٩٣ قول ابن قيس العدوى :

إن المذرَّع لا تُغْنَى خئولته
كالبغل يعجز عن شوط المحاضير

وفى كتاب البغال للجاحظ أنه عرهم ابن قيس الأسدى . أما «تُغنَى »فقد جانبها الصواب ، إنما هى «تغنى » كما فى كتاب البغال . ووردت الكلمة مهملة فى المخطوطة . والمذرّع هو الذى أبوه عربىٌّ وأمُه أمَة ، فمن ذلك كانت خئولته لاتغنى عنه شيئا .

وورد بعده فى الصفحة نفسها :

«والمدرعة : الضبع لتخطيط ذراعيها ».

ومن الواضح أنه تحريف مطبعى صوابه «المذرعة » بالذال المعجمة .

٦٤٨ - (ربع) ٤٥٦ س ١٣ وبيروت ١٠٠ قول لبيد :

رابط الجأش على فرجهم
أعطِفُ الجونَ بمربوعٍ مِتَلّ

والقصيدة مقيدة بالسكون فى رويّها ، فالصواب «مِتَلّ» كما فى المخطوطة وديوان لبيد ١٨٦ والمعانى الكبير لابن قتيبة ١١٠١ . ووردت الكلمة مهملة ضبط اللام فى مطبوعة اللسان (تلل) .

والمربوع : الرمح الوسط لاقصير ولاطويل والمتلُّ : الذى يُتلُّ به أى يصرع .والبيت من قصيدة أولها

إنّ تقوى ربنا خيرُ نفَلْ
وبإذن الله ريثى وعَجَلْ

٦٤٩ - (ربع) ٤٦٤ س ٢٥ وبيروت ١٠٨ والمخطوطة : «وفى التهذيب : ما فى بنى فلانٍ أحدٌ تُغنِى رباعتُه » ، صوابه «يُغْنى رباعتَه » بالياء فى يغنى ، والنصب فى رباعته . أى ليس فيهم من يحسن القيام بامور الرياسة غيره .

ومنه قول الأَخطل فى ديوانه ١٤٥ يمدح مصقلة بن هبيرة :

مافى معدّ فتىً يُغنى رِباعتَه
إذا يهمُّ بأمرٍ صالحٍ فعَلا

والرباعة هنا الرياسة ، أى لايقيم أمر الرباعة غيره . ووقع هذا البيت أيضا فى اللسان محرفا برواية : «تُغنى رباعتُه» فيكون هجواً لمعدٍّ كلِّها .والمراد أن ليس فى معد كفء للرياسة وضبط حالها وأُمورها غيره .

٦٥٠ - (ردع) ٤٨١ س ١٨ وبيروت ١٢٣ قول مجنون بنى عامر :

صفراء من بقر الجواء كأنّما
ترك الحياةَ بها رُداعُ سقيم

وفى المخطوطة « الحياه بها رُداعَ » . بإهمال كلمة «الحياه » وضبط «رداعَ » بالنصب . وصواب الكلمة الأُولى «الحياءُ » بالهمزة فى آخره مع الرفع ، كما أن صواب الأَخيرة «رداع » بالنصب كما فى المخطوطة والحماسة بشرح المرزوقى . وقال المرزوقى : «وصفها بالتهادرّية اللون ، وأنّ فيها مَشابه من

بقر الجواء ، وأنها حيية قليلة الحركات لنَعمتها ، قليلة الكلام لفرط حيائها ، فكانَّ بها نُكْسَ سَقَم ، لما ألفته من الكسل » . انظر الحاشية رقم ٥٥٣ .

٦٥١ – (رقع) ٤٩٢ س ٢ وبيروت ١٣٢ والمخطوطة ، قول الشاعر :

وما تركَ الهاجونَ لى فى أديمكم
مَصَحًّا ولكنّى أرى مترقَّعا

و « مَصَحًّا » بفتح الميم والصاد لاوجه له ، إنما هو « مُصِحًّا » ، يقال أَصَحَّ : صار صحيحا ، فهو مُصِحّ . وانظر الحيوان ٣ : ١٣٨ .

٦٥٢ – (رقع) ٤٩٢ س ١٤وبيروت ١٣٣ وكذلك المخطوطة : «ويقال للذى يزيد فى الحديث ، وهو تنبيق وترقيع وتوصيل » ، والوجه : « تبنيق » بتقديم الباء على النون ، كما فى تهذيب اللغة (رقع) . والتبنيق مأخوذ من بنيقة القميص ، وهى رقعة تكون فى موضع الجيب منه بحيث يدخل اللابس الرأس .

٦٥٣ – (ربع) ٤٩٩ س ٢١ وبيروت ١٣٩ والمخطوطة ، قول ذى الرمة :

طراقُ الخوافى واقعاً فوق رِيعة
لدى ليله فى ريشه يترقرقُ

كذا وردت كلمة « لدى » ، وصوابه « ندى لَيلِهِ » بالنون ، أى مايسقط فى الليل من الندى والبلل ؛ ينعت بازياً . ويقال :طائر طِراق الريش ، إذا ركب بعضه بعضا . وهذا الصواب مطابق لما فى اللسان (طرق ٨٩) وديوان ذى الرمة ٤٠٠ والمخصص ٨ : ١٣١ – ١٠ : ٨٣ .

الجزء العاشر

٦٥٤ (زبع) ٢ س ٥ قول متمم يرثى أخاه :

وإن تَلقَه فى الشَّرب لاتلقَ فاحشا
على الكأس ذا قاذورة متزبعا

إنما هى « الشَّرب » بفتح الشين ، وهو جماعة الشاربين . و « قازورة » وردت فى بيروت ١٤٠ : « قازوزة » بزاءين ، وكلاهما خطأ ، والصواب « قاذورة » كما فى المخطوطة واللسان (قذر) والمفضليات ٢٦٦ والاشتقاق ٢٧٨ ، ٣٧٦ . والقاذورة : الذى يتبرم بالناس ويتقذر منهم ، لسوء خلقه .

٦٥٥ – (سبع) ١٣ س ٥ وبيروت ١٥٠ قول الراجز :

ياليت أنِّى وسُبيعًا فى الغَنَمْ
والجَرْحُ منِّى فوق حَرَّارٍ أَحَمْ

وفى المخطوطة : « والحرج منى فوق حرّار أَحَم » بهذه الصورة المهملة ، وإنما هو « والخُرجُ مِنّى فوق كرَّازٍ أَجَمّْ » كما فى الصحاح وإصلاح المنطق لابن السكيت ٤٥١ والمخصص ٦ : ١٥ واللسان (كرز) . والخُرج هو جُوالق الراعى الذى يضع فيه زاده ومتاعه . والكرّاز ، كشدّاد : الكبش الذى يضع عليه الراعى كُرزه ، أى خُرجه . وأما الحرار فليس له وجه . والأَجمّ : الذى ليس له قرون . وفى اللسان : « وكبشٌ أَجمُّ لا قرنَيْ له » .

٦٥٦ـ (سرع) ١٥ س ١٤ وبيروت ١٥٢ قول الراعى :

فلو أنّ حَقّ اليوم منكم إقامة
وإن كان صَرْح قد مضى فتسرّعا

والصَرح لايمضى ولا يتسرع ، وإنما هو « سَرْحٌ » بالسين كما فى كتاب سيبويه ١ : ٤٣٩ والإنصاف ١٨٠ . والسرح : المال الراعى .

٦٥٧ـ (سفع) ٢١ س ٥ وبيروت ١٥٧ قول الشاعر :

كأنّهـــا أسفع ذوجــدّة
يَمسُده البقلُ . وليلٌ سَدى

ووضعت فى المخطوطة حاء تحت « حده » تأكيداً لإهمال الحاء ، وهو وهو خطأ صوابه « جُدَّة » بالجيم المضمومة ، كما فى البيان للجاحظ ٢ : ٢٨٨ واللسان (سدا ٩٧) . والأَسفع : الثور الوحشى الذى فى خديه سواد يضرب إلى الحمرة قليلا . والجُدّة ، بالضم : الخُطة فى ظهره تخالف لونه . والشاعر هذا هو المثقب العبدى ، كما فى البيان . والشعر فى صفة ناقة شبّهها بالثور .

٦٥٨ـ (سلع) ٢٤ س ٣ وبيروت ١٦٠ والمخطوطة ، قول الشاعر :

بسلع صفاً لم يبد للشمس بدوةً
إذا مارآه راكب . . . . أُرعدا

بترك بياض بين راكب ونهاية البيت . والبيت فى الحيوان ٤ : ٢٠٨ منسوب إلى عنترة بن شداد . وتمام عجزه كما فى الحيوان :

* إذا مارآه راكبُ اليمِّ أُرعدا *

واليم هو البحر .

٦٥٩ـ (سلع) ٢٥ س ٢ وبيروت ١٦١ : « قال الوَرَك الطائى » ، وفى تاج العروس : « قال وداك » ، صواب هذا

كله « الوَرَل » باللام كما فى المخطوطة واللسان (بقر) والحيوان ٤ : ٤٦٨ .

٦٦٠ – (سمع) ٢٧ س٧ وبيروت١٦٣ والمخطوطة ، قول الشاعر :

سماعَ الله والعلماءِ أنّى
أعوذ بخير خالك يا ابن عمرو

وصواب الرواية : «بحقو خالك» ، كما فى سيبويه ١ : ١٧٠ باتفاق نسخه . وكذا وردت على الصواب فى اللسان (حقا ٢٠٦) مسبوقة بقوله : «والعرب تقول : عُذتُ بحقوه ، إذا عاذبه ليمنعه» .

٦٦١ – (سمع) ٢٩ س ٥ وبيروت ٦٥ والمخطوطة ، قول الشاعر :

ومُسمِعتـان وزمّـارة
وظلٌّ مديدٌ وحصنٌ أنيق

والبيت لأحد السجناء كما فى البيان ٣ : ٦٣ . وصوابه «وحصنٌ أمقّ» ، كما فى البيان ومجالس ثعلب ٥٤١ واللسان (زمر ٤١٦ ومقق ٢٣٣) . والرواية فى جميعها : «ولى مُسمِعان» . والمسمع : القيد . وقال ثعلب : «المسمعتان القيدان ، كأنهما يغنيانه . وأنّث لأن أكثر ذلك للمرأة» . والزمّارة : الغلّ يوضع فى العنق . والأمقّ : الواسع . ويعيّن هذا التصحيح أن البيت الذى بعده :

وكم عائدٍ لى وكمٍ زائـر
لوآبصرنى زائرا قد شهق

٦٦٢ – (شبع) ٣٦ س ٥– ٦ وبيروت ١٧١ والمخطوطة : «وقول بشر بن المغيرة بن المهلب بن أبى صفرة» . وهذا خلط ، وإنما هو «بشر بن المغيرة ، فى المهلب بن أبى صفرة» . وانظر تهذيب اللغة ١ : ٤٤٧ والحماسة بشرح المرزوقى ٢٦٥ .

٦٦٣ – (شجع) ١٧٣ س ٢٠ وبيروت ١٧٣ والمخطوطة ، قول الشاعر :

* على شجعات لاشحاب ولاعُضلِ *

والشجعات هنا : قوائم الإبل الطوال . وكذا ورد محرفا فى تاج العروس ، وصوابه : «لاشخات» كما فى التهذيب (شجع) ، وكما توقّعه وحدَسه مصحح طبعة بولاق . والشخات : جمع شخت وشخيت ، وهو الدقيق من كل شىء .

٦٦٤ – (شرع) ٤١ س ٢ – ٣ وبيروت ١٧٥ : «لاتحتاج مع ظهور ماها إلى نزع بالعَلَق من البئر ولاحَى

فى الحوض » . وإنما الحثى للتراب ونحوه، وصوابه « ولا جَبْى فى الحوض » كما فى التهذيب (شرع) . وجبى الماء فى الحوض : جمعه . ووردت الكلمة فى المخطوطة مهملة النقط إهمالا تامًّا .

٦٦٥ ـ (شرع) ٤١ س ١٧ وبيروت ١٧٦ والمخطوطة : «فمعنى أقوى وأقفر واحد على الخلوة » وتمام العبارة كما فى التهذيب : «واحديدلّ على الخلوة » فسقطت من الأصل كلمة « يدل » .

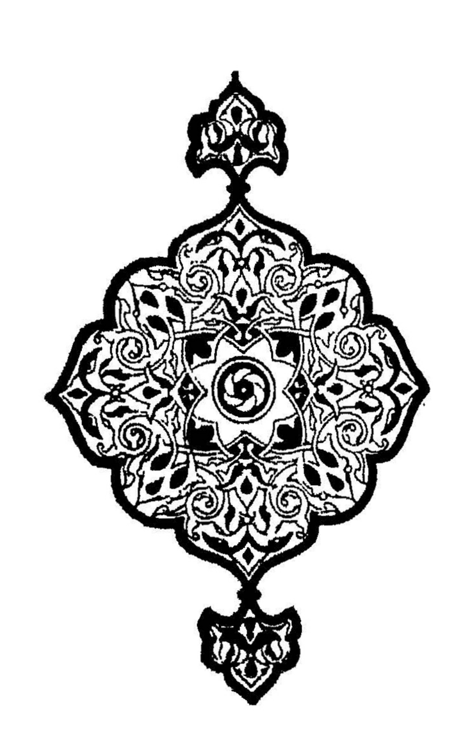
٦٦٦ ـ (شرع) ٤٢ س ١٠ والمخطوطة : قول الخليل يذم رجلا :

فَكفٌّ عن الخير مقبوضة
كما خطّ عن مائة سبعه

وجاءت فى بيروت ١٧٦ : «كما حُطَّ » بالحاء المهملة على الصواب ، كما فى التهذيب ودلائل الإعجاز ١٧٨ ورواية أدب الكتاب للصولى ٢٤١ :

* كما نقصت مائة سبعه *

عبد السلام محمد هارون
عضو المجمع





ربما تساءل أحدكم : لم الفن؟
فنعقب بسؤال آخر :

ولم لا الفن ؟

ليس للفلسفة موضوع محدد ، كل الموضوعات تدخل فى نطاقها . فكما أنه : « لا يملأ بطن ابن آدم إلا التراب » ، طبقا للحديث النبوى ، يحق لنا أن نؤكد أنه لا يشبع فكر الفيلسوف حتى التراب . تشتغل الفلسفة بكل المواضيع التى تهم الإنسان ، وتتطلع دائما إلى أخرى ، فهى ، كما يقول القرآن الكريم عن جهنم : (يوم نقول لجهنم : هل امتلأتِ وتقول : هل من مزيد ؟) (١) فعدم قناعة الفلسفة بأى موضوع ، وفضولها فى كل الميادين هو تعريفها ، إن كانت تقبل أن تعطى تعريفا مّا ، ولو مؤقتا وتقريبيا . يقول المفكر الألمانى المعاصر (كارل ياسبيرس Karl Jaspers) : « الأسئلة أهم من الأجوبة ، لأن كل جواب سيصبح سؤالا جديدا » . ف (ياسبيرس) لم يعط تعريفا للفلسفة ، ولكنه أبرز جانبا هاما يقرب من التعرف عليها .

صدق التجربة

إننا مضطرون إلى أن ندخل على قولة (ياسبيرس) تعديلا : الفلسفة ، كما يظهر لنا ، لا تهتم بأسبقية الأسئلة على الأجوبة ، ولا تجعل من الجواب سؤالا . فالذى يهم الفلسفة ، بالدرجة الأولى ، هو أن يحيا السائل سؤاله ، والمجيب جوابه ، هو أن تشترك الأجوبة مع الأسئلة ، فى نفس التوتر وفى نفس الحيرة ، لأن الجواب ينبع من العين التى يتفجر عنها السؤال ، العين الواحدة التى هى صدق التجربة .

(١) سورة ق : الآية ٣٠

الفن الحق هو أيضا تجربة تكتسب صدق حيويتها من التوتر النفسانى أو الفكرى ، المنبعث من تساؤل وجواب عن رؤى الفنان ووجدانه ومصيره . نجد الفنان ، فى نهاية المطاف ،وقد تجلت تجربته فى إبداعه . فعلى مستوى التجربة الصادقة يتصل الفن بالفلسفة ، إذ تجربة الفنان إنما هى تعبير خاص عن مضمون ما يعبر عنه الفيلسوف ، وإن اختلفت التعابير . فالمضمونات موحدة فى الأهداف والخاصيات .

* * *

عرَّف اليونان ورثتهم الفلسفة بأنها « محبة الحكمة » ، وهو تعريف لم يعد صحيحا ، لأنه يتعدى الفلسفة ليشمل مجموع اهتمامات الإنسان ، من أنواع العلم والفن والسياسة والاقتصاد . فالحكمة إذا رجعنا إلى الجذر اللغوى العربى ، وجدنا أن معناها مطابق لمعانى الفلسفة المعاصرة . الحكمة = الكلام الموافق للحق ، صواب الأمر وسداده .

ويفسر عبد الله بن عباس « حكمة » ، فى القرآن الكريم ، بتعلم الحلال والحرام (وهو معنى أخلاقى عام ، وإسلامى خاص) . وقيل : الحكمة هى الكلام المعقول المصون عن الحشو [١] . إذن ، الحكمة — كل ما يمنع من الجهل ، والظلم ، والخطأ. ومنه أيضا إتقان الشىء والتمكن منه فالحكيم ، فى تونس مثلا . هو الطبيب . لأن من الحكمة منع المرض وإتقان « فنون » العلاج [٣] .

على هذا ، يجوز لنا أن نؤكد أن معنى الفلسفة هو أنها لا تنطوى تحت معنى واحد .

* * *

(١) انظر : على الجرجانى ، التعريفات (٢) انظر : أحمد بن فارس ، معجم مقاييس اللغة

(٣) الطب : (أ) علاج الجسد والنفس (عن تاج العروس)

(ب) السحر ؛ والرفق (نفس المصدر) .

(ج) المهارة والحذق (أبو حيان التوحيدى) . كل حاذق بعلمه يسميه العرب « طبيبا » . من ذلك قولهم : « اصنعه صنعة من طب لمن حب » ، و « اعمل فى هذا عمل من طاب لمن حب » . وجاء فى بيت ينسب لعلقمة : « فإن تسألونى فى النساء فإننى بصير بأدواء النساء طبيب »

الإنسان والطبيعة

كل فن إن هو إلا تداخل صميمى بين الطبيعة والإنسان : اندماج فى الطبيعة وأنسنتها فى تركيب متناسق ، ولكنه تركيب يحافظ على الخاصيات الذاتية للفنان وللطبيعة . والاندماج مهما بلغ فى العمق ، يُبقى نقط الاستفهام قائمة تفصل ، بخطوطها السحرية ، بين عالم الذات وعالم الموضوع ، بين المشاهدة والمشاهِد (بكسر الهاء) ، والمشاهَد (بفتح الهاء) . ويمكننا أن نضيف بأنه ، حتى فى ميدان الذات ، لا بد من التفرقة بين المفاهيم ، مثلا : بين الحب والمحب والمحبوب . فى ذلك البون يوجد المجال الشاسع للعمل الفلسفى ، وللإبداع الفنى .

إنها مفارقة ! ولكن المفارقة ، فى نفس الوقت ، عبث وغنى . فالفنان ، منذ كان وهو ، كالفيلسوف ، حليف للسر والغموض والمفارقات ، فلو كشف له الغطاء لنزف معين الايحاءات الخلاقة . فالروعة ، كل روعة ، فى تعاون الوجدان والتخيل مع الحدس والعقل ، على مصارعة الغامض والمجهول ، لإرغام الطبيعة على إزاحة شىء مّا من اللثام الغليظ الملقى على كيانها .

إن التخيل يتحدى الفنان ، كما يتحدى العالم الذى يفرض الفروض قبل أن يقوم بالتجارب فى الطبيعة ليسيطر عليها . فالشاعر ، والنحات ، . . . يخصبان إمكانيات العالم ، والعلم يفتح آفاق الكون أمام الفن . فالأمم التى تتكلح مخيلتها يجف معين الفنون عندها ، فتجهل العلوم والفلسفة . الكون ، بما فيه الإنسان أكثر ثراءً من المادة ، ومن الذات ، ومن الفن ، ومن الفلسفة ، ومن العلم ، لأنه طبيعة فيها ذات مع ذوات ، تحس ، وتتفلسف وتعلم . إن الإنسان لا يولد فى الطبيعة ، كبقية الحيوانات ، بل يولد فى الثقافة : يفتح عينيه على طبيعة تخضع إلى مكتسبات تاريخية ، إلى اختراعات واكتشافات وتقنيات ، وتقنينات . فبوصفنا ذوات شاعرة تحيا بالتخيل والعقل والحدس والفضول ، ننزع من الطبيعة أسرارها ، ونؤنسن كل شىء حولنا : تلك وظيفتنا .

* * *

كل الأحداث التى ينسج منها تاريخ البشر إن هى إلا مراحل فى تطور وتمتين

علاقات الإنسان بالطبيعة . لقد كان دائما ـ وما زال ـ الإنسان والطبيعة كعاشقين يتراوغان ، رغم ترابط مصيرهما ، كلاهما يظهر قليلا من صميمته للآخر ، ويتستر عنه لينمى الإغراء . هذا ما يجعل الإنسان مغامرًا حتى جنون الفن ، وفضول العلم ، وجدلية الفلسفة .

وبقدر ما يتقدم التاريخ بالإنسان يزداد غذاؤه من التخيلات ، والمفاهيم ، والرؤى والأَحلام ، والإشارات والرموز . عندما أخرج (فرويد) كتابه «تفسير الأَحلام» ، الذى فتح آفاقا شاسعة للسيكولوجيا المرضية وللأنثربولوجيا هُوجِمَ بعنف من طرف علماء معاصرين ، مثل (ليمان) ، من جامعة (برلين) ، الذى كتب عنه :

«لقد انتصرت عند (فرويد) الأَفكار الخيالية للفنان على الباحث العلمى» .

إنه انتقاد يجلى (من غير قصد) واقعا أصبحنا اليوم نعيه وعيا ثابتا : الكشوفات العلمية لا تستغنى عن الحدس والخيال الفنى . فالنظرة الساذجة إلى العالم هى المدخل إلى كل معرفة ، ثم تتعقد الأُمور بتدخل المنطق والتجربة ، من أجل البرهنة والتقنين .

الذاتية :

عالم الفن عالم غريب ، فيه تلتقى الذات بالطبيعة .

ولكن : ما الذات ؟

لن نستطيع أن نتعرف عليها إذا نحن لم نحدد ، أولاً ، ما نعنى بـ «طبيعة» . والطبيعة ، هى بدورها ، ترفض كل تحديد لها لا يبدأ بتعريف الذات . هنا ، أيضا ، يلتقى العلم بالفن وبالفلسفة ليقفوا جميعا حيارى .

يصرح العلم :

سأكتفى بتسجيل العجز وفرض الفروض لأَبنى عليها أجهزة تركيبية من الملاحظات والتجارب ، ثم أَسير كما لو كانت الحقيقة كمشة فى يدى .

ويقول الفن :

أَنغمر فى حقيقة الغموض وأمزجها بغموض الحقيقة ، وأَسقى الناس من هذا التركيب ، فى آنية من الرموز .

أما الفلسفة فتكتفي بالتصريح بأنها :

مباريات دائمة بين فِرَقٍ من نقط الاستفهام . دورها أن تتساءل باضطراد عن فعاليات العالم ، وفعاليات الفنان ، وعن ماهية العلم والفن .

الإنسان كائن خلق من صراع الذات والطبيعة ، صراع المواجهة والتلاحم . يندهش البدائى أمام مظاهر وظاهرات الطبيعة ، كما اندهش قدماء فلاسفة اليونان الذين ادعوا أن كل الأشياء مليئة بالالهة . الفنان يسكن الأشياء ويحيا معها ، يحياها ، لذا قيل عن الشاعر إنه مسحور ، إنه مجنون ، وضعفوا شخصيته كما فعل العرب إذ نسبوا لكل شاعر شيطانا يوحى إليه . يقول أبو النجم :

إنى ، وكل ساحـــر من البشر

شيطانه أُنثى ، وشيطانى ذكـــر

والشيطان ملك عاص ، كما فى الفكر السامى ، أو من أُسَر الآلهة ، كما عند اليونان والرومان .

* * *

يفرض العالم على الطبيعة أن تدخل معه فى حواره .

والفنان يجعل الفراغ يتحدث ، يحمله أكثر من معنى : ننظر إلى لوحة زيتية ، فنتواصل مع ألوانها وخطوطها . ولكن ما فيها من فضاء فارغ من السطور والأصباغ ، هو أيضا ، يشارك فى التعبير الفنى . فلو أن الفنان ملأ كل اللوحة خطوطا وألوانا ما كان فن ، نعنى ما حصل تواصل بين الذات والطبيعة . فالذى يهرق محبرة المداد على ورقة لا يعطينا فنا.

الشعر تقاطيع : الشطر الأول من البيت والشطر الثانى يجمعهما فراغ ما بين الشطرين ، فيكونان وحدة ، ويعود الشاعر إلى السطر ، فيكون بين البيت وما سبقه فضاء ، ويسكت الشاعر بين الأبيات ، مجزئا الزمان إلى وحدات .

والغناء تقاطيع ، المد والحمل ، ممـا يجعل الكلمات العادية موسيقية ، مضيئة لكل واحدة شخصيتها ، تسفر عن عذوبة أو عن حرارة . فالموسيقى والشاعر يكشفان عما فى الكلمة من حياة ، ومن حنان أو جبروت ، ويشحنانها ، أحيانا ، بمعان جديدة .

* * *

نظرتان : غربية وشرقية :

يعطى الفن الغربى ، منذ الإغريق حتى يومنا هذا ، أكبر عنايته لما فى الصورة الشخصية البشرية من لطف وتعبير ، ولما للجسد الإنسانى من نعومة ومرونة ، سواء فى النحت أو فى الفن التشكيلى . أما الفنان الصينى والفنان اليابانى فيهتمان ، أكثر ، بالمناظر الطبيعية ، بجمال الطيور والأزهار .

جانبان مختلفان من جوانب التزام الفن لحل ألغاز الكون : الغربى أدهشته ذاتية الكائن البشرى ،والفنانون الشرقيون بهرتهم شيئية وحيوية الكائنات الطبيعية . فالجمع بين النوعين من الفن يبرز الإطار العام للمصير الإنسانى : البحث عن المبدأ الحى ، المبدأ الروحى السارى فى العالم والذى هو مصدر الجمال والقبح ، الخير والشر .

من هنا تبدأ كل ميطافيزيقا .

* * *

يحاول الفنان أن يجعل الأشياء تعكس ما يحمل الإنسان فى ذاته من أسرار ، وأن يستغل مواهبه فى إجلاء إبهامات الطبيعة ، على شكل مّا ، فنشاهد أنفسنا فى الأشياء وبفضل الأشياء :

إنها تذكرة ، وأكثر من تذكرة ، إنه إيحاء ، وأغنى من أى إيحاء ذلك الكشف الكلى الذى يغشانا عند المشاهدة المباشرة للقبلة وقد نحتها فنان ، فى قطعة من مرمر . إن الفنان لا يعبر عن القبلة بجعل فم فوق فم ، فالتصاق شفتين بشفتين يعطى صورة ظاهرة عن عملية التقبيل ، لا التعبير الصادق عن أسرار القبلة ، عما تكنه القبلة فى أغوارها من أبعاد ميطافيزيقية . فكثيرا ما نرى فماً فوق فم ، ولكنها عملية لا تتعرى من سطحيتها . تنكشف القبلة عن أبعاد الوجدان اللامتناهية وعن الوجود عندما نشاهدها مجسدة فى الرخام وقد أعاد لها منقش الفنان حقيقتها العليا : رعشة عنيفة يذوب فيها جَسَدَان بحثا عن أغوار وجود أعمق. إنه اكتشاف « الروح » وقد تمسكت من مجموع إمكانيات الجسد . إنه لغز الحلول ، حلول شخصين فى حلم الأبدية ، بعد أن أصبح الرخام شاهدا على قدرة مقص الفنان الذى يكسب الجمادات تعبيرا

فصيحا ، ويدوخ القوى الطبيعية لمشيئة الإنسان . يود المرمر لو يقول : إنى حى ، إنى عاشق ، ولكنه يكتفى بالتصريح : أنا ترجمان ، من بين تراجمة الإنسان .

* * *

البعد الأنطولوجى للفن

أبرز علم الأوثنولوجيا المكانة التى يتبوؤها الفكر الأسطورى لدى «البدائيين» مع مقارنة مميزاته الكبرى بخاصيات الفكر العقلانى . فوصلت الأوثنولوجيا إلى هذه النتيجة : على رأس مميزات الفكر البدائى والفكر العقلانى معا ، حدث خاص ، هو أن فى أكثرية العمليات الذهنية ، يمتزج صميميا ، التخيل بالرغبات ، ومن هنا يكتسب قوته على الخير وعلى الشر . فالفنون التشكيلية أصيلة فى طبيعتنا ؛ لأن كل صورة تنبعث عن التخيل وعن رغبة ، فى آن واحد . يجوز لنا أن نستنتج من هذا أن الغرائز البشرية تجد أفصح تعابير عنها فى الأجهزة الفيزيولوجية والبيولوجية للجسد ، أما الوجدانيات فهى فى توتر دائم باحثة عن وسائل تعبيرية ، وإلى الآن لم تجد إلا الفنون . فكما ادعى (أفلاطون) أن فى روحنا فنانا يرسم صورة الموضوعات التى يقدمها الإحساس. أشياؤنا تشهد علينا ومن ثمة كانت الفنون أوثق وأغنى رجع لتاريخ الإنسانية تاريخها النفسانى والموضوعى ، لأن المؤرخين للوقائع لا يعطوننا لويمات الحياة الفكرية والعاطفية ، بل يكتفون بتسجيل الأحداث الظاهرة ذات القالب الكبير : الوقائع كمعطيات خام . فلولا الفنان ما كان تارخ حق ، لا بالنسبة للأمم ولا بالنسبة للأفراد .

* * *

أدوار النقد

قد اقتضت الأوضاع أن يتكون رهط من الاختصاصيين يقربون الشقة بين الفنان والمؤرخ ، وبين الإنتاج الفنى والجمهور ، هم النقاد .

ليس دور الناقد أن يؤرخ للأدب وللفن ، بل أن يقيم الإنتاج ، أن يعين على اكتشافه وإبراز ما قد يتستر عن إدراك المستهلك العادى .

دور الناقد دور وساطة وإرشاد للمنتجين والجمهور . النقد الجيد توجيه مجد ، يعيننا على اختيار ما يجب أن نتعرف عليه ، وما ينبغي أن نعيد قراءته ، أو أن نحج إلى المتحف لنشاهده مرة أخرى دور الناقد أن ينقب عما هو جديد جدير بالاهتمام ، وأن يفضح السطو ، جاعلا من الأمانة معيار الأصالة . الناقد على بصيرة مما يجرى فى ميدانه . إنه شاهد عيان يثرى حساسيتنا ، على الدوام .

إذا كانت هذه هى خطورة المهام التى يطالب بها الناقد ، وجب عليه أن يعرف تاريخ الثقافات ، ليرى نقط الاتصال ونقط الاختلاف ، فيوحى بالطريق المثرى للذهنية الإنسانية ، يبنى الجسور بين الماضى والحاضر والمستقبل .

وربما كانت كتابات الناقد أخصب من كتابات وألواح المبتكرين . إنه ، كما نرى ، عبء كبير لا يقدر على تحمله إلا قلة القليل . وهذا ما حدا اليوم بالجامعات ، إلى تأسيس كراسى للنقد .

أصبح النقد علما يخضع لقوانين ، من أهمها ، أو أهمها ، العمل على تفهيم الكتاب أو التمثيلية أو القطعة الموسيقية أو اللوحة ، والتساؤل عن الإنتاج – فى – ذاته ، لا على ما فيه من صالح لأن يستغل فى الدعايات والشوفينية . فالجامعى يسمو عن تسخير البحث العلمى لما يتعارض مع كرامة الحقيقة . فآدابنا العربية وفنوننا معرضة لمهاترات النقاد الارتجاليين ، يرفعون للسماء من شاؤوا ، على حساب القيم الحقيقية ، مقابل صدقات ، أو مجاملة للصداقات . فإذا يئس الناقد من الهبات ، ولم تتوفر أغراض أخرى ، هاجم الآثار ليكسر إنتاجا فى تصاعده .

نعم ، دور النقد خطير ، لأنه يرمى إلى تنمية الذوق والثقافة بربط الصلة بين رسالة المبدعين والجمهور . يقود الناقد إلى المعركة التى ينتصر فيها الشعور والفكر والذوق السليم على اللامبالاة ، وتنتصر الإصاغة على التهجى ، إنها مغامرة لتغيير الإحساس الساذج إلى سلوك ورؤى . ويعمل الناقد على تخليد الأموات ، مزيحا عنهم غبار النسيان ، إذ يجعلهم مرجعا ، فى مقارناته ، وفى أحكامه على المعاصرين .

ما يتطلب من الناقد هو ثقافة عامة ، مع رؤية شمولية ، وهذا ما تقدمه الفلسفة. فليس ، إذن ، بعجيب أن يهتم الفلاسفة منذ أقدم العصور حتى اليوم ، بـ «علم» النقد ، أو «فن» النقد. لقد رأينا أن دور الناقد دور وساطة بين المنتجين والمستهلكين وهل دور الفيلسوف إلا دور وساطة ؟ إنها وساطه بين مختلف الفنون وبين أصناف المعرفة . فلا غرابة أن يهتم الفلاسفة — المعاصرون بمختلف الفنون ، مثل (برغسون) و (باشلار) و (شول) ، و (كْرُوتْشي)

* * *

عبثية المصير :

مصدر كل الفنون هو الدين والميول الجنسية .

كان الرقص يرمى إلى غيبوبة الوجد للتعبير عن التفانى فى حب الآلهة ، وهو ، فى نفس الوقت ، تصعيد لرغبات لاشعورية (كما حلل ذلك فرويد) . كان الرقص دوما توأما للطرب ، وبالتالى للشعر .

ويلتحم الرقص مع الطرب ومع الشعر فى التمثيل ، وهو مجموع تعابير تعبدية لاستعطاف الآلهة ، أو تعابير رامزة إلى ميول غامضة يجسدها الممثل بالحركات والأقنعة . فالفن المسرحى يكون تأليفا يضم أنواع الفن إلى العامل الدينى وإلى الخرافة .

أما اليوم ، فمختلف أصناف الفن قد تحررت ، إلى حد بعيد ، من عبء ماضى الولادة ومن مرحلة الحبو ، وأخذت ترمى إلى التأكيد بأنه : لا محاكاة الآلهة ، ولا متعة الزخرفة والزينة بقادرة على مواجهة المصير ، مصير عالم يتغير بسرعة لا يستطيع الإنسان أن يماشيها . فى عدم التوازى بين إيقاع نمو التقنيات وإيقاع قوتنا على التكيف ، منبع الحيرة والعبث .

* * *

مشكلة العصر هى الشوق المصدوم إلى تكيف مستمر مع ما تتمخض عنه — يوميا — الصناعة وتطبيقاتها فى الحياة المجتمعية . فـ (كافكا Kafka) يعطى صورة مزعجة عن هذا الوضع الذى مسخ الإنسان وحوله إلى حشرة حقيرة . أصبحنا نحن جميعا محاصرين بـ «جدار الصين» العتيد ، ومتهمين ، دون أن نعرف شيئا عن التهمة ولا عمن يتهمنا .

ويردد صدى هذه المأساة (ألبير كامو Camus) إذ يسمى الحياة بـ «الطاعون» :

الوباء يجتاح مدينة (وهران) ، لكن الأنانية تعمى القوم فيعمل كل على إنقاذ نفسه ، أو استغلال الحال لصالحه ،باستثناء أقلية ، كالدكتور (ريبو) .

إذن : الحياة مجرد عبث . تلك نظرة (كافكا) و (كامو) .

فإذا سألنا : هل من منقذ ؟

أجاب المؤلف المسرحي (بيكيط Beckott) :

«انتظروا جودو» !

(جودو) إله لم نتخذ معه موعدا . فلن يأتي ، ذلك الأصم – الأبكم ، مهما طال الانتظار ، ومع ذلك يجب أن ننتظر !

فلنتمرد ، مع أبطال (كامو) ،ولنعش القرف والغثيان ، مع أبطال (سارتر) ، فهذا لا يغير شيئا من الوضع .

نجد عند أبي حيان التوحيدى صدى قويا لهذه التجربة : قلق ، وحسرة ، وشعور بالضياع . لقد عبر عن إحساساته بصدق ، إلا أنه بقى فى مستوى تجربة فردية ،يحياها دون أن يتجاوزها . فالأديب ، أو الفنان ، يسبر غور التجربة ، ويشخصها ، تاركا النظريات والعلاج للفيلسوف . فلنستمع إلى الشاعر أبي القاسم الشابي يحكى عن تحرقه :

يا ربة الشعر والأحلام ، غنِّينى !
فقد سئمت وجوم الكون من حين
ناحت بنفسى مآسيها ، وما وجدت
قلبا عطوفا يسليها ، فعزِّينى !
وهدَّ من خلدى نوح ترجعه
بلوى الحياة وأحزان المساكين .
على الحياة ، أنا أبكى لشقوتها ،
فمن ، إذا مت ، يبكيها ويبكينى ؟
لولاك فى هذه الدنيا لما لمست
أوتار روحى أصوات الأفانين
ولا استخف حياتى ، وهى هائمة
فجر الهوى فى جفون الخرَّد العين

* * *

مواقف الفلسفة والفن من هذه الأوضاع :

والآن : ما موقف الفن والفلسفة ؟

لقد بلوروا مفهوم «إنسان» ، فأبرزا أبعادا جديدة : الإنسان هو الكائن الذى يحيا مع فكرة الموت المحتم ، ومع ذلك يتجاوز الموقف العبثى والمفارقات ليحقق

إنسانيته فى تحدٍّ مستمر : فبتعاون الفلسفة والفن ، يقوى الإنسان قدرته على التحدى الذى تفرضه عليه الحياة ، واليوم أكثر من ذى قبل .

إن الثقافة الفنية والفلسفية سلاحان فى معركة المصير من أجل السيطرة على تاريخ لبيئة الإنسانية .

* * *

يسير نمو الذهنية على إيقاع النمو العام . فإنسان اليوم مطالب بالتكيف مع الحاجات عصرنا الجبار ، دون أن يتخلى عن أفضل مُكْتَسَبَاتِ الماضى . فالذى يرفض تحقيق هذه العملية تسحقه الأزمات ويصبح غير متشبث بالتاريخ .

الإنسانية ، الآن ، فى فترة المواجهة الكبرى مع واقع جديد . عنيف ، مستعجل لا ينتظر . فوعى هذه الحقيقة ، يرغمنا على ألا نطيل الوقوف أمام حائط المبكى الذى شيده (كافكا) و (كامو) وغيرهما على العبث والغصة النفسانية .

لا يكفى أن نشخص الكائن البشرى ، علينا أن نتفهمه وأن نؤمن بحضورنا فى العالم ، نتغير بتغيره . فتنضج إنسانيتنا ، بقدر ما تنضج الإمكانيات المادية والتقنية .

* * *

هناك اتجاه إنسانى (Humanisme)[1] جديد يحاول أن يعطى للإنسان ثقة قوية بإمكانياته الذاتية : الإنسان يحقق مصيره كاملا ، دون أية معونة خارجية ، إذ يجد فى ذاته الجذور الميتافيزيقية للوجود ، بها يصارع ميتافيزيقا المطلق .

على هذا الممشى ، يسير الوجوديون الملحدون ، مع مطالبة الفلسفة والفن بأن يبحثا عن جذور الوجود فى تعاون صميمى .

يلاحظ (هايدجر Heidegger) أن المفكرين الأوربيين ارتكبوا غلطا فادحا عندما اعتبروا « الكينونة » موضوعا كبقية الموضوعات ، وافترضوا أن حقيقة التفكير الفلسفى تقوم على مطابقته للموضوع . فالوجود الحقيقى ليس هو الظاهرات ، بل

---

(١) يطلق الأستاذ علال الفاسى لفظة « إنسية » على Humanisme ، وهذا توليد موفق . واللفظة قديمة ، وردت عند المعرى فى (رسالة الغفران ، ص ٢٠٥ ، القاهرة ، دار المعارف) وتأتى نعتا لما هو من خاصيات الإنسان ، فبعد أن سأل ابن القارح عن لغات الجن ، يجيب الجن (أبو هدرش) : « إنا أهل ذكاء وفطن ، ولا بد لأحدنا أن يكون عارفا بجميع الألسن الإنسية »

« الشيء – في – ذاته » . كما عند – (كانط) . ولكن ، لنفهم الشئ – في – ذاته ، أو الكينونة ، يجب أن ننطلق من كينو نتنا نحن : إني أدرك أن الكينونة وجود في كينونتي أنا .

بناء على هذه النظرية الوجودية ، بوسعنا أن نوكد أنه يجب على البحث العلمي ، هو أيضا . أن يبدأ من كينونتي ، من وجداني كالفنون سواء بسواء ، ما دام مصدر كل الفعاليات هو الموجود الذاتي . لذا اهتم (هايديجر) بالفنون ، خصوصا بالشعر ، فخصص كتابا لقصائد (هولديرين Holdorlin) كما ركز (ميولوبونتي Morleau-Ponty) آراءه الفلسفية ، في غير ما دراسة ، على أمثلة من الفنون التشكيلية ومن السينمائية . أما (سارتر) فقد وسع نطاق الاتصال ؛ فهو ، في مغامرة البحث عن جذور الوجود ، يتفلسف ، ويكتب القصة والمسرحية ، ويؤلف عن الشاعر (بودلير) وعن القصصي (جان جونى Jean Gonot) ، ويحرر المقالات عن الفنون التشكيلية وعن النقد الأدبي ، كما يستغل الفن السينمائي . وهكذا أعطى (سارتر) مثالا على قرابة الفلسفة بالفنون الأدبية ، بما يلقي أضواء على أنماط التعبير في الأنطولوجيا المعاصرة

* * *

المطلق والوجود :

إن النزعة التي رأينا خطها الكبير عند (سارتر) و (هايديجر) ، تستهدف تركيز الوجود الإنساني والكينونة الكونية في الإنسان ، وكأنها تستبدل ميطافيزيقا المطلق بميطافيزيقا وجودية .

فهل في استبدال المطلق (الله) بمطلق آخر (الإنسان) ربح للإنسانية ؟

إن الانتقال من الكائن البشري المفرد إلى مجموع النوع الإنساني ، أو فحسب إلى مجرد هيئة محدودة ، قد يؤدي بنا إلى مفاهيم مجردة غامضة كثيرا ما انتقدها الإلحاد على الدين ، طبعا ، يرجع فضل كبير إلى الوجودية والأنطولوجيا المعاصرة ؛ وإلى الفنون الحديثة ، في إجلاء صميمية الإنسان كفرد ، وبلورة قيمها وخصائصها

لكن ، هل من نظرية أو منهج لمعاناة المحافظة على الكينونة الفردية ، في صفائها ع اعتبارها ينبوع كل وجود ؟

كيف يحصل التواصل بين كينونة فرد وكينونات الآخرين ؟

الصميمية تمارس فى ارتباط « أنا » ب « نحن » . لأن العزلة تفقر الوجدان وتصب الضباب على الوجود .

هناك وجه اعتراض مشابه من طرف أنصار التصوف على نظرية المعتزلة المنكرين لروية الله :

إذا امتنعت الرؤية الإلهية فى الآخرة ، فما فائدة الجنة ؟

أليس النظر إلى وجه الحبيب أكبر نعيم وأجلى ضياءً من كل جنة ؟ فالجحيم والحرمان هما الحجز عن الرؤية :

« وإذا اكتفى غيرى بطيف خياله
فأنا الذى ، بوصاله ، لا أكتفى »

وكأن (لامرتين Lamartine) يردد صدى هذا البيت إذ يقول :

« يكفى أن تفقد كائنا واحدا لتصبح دنياك قفراء » .

نعم ، (سارتر) على حق عندما أكد أن « الجحيم هم الآخرون » . ولكن ، هذه قولة ناقصة إذا لم يضف إليها : والجنة ، كذلك ، هم الآخرون .

المشكلة هى أن يتأنسن العالم والمستقبل ، وهذا لن يتم بالأفراد ، بل بالناس ، نعنى بكائنات بشرية تشخصت كينونتها بفضل تداخل الذوات ، أى بالتواصل مع الآخرين .

* * *

التواصل :

هنا نقطة التلاقى بين الفن والفلسفة :

كيف يحصل تواصل « أنا » بآخرين ؟

مشكلة قديمة ، ولكنها أصبحت اليوم هى المشكلة الأساسية : تضعها المسرحيات مثلها فى ذلك مثل الشعر المعاصر ، والموسيقى الجديدة ، والنحت . . . الكل يجرى وراء أسرار قلق العصر وما يغلف تواصلنا من إبهام وغموض ؛ الكل يعمل على بلورة غمراتنا النفسانية ، كأن العالم حامل ، والجميع يسهم فى تهيىء الجو للمولود المنتظر ، مع رجاء ، وخوف ، وقلق ، وتمرد أحيانا . فكما يقول (جان كوكطو Jean Cocteau)

« الشعر يشبه كارثات القطار : لا تفسر ، وإنما نحس بها » .

أصبح الفن صراعا وتحديا . لأننا نعيش توترا عالميا ، ومن هنا جاءت قضية الالتزام ، وبات تداخل الفنون مع الفلسفة والعلوم أمرا لازما : الجميع يعيش نفس الوضع الدرامي ؛ فغناء ورقص الخنافيس إن هما ، كذلك ، إلا تعبير عن التمرد ضد الدراما .

*

يعيش الفلاسفة نفس الوضع ، بنفس المشاعر . لذا يطلبون النجدة من العلوم الطبيعية ، والاقتصاد ، والتاريخ ، ومن الفنون ، ويتجلى هذا واضحا في الحظوة التي تعطيها الفلسفة اليوم للسانيات (la linguistique) ، ولمنهجية العلوم وللأنثروبولوجيا ، ولتاريخ الفنون . لتتضح لها معالم المشكلية (la problématique) المعاصرة .

لقد انتهى عصر ثنائية الروح والجسد ودخل الجسد في الفلسفة كمواطن معترف به ، تتساوى حاجياته مع الحاجيات المعنوية . فالحب (في معنى العملية الجنسية) تدرسه الفلسفة بنفس الاعتبار الذي تدرس به أي موضوع آخر ، فلا تفضل عليه الحب العذري ، أو الأفلاطوني ، ولا الحب الصوفي .

ربما وجد المفكرون ، في الحب الجنسي مفتاحا لمعرفة التواصل . هكذا تأسست «السيكسيولوجيا » soxiologie بعد أن أخذت معطياتها الأولى من الفنون ومن الفلسفة . إنها علم خاص ، يتخذ من الفعلة الجنسية ، والرغبات ، والانفعالات النفسانية والجسدية والمجتمعية ،موضوعات أساساً للتعرف على الإنسان . هكذا ، اكتشفت دينامية الجسد اللامتناهية ، وبدأت تخرج من ظلامها الحالك لتضيء لنا مفهوم الإنسان .

* * *

الفن يضيف إلى الطبيعة ، لا ينسخها :

تعلمنا أيضا ، بفضل الأبحاث الفلسفية المعاصرة وإيحاءات الفن الجديد ، أن زمنية الوجدان تخالف زمان الطبيعة ، وأن للأشياء حيزا ، أما الإنسان فأوسع من الفضاء .

هذا واضح في الفن التشكيلي التجريدي فما تعبر عنه اللوحة ينفتح على أكثر ما يمكن من التأويلات ، لأن ما عند الفنان

أكبر مما تسمح به الألوان ، والظلال ، وأبعاد اللوحة . قيل لـ (جورج براك J. Braque) أمام لوحة تصور طبيعة ميتة :

« إن هذه الإضاءة غير موجودة فى الطبيعة »

فأجاب :

« إذن . أنا لست من الطبيعة » .

وسئل أيضا :

« وهذا النور ، هو الآخر ، من أين أتى ؟ » .

فصرخ الفنان

« إنها لوحة جديدة لا تعرفونها » .

لقد تغافل السائل عن أن البعد الأساسى فى كل عمل فنى ، هو ما يضاف إلى الطبيعة هو العنصر الإنسانى الذى ينفخه الفنان من أنفاسه وعرقه ورعشاته

فعندما نقف ، فى الهند ، أمام عجل منحوت ، لا نشاهد شكلا من أشكال البقر الطبيعية ، ولكننا نشعر بحضور عجل صدر عن إحساس ، شوهد فى رؤيا داخلية . إنه شبه طبعة ثانية مزيدة ومنقحة . فلولا ذاك العطاء المزيد ، لما كان فن أو تعبير ، ولما كان تفاعل بين الطبيعة الخام ووجدان — الإنسان .

إن حزنا غريبا يغمرنا عندما نقرأ هذا التصريح للكاتبة (كاترين مانفيلد K. Manfield) :

« أنظر إلى الجبال ، وليست سوى جبال الأشياء التى أرى » .

فالفنانة العظيمة لم تتفاعل مع الطبيعة ، لم ترأ كثر مما يمكن أن تسجله آلة فوتوغرافية ، لم تؤنسن المنظر بعطاء ، فكأن وجدانها انكمش على ذاته تحت عبء مشاغله الحزينة ، فى تلك الفترات التى كانت تعانى فيها فقر الذات والعزلة . فليست كل فترات حياتنا لحظات إبداع فنى . ثم إن الخلق الفنى ليس أبدا مجرد نقل أومحاكاة للواقع ، فكما يقول بيكاسو :

« إنى لا أصوّر ، فى لوحاتى ، ما أراه بعينى ، بل ما أدركه بفكرى » .

* * *

الفن شعور ، وفكرة ، وصناعة :

يقول (ماركس) :

« إن ما يفرق بين أقل مهندس معمارى وبين نحلة أكثر تجربة ، هو أن المهندس

يبنى الخلايا فى رأسه ، قبل أن يبنيها من الشمع . فنتيجة عمل المهندس توجد ذهنيا ، فى تخيل العامل ، قبل تحققها فعليا » . (رأس المال) .

فعندما يأخذ الناقد أو المشاهد فى التساؤل عن معنى أثر فنى وعلاقته بالطبيعة ،يتناسى أن الفن تعبير عن ذات وطبيعة ، وأن للوحة الزيتية «شخصية» ، وأن فهمها لا يكون بالتحليل المنطقى (أو المنطقى فحسب) ولكن من المنظر الأنطولوجى . ذلك ما نتحسسه فى هذين البيتين لأبى القاسم الشابى :

« أنت ، ياشعر ، قصة عن حياتى ،

أنت ، ياشعر ، صورة من وجودى

أنت ، ياشعر ، إن فرحت ،أغاريدى

وإن غنت الكآبة ، عودى »

* * *

نظن أنه لو سئل (سارتر) لماذا يكتب القصة والتمثيلية . . . ، ولا يكتفى بالتأليف الفلسفى ، لأجاب لأنه فيلسوف والفيلسوف إنسان يبحث عن تعابير تفى بما يريد أن يوصله للجمهور ، وجمهور اليوم لم يعد ينحصر فى فئة النخبة ، بل إنه الأمة ، أو الأمم ، على صعيد التاريخ الإنسانى[1] .

التاريخ مغامرات وجدانية وفكرية تجسد رؤى الفيلسوف والفنان ، عن الكون والإنسان ، بالكلمة ، والصخرة ، والصوت واللون .

فمن التأملات ، ومن الروح الفنى ، ينشأ الروح العلمى ، ويتأسس الفكر الجماعى ،الذى هو وحدة الاتجاه والأهداف. فكما أن التصوف يفتح المجال أمام وحدة الوجود ، فإن الفلسفة والفن يتفتحان على «وحدة الشهود بالحياة ، وعلى حلبة التواجد فى الطبيعة ومع الطبيعة . تتمخض ألطف مشاعر الإنسانية فى وجدان الفنانين ،لتشع

---

(١) فقرات من كلمة القيناهاى (٧-٦-١٩٦٦) بالرباط ، بمناسبة مهرجان الشعر الذى نظمه اتحاد كتاب المغرب العربى ، و نشرت فى مجلة آفاق (العدد الخاص بهذه المناسبة) .

من خلاسيباتهم وكأنها ابتسامة عذراء انفجرت من شمس تعانق طراوة الصباح »[1]

* * *

خاتمة :

ولنختم الآن بتساؤل :

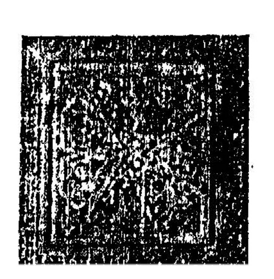
هل للآداب والفنون مستقبل فى البيئات التى غزتها الصناعة الكبرى ؟

مستقبل الآداب والفنون مستقبل نمو مستمر . ألا نشاهد أنه ، فى كل سنة ، يتزايد عدد زوار المتاحف ، وقراء القصص والشعر ، ويتكاثر الإنتاج الأدبى والفنى ؟ فى هذا ما يبشر بكل خير .

الفلسفة ، والأدب ، والفن ، لغات ، واللغة وعى واقعى للأفراد وللأمم . فمن خلال اللغة تعى الأمة نفسها بأنها واعية . الفلسفة ، والآداب ، والفنون ، إن هى إلا أبجدية التساؤل ، نتعلمها طول العمر ، إذ لا مكان ، فى خريطة التقدم المعاصر ، لأية أمة دون فن ودون آداب .

إن عظمة الفن وثراء الأدب فى البنيات العميقة ، تلك التى ترتكز على رؤى ، إنسانية وكونية ، أى على مفاهيم فلسفية عن الإنسان ، وعن الوجود ، وعن ممارسة الحرية الواعية الهادفة . فأروع التماثيل واللوحات ، وأعذب الأنغام ، وأعمق الشعر ، هو ما يدعو إلى التأمل فى الكون والمصير ، والتعاطف مع الذوات الأخرى .

محمد عزيز الحبابى
عضو المجمع المراسل من المغرب



(١) يكفى أن تفتح قاموسا فلسفيا (ألمانيا أو إنجليزيا أو فرنسيا) لترى كم أعطى المفكرون ، على اختلاف العصور ، من تعاريف لـ « فلسفة » ؛ إذ من الصعب أن يحدد الإنسان ، تحديداً نهائيا ، ميادين المنظومة التى ترمى إلى التأمل فى صراعات الإنسان لمصيره ومجابهاته للطبيعة ، وفى تواجده بذاته مع ذاته ومع الآخرين



للدكتور أحمد الحوفى

[١]

تبيّن من البحث السابق أن فى القرآن الكريم سجعا وأنه لا غضاضة فى أنْ نَصِفَ بعض سوره وبعض آياته بأنها مسجوعة .

ويبدو أن الذين أنكروا السجع فى القرآن الكريم كالباقلانى وأبى الحسن الأشعرى وابن خلدون لم يرتضوا كلمة السجع ، فآثروا عليها كلمة فاصلة أو فواصل ، ليثبتوا أن الإعجاز فى الأسلوب القرآنى الذى جاء على نسق مغاير لما عهده العرب واقتدروا عليه

وكأنهم لم ينتبهوا إلى أن السجع القرآنى فريد ، يمتاز بأنه يحقق الملاءمة بين المعنى والأسلوب أروع تحقيق ، ويخضع كلا منهما للآخر فى إعجاز بيّن لاينكر .

وذلك أن سجعاته متعانقة مع ماقبلها ؛ مستقرة فى مواضعها ، كفيلة بروعة المعنى ، وجمال الصورة ، واتزان النطق ؛ وتجانس الجرس ، وحلاوة الوقع .

ولهذا ترشد الآيات إلى فواصلها ، ويتوقعها من له عِرْق فى الأَدب وذوق ، قال زيد بن ثابت : أملى علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نُطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة عَلَقة ، فخلقنا العلقة مُضْغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر [1] »فعند ذلك قال معاذ بن جبل : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فضحك رسول الله ، فقال له معاذ : مم ضحكت يارسول الله ؟ فقال : بها خُتِمَت [2] » .

(١) سورة المؤمنون ١٢ — ١٤

(٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢ / ١٧٠

[٢]

والحق أن سجعات القرآن الكريم تمتاز بخصائص كثيرة أعجزت البلغاء أن يحاكوها ، فمن هذه الخصائص :

١ ـ أنها نازلة فى مواضعها ، ملائمة لمواقعها ، بريئة من التكلف ، تتبع فيها الألفاظ المعانى ، وتنهض خير نهوض بما تتطلبه هذه المعانى ، فلا نقص ولا زيادة ولا تكرار لضرورة السجع .

اقرأ قوله تعالى : « قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا. ومكروا مكرا كُبَّارا [١] » ، تجد أن كبارا بمعنى (كبير) ، ولكنها جاءت هنا للدلالة على هذا المعنى ، ولتحقيق السجع ، على حين أن كلمة (كبير) وردت فى آية أخرى محققة للمعنى وللسجع معا فى قوله تعالى : « إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا . ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأً كبيرًا [٢] » .

وكذلك جاءت كلمة كَفَّار صيغة مبالغة من الكفر فى آية ، وجاءت كلمة كفور صيغة مبالغة أُخرى من الكفر فى آية ثانية ، قال تعالى : « وسخرلكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ماسألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار » [٣] ، وقال سبحانه : «ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى ، إنه لفرح فخور » [٤] .

وجاءت كلمة عِسر فى موضع وكلمة عسير فى موضع آخر ، وهما بمعنى واحد ، قال تعالى : « فتول عنهم يوم يدعو الداعى إلى شىء نكُر . خشّعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداعى يقول الكافرون هذا يوم عسر » [٥] .

وقال سبحانه : « فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير » [٦] .

ووردت كلمة كذب فى الآية الكريمة :

---

(١) سورة نوح ٢١ — ٢٢
(٢) سورة الإسراء ٣٠ — ٣١
(٣) سورة إبراهيم ٣٣ — ٣٤
(٤) سورة هود ٩ — ١٠
(٥) سورة القمر ٦ — ٨
(٦) سورة المدثر ٩ — ١٠

« وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا . وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا »[1] ، وكلمة كِذَّابا وهى بمعنى كذب فى الآية الكريمة « إنهم كانوا لايرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شىء أحصيناه كتابا »[2]

ولكن قد تقع فاصلتان مختلفتان فى نهايتى آيتين متفقتين لفظا ومعنى ، كقوله تعالى : « وإن تَعُدُّوا نعمة الله لاتحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار »[3]

وقوله سبحانه : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم »[4] فلماذا اختلفت الفاصلتان ولفظ ماقبلهما ومعناه واحد ؟

قال الزمخشرى فى تفسير الآية الثانية : إن الله لغفور رحيم ، حيث يتجاوز عن تقصيركم فى أداء شكر النعمة ، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم ، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها[5]

وقال ابن المنير الإسكندرى : كأنه يقول إذا عاينت النعم الكثيرة فأنت آخذها وأنا معطيها ، فحصل عند أخذها وصفان : كونك ظلوما ، وكونك كفارا ، يعنى لعدم وفائك بشكرها ، ولى عند إعطائها وصفان : وهما أنى غفور رحيم أقابل ظلمك بغفرانى ، وكفرك برحمتى ، فلاأقابل تقصيرك إلابالتوقير ، ولا أجازى جفاءك إلا بالوفاء[6] .

ونقل السيوطى رأيا آخر لم يذكر قائله هو أن الآية التى ختمت بأن الإنسان ظلوم كفار كانت فى سياق وصف الإنسان المنعم عليه ، أما الآية التى ختمت بأن الله تعالى غفور رحيم كانت فى مساق صفات الله تعالى وتعداد نعمه وإثبات ألوهيته[7] . والذى يقرأ السورتين من أولهما إلى هاتين الآيتين يتحقق من ذلك .

وهذا الذى قالوه صحيح كله .

وقد يوهم النظر العجلان أن الفاصلة غير ملائمة فى نحو قوله تعالى : « تُسَبِّح

(١) سورة الجن ٥ — ٦
(٢) سورة النبأ ٢٧ — ٢٩
(٣) سورة إبراهيم ٣٤
(٤) سورة النحل ١٨
(٥) الكشاف ٢ / ٣٢٥
(٦) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢ / ١٧٣
(٧) الإتقان ٢ / ١٧٣

له السماوات السبع والأرض ومَنْ فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لاتفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا »[1] .

وذلك لأن ختام الآية الدالة على أن كل شئ يسبح بحمده بجملة أخرى تؤكد حلمه تعالى ومغفرته ، هذا الختام يحتاج إلى تدبر ، لأن المخلوقات كلها تطيع الله ، وتخضع للنواميس التى أودعها فيها ، وتسبح بحمده ، وإن كنتم لاتدركون تسبيحها ، وأما أنتم فإنكم تعصون الله ، ولكنه يحلم عليكم ، ويغفرلكم ، فجاء ختام الآية بالحلم والمغفرة مناسبا لمعصية المخاطبين المقدرة فى الآية .

وكذلك فى قوله سبحانه وتعالى : « فقلنا ياآدم إن هذا عدولك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقَى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تَعْرَى . وأنك لا تظمأُ فيها ولا تَضْحَى »[2] .

فإن النظرة العجلى تستحسن أن يذكر الظمأُ مع الجوع ، وأن يذكر الضحْو مع العرى ، ولكن التدبر يقضى بالنسق الذى انتظمت به الآية الكريمة ، لأن فيها لونا بلاغيا يسمى قطع النظير عن النظير ، إذ فصلت الظمأ عن الجوع ، وقطعت الضحو عن الكسوة ، مع مابين كل منهما من تناسب ، ليتحقق تعداد النعم وتصنيفها ، ولو أن كل نعمة قرنت بما يماثلها لتوهم المخاطب كل نعمتين نعمة واحدة .

يضاف إلى هذا تناسب الفواصل ، لأن الظمأ لو قرن بالجوع فقيل إن لك ألا تجوع فيها ولا تظمأ لا نتثر سلك رءوس الآيات ، وأحسن به منتظما[3] .

على أن الآية الكريمة راعت حاجة الإنسان إلى الشبع واللباس ، وأنه لا يستطيع الاستغناء عنهما ، فجمعتهما ، وراعت المناسبة بين رى العطش والاستظلال ، وأنهما تابعان للباس والشبع ، فقرنتهما[4] .

وثمة تعليل آخر هو أن الجوع والعرى يدلان على الشدة والحاجة ، لأن الجوع

---

(١) سورة الإسراء ٤٤

(٢) سورة طه ١١٧ — ١١٩

(٣) الا نتصاف على هامش الكشاف ٢ / ٤٤٩

(٤) خزانة الأدب للحموى ٩٧

فقدان الطعام وخلو المعدة منه ، والعرى فقدان الكساء وخلاء الجسد منه ، كذلك يتلازم الظمأ والضحو ، لأن الظمأ حرارة فى الجوف والضحو حرارة فى الجو وعلى الجسد .

لهذا لايكاد السامع المتذوق أو القارئ المتدبر يسمع آية أو يقرؤها وهى مختومة بغير مانزلت حتى ينكر ماسمع أو ماقرأ ، كالأعرابى الذى سمع قارئا يتلو قوله تعالى : « فإن زللتم من بعد ماجاءتكم البينات ، فاعلموا أن الله عزيز حكيم »[1] هكذا : فاعلموا أن الله غفور رحيم ، فقال الأعرابى : هذا لايكون[2] ، لأنه أدرك ببديهته أن ختام الآية بالمغفرة والرحمة لايلائم الزلل المتعمد بعد الوعد والوعيد وبعد بيان الخير والحض عليه ، وبيان الشر والتحذير منه ، وإلا كان اقتران الغفران بالزلل إغراء به وتهوينا من شأن العقاب .

ويشبه هذا أن أعرابيا سمع قارئا يتلو قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا ، نكالا من الله ، والله عزيز حكيم »[3] ، هكذا : والله غفور رحيم ، فقال : ماينبغى أن يكون الكلام هكذا ، فقيل له إن القارئ غلط ، والصواب « عزيز حكيم » فقال : نعم ، هكذا تكون فاصلة هذا الكلام ، فانه تعالى لما عزَّ حكم[4] .

٢ ـ وتمتاز سجعات القرآن الكريم بأن لكل من القرينتين أو الفقرتين المسجوعتين معنى يغاير معنى الأُخرى ، على حين أن أسجاع الكتاب البلغاء كثيرا ماتقوم على تأدية الفقرتين لمعنى واحد ، وهذا نوع من التطويل لا أثر له فى كتاب الله .

اقرأ قوله تعالى : « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جَلَّاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء ومابناها ، والأرض وماطحاها ، ونفس وماسواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح مَنْ زكاها ، وقد خاب مَنْ دسَّاها »[5] .

واقرأ أية سورة تجد هذه القاعدة مطردة لاتتخلف .

---

(١) سورة البقرة ٢٠٩

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ٢ / ٣٣٩ والإتقان للسيوطى ٢ / ١٧٠

(٣) سورة المائدة ٣٨

(٤) خزانة الأدب للحموى ٩٧

(٥) سورة الشمس ١ ــ ١٠

٣ – وللفواصل القرآنية ميزة التنوع .

فقد تجئُ متحدة الحرف الأَخير كقوله تعالى : « ذرنى ومَنْ خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأُرهقه صَعُودا »[1] .

وقد تجئُ من حروف متقاربة المخارج ، نحو قوله تعالى : « لا يسأَم الإنسان مِن دعاءِ الخير ، وإن مسّه الشر فيئوس قنوط . ولئن أذقناه رحمة منا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّته ليقولن هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رُجِعْت إلى ربى إن لى عنده للحُسْنَى ، فَلَنَنبئَنَّ الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ ، وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأَى بجانبه ،وإذا مسه الشر فذو دعاءٍ عريض »[2]

فإن الطاءَ والظاءَ والضاد متقاربة المخارج .

وكثيرا ما تجئُ مسبوقة وممدودة بحرف من حروف اللين ، فتستريح النفْس عنده ، ويجد النفُس الوقفة الملائمة ، وتحس الأُذن لذاذة الوقع ، مع روعة المعنى وبراعة الصورة وتميز التعبير .

فمن المسبوقة والممدودة بالأَلف قوله تعالى : « إن للمتقين مفازا . حدائق وأَعنابا . وكواعب أَترابا . وكأْسا دهاقا . لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاءً من ربك عطاءً حسابا . رب السماوات والأَرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا . ذلك اليوم الحق فمن شاءَ اتخذ إلى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذابا قريبا ، يوم ينظر المرءُ ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا »[3] .

ومن المسبوقة بالياءِ والممدودة بالأَلف قوله تعالى : « يا أَيها المزَّمل قم الليل إلا قليلا . نصفه أَو انقص منه قليلا . أَو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا . إن ناشئة الليل هى أَشد وَطْأً وأَقوم قيلا . إن لك فى النهار سَبْحا طويلا .

(١) سورة المدثر ١١ – ١٧

(٢) سورة فصلت ٤٩ – ٥١

(٣) سورة النبأ ٣١ – ٤٠

واذكر اسم ربك وتَبَتَّلْ إليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب لا إلٓه إلا هو فاتخذه وكيلا . واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا »[1] .

ومن المسبوقة بالواو والممدودة بالألف قوله سبحانه : «واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يُخْلَقون . ولايملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا . وقال الذين كفروا إنْ هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءُوا ظلما وزورا »[2] وقوله تعالى: «يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا .وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا »[3] وقوله تعالى «قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السماوات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ، بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا . إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا . وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونُنَّ أهدى من إحدى الأُمم فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا[4] »

وكثيرا ما تتنوع الفاصلة فتجىء من هذا كله .

على أنها تأْتى فى كثير من السور منتهية بالنون أو بالميم ، فيتحقق بالمد وبالنون أو الميم ترنيم وإيقاع منغم يضفى على الأُسلوب جمالاً فوق جماله ، كقوله تعالى «أفنجعل المسلمين كالمجرمين . مالكم كيف تحكمون. أم لكم كتاب فيه تدرسون . إن لكم فيه لما تَخَيَّرون ؟ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ سلهم أيُّهم بذلك زعيم ؟ أم لهم شركاءُ فليأْتوا بشركائهم إن كانوا صادقين . يوم يُكْشَف عن ساق ويُدْعَوْن إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعةً أبصارهم تَرْهَقُهم ذلة ، وقد كانوا يُدْعَوْن إلى السجود وهم سالمون . فَذَرْنى ومَنْ يكذِّب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأُمْلِى لهم إن كيدى متين »[5] .

---

(١) سورة المزمل ١ — ١٠
(٢) سورة الفرقان ٣ — ٤
(٣) سورة الفرقان ٢٢ — ٢٣
(٤) سورة فاطر ٤٠ — ٤٢
(٥) سورة القلم ٣٥ — ٤٥

وإنه ليعجبني قول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي : « وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى ، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب.

ونراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها أو بالمد وهو كذلك طبيعي في القرار .

فان لم تنته بواحدة من هذه كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها ، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه به وأليق بموضعه .

على أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار ، ولا يكون إلا بحرف قوى يستتبع القلقلة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقى .

وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة ، وأثرها طبيعي في كل نفس ، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه وكل نفس لا تفهمه ، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة ، ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ الذي يُطْمع فيه أو في أكثره ، ولما وُجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى ، ولكنه انفرد بهذا الوجه المعجز ، فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أُقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللا بينا أو ضعفا ظاهرا في نسق الوزن وجرس النغمة ، وفي حس السمع وذوق اللسان ، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض ، ولرأيت لذلك هجنة في السمع ، كالذي تنكره من كل مَرْئيّ لم تقع أجزاؤه على ترتيبها ، ولم تتفق على طبقاتها ، وخرج بعضها طولا وبعضها عرضا ، وذهب ما بقي منها إلى جهات متناكرة » .

[للبحث تكملة]

أحمد الحوفي

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ٢٨٦

تقدمة لتعريب المصطلحات الفنية للاتصالات السلكية واللاسلكية

للمهندس صلاح عامر



الانتهاء من تعريب المصطلحات الفنية للاتصالات السلكية واللاسلكية (Telecommunication) خطوة كبيرة نحو تحقيق التعريب العلمى ، ونحو إثبات جدارة اللغة العربية وقدرتها ، بل وتفوقها فى التعبير العلمى السليم . فإن مصطلحات الاتصالات تضم أغلب مصطلحات علوم الإلكترونيات الحديثة وكذلك مصطلحات هندسة وطبيعة الكهرباء ، ولقد تم هذا العمل التاريخى بناء على تعاون عربى شامل ، فقد توفرت على المرحلة الأولى لتعريب هذه المصطلحات لجنة منبثقة من البلاد العربية فى إطار اتحاد الاتصالات السلكية واللاسلكية للبلاد العربية وترجع هذه النشأة إلى أهمية توحيد المصطلح العربى فى دنيا الاتصالات البرقية أو التلغرافية (Telegraphy) أو فى دنيا الاتصالات الهاتفية (Telephony) إذ أن شبكة هذه الاتصالات تمتد بين العواصم العربية وتقتضى حركة الاتصالات تبادل البرقيات العربية على شبكات التلغراف ، وكذلك تبادل اصطلاحات العمل على دوائر الهاتف مما أوجد ضرورة ملحة تقتضى الاتفاق على هذه المصطلحات العربية التى تعتبر أحيانا وكأنها شفرة خاصة يؤدى تبادلها إلى القيام بعمليات فنية تحقق سرعة التوصيل (Connection) ونجاح الاتصالات فى حد ذاتها . ولهذا كان على الاتحاد أن يعمل على إيجاد عبارات عربية متفق عليها لتقابل أحيانا جملا إنجليزية أو فرنسية مما يندرج استخدامه فى التخاطب العادى ولكن قد تختلف الجملة أو العبارة العربية المقابلة ما لم يتفق عليها ، وكذلك تضمن ذلك الجهد التصدى لتعريب مصطلحات فنية أجنبية قد تأخر التعريب العربى الموحد لها مما أدى إلى وجود أكثر من مصطلح عربى يستخدم فى مختلف البلاد العربية أو حتى

فى البلد العربى الواحد مما يعوق النشر العلمى ويشوش النقل العلمى والتعليم .

ولقد استن هذا الاتحاد العربى هذه السنة الحميدة والتى أحسب أن أغلب المنظمات العربية ستحذو حذوها وهى أن تبعث بمقترحات التعريب للمصطلحات الأجنبية التى تتوفر هذه المنظمات العربية على دراستها فى تجمع عربى إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، حيث تتعرض لمراجعة اللجان الفنية بالمجمع ، فهى تعرض أولا على مجمع القاهرة ، ثم ثانيا على اتحاد المجامع العربية ، وبذلك تنتهى هذه الجهود إلى اتفاق منبثق من الدوائر الفنية ثم ينتهى إلى أعلى مستوى لغوى عربى. وحتى يحظى ذلك التعريب الموحد بعد ذلك بما يقتضيه ميلاد هذه المصطلحات الجديدة من نشرها بوسائط نشر المصطلحات الجديدة المختلفة وفى القواميس الفنية الجديدة .

وسأحاول فى هذه المقدمة تحليل هذا الجهد الذى بذل فى تعريب مصطلحات الاتصالات أو مصطلحات البرق والهاتف والراديو ، ومما يسترعى الانتباه أنه حتى هذه العناوين الأساسية لم يكن هنالك اتفاق بشأنها فكلمة البرق كانت تستخدم فى بلاد عربية مثل سوريا بدلا من التلغراف فى مصر . ولقد أقر الاصطلاحان (برق أو تلغراف) أما اصطلاح (الهاتف) فقد ألغى اصطلاح التليفون الذى درج على التداول فى مصر وبعض البلاد العربية، وكلمة هاتف عربية الأصل تؤدى المعنى الفنى والهندسى تأدية كاملة ولهذا فإن كلمة خط هاتفى :

(Telephone line) تحل الآن محل خط تليفونى وكذلك (مركز هاتفى) بدلا مما اصطلحنا على أن نقول عنه سنترال تليفون فكلتا الكلمتين أجنبيتان عن اللغة العربية تماما ولا داعى لإدخالهما فى اللغة فى حركة نموها الدائمة ما دامت توجد ألفاظ عربية سهلة دارجة أيضا — وكذلك فقد أقر إدخال كلمة راديو بصفة نهائية إذ أن كلمة لاسلكى لا تغنى عن اصطلاح « راديو » الذى يعبر مثلا عن الإذاعة الصوتية أحيانا وستبقى كلمة لاسلكى تستخدم فى مجالها الصحيح كما هو فى تعريب كلمة (Telecommunications) فقد أقر الاصطلاح العربى اتصالات سلكية ولاسلكية لها . ونعود إلى ما تم من إفساح مكان لكلمة راديو فى اللغة العربية فقد أصبح لها الحق فى أن تكون صفة فنقول راديوى كما فى (Radio Transmission) فنقول إرسال راديوى .

ولقد كانت هنالك مصطلحات أجنبية درج الفنيون العرب على استعمالها فى التخاطب وفى الكتابة أمكن إيجاد مصطلحات عربية مناسبة لها مثل Jack وهو ثقب للتوصيل الكهربى بين خطين تليفونيين مثلا ، فقد أقر له مصطلح عربى جميل وهو « مقبس » وكذلك كلمات Impedance وهى دلالة طبيعية ورياضية لخاصة من خصائص الدوائر الكهربائية فقد أقر المجمع كلمة

«مُعَاوَقة» لما ولقد كان يستخدم قبل ذلك اصطلاحات عربية كثيرة منها «ممانعة» مما كان يحول دون تفهم موحد على النطاق العربى وقد أقر استخدام «المفاعلة» لتعريب مصطلح The Reactance وفى مجال خصائص الدوائر الكهربائية فقد اعتمد استخدام «توهن» بدلا من الاصطلاح الأجنبى (Attenuation) وقد كانت تستخدم فيما مضى كلمة «اضمحلال» ولكن توهن أكثر دقة فى التعبير .

وتحتوى المصطلحات الراديوية على تعبيرات كانت تستخدم فى مجالات أخرى فى اللغة العربية واعتمادها فى قاموس مصطلحات الراديو يدخلها فى دنيا العلوم لأول مرة ومنها :

يوائم	Match
طور	Phase
تشكيل	Modulation
يضخم	Amplify
هوائى	Aerial
مساحة	Admittance
مرحل	Relay.
موالفة	Tuning
نشيش	Frying
باعث	Exciter
خصائص	Characteristic
انهيار	Breakdown
همهمة	Hum

ومما هو جدير بالتنويه أن تعريب مصطلحات الاتصالات السلكية واللاسلكية منطو على نشر فنى عربى تم إعداده بدقة بالغة ، وهو أنه فى نفس الوقت الذى يعرب فيه المصطلح الفنى يتم اعتماد تعريف علمى هندسى دقيق للمصطلح مما يعتبر فى حد ذاته رصدا علميا دقيقا لمعانى هذه المصطلحات واكسابا للكلمة العربية معناها الجديد بدقة مما يجعل هذا التعبير صالحا تماما لنشره فى القواميس الفنية الجديدة . وفيما يلى أمثلة لهذا الإنتاج العلمى الضخم الذى يقدمه مجمع القاهرة لأبناء اللغة العربية .

لاسلكى (راديو) Radio Radio

مصطلح عام يطلق على استعمال الموجات المغناطيسية الكهربائية للاتصال بدون أسلاك.

اتصال سلكى ولاسلكى

Telecommunication
Télécommunication

تراسل أو بث أو استقبال بالوسائل الكهربائية المغنطيسية سواء كانت سلكية أو لاسلكية أو ضوئية ويشمل هذا التراسل العلامات أو الإشارات المرئية أو المسموعة وكذلك المكتوبات «المطبوعات» ، الصور والأصوات وما إلى ذلك .

التلغرافية (إبراقية)

Telegraphy Télégraphie

نظام للاتصالات السلكية واللاسلكية يتم به إرسال المواد المكتوبة أو المطبوعة أو المصورة باستعمال إشارات مصطلح عليها .

مسامحة

Admittance Admittance

مقلوب المعاوقة أى ($\frac{1}{\text{المعاوقة}}$) .

الهوائى

Aerial, Antenna Antenne, Aérien

موصل أو مجموعة موصلات تستعمل مع أجهزة اللاسلكى فى إرسال الموجات اللاسلكية واستقبالها .

مضخم التحكم الأوتوماتيكى فى الكسب

Amplifier, Automatic Gain Control (AGC) Amplicateur, Regulateur Automatique de Niveau

جهاز يستخدم لزيادة التحكم فى التضخم الإجمالى فى نظام ما بتأثير الإشارة الداخلية إليه بحيث يبقى منسوب الإشارة الخارجة ثابتا

تشوه الاتساع Amplitude distortion Distorsion d'amplitude

تغير كسب المضخم بتغير اتساع الإشارة الداخلة (مع ثبات التردد) .

توهن (فى الحركة الموجبة)

Attenuation, Affaiblissement

تناقص الطاقة الكهربائية نتيجة للامتصاص الذى يحدث عند انتقال الموجات فى الأسلاك والأوساط المختلفة .

طقطقة

Click Clic, Claquement

ضوضاء دائرة ، تحدث مثلا عن تفريغ فجائى للمكثفات أو من جراء قطع الدائرة .

مكثف

Condenser, Condensateur,

أداة لتخزين الشحنات الكهربائية مكونة من موصلات على هيئة ألواح أو رقائق تفصلها عن بعضها عوازل كهربائية .

يقرن To Couple Coupler

يضع دائرتين أو أكثر فى حالة تقارن .

تسميع (صوت غير مرغوب)

Crosstalk Diaphonie

انتقال غير مرغوب للطاقة من دائرة تراسل إلى دائرة أخرى .

تشكيل

Modulation Modulation

عملية يتم بواسطتها تعديل خصائص معينة لموجة ما طبقا لخاصية موجة أخرى أو إشارة .

مرحل (كهربائى مغنطيس)

Relay (Electro mag.) Relais (électro magnétique)

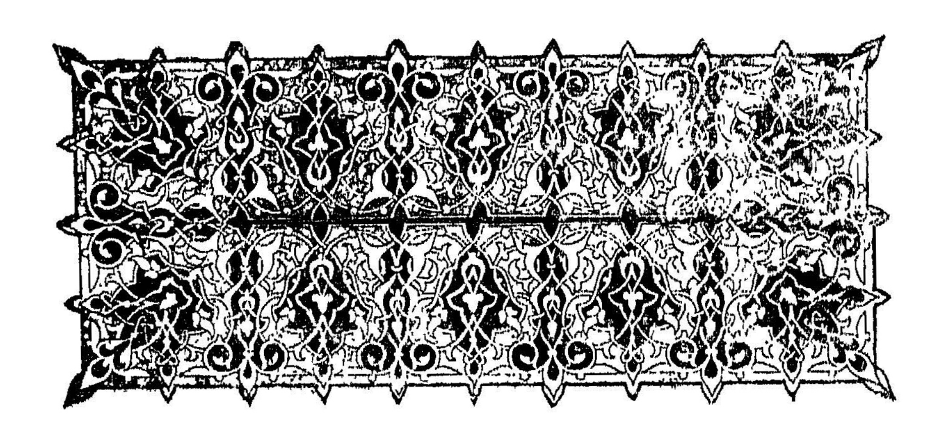
مرحل يشغل بمرور تيارات فى لفيفة واحدة أو أكثر من لفائف مغنطيس كهربى.

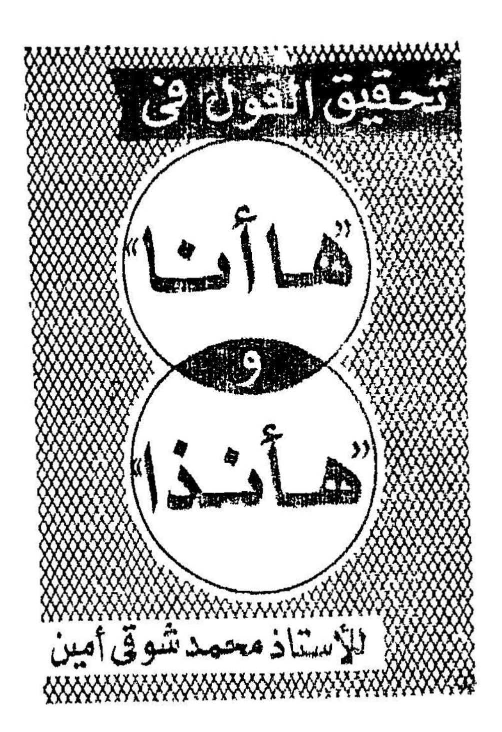
الموالفة Tuning

إن خطة التعريب للمصطلحات الهندسية التى يضطلع بها مجمع اللغة العربية تسير على التوازى مع احتياجات النشر العلمى باللغة العربية والتى أصبحت تمس الحاجة إليها لنشر التعليم المهنى والهندسى اكتسابا للتقدم التكنولوجى المطلوب . ولقد ساعدت هذه الحركة فى إغناء الكلمات العربية بالمعانى العلمية الجديدة حتى أصبحت اللغة العربية لغة أساسية فى منظمات دولية فنية مثل منظمة البريد العالمية واليونسكو ، ولقد أصبحت أيضا لغة النشر العلمى سواء بالكتب التى تتناول الموضوعات العلمية الجديدة أو فى الدوريات والمجلات الهندسية العربية .

والله الموفق وهو المستعان فى إبراز فضائل وخصائص لغة القرآن الكريم .

صلاح عامر





أو : جواز الإخبار بغير اسم الإشارة
عن الضمير المسبوق بأداة التنبيه

يتوارد على أقلام الكاتبين من المعاصرين مثل قولهم :

ها أنا قائل ما أعتقد
وها هما يفعلان ما يشاءان
وها نحن نرى ذلك الرأى .

وقد ينصب لهم نقاد اللغة من معاصريهم ينعون عليهم هذا التعبير ، ويريدونهم على أن يقولوا :

هأنذا
وها هما ذان
وها هم أولاء

إلى غير ذلك من بقية الأمثلة الثمانية عشر ، باعتبار أنواع الضمائر مع التذكير والتأنيث ، ومع الإفراد والتثنية والجمع .

والنقاد فى هذا يذهبون إلى أن هاء التنبيه تدخل على الضمير ، بشرط أن يكون مخبرا عنه باسم الإشارة .

وما جرت به أقلام الكتاب المعاصرين فى هذا التعبير جرى مثله من قديم !

وما انتبه إليه النقاد المعاصرون فيه سبقهم إليه النقاد الأقدمون !

* * *

ونحن إذا استظهرنا ما قاله النحاة واللغويون فى هذا ، ألفينا جمهرتهم ينصون على أن الإخبار عن الضمير فى مثل ذلك التعبير بغير اسم الاشارة لايكاد يقال ، أو أنه شاذ .

ولكننا إذا تقصينا ما استعمله الفصحاء فى عصور العربية من مبتدئها إلى يوم الناس هذا ، صادفتنا أمثلة تجرى على الوجه الذى يتوجه عليه النقد ، وهى كثرة كاثرة فى الشعر والنثر ، ومن بينها ما ينسب إلى العصر الجاهلى وما تلاه .

ومن طريف هذه الأمثلة ما استعمله ناقد لغوى هو الحريرى ، ومؤلف معجمى ، هو الفيروزابادى ، وعالم نحوى ، هو ابن هشام . وثلاثتهم من الناعين عليه ، أو القائلين بشذوذه !

وإليك — أولا — طرفا من أقوال النحاة واللغويين .

و ثانيا — أربعين من الشواهد مناصفة بين الشعر والنثر .

و ثالثا — مايهدى إليه البحث والنظر من الحكم بإجازة التعبير المنقود .

* * *

فأما « أولا » فقد جاء فى مبحث حروف التنبيه من « شرح المفصل » :

« المبهم من الأسماء ما افتقر إلى غيره فى البيان عن معناه ، فتقول : ها أنا ذا ، فهى داخلة عند سيبويه على المضمر الذى هو أنا لشبهه بالمبهم ، وعند الخليل أنه داخل على المبهم تقديرا . والتقدير هذا أنا ، فأوقعوا أنا بين التنبيه والمبهم ، وكذلك ها هوذا ، فسيبويه يرى أن دخولها على المضمر كدخولها على المبهم ، والخليل يعتقد دخولها على المبهم ، وإنما قدموا التنبيه ، والتقدير هذا هو ، ونحوه : ها أنت ذا ، وها هى ذه . . . »

وجاء فى مبحث « ها » من مغنى اللبيب :

« تكون للتنبيه ، فتدخل على ضمير الرفع المخبر عنه باسم الإشارة ، نحو ها أنتم أولاء ، وقيل إنما كانت داخلة على الإشارة فقدمت ، فرد بنحو : ها أنتم هؤلاء ، فأجيب بأنها أعيدت توكيدا . . . »

وجاء فى مبحث اسم الإشارة من شرح « الأشمونى » :

« يفصل بين ها التنبيه وبين اسم الإشارة بضمير المشار إليه ، نحو : ها أنا ذا . . . وبغيره قليلا » .

وفى تعليق الصبان « على هذا يقول : « أفهم كلام الشارح منع إدخال ها التنبيه على الضمير المنفصل الذى ليس خبره اسم الإشارة ، وبه صرح الدمامينى نقلا عن ابن هشام ، فإنه قال فى حاشيته على المغنى : وقع للمصنف إدخال ها التنبيه على ضمير الرفع المنفصل ، مع أن خبره ليس اسم إشارة كقوله فى ديباجة الكتاب : «وها أنا بائح بما أسررته ». وقد صرح المصنف فى حاشيته على التسهيل بشذوذ ذلك ، مشيرا إلى أن قول صاحب التسهيل : وأكثر استعمال ها مع ضمير رفع منفصل أو اسم إشارة ، معترض بأن ظاهره أن الإخبار عن الضمير المذكور باسم الإشارة غير شرط ، وليس كذلك ، فإن تخلفه إنما يقع شاذا » .

وجاء فى » لسان العرب »فى مبحث« ذا » :

« قال الفراء : العرب إذا جاءت إلى اسم مكنى قد وصف بهذا فرقوا بين ها وذا ، وجعلوا المكنى بينهما ، وذلك فى جهة التقريب لا فى غيرها . يقولون : أين أنت ؟ فيقول القائل: هأنذا ، فلا يكادون يقولون: ها أنا ، وكذلك التنبيه فى الجمع . . . »

وجاء فى مبحث « ها» من «لسان العرب» :

« وقالوا : ها أنت تفعل كذا ، وهأنت مقصور . . . » .

وجاء فى « درة الغواص » للحريرى :

« ويقولون : هوذا يفعل ، وهو خطأ فاحش : والصواب : ها هوذا يفعل ، وكأن الأصل : هو هذا يفعل . ففصل حرف التنبيه من الإشارة . وصدر به الكلام ، وأقحم الضمير . ويسمى هذا تقريبا » .

وجاء فى « كشف الطرة » للألوسى :

« إذا اجتمع اسم الإشارة وغيره يجعل اسم الإشارة مبتدأ ، وغيره خبره ، لأن العرب اعتنت بمكان التنبيه والإشارة ، فقدمته ، ولا يجوز أن يجعل خبرا إلا مع المضمر ، فإن الأفصح فيه أن يقدم فيقال : ها أنا ذا . . » .

وعرض الأستاذ عبد الحميد حسن فى بحث المرونة فى اللغة المقدم إلى مؤتمر «مجمع اللغة العربية » فى دورته التاسعة والعشرين لقول الكتاب : ها نحن من غير اسم إشارة وأن اللغويين يمنعون ذلك . وقال :

« إننا اوراعينا أن استعمال كلمة « ها » التى للتنبيه جائز فى مواطن أخرى لأجزنا هذا التعبير » .

* * *

وأما « ثانيا » ، فنجتزئ بأربعين من النصوص الشعرية والنثرية .

وهذه عشرون من شواهد الشعر :

١ ــ قال « أبو كبير الهذلى » وهو شاعر جاهلى أدرك الإسلام « كما فى ديوان الهذليين ومعجم ياقوت ــ (الجزء السادس عشر ــ الصفحة ١٤١) :

ولاوعا . فشطت غربة دار زينب
فها أنا أبكى والفؤاد قريح

٢ ــ قالت « قتيلة » على عهد النبوّة (كما فى رواية كتاب العمدة « لابن رشيق ، ص ٣١) :

أ محمد ها أنت نجل نجيبة
من قومها والفحل فحل معرق

٣ ــ وفى رسالة الغفران ص ٢٦ من الطبعة الأولى يسوق « المعرى» شاهدا على تصيير الهمزة ألفا خالصة ، هو قول الشاعر :

يقولون مهلا ليس للشيخ عيل
فها أنا قد أعيلت وان رقوب

٤ ــ ومن شعر العباس بن الأحنف :

وها أنا من بعدكم لم أزل
فى دولة الأحزان والوجد

٥ ــ ولإبراهيم الصولى قوله (كما ورد فى معجم ياقوت ، جزئه الأول) :

وكنت أعدك للنائبات
فها أنا أطلب منك الأمانا

٦ ــ وللحسن بن وهب قوله (كما فى كتاب « الطرائف الأدبية » للراجكوتى) :

ها نحن وفيناك أربعة
والأربعون لديك منتظرة

٧ ـ وللبحترى قوله ؛ :

ها هو الشيب لائما فأفيقى

٨ ـ وللمتنبى قوله :

فها أنا قد ضربت وما أحاكا

وقوله :

فها أنا فى السماح له عذول

وقوله :

فها أنا فى محفل من قرود

٩ ـ ولأبى فراس الحمدانى قوله :

وها أنا قد حلى الزمان مفارقى
وتوجنى بالشيب تاجا مرصعا

١٠ ـ وللمعرى قوله :

فإن قعدت عنه الحوادث حقبة
فها هى فيها لا تشاء قيام

وله :

كأنى حيث ينشا الدجن تحتى
فها أنا لا أطل ولا أجاد

١١ ـ ولأبى بكرا الخوارزمى قوله :

بآمل مولدى وبنو جرير
فأخوالى ويحكى المرء خاله
فها أنا رافضى عن تراث
وغيرى رافضى عن كلالة

١٢ ـ وللحريرى قوله فى المقامات :

وها أنا الآن على ما يرى
منى ومن حرفتى المكدية

١٣ ـ وفى ذيل الأمالى يروى :

فهـا أنـا للعشـاق يا عـز قائـد
وبى تضرب الأمثال فى الشرق والغرب

١٤ ـ ولعبد اللهبن عبد الرحمن الدينورى :
(كما فى الجزء الرابع من اليتيمة ، ص ١٢٨) :

مضى الإخـوان وانقرضوا
فهـا أنا للردى غرض

١٥ ـ ولأبى بكر محمد بن عبد الله القرطبى ؟ :

أبا قاسم والهـوى جنة
وهـا أنا من مسهـا لم أفق

١٦ ـ وللرقيق القيروانى (كما فى معجم ياقوت جزئه الأول ، ص ٢١٧) :

فهـا أنا تائب منهـا
فـزرنى تبصـر العجبـا

١٧ ـ ولابن نباته المصرى :

فها أنا فى الدنيا قتيل مصبر

١٨ ـ وللتعاويذى كما فى الجزء الثانى من شرح ديوان ابن الرومى (٢٢ من التعليقات) :

وها أنا لاقلبى يراع لفائت
فيأسى ولا يلهيه حظ فيفرح

١٩ ـ وللبارودى :

فإن أكن عشت فردا بين آصرتى
فها أنا اليوم فرد بين أندادى

٢٠ — واولى الدين يكن :

وكانت صبوة ونزعت عنها
فها أنا لا أدين ولا أدان

* * *

وتلك عشرون من شواهد النثر :

١ — ينسب إلى خالد بن الوليد قوله (كما فى ص ١٦٥ من الجزء الأول من عيون الأخبار)

« ثم ها أنا أموت على فراشى »

٢ — ينسب إلى المستورد بن علفة الخارجى قوله (كما فى ص ١٤٨ من الجزء الثانى من كامل المبرد) :

« وها أنتم تعلمون ما حدث »

٣ — وفى رسالة من سفيان بن أبى العالية إلى الحجاج ، (كما فى ص ٢٢٥ من الجزء السابع من تاريخ الطبرى) :

« فها أنا بهـــا . . . »

٤ — وفى « كليلة ودمنة » لابن المقفع (كما فى ص ٢١٤ من طبعة مطبعة المعارف) :

« وها أنا قائم بين يديك »

٥ — وفى كتاب أخبار القضاة لوكيع ، (صفحة ٣٤٢ من الجزء الثانى) :

« ها هو الآن أقر . . . »

٦ — وفى الكامل للمبرد ، (صفحة ٧١ من الجزء الأول من طبعة مصر) :

« قال : ها هي عندى . . . »

٧ — وفى مروج الذهب للمسعودى ، (الجزء الثانى ، صفحة ٢٦٦) :

« وها أنا يا أمير المؤمنين »

وفى صفحة ٣٣٧ ، على لسان المنصور :

« وها أنت ترجع : . : »

٨ — وفى حديث من عهد المنصور (كما فى صفحة ١١٣ من كتاب «الوزراء والكتاب» للجهشيارى) :

« وهاهو اليوم يقبل رأس كاتبى »

٩ — ومن رسالة أبى حيان التوحيدى . فى مثالب الوزيرين (كما فى معجم ياقوت الجزء الثانى ص ٢٩٧ من الطبعة الأولى) :

« فها أنا أصدق عن نفسى ، وأقول ماعندى»

١٠ — وفى كلام للهمذانى (كما فى زهر الآداب ، الجزء الرابع ، صفحة ٢٠٧) :

« فها هــى : . : »

١١ — وفى تاريخ بغداد ، (الجزء ١٣ ، صفحة ٢٤٨) :

« فقال : ها أنت حرة لوجه الله »

١٢ — وفى القاموس المحيط للفيروزابادى (الجزء الرابع ، صفحة ٢٥٢) :

« تقول : « وها هو عرض عين ، أى قريب »

١٣ — وفى « ذيل طبقات الحنابلة » :

صفحة ١٣٤ : « وها هو قائم »

صفحة ١٣٦ : « ها هو ورائى »

صفحة ٢٣٣ : « وها أنا قد جاوزت التسعين »

١٤ — وفى مقدمة الحريرى لكتابه « درة الغواص » :

« وها أنا قد أودعته من النخب كل لباب ، ومن النكت ما لا يوجد منتظماً فى كتاب » .

وفى مقامات الحريرى ، جاء فى المقامة الحلوانية :

« وها أنا . . . »

وفى مقامة الألغاز النحوية :

« فها أنا . . . »

وفى صفحة ٤٣٩ : « ها نحن قد تساعينا » .

وفى صفحة ٤٨١ : « هاهو من المبصرين »

وقد اطلعت على نسخة من المقامات خاصة بالمرحوم الشيخ حسين والى ، فألفيت على ورقة غلافية فيها أرقام صفحات ورد فيها مثل هذا التعبير .

وفى رسالة انتقاد « ابن الخشاب » للمقامات قال : « إن الحريرى استعمل هذه الكلمة ، وقد نهى عنها فى درة الغواص ، فلعله عرف خطأها بعد وضع المقامات ، أو شبيه بحاله هذا ما تم فى كتب العلماء باللغة من النهى عن استعمال ما . ثم يستعملونه فى خطب كتبهم ، لغلبة العادة ، هذا ابن قتيبة الخ » .

١٥ — وفى مقدمة القاموس المحيط للفيروزابادى ، قال : « ها أنا . . . » فانتقدها الشارح ، لأن صاحب القاموس اشترط أن يقال : هأنذا ، فى مبحث ها . وقد عاود الكلام فى ذلك صاحب كتاب « الجاسوس على القاموس » فى الصفحة ١٢٢ ونص ما فى القاموس فى فصل الهاء من الحروف اللينة ، وهو :

« ها : تدخل على ضمير الرفع المخبر عنه باسم الإشارة ، نحو : ها أنتم أولاء » .

١٦ — وفى مقدمة « معاهد التنصيص » للعباسى :

« وها هو فى ظل عزه ، رخى البال ، متميز الحال » .

١٧ — وللنويرى ، فى نهاية الأرب ، (الجزء الخامس ، الصفحة ١٨٨) :

« وها نحن نذكرها . . . . »

١٨ — وللحجاج البلوى ، فى معجم ألف باء (الجزء الأول ، الصفحة ١٠٤) :

« وها أنا أصنع بعمرو ما صنعت بزيد »

١٩ — وللشهاب الخفاجى فى شرح الدرة الصفحة الرابعة : « وها هو لديه مبتسم » وفى صفحة ٦٨ : « وها أنا أبين لك ... »

٢٠ ـ وللسيد محمود الألوسى فى «كشف الطرة» ، الصفحة السادسة : «وها أنا ، أقول . .»

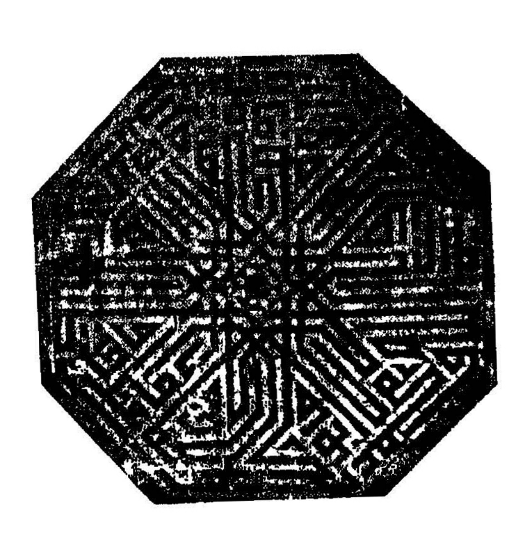
* * *

وأما «ثالثا» فيتبين مما تقدم أن الإخبار عن الضمير المسبوق بأداة التنبيه بغير اسم الإشارة تعرض له النحاة واللغويون فقها ودراية . فمن النحاة من قال بأن العرب لايكادون يقولون : ها أنا ، وذلك قول «الفراء» ، ومنهم من قال بأن الأكثر استعمال أداة التنبيه مع الضمير أو اسم الإشارة وتلك مقولة صاحب التسهيل ، ومنهم من قال بشذوذ : ها أنا ، وذلك هو «ابن هشام» . ومن اللغويين من أثبت أنهم قالوا : ها أنت تفعل كذا ، كما نقله صاحب «اللسان» .

ولكن إجازة هذا الاستعمال تستند ـ سماعا ورواية ـ إلى ما التقطناه من الأبيات الشعرية والفقرات النثرية ، وهى نصوص تشهد بأن الإخبار عن الضمير المسبوق بأداة التنبيه بغير اسم الإشارة جرى فى العصور الأوالى والعصور التوالى على ألسنة الفصحاء من فقهاء اللغة، وأعيان الشعراء، وخاصةِ الأدباء، على السواء .

ورعيا لهذا لاسبيل على كاتب أن يكتب : ها أنا ، وها أنت ، وها هو ، وما يناظر ذلك من سائر أمثلة الضمائر :

محمد شوقى أمين



عن الأساليب التعبيرية

كان + الماضى بدون - قد - .. هذه هى مثار البحث

للدكتور حسن عون

ميادين الدرس اللغوى :

لكى يكون الدرس اللغوى مفيدا فى أية لغة ينبغى أن يتناول ثلاثة ميادين مختلفة ، ولكنها تلتقى فى النهاية جميعا لخدمة هدف واحد : هو تعلم اللغة ، والإلمام بها أو بجانب كبير منها ، واستخدامها كأداة طيعة لشرح الأفكار والآراء والعواطف بالطرق السليمة المألوفة فى اللغة ،دون نبو ولا نشاز حتى فيما يجد على اللغة أو على المجتمع اللغوى من أمور وأفكار وصور لم يكن للغة عهد بها من قبل .

يتناول الدرس اللغوى هذه الميادين الثلاثة بترتيب خاص لكيلا تضطرب النتائج المرجوة منه ، ولكيلا يكون حظ الدارس منها كحظ من يدخل حلبة السباق من غير خطة مدروسة ولا طريق مرسوم فتضيع عليه ثمرة مجهوده ولا يجنى من وراء ذلك سوى الحيرة والبلبلة والإخفاق .

الميدان الأول : هو درس الأساليب التعبيرية أى الطرق المألوفة فى الأداء اللغوى ؛ فإذا كان المتكلم مخبرا لجأ إلى الأساليب الإخبارية ، وإذا كان مستفهما لجأ إلى الأساليب الاستفهامية ؛ وإذا كان راجيا أو متمنيا أو آمرا لجأ إلى أساليب الرجاء أو التمنى أو الطلب ؛ إذ لكل واحد من هؤلاء الأساليب طرقه الخاصة ومقاييسه المرسومة التى تؤدى الفكرة بدقة كما يريدها المتكلم أو الكاتب ، وكما ينتظرها السامع أو القارئ وكما ألفتها اللغة نفسها .

والملاحظ هنا أن مهمة الدارس مهمة تقليدية بحتة ؛ فهو لا يتصرف بتغيير

أو تعديل ولا بابتكار أو إبداع ؛ ولكنه يرصد ويختزن ويحاكى ما يراه ويقرأه من أساليب تعبيرية مختلفة باختلاف المعانى والأغراض .

الميدان الثانى : هو درس نظم هذه الطرق أو الأساليب ، كما تمثلها وأصبح فى مقدوره محاكاتها ، بما فى ذلك أدوات الربط بين أجزاء الجملة والصلات الشكلية والمعنوية بين تلك الأجزاء . تكفل بهذا الدرس ما هو معروف لدينا بعلم النحو ، من حيث تمييز كل جزء من أجزاء التركيب اللغوى بشكل خاص يخضع لنوع الوظيفة التى يؤديها هذا الجزء أو ذاك من الجملة . ولسنا فى حل هنا من الخوض فى تفصيل محتويات الدرس النحوى وما أداه من خدمات للدرس اللغوى ، أو ما تطرق إليه من تعثر وانحراف جعلاه يتجنب الصواب أحيانا ويضيف إلى القواعد النحوية ماليس منها أحيانا أخرى .

الميدان الثالث : هو درس الأساليب البيانية ، الذى ربما اعتبره بعض الدارسين نوعا من الترف اللغوى ؛ لكننا لا نفهم ذلك ولا نتصوره ؛ فدور الكلمة أو التركيب اللغوى لا ينبغى أن يقتصر على مهمة شرح الفكرة وإيصالها إلى السامع ؛ وإنما ينبغى أن يتناول بجانب ذلك تأثير هذه الكلمة أو ذلك التركيب على نفس السامع وحسه وعقله بحيث تستطيع الفكرة المشروحة أن تجد من السامع سندا مؤمنا بها وداعيا لها ومدافعا عنها ؛ ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق الصور البيانية والقوالب البلاغية والكلمات الموحية والسبك الجيد والاستهلال البارع والجودة فى الاختيار والمفاضلة فى مجال الأناقة والنبل بين المفردات والتعابير وطرق الأداء ؛ ولولا ذلك لغدت اللغة مجرد وسيلة لمجرد التفاهم بين الأفراد ؛ وهى غاية لا تستحق ما يبذل من جهد ومعاناة فى الدرس اللغوى .

لقد تكفل بهذا الدرس ما هو معروف لدينا بعلوم البلاغة : المعانى والبيان والبديع خدمت هذه العلوم كثيرا فى اللغات التى قدر لها أن تكون لغات ثقافة وحضارة كاليونانية واللاتينية ؛ ولم تقصر العربية فى هذا المجال ، بل سايرت زميلتيها فى الفطرة إلى أهمية الأساليب البيانية فى العمل على تأسيس علوم البلاغة وتطويرها ، بل ربما تكون العربية متفوقة عليهما فى ذلك سعيا وراء إظهار ما فى القرآن من إعجاز

بلاغى ؛ ومما يذكر لها أنها قطعت فى هذا المجال شوطا لا يجارى . وهنا نقول أيضا إننا لسنا فى حل من الخوض فى تفصيل محتويات درس الأساليب البيانية والحديث عن المكانة العظيمة التى بلغها بين الدراسات اللغوية الأخرى .

أهم هذه الميادين هو الميدان الأول – الأساليب التعبيرية أو القوالب اللغوية التى تكاد تكون مفصلة على قدر المعانى . ويعتبر هذا الميدان بمثابة الدرجة الأولى من سلم تعليم اللغة ؛ كما يعتبر الميدان الثانى بمثابة الدرجة الثانية ، والثالث بمثابة الدرجة الثالثة ؛ وليس من المعقول أن يقفز الدارس إلى الدرجة الثانية مهملا الدرجة الأولى دون أن يتعرض فى سيره إلى بعض المزالق والمخاطر .

لقد كان هذا هو منهج القدماء –أصحاب اللغات الحضارية – فى تعليم اللغة :يبدأون بالأساليب التعبيرية ، ثم بقواعد النظم ، ثم بالأساليب البيانية لا يختلفون إلا فى التفاصيل .

كان الإغريق يتخيرون للدرس اللغوى فى مرحلته الأولى بعض النصوص من شعر هوميروس فى الإلياذة والأوديسة أو من خطب ديموستين أو من مسرحيات هذا أو ذاك من كبار المؤلفين فى المسرح : أمثال سوفوكل ، أوربيد ، أريستوفان .

وكان اللاتينيون يتخيرون بعض النصوص من شعر فيرجيل فى الإينياده أو من دفاعات وخطب سيسيرون أو من الخطب السياسية لكبار الساسة أمثال قيصر وأنطونيو وبومبى وأوكتاف . وكان الجميع من إغريق ولا تينيين يؤمنون بسلامة الصعود على درج هذا السلم التعليمى بذلك النظام : الأساليب التعبيرية أو القوالب اللغوية المعبرة بدقة عن الأفكار والمعانى ؛ ثم النظام المتبع فى هذه الأساليب أو القوالب مع الاهتمام بوظائف الكلمات وأدوات الربط ، ثم الأساليب البيانية التى تأخذ فى اعتبارها الأمور المتصلة بالحس والوجدان والمشاعر فتهزها وتثيرها وتسخرها لما يراد منها ؛ وقد يصل التأثير إلى درجة الافتتان فيقف السامع أمام التعبير البيانى مشدوها ، قد ذابت شخصيته فى بوتقة هذا البيان الساحر فلا يملك إلا أن يذعن ويستسلم وينقاد إلى حيث يراد منه وينفذ طواعية ما يطلب إليه .

على هذا النمط من السلم التعليمى سار أئمة اللغة لدى العرب ؛ وأول كتاب فى اللغة والنحو عندهم يصور هذا المنهج التعليمى فى اللغة ؛ وهو كتاب سيبويه ، الذى يسلك مسلك الإغريق واللاتينيين ولا يختلف عنهم إلا فى بعض الظواهر الضرورية بالنسبة للبيئة والمجتمع .

غير أننا – لسوء الحظ – لم نعن بهذا الكتاب العناية اللازمة ، ولم نقف أمام نصوصه ومنهجه الوقفة المتأنية ، ولم نوجه إليه النظرة الشاملة ، ولم نتعمقه ونفحصه ونحلله التحليل الواعى العميق . درسه القدماء من وجهة نظرهم ووفقا لمقتضيات ظروفهم الاجتماعية والثقافية ؛ ودرسه المحدثون فى ضوء ما قيل عنه وعن محتوياته . وهذا – فيما نعتقد – تقصير لا مبرر له ؛ ومن أجل ذلك جاءت الأحكام عن هذا الكتاب سطحية باهتة فجة .

تعرض سيبويه للدرجة الأولى والثانية من سلم التعليم اللغوى بشكل واضح ومفصل ؛ وأشار بطرق مختلفة ، من حيث الوضوح والغموض ، إلى الدرجة الثالثة . فهو حين يعرض لظاهرة لغوية أو لقاعدة نحوية يقدم لها بمجموعة كبيرة من النصوص اللغوية ، بعضها مأخوذ من كلام العرب شعرا ونثرا ، وبعضها مأخوذ من الآيات القرآنية ، وبعضها مصطنع أو تقليد للقوالب اللغوية المألوفة المأثورة ؛ والقارئ الواعى لهذه النصوص يحس أن سيبويه يريد أن يلقى فى روعة أن فكرة كذا يعبر عنها بكذا .

ثم من خلال هذه النصوص يلحظ سيبويه ما يوجد بين أجزائها من صلات وروابط ووظائف تدل عليها الأنظمة التركيبية والأدوات اللغوية والأشكال الإعرابية ؛ وهذا يمهد إلى استنتاج الظاهرة اللغوية وصياغة القاعدة النحوية .

سار الدرس اللغوى – أثناء حياته الطويلة بين الدارسين العرب ولأسباب لا مجال لتفصيلها هنا – فى متاهات مترامية ؛ فلم يسر على هدى من سيبويه ؛ وأصبح النحو وظواهره مجموعة من القواعد التجريدية ، وانفصل عن النص اللغوى كما تنفصل الروح عن الجسد ؛ وبذلك آل أمر الدرس اللغوى إلى حالة أهملنا فيها إلى درجة كبيرة العناية بالأساليب التعبيرية أو القوالب اللغوية ، وأصبحنا نتخبط فى

مأن التعبيرات العربية : أيها صحيح ؟ وأيها غير صحيح ؟ أيها ورد عن العرب ؟ وأيها لم يرد عنهم ؟

وهنا بيت القصيد بالنسبة لهذا البحث : كان + الماضى ؛ ألابد من – قد – أمام الماضى أم يسوغ التعبير بدون – قد – ؟

لقد ثار فى هذه الأيام جدل طويل حول هذا التركيب اللغوى ؛ واستقر رأى عدد غير قليل من اللغويين على أن التركيب – كان قد فعل – هو الصحيح ، وأن – كان فعل – لم يرد عن العرب .

هذا الموقف شد انتباهنا بقوة إلى ملاحظة التراكيب اللغوية المتصلة به فأخذنا نعنى به ونتمثله دائما فى قراءاتنا المتنوعة ؛ وحرصنا على أن نسجل ما نراه منه فى الكتب والمراجع المختلفة لكى يكون الحكم على هذا التركيب واضحا لا غموض فيه .

لا نريد أن نتعجل النتيجة قبل عرض النصوص : ونكتفى الآن بالقول فقط إنها جاءت مدهشة وعلى غير ما كان ينتظر أولئك الذين يزعمون أن التركيب – كان + الماضى بدون « قد » – غير وارد فى اللغة .

موقف القرآن من هذا التركيب – كان + الماضى بدون « قد » – الذى لايتصور المعارضون وجوده فى اللغة : ورد هذا التركيب فى الآيات القرآنية بصور مختلفة ؛ فمرة يجئ الفعل – كان – متلوًّا بالماضى دون أن يكون بينهما فاصل مثل :

وإن كان كبر عليك إعراضهم (الأنعام ٣٥) .

وإن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله (يونس ٧١) .

تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر (القمر ١٤) .

ومرة يجىء نفس التركيب مع وجود فاصل بين الفعلين بالضمير أو بغيره مثل :

وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به (الأعراف ٨٧) .

إن كان قميصه قُدَّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين (يوسف ٢٦) .

وإن كان قميصه قُدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين (يوسف ٢٧) .

فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها (يونس ٩٨) .

ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار (الأحزاب ١٥) .

ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته (المائدة ١١٦) .

قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين (الأعراف ١٠٦) .

. . . ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وماأنزلنا على عبدنا (الأنفال ٤١) .

وقال موسى : ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا (يونس ٨٤) .

إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة (الممتحنة ١)

ومرة يجى فعل الكينونة بصيغة المضارع لفظا والماضى معنى، ثم يجىء الماضى للفعل الآخر بدون ـ قد ـ سواء أكان فعل الكينونة متصلا بضمير بارز أم غير متصل مثل :

يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل (الأنعام ١٥٨) .

من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم (النساء ٢٣) .

أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال (إبراهيم ٤٤) .

موقف اللغويين من نفس التركيب :

يقول سيبويه فى كتابه : وإذا قلت : كان رجل ذاهبا فليس فى هذا شىء تُعْلِمُه كان جهله (ج ١ ص ٢٦)

وفى كتاب فتوح البلدان للبلاذرى يوجد هذا النص : وكان أصابه سهم بعين التدر فاستشهد (ص ٢٥٧)

وفى كتاب طبقات النحويين واللغويين لأبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى توجد هذه النصوص :

ص ١٠٢ : وروى عن أبى عثمان الخزاعى أنه كان قال لأبى حاتم . . .

ص ١٠٤ : حدثنا أبو زيد عن شعبة : قال : كان سماك بن حرب يقول ... وكان أبو حاتم رأى أنه واجد عليه . . .

ص ١٠٥ : فإنه حين احتمُل إلى «سُرَّ من رأى»، وكان احتُمِلَ لقضاء البصرة .

ص ١١٠ : . . . وأخرجت (الحديث للمبرد) فلم أصل إلى الموضع الذى كنتُ أُنزلتُه . . .

ص ١٢٢ : حدثنى بعض أصحابنا أن الزجّاج النحوى قال : لازمت خدمة عبيد الله بن سليمان الوزير ملازمة قطعتنى عن أبى العباس المبرد وعن . . . وعن إجرائى عليه ما كان تعوده منى . . . .

ص ١٣٥ : وكان (أبو جعفر الرُّؤاسىّ) أُستاذ أهل الكوفة فى النحو ، وكان أخذ عن عيسى بن عمر . . .

ص ١٣٦ : وكان أبو مسلم جلس إلى معاذ بن مسلم الهراء النحوى .

ص ١٣٩ : . . . وكان حمزة أخذ أكثر من ثلاثين آية . . .

ص ١٥٠ : وكان أحمد بن يحيى سمعه (معانى القرآن للفراء) من سلمة ابن عاصم عن الفراء

ص ١٦٠ : . . . وكان محمد ابن عيسى وصفه له . . .

ص ١٦٧ : . . . وكان خَلَّف أحدا وعشرين ألف درهم وألفى دينار ..

ص ١٧١ : كان (ابن كيسان) كوفيا يحفظ القولَين ويعرف المذهبين وكان أخذ عن ثعلب والمبرد

ص ١٧٩ . . . وكان خلف (الأحمر) شاعرا وكان وضع على عبد القيس شعرا مصنوعا .

ص ٢٥٠ : . . . فلما دخلت المشروحات نظر طلبة العربية والنحو فيها ،وفيما كانوا رووا عنه منها . وفى نفس ص ٢٥٠ : . . وكان لقى جماعة من العلماء بالعربية والمعروفين بالرواية .

ص ٢٦٠ : كان (على بن الحضرمى) نحويا شاعرا أديبا ، وكان ربما علم .

ص ٢٦٤ : . . . وكان اتُّهِمَ (الطَّلَّاء المنجم بعمل الدنانير والدراهم . . .)

ويقول ابن جنى فى مقدمة كتابه ـ الخصائص ـ : على أنَّ أبا الحسن (الأخفش) قد كان صنف فى شئ من المقاييس كتيبا . . .

وفى الخصائص أيضا ج ١ . ص ٢٤ : وقد كان أبو العباس احتج بشئ من من شعر حبيب بن أوس الطائى . . .

ويقول الجاحظ فى كتابه ـ الحيوان ـ ج ٤ . ص ٥٦ : كنتُ بعجتُ بطن عقرب إذ كنت بمصر فوجدت فيه أكثر من سبعين عقارب صغار كل واحدة نحو أرزة .

ويقول كذلك فى نفس الكتاب ج ٥ . ص ٢ : وقد كان حرُّ النار هيَّجَ تلك الحرارة .

وفى شرح المعلقات السبع للزوزنى توجد هذه النصوص :

ص ١١ : يا فاطمة دعى بعض دلالك وإن كنت وطّنتِ نفسك على فراقى فأجملى . . . .

١٦ : فلما كان كذا وكذا تنعمت وتمتعت بها . . .

ص ٤٢ : وكان طرفة هجا قبل ذلك عمرو بن هند . . .

ص ٤٣ : . . . فقال طرفة لئن كان اجترأ عليك ما كان بالذى يجترئ على . .

ص ٤٣ كذلك : . . ويسقونه الخمر حتى قتل وقد كان قال فى ذلك قصيدته . . .

موقف الشعر من هذا التركيب :

هناك بيت من الشعر مشهور فى كتب النحو لا يكاد يخفى على من له فضل اطلاع على المؤلفات النحوية ، ويذكر شاهدا على تقدم معمول خبر كان :

قنافذ هداجون حول بيوتهم
بما كان إياهم عطية عودا

ويروى أبو زيد فى كتابه النوادر ـ ص ٣٦ ـ :

وقد كان مات الأقرعان كلاهما .

ويذكر البحترى فى قصيدة مدح بها المتوكل :

يا بانى المجد الذى
قد كان قوض فانهدم

فى ضوء هذه النصوص المتقدمة من القرآن ومن النثر ومن الشعر يمكن أن نستنتج :

أولا ـ أن التركيب ـ كان فعل ـ سائغ فى اللغة وموجود بكثرة فى نصوصها على ألسنة أئمة بارزين فى الميدان اللغوى ومتقدمين فى العصور التاريخية ؛ وقد ورد هذا التركيب فى صور مختلفة ـ كما أشرنا إلى ذلك منذ قليل ـ ولكنها جميعا تندرج تحت مبدإ واحد ؛ هو جواز التعبير بالماضى بعد ـ كان ـ دون أن يسبق هذا الماضى بالحرف ـ قد ـ .

ثانيا ـ أن التركيب ـ كان قد فعل ـ لم نجده مرة واحدة فيما اطلعنا عليه ـ وهو كثير ـ بأية صورة من الصور المختلفة كما عرضناها فى التركيب السابق .

أما القرآن فنستطيع أن نؤكد أنه لم يستعمل هذا التركيب أبدا ؛ وذلك بعد الإحصائية الدقيقة التى قمنا بها فى آياته وراجعناها أكثر من مرة ؛ صحيح ورد الماضى مقرونا بـ ـ قد ـ مرة واحدة فى القرآن بعد فعل الكينونة ؛ غير أن فعل الكينونة فى هذه المرة جاء بصيغة المضارع لا بصيغة الماضى ؛ وذلك فى الآية : وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم (الأعراف ١٨٥)

ولقد كان هذا فى الواقع موضوع دهشة من جانبنا وفتح أمامنا آفاقاً واسعة للتفكير فى الأساليب اللغوية التى حرص القرآن على استعمالها ، والأساليب اللغوية الأخرى التى تحاشاها فى استعمالاته .

وأما النصوص اللغوية الأخرى ـ شعرا ونثرا ـ فلا نستطيع أن نؤكد عدم احتوائها جميعا على هذا التركيب ـ كان قد فعل ـ رغم عدم رؤيته مرة واحدة فيما اطلعنا عليه منها ؛ وذلك لأننا لم نحاول عمل إحصائية كاملة على نمط ما صنعناه فى آيات القرآن الكريم ؛ فذلك يحتاج إلى وقت طويل ، ومجهود كبير من كثيرين ومع ذلك فالقيام بمثل هذا يكاد يكون واحدا من المستحيلات .

وهذا يفتح الباب أمام سؤالين :

أحدهما : كيف غاب هذا الوضع عن أولئك الذين يزعمون أنه لا يمكن أن يجىء الماضى بدون ـ قد ـ بعد الفعل ـ كان ـ ؟ .

والثانى : كيف يتحاشى القرآن هذا التركيب اللغوى مع ما يبدو عليه من أنه مستساغ مقبول من الناحية العقلية والذوقية ومن ناحية المنطق اللغوى ؟

يمكن أن يجاب عن السؤال الأول بأن أولئك الذين يلزمون اقتران الماضى بـ ـ قد ـ بعد ـ كان ـ متأثرون بصيغة أو بتركيب لغوى شاع فيما ، بيننا وكثر تداوله فى اللغة الحديثة ؛ ولكنه نُقل إلينا من النصوص الأجنبية التى كثرت ترجمتها إلى اللغة العربية ؛ ولعل مصدر النقل الأول هو اللغة الفرنسية ؛ وصيغته فى

الفرنسية هى – passé antérieur – ؛ وهى إحدى صيغ الماضى التى تشرح حدوث أمر ما قبل حدوث أمر آخر فى الماضى أيضا دون أن يكون بين الأمرين مهلة فى الزمن مثل : غادرت المنزل أمس بعد أن كنت قد أكلت .

ويبدو أننا فى ترجمتنا لهذه الصيغة الزمنية الفرنسية بذلك التركيب اللغوى العربى – كان قد فعل – لم نراع الدقة التامة من حيث وجود حدثين مرتبطن فى الماضى، أحدهما وقع بعد الثانى مباشرة دون أن يكون بينهما فاصل زمنى كبير ؛ ولكننا اصطلحنا على أن ننقل هذه الصيغة الفرنسية بهذا التركيب اللغوى العربى ، لنفرق بينه وبين تركيب لغوى آخر هو – كان فعل – الذى اصطلحنا على أن ننقل به إلى العربية صيغة زمنية فرنسية أخرى هى plus-que parfait ، ورغم ذلك فقد كثر استعمال هذه الصيغة – كان قد فعل – واستمغناها لدرجة كبيرة وأصبحنا نرى فيها نموذجا من الصيغ العربية المألوفة دون أن نعنى بأصلها ولا بتاريخ استعمالها ، ودون أن نهتم بمراجعة الأساليب التعبيرية القديمة فى لغتنا حتى نستطيع التمييز بين ما كان مستعملا قديما وما استحدثنا استعماله فى العصر الحديث نتيجة الاحتكاك اللغوى والاختلاط الثقافى .

هذه الظروف – فى نظرنا – هى التى أملت على هذا الفريق من اللغويين المعاصرين أن يفرضوا تلازما بين – قد – والفعل الماضى بعد – كان – ظنا منهم ، لشيوعه وكثرة دورانه ، أنه هو الاستعمال الصحيح المستساغ ، وأن غيره محكوم عليه بالفساد . إننا نوافقهم فى الشق الأول لأن من حق اللغة ، بل من واجبها –لضمان حيويتها وتطورها واستمرارها – أن تتبنى صيغا جديدة وتراكيب جديدة ما دام ذلك يخضع للمنطق اللغوى وللقوانين العامة فيها ؛ ولكننا نخالفهم بالنسبة للشق الثانى ؛ إذ الحكم بالمنع أو عدم الصحة يحتاج إلى درس أعمق وتحليل أدق وليس من السهل إصداره .

وأما السؤال الثانى فليس من الميسور أن يجاب عنه الآن ؛ إذ أنه يتصل بفلسفة اللغة ومنطقها فى خلق صيغ زمنية تؤدى ما يطلب منها .

وذلك موضوع لبحث آخر .

حسن عون

أسس وقواعد الكتابة السهلة الممتعة

دراسة لغوية نفسية إحصائية

للدكتور فؤاد البهى السيد

مقدمة :

يختلف مستوى الكتابة تبعا لاختلاف مستوى الكاتب والقارىء ، والموضوع فالكتابة العلمية تعتمد فى قوتها على الايجاز والتحديد ، والدقة البالغة ، وذلك لأن الموضوعات العلمية هى فى جوهرها تسجيل للظاهرة وتفسير لها . فكاتبها وقارئها يلتقيان فكريا فى مجال معين تحدده مصطلحات متفق عليها وأساليب خاصة فى التفكير . وهكذا نرى أن الصلة بين الكاتب والقارىء فى هذه الحالة صلة وثيقة . فالكاتب عالم ، والقارىء أيضا — فى الأغلب والأعم — أحد المشتغلين بالعلم .

لكن الكتابة السهلة التى تخاطب آلاف الناس ، الكتابة التى تقرأها الجماهير تعتمد على قدرة الكاتب فى تبسيطه للمادة المكتوبة وهو يعرضها فى أسلوب شيق ممتع : هذه البساطة هى التى تجذب أنظار الناس لكاتب معين ، يقرأون له ، ويتحدثون عنه ، ولن تقوم الصلة الوثيقة بين الكاتب وقرائه إلا عندما يدرك الكاتب المستوى القرائى الذى يكتب له ، وإلا عندما يصل ببساطة لغته وبراعة أسلوبه ، إلى عقول القراء .

وقد اهتم العلماء منذ سنين مضت وما زالوا يهتمون ببحث العوامل التى تؤثر فى مستوى سهولة الكتابة أو صعوبتها فى اللغات المختلفة وانتهت بهم نتائج تلك الأبحاث إلى تحديد أهم العوامل المشتركة فى : الكلمة ، والجملة ، والفقرة ، والفكرة ، والأسلوب والموضوع ، والصور ، والرسوم التوضيحية وطريقة الطباعة .

هذا وسنلخص فيما يلى المظاهر الرئيسية لكل عامل من تلك العوامل .

أولا ــ الكلمات

تتأثر سهولة المواد القرائية تأثرا مباشرا بمدى سهولة الكلمات التى تشتمل عليها .

وتقاس سهولة الكلمة بموازين مختلفة نلخصها فيما يلى :

١ ــ مدى شيوع الكلمة فى المواد القرائية إذا تكررت كلمة (رجل) ٥٠٠ مرة فى إحدى المواد القرائية ، وتكررت كلمة (زميل) ١٠٠ مرة ، عدت كلمة رجل أسهل من كلمة زميل .

هذا وقد اهتم الباحثون بهذا التكرار لأهميته فى تحديد مستوى سهولة الكلمات ؛ وأدى هذا الاهتمام إلى ظهور قوائم الكلمات الشائعة التى ترصد وتسجل عدد مرات تكرار الكلمات فى المواد القرائية ، ومن أهم هذه القوائم فى اللغة العربية قائمة «بريل» التى ظهرت سنة ١٩٤٠ ، وقائمة « لطفى » سنة ١٩٤٨ ، وقائمة « عاقل » سنة ١٩٥٣ ، وقائمة « خاطر » سنة ١٩٥٨ ، وقائمة البهى التى ظهرت بالمغرب العربى سنة ١٩٦١ ، والكلمات الأساسية للبهى التى ظهرت بالمغرب العربى ١٩٦٢

وتصلح قوائم الكلمات الشائعة والأساسية لحساب النسبة المئوية للكلمات الصعبة فى أى مادة قرائية ، وذلك عن طريق عد الكلمات غير الشائعة ، أى غير الموجودة بالقائمة وقسمة الناتج على المجموع الكلى لكلمات القطعة ثم ضرب الناتج فى ١٠٠ وبذلك نحدد مستوى سهولة أو صعوبة أى مادة قرائية أى أن .

$$\text{النسبة المئوية للكلمات الصعبة} = \frac{\text{الكلمات غير الشائعة}}{\text{مجموع الكلمات}} \times ١٠٠$$

ونستطيع ترتيب كلمات المواد القرائية بالنسبة لسهولتها أو صعوبتها بحيث يساير هذا الترتيب المستويات القرائية .

وهكذا تحدد الكلمات الشائعة السهولة ، وتحدد الكلمات غير الشائعة الصعوبة وتحدد النسبة القائمة بين الكلمات الشائعة وغير الشائعة المستويات المتدرجة للسهولة والصعوبة

٢ ــ الكلمات القصيرة أسهل من الكلمات الطويلة : تدل أغلب الأبحاث العلمية على أن صعوبة الكلمة تزداد تبعا لزيادة عدد حروفها وبذلك تصبح الكلمة القصيرة أسهل من الكلمة الطويلة . ويمكن أن نستنتج من ذلك أن كلمة دار أسهل من كلمة منزل لأن الكلمة الأولى مكونة من ثلاثة حروف . والكلمة الثانية من أربعة حروف .

هذا ويزداد شيوع الكلمة تبعا لنقصان حروفها لأن الكلمة الطويلة ثقيلة فى النطق والهجاء والاستعمال . ولذا شاعت الكلمات القصيرة وازدادت سهولتها تبعا لزيادة شيوعها. وكثيرا ما تعتمد اللهجة الدارجة على

هذه القاعدة فى ألفاظها . وهى غالبا ماتنقص حروف الكلمات العربية الطويلة لتنطقها قصيرة فى أسلوبها الدارج العامى . ويلجأ الطفل أيضا إلى هذه الوسيلة فى بدء تعلمه اللغوى . فيعبر عن الجملة بكلمة . ويعبر عن الكلمة ببعض حروفها .

٣ ـ نوع الكلمة يحدد مستوى سهولتها : أكثر الكلمات تكرارا هى الأسماء تليها الأفعال كما تدل على ذلك قوائم الكلمات الشائعة والأساسية . والأسماء أقرب إلى الواقع من الأفعال لأنها تدل على وجود ذاتى أو معنوى . والأفعال أحداث فى زمن ، والزمن أكثر تجريداً من معنوية الأسماء .

٤ ـ الضمائر الشخصية تحدد مستوى سهولة الكلمة : الحديث عن النفس حديث ممتع جذاب ولذا تؤثر الضمائر الشخصية فى مدى قابلية الكلمة للقراءة والفهم المباشر . وعندما تحدث إنسانا عن نفسه فأنه يهتم بحديثك أكثر من اهتمامه بحديثك عن شخص آخر أو موضوع غير شخصى . ولذا تكثر الضمائر الشخصية فى حوار الناس مثل أنت وأنا وغير ذلك مما يشير مباشرة إلى الفرد . ومن الظواهر العلمية المعروفة كثرة تكرار كلمة أنا فى أحاديث الأطفال وخاصة فى بدء تعليمهم اللغوى .

ولعل هذا هو أحد الأسباب التى تجعل الناس يميلون إلى قراءة القصص والروايات لأنها تعبر بطريق مباشر أو غير مباشر عن شخصياتهم وعواطفهم وآمالهم وآلامهم . والقصة الناجحة هى التى تمس أعماق النفس فتثير الانفعال والإعجاب .

٥ ـ الكلمات الغريبة فى رسمها أو معناها : يتأثر مستوى سهولة المواد القرائية بنسبة الكلمات الشاذة الغريبة التى تحتوى عليها تلك المواد : وذلك لأن هذه الكلمات تعوق الفهم وتحول بين الفرد وبين التعرف الصحيح على الكلمة لغرابة رسمها أو لغموض معناها أو لهما معا .

ولذا يجب تجنب استخدام الأوزان غير الشائعة لبعض الأفعال مثل يئس وبطن . وتجنب الألفاظ النابية مثل استوثق واستهل . والمصطلحات الدقيقة مثل المصادق . والكلمات التى يحتمل تأويلها بأكثر من معنى مثل عين بمعنى جهاز الإبصار أو بئر الماء أو بمعنى جاسوس . والكلمات التى يحتمل نطقها فى أكثر من صورة مثل حسب بمعنى عد وحسب بمعنى ظن . ويجب أيضا تجنب استخدام الأسماء المقصورة مثل صرعى لاختلاف نطقها عن رسمها .

٦ ـ معنى الكلمة يحدد مستوى سهولتها : أسماء الذات أسهل من أسماء المعنى فمثلا كلمة قلم أسهل فى إدراكها من كلمة فكر . وهكذا يحدد مفهوم الكلمة مدى شيوعها ومستوى سهولتها .

٧ ـ عدد الكلمات المختلفة ومستوى القراءة : يعتمد الفرد إلى حد كبير على محصوله اللفظى فى قراءته وفهمه . ولذا يجب

أن تبدأ المستويات الأولى للقراءة الميسرة بعدد محدود من الكلمات المختلفة مثل ٢٠٠ كلمة مختلفة فى المستوى الأول لتلك القراءة، ثم يتطور هذا العدد إلى ٣٠٠ كلمة مختلفة فى المستوى الثانى وإلى ٤٠٠ كلمة مختلفة فى المستوى الثالث وهكذا يتطور العدد تبعا لتطور المستوى :

وهكذا يساير عدد الكلمات المختلفة نمو المحصول اللفظى للقارىء ويناسب مستوياته القرائية المتدرجة .

٨ ــ مدى تكرار الكلمة يؤثر على مستوى تعلمها : عدد الكلمات المختلفة التى يتعلمها الفرد تكون فى جوهرها محصوله اللفظى كما سبق أن بينا ذلك . ولذا يجب على الكاتب أن ينمى هذا المحصول بأن يضيف اليه كلمات أخرى جديدة تبعا لزيادة مستوى القارىء . وتعتمد هذه العملية على إعادة كتابة الكلمات الجديدة عددا من المرات حتى تثبت فى ذهن القارىء . وتدل الأبحاث العلمية على أن أقل عدد مناسب لهذا التكرار هو خمس مرات .

هذا ويجب أن تتقارب مرات ظهور الكلمات الجديدة فى أول كتابتها ثم تتباعد مرات تكرارها بعد ذلك . وذلك لأن النسيان يكون كثيرا فى أوائل عملية التعلم ثم تخف حدته ويضعف أثره بعد ذلك . لذا كان علينا أن نقارب بين عدد مرات ظهور الكلمة الجديدة فى أوائل كتابتها حتى نتغلب على أثر هذا النسيان .

ثانيا ــ الجمل

الجمل المناسبة تؤثر على بساطة الأسلوب وسرعة فهم الفكرة . ولذا يجب أن تخضع الجملة فى فكرتها وصورتها وبنائها إلى قواعد الكتابة الواضحة حتى تؤدى هدفها فى تيسير القراءة وسلاسة التعبير . وتقاس سهولة الجملة بموازين مختلفة نلخصها فيما يلى :

١ ــ البساطة الفكرية للجملة : الجملة الكاملة تؤدى معنى . ويختلف مستوى صعوبة الجملة أو سهولتها تبعا لعدد الأفكار التى تشتمل عليها . ولذا يجب أن تحتوى الجملة على جزء محدود من الفكرة التى تقوم عليها الفقرة . فعلاقة الفقرة بالجملة هى علاقة الفكرة بأجزائها . ولذا يجب ألا تختلط هذه الأجزاء بل تتابع فى انتظام ونسق واضح بحيث تؤدى فكرة أية جملة إلى فكرة الجملة التى تليها .

وهكذا تتحقق البساطة الفكرية للجملة . وتصبح قراءتها سهلة ويصبح فهمها ميسورا .

٢ ــ طول الجملة يؤثر فى سهولتها : الجملة القصيرة جدا تؤدى إلى الإيجاز ، والإيجاز يعوق فهم المعنى . والجملة الطويلة جدا تؤدى إلى الأطناب ، والأطناب الكثير يؤدى إلى الكلل وتشتت الانتباه نتيجة للاستهتار بالمادة المقروءة . وقد يؤدى أحيانا إلى اختلاط الجملة بالفقرة . ولذا يجب أن يكون طول الجملة مناسبا لمستوى القارىء .

والتحديد المقترح لطول الجملة هو ألا يقل عدد كلماتها عن ٥ ولا يزيد على ١٥ وذلك نتيجة لتحليل الموضوعات القرائية .

هذا ويجب أن يخضع هذا التحديد بعد ذلك للتجربة للكشف عن طول الجملة المناسب لكل مستوى من المستويات التصاعدية للقراءة.

٣ ــ نوع الجملة يؤثر فى سهولتها : إذا جاز لنا أن نفترض أن الجمل الاسمية أبسط وأسهل من الجمل الفعلية لأنها تبدأ بالاسم الذى هو فى الأغلب والأعم أسهل من الفعل . لذا يجب أن نعتمد على الجمل الإسمية فى إنتاج مواد القراءة السهلة الميسورة . هذا ويمكن أن يخضع هذا الفرض للتجربة للتحقق من صلاحيته وللكشف عن العلاقة القائمة بين نسب الجمل الاسمية والفعلية والمستوى القرائى .

٤ ــ التقديم والتأخير يزيد فى صعوبة الجملة : يقدم المبتدأ على الخبر فى الصورة الأصلية للجملة الإسمية . وعندما يتقدم الخبر على المبتدأ كما فى حالة الجار والمجرور مثل : « فى البيت رجل » يزداد تعقيد الجملة لأنها تخرج بذلك عن الصورة المألوفة لها . لذا يجب أن نراعى الصورة المألوفة للجملة الاسمية وخاصة بالنسبة للمستويات الأولى القرائية .

٥ ــ تباعد مكونات الجملة يزيد فى صعوبتها : يجب أن نتجنب التباعد الكبير بين الفعل والفاعل . أو بين المبتدأ والخبر . أو بين إسم إن وخبرها ، أو إسم كان وخبرها. أو بين الشرط وجوابه حتى لا يتعقد المعنى . فالجملة السهلة تستقيم مكوناتها فى وضوح وتقارب . وهذا التقارب القائم شرط أساسى لتيسير القراءة .

وبالمثل فإن إبعاد الضمير عن الاسم الذى يعود اليه يعقد المعنى . وكثرة الجمل الاعتراضية تحول دون الفهم المباشر السريع للجمل المختلفة .

لذا يجب أن نقارب ما بين المكونات المختلفة للجملة حتى يستقيم التركيب اللغوى . وحتى تتيسر عملية القراءة السريعة .

٦ ــ حذف أحد مكونات الجملة يزيد فى صعوبتها : تحتوى الجملة فى صورتها الأصلية على مكوناتها دون حذف أو تقدير . وبذلك يظهر المبتدأ والخبر فى الجملة الاسمية ويظهر الفعل والفاعل فى الجملة الفعلية وعندما يختفى أحد هذه المكونات فإن المعنى يصبح غامضا لأنه يحتاج إلى جهد عقلى معين لإدراكه .

لذا يجب علينا أن نتجنب الحذف والتقدير فى بنائنا اللغوى للجملة .

٧ ــ المبنى للمعلوم أسهل من المبنى للمجهول : بناء الجملة للمعلوم يوضح الفعل والفاعل . ولذا فهو أيسر فهما وأقرب منالا من البناء للمجهول الذى يغير صورة الفعل ويحذف الفاعل . وهكذا نرى ضرورة الاعتماد على المبنى للمعلوم فى التكوين اللغوى للجملة وخاصة فى عملية إنتاج المواد القرائية السهلة .

٨ ـ الانتقال السريع فى زمان الفعل يعقد المعنى : الانتقال السريع من الماضى إلى الحاضر أو من الماضى إلى المستقبل أو فى الزمن عامة مهما كانت صورته قد يكون جميلا فى البناء اللغوى الناضج لأنه يتطلب تركيز الانتباه ويضفى على الصورة اللغوية جمال الحركة والمرونة . لذا يجب أن نراعى الوحدة الزمنية للجملة فلا نضمنها أكثر من صورة زمنية واحدة للفعل ويجب أيضا أن نراعى ـ إلى حد ما ـ هذا التناسق الزمنى فى الجمل المتعاقبة حتى لا نفاجئ القارئ بالصورة الزمنية المختلفة : الماضية والحاضرة والمستقبلة بل نسير معه وفق سرعته الفعلية ومستواه القرائى .

ثالثا ـ الفقرات

دلت نتائج تحليل المحتوى الذى أجراه البهى على موضوعات جريدة « منار المغرب» على أن الفقرة هى أهم المكونات تأثيرا فى البناء اللغوى والفكرى للموضوع . وذلك لأن الفقرة تصنف الموضوع إلى أقسامه وأجزائه الرئيسية . وتشتمل على الجملة والكلمة والفكرة . ولذا كان الاهتمام بالفقرات والضبط العلمى لها عملية رئيسية فى تيسير القراءة وتوضيح المعنى .

هذا وتقاس سهولة الفقرات بموازين مختلفة نلخصها فيما يلى :

١ ـ التكوين الفكرى للفقرة : التقسيم الفكرى للموضوع يقتضى بناء لغويا يوضحه ويؤكد أقسامه . فاذا انقسم الموضوع مثلا إلى خمس أفكار رئيسية فيجب أن ينقسم التنظيم اللغوى إلى خمس فقرات أيضا بحيث تعبر كل فقرة عن فكرة رئيسية واحدة . ولا تتعداها إلى غيرها .

ولذا يجب أن نراعى التطابق التام بين أفكار الموضوع وفقراته حتى نحقق الانتقال العقلى المناسب من فكرة إلى أخرى دون غموض أو إبهام . وبذلك يسهل على القارئ إدراك الأفكار الرئيسية للموضوع بسهولة وسرعة .

٢ ـ ترتيب فقرات الموضوع : عندما تطابق فقرات الموضوع أفكاره فان ترتيب الأفكار يتطلب خضوع الفقرات لنفس ذلك الترتيب . ولذا يجب أن تمهد الفقرة الأولى للموضوع وتشوق القارىء إلى قراءته وتبين بناءه العام . ثم تحلل الفقرات الوسطى عناصر الموضوع . وتلخص الفقرة الأخيرة جميع أفكاره وبذلك تسهل عملية القراءة على الفرد ويتضح معنى المادة المقروءة نتيجة لانتظام أفكارها وفقراتها .

٣ ـ ترتيب جمل الفقرة : يجب أن يخضع ترتيب جمل الفقرة لنفس التنظيم الذى خضع له ترتيب الفقرات . حتى يستقيم التنسيق الجزئى والكلى للموضوع . وبذلك تمهد الجملة الأولى للفكرة التى تعرضها تلك الفقرة؛ وتدل الجمل الوسطى على تحليل أجزاء الفكرة وتوضح الجملة الأخيرة ملخصها العام .

وهكذا يتضح التنسيق ويستقيم التنظيم وتسهل عملية القراءة .

رابعا – الأفكار

يعتمد الجوهر الرئيسى للموضوع على أفكاره . ولذا يجب أن نراعى السهولة والدقة والتنظيم فى عرض أفكار الموضوع .

هذا وتقاس صلاحية الأفكار بموازين مختلفة نلخصها فيما يلى :

١ – بساطة الفكرة : الأفكار المعقدة لا تصلح للقراءة السهلة . ولذا يجب أن نراعى البساطة القصوى فى إنتاج المواد القرائية وخاصة فى مستوياتها الأولى . ويجب أيضا ألا تركز الفكرة فى عدد قليل من الكلمات وألا تختلط أجزاؤها وفروعها وأقسامها بحيث يصعب على الفرد معرفة معالمها الرئيسية .

وقد دلت نتائج الأبحاث على أنه كلما كثر عدد كلمات الفكرة وضح معناها . وتتلخص نتائج إحدى هذه التجارب فى التعبير عن بعض الأفكار بـ ٣٠٠ كلمة ثم زيادة عدد كلمات تلك الأفكار إلى ٦٠٠ كلمة ثم زيادتها بعد ذلك إلى ١٢٠٠ كلمة . وقد دلت النتائج على زيادة وضوح الأفكار ووصلت إلى نهايتها العظمى عندما زاد عدد الكلمات من ٣٠٠ إلى ٦٠٠ كلمة .

واستمرت زيادة الوضوح الفكرى من ٦٠٠ إلى ١٢٠٠ . لكن الفرق فى الوضوح الفكرى بين ٣٠٠ كلمة و ٦٠٠ كلمة كان أكثر من الفرق فى الوضوح الفكرى بين ٦٠٠ كلمة و ١٢٠٠ كلمة . وهكذا نستطيع أن نقرر هذه الحقائق التالية :

(أ) يزداد الوضوح تبعا لزيادة عدد الكلمات .

(ب) يتأثر عدد الكلمات اللازمة لتوضيح أفكار معينة بعدد الأفكار ونوعها . ولذا يجب أن تخضع هذه الظاهرة للتجربة للكشف عن العدد المناسب من الكلمات لكل نوع معين من الأفكار . وإلى أن تجرى مثل هذه التجارب يجب أن نتجنب تركيز الفكرة فى عدد قليل من الألفاظ

(ج) ويمكن أن نقيس مدى التركيز اللفظى للفكرة وذلك بأن نسجل عدد الكلمات التى تدل على عدد معين من الأفكار . ثم نقسم عدد الكلمات على عدد الأفكار لنستنتج من ذلك عدد كلمات كل فكرة . ولنعلم من ذلك الحمل اللفظى للفكرة . وبذلك نستطيع أن نتدرج بالقارئ من البساطة إلى التركيز تبعا لتدرج مستوياته القرائية .

وهكذا يصل بنا التحليل إلى ضرورة ملاحظة عدد كلمات كل فكرة نكتبها . وأن نراعى البساطة الفكرية فيما نكتب . وألا نبخل على القارئ بالكلمات الكثيرة التى تزيد فى وضوح الفكرة وسهولة القراءة .

٢ ـ صحة الأفكار ودقة المعلومات : عندما يشك القارئ فى صحة الأفكار أو دقة المعلومات التى يقرأها فانه ينفر من القراءة لاستهانته بما يقرأ . ولذا يجب علينا أن نتأكد من صحة الأفكار ودقة المعلومات .

والطريقة العلمية المتبعة فى جمع الأفكار والمعلومات هى الرجوع بها إلى مصادرها الرئيسية . ولذا فمن الأفضل أن نرجع إلى الطبيب فى كتابتنا عن الأمراض : وهكذا بالنسبة للموضوعات الأخرى . ويجب أن تكون الأفكار والمعلومات التى تتضمنها كتابتنا ذات قيمة مباشرة للقارئ لندفعه إلى قراءتها .

٣ ـ ملخص الأفكار : عندما ينتهى الفرد من الموضوع الذى يقرأه فانه يحتاج إلى تلخيص واضح لتلك الأفكار حتى يدرك تماما الحصيلة الفكرية التى استفادها وانتهى اليها من قراءته .

خامسا ـ الأسلوب

يتأثر مستوى الفهم تأثرا كبيرا بأسلوب الكاتب . فقد يعالج كاتب ما فكرة معينة بأسلوب شيق سهل . فيفهمه القارئ . وقد يعالج كاتب آخر نفس الفكرة بأسلوب ممل معقد فلايفهمه القارئ العادى . ولذا كان للأسلوب أهميته القصوى فى تحديد المستوى القرائى المناسب .

هذا وتقاس صلاحية الأسلوب بموازين مختلفة نلخص أهمها فيما يلى :

١ ـ بساطة الأسلوب : عندما يعالج الأسلوب الكتابى الأشياء المألوفة فى حياة الناس فانه يصبح شيقا ممتعا لأنه عندئذ يستعين بالمعلوم ليوضح المجهول :

ويمكن تحقيق هذه الفكرة بالاكثار من التشبيهات والأمثلة الواقعية والاستعانة بالأسماء المعروفة للأمكنة والأفراد والحيوانات .

٢ ـ أسلوب الخطاب : الأسلوب المباشر الايجابى هو الذى يخاطب القارئ نفسه ، ولا يخاطب العالم كله . وهو بذلك يقيم صلة وثيقة بين المؤلف والقارئ . لأن المؤلف يخاطبه ويناجيه ، ويحاوره فى صراحة وبساطة ووضوح :

وعندما يضع الكاتب نفسه فى مكان القارئ ويحاول أن يتخيل أثر كتابته على القارئ فانه يستطيع أن يعدل ويغير من أسلوب خطابه حتى يتناسب مع مفاهيم القراء . وعندئذ يدرك تماما مدى نجاح أسلوبه فى عرض الفكرة القائمة عرضا شخصيا ايجابيا مباشرا :

٣ ـ نوع الأسلوب : يختلف نوع الأسلوب تبعا لاختلاف طبيعة المادة المكتوبة وتبعا لتباين مستوى القارئ . ويمكن أن نلخص الأنواع الرئيسية للأساليب الكتابية فى الحوار والقصص والوصف . والحوار أسهل هذه الأنواع وأقربها إلى لغة التخاطب والحديث والكلام العادى . والقصص مزيج من الحوار غير المباشر والترتيب الزمنى

للأحداث مع وصف الأمكنة والأشخاص والحالات الاجتماعية والطبيعية التى تمر بشخصيات القصة . والوصف الصريح يتجرد إلى حد كبير من النواحى الشخصية وهو لذلك أكثر الأساليب بعدا عن المستويات الأولى للسهولة :

لذا ، فمن الأفضل أن نعتمد على حد كبير على أسلوب الحوار والأسلوب القصصى فى انتاج المواد القرائية السهلة . وأن نتخفف إلى حد كبير من استعمال الأساليب الوصفى وخاصة فى المستويات الأولى لهذه القراءة .

سادسا — الموضوع

يجب أن يخضع اختيار الموضوع الصالح للتجربة التى تحدد نوعه ومحتوياته وطوله وتوقيته . ويقاس نجاح هذا الاختيار بمدى اقبال الناس على قراءة الموضوع أو بمدى عزوفهم عنه ورفضهم اياه :

هذا وتقاس صلاحية الموضوع بموازين مختلفة نلخص أهمها فيما يلى :

١ - اختيار الموضوع : تعتمد عملية اختيار الموضوعات على استفتاء القراء أنفسهم فيما يصلح وما لا يصلح من الموضوعات .

وهكذا نرى أن عملية اختيار الموضوع بهذه الطريقة تشبع لدى القارئ ميوله ، وتساير اتجاهاته ، وتشوقه للقراءة ، وأن هذا الاختيار يخضع للتجريب خضوعا علميا يحقق هدفه ويسير به إلى غايته :

وأيا كان الرأى فى المفاضله بين الموضوعات المختلفة فهناك أمور يجب أن يراعيها الكاتب بادئ ذى بدء حتى يصبح موضوعه صالحا ومناسبا للقراءة السهلة .

ومن أهم هذه النواحى ضرورة مراعاة ميل القارئ . وفى وسع الكاتب أن يختار الموضوعات التى يراها شيقة ممتعة بالنسبة للقراء مثل الفكاهة والقصة ، والموضوعات المهنية التى من شأنها أن تزيد من الدخل المالى للقارئ . أو الهوايات التى يمارسها الأفراد ويودون أن يعلموا أشياء أخرى عنها مثل وسائلها الحديثة ، وتاريخها ومميزاتها وكل ما يتصل بها .

هذا ويستطيع الكاتب أن يحكم — إلى حد ما — على صلاحية الموضوع بالمعايير التالية :

(أ) هل هذا هو الموضوع الذى يريد الناس معرفته ؟

(ب) هل يصلح هذا الموضوع لكل الأفراد أم لطائفة معينة من الأفراد؟

(ج) وإذا كان الموضوع يصلح لطائفة معينة ، فهل هو يلبى حاجات تلك الطائفة ؟

(د) ما هو أثر هذا الموضوع على تغيير اتجاهات وأفكار وسلوك الناس ؟

(هـ) ما هو مدى معرفة الناس لهذا الموضوع قبل قراءته ؟

(و) ما هو أكثر العناوين تشويقا لهذا الموضوع ؟

وهكذا تقرر مثل هذه الأسس الصلاحية الأولية التمهيدية للموضوع وتساعد الكاتب على اختيار الموضوع ريثما تقرر نتائج التجارب مدى دقة هذا الاختيار .

٢ ــ محتويات الموضوع : يجب أن تكون محتويات الموضوع قريبة الصلة بحياة الناس ومشكلاتهم اليومية حتى يجد فيها القارئ صدى لآماله ورغباته وأفكاره . : وكلما اقتربت هذه المحتويات من الوان الحياة الشعبية فى مظهرها البدوى والحضرى زاد تبعا لذلك ميل الناس لها .

٣ ــ حيوية الموضوع : الموضوعات الحيوية هى التى تمتلىء بالحركة والحوادث والمفاجأة ، لأنها بهذا الوضع تثير انتباه الناس ، وتحفز نشاطهم العقلى لمتابعة عملية القراءة . أما الموضوعات الهادئة البطيئة فهى مملة لاتساعد على عملية الاستمرار فى القراءة . وقديما قال العرب الحركة ولود والسكون عاقر .

ولذا يجب أن نوفر للقارئ هذا الجو الممتع لندفعه إلى القراءة .

٤ ــ طول الموضوع : يتأثر مستوى الفهم بطول الموضوع .فالموضوعات الواضحة القصيرة ذات الأفكار القليلة المحدودة تساعد على تركيز الانتباه وتساير المستويات الأولى للقراءة . وكلما زاد المستوى القرائى للفرد زاد تبعا لذلك المدى القرائى الذى يمكن أن يستوعبه دون مشقة أو تعب .

ولذا يجب أن تكون موضوعات المستويات القرائية الأولى قصيرة قليلة فى أفكارها . ثم يزاد طولها وتزداد أفكارها تبعا لزيادة المستوى القرائى .

٥ ــ التوقيت : الموضوعات الحيوية هى التى يطالعها الناس فى أبانها وحينها أى هى التى تساير تطور الأحداث الجارية .

وتعتمد عملية اختيار الموضوعات المناسبة على معرفة تامة بميول القراء واتجاهاتهم القرائية . وعلى معرفة أصيلة بأهم الأحداث العالمية والقومية .

ولذا يجب أن نراعى التوقيت الصحيح فى كل مانخرج من مواد قرائية حتى تجد هذه المطبوعات الاستجابة الصحيحة الضرورية لها .

سابعا ــ الصور والرسوم التوضيحية

تعتمد الكتب السهلة اعتمادا كبيرا على الرسوم التوضيحية لتقرب المعنى للأذهان ، ولتشوق الفرد إلى عملية القراءة ولتثير انتباهه ولتحفز ميله ، ولتدفعه إلى ممارسة مهارة القراءة وارتياد الآفاق المجهولة التى تغريه على الاطلاع المتصل المستمر .

هذا وتقاس صلاحية الصور والرسوم التوضيحية بمقاييس مختلفة نلخص أهمها فيما يلى :

١ ــ المساحة النسبية للصور : تختلف المساحة تبعا لاختلاف مستوى القراءة ونوع

الموضوع . فالمستويات الأولى تحتاج إلى مشوقات كثيرة لمتابعة عملية القراءة — كما تحتاج أيضا إلى توضيح كبير لتيسير الفهم وتبسيط المادة المقروءة .

هذا ويمكن اخضاع المساحة النسبية للصور للتجربة والكشف عن العدد المناسب من الصور لكل كتاب وفى كل مستوى . وبما أن التحقيق التجريبى لهذه الفكرة يحتاج إلى جهد ومال ووقت طويل . إذن نستطيع أن نكتفى مبدئيا بالاكثار من الصور فى المستويات الأولى للقراءة . وأن يقل عدد ومساحة هذه الصور كلما زاد المستوى . فاذا اصطلحنا مثلا على أن يكون عدد صفحات أى كتاب من الكتب المبسطة ١٦ صفحة فنستطيع أن نحدد ٨ صفحات للصور فى المستوى الأول و ٤ صفحات للصور فى المستوى الثانى و ٢ فى المستوى الثالث . وبذلك تتطور نسبة وجود الصور فى المستويات المتتالية . ويمكن أن نعدل هذه النسبة بعد ذلك فى اطار الملاحظات العلمية والتجربة المضبوطة التى تهدف إلى قياس العلاقة القائمة بين نسبة الصور ونسبة الوضوح .

٢ — بساطة الصور ووضوحها : الصور البسيطة الواضحة أقرب إلى مستوى القارئ العادى من الصور المعقدة الغامضة . وتتطلب هذه البساطة تأكيد المظاهر الرئيسية للصورة وتجنب التفصيلات الكثيرة الدقيقة التى تشتت انتباه القارئ وتحول بينه وبين الادراك الواضح لفكرة الصورة .

ولذا يجب أن تخضع الصور والرسوم التوضيحية للتجربة كلما أمكن، وذلك بأن نعرض على الفرد مجموعة من الصور التى تمثل فكرة ما ليختار منها أوضحها تعبيرا عن تلك الفكرة .

هذا ويمكن أن نبدأ عملية التوضيح باختيار الصور البسيطة القوية الواضحة ثم نخضعها بعد ذلك للتجريب كلما أمكن ذلك .

٣ — الألوان : الألوان من أهم عناصر التشويق للصور والترغيب فيها . وهى تساعد على امعان النظر فى المرئيات والاستمتاع الفنى بها . والألوان المتباينة الصارخة تفاجئ الانسان وتجذب انتباهه ولذا فهى قد تصلح للمستويات القرائية الأولى . والألوان المتناسقة الهادئة تريح النفس وتشيع فى الفرد المتعة الفنية العميقة .

لذا يجب أن ندرس الذوق الفنى الخاص بالألوان وتوزيعها وعددها ومساحتها وتباينها وتناسقها عند القراء حتى تخضع عملية انتاج المواد المبسطة فى صورها ورسومها التوضيحية لخواص ومميزات الذوق الفنى .

هذا وكثرة الألوان المتباينة تبهر عين القارئ . لكن هذه الكثرة تتطلب نفقات كثيرة فى الطباعة ولذا فمن الأفضل دراسة الامكانيات المالية للطباعة فى اطار الحاجيات القرائية للفرد .

ويستحسن أن تحتوى كتب المستوى الأول للقراءة المبسطة على ثلاثة الوان وأن تحتوى كتب المرحلة الثانية على لونين ، وكتب المرحلة الثالثة على لون واحد .

ومن الأفضل أيضا أن يكون الغلاف دائما غنيا بالوانه وصوره بحيث يغرى الفرد على تناول الكتاب وقراءته .

ثامنا ــ العوامل الطباعية

للعوامل الطباعية الخاصة بالحروف والأسطر والصفحات والورق والحبر علاقة كبيرة بالعادات والمستويات القرائية ، وبتحديد تكلفة الكتب المبسطة . ولهذه النواحى كلها أهميتها القصوى فى تيسير عملية القراءة لأنها تساير نمو القارئ فى تطوره نحو المستويات الصحيحة للقراءة .

هذا وتقاس صلاحية العوامل الطباعية بمقاييس مختلفة نلخص أهمها فيما يلى :

١ ــ العادات القرائية وحجم الحروف : تتحرك العين من اليمين إلى اليسار أثناء قراءة اللغة العربية وعندما ينتهى السطر تنتقل العين فى حركتها من اليسار إلى اليمين لتبدأ حركتها فى قراءة السطر التالى وتدل نتائج الأبحاث العلمية فى القراءة على أن العين تتحرك فى قفزات . فهى تنظر إلى الجزء الأول من السطر لتقرأ فى هذه الوقفة من الكلمات عددا قد يبلغ كلمتين أو ثلاث أو أربع حسب مستوى اجادة مهارة القراءة وحسب حجم الحروف المكتوبة ومدى تقاربها أو بعدها والمساحات البيضاء المحيطة بها . ثم تتحرك العين فى قفزة أخرى لتقرأ عددا آخر من الكلمات وهكذا تستمر عملية القراءة فى قفزات متصلة وانتقال فى حركة العين من أقصى اليسار إلى أول اليمين لكل سطر يقرأ ؟

هذه العادة تنمو مع نمو المستوى القرائى للفرد . ويزداد عدد كلمات الوقفة البصرية الواحدة تبعا لزيادة ذلك المستوى . ولذا فعندما يصبح حجم الكلمات صغيرا فان الفرد يقرأ فى الوقفة البصرية الواحدة عددا كبيرا من الكلمات . وعندما يصبح حجم الحروف كبيرا فان الفرد يقرأ فى الوقفة البصرية الواحدة عددا قليلا من الكلمات .

ولذا يجب أن يساير حجم الحروف الطباعية مستويات القراءة . ويستحسن أن يكون حجم حروف المستوى الأول ٤٨ وأن يكون حجم حروف المستوى الثانى ٣٦ ، ٣٤ ، وأن يكون حجم حروف المستوى الثالث ٢٤ ، ١٨

ويجب أيضا أن نخضع هذه العملية للتجربة كلما أتيحت الفرصة لنحدد تماما تلك الأحجام .

٢ ــ الأسطر : بما أن عدد الأسطر فى الصفحة المكتوبة يتأثر بحجم الحروف ، وبما أن حجم الحروف يساير مستوى القراءة ، إذن فعدد أسطر الصفحة فى المستويات القرائية الأولى يجب أن يصبح قليلا نسبيا لأن حجم

حروف هذا المستوى يصبح كبيراً . ثم يقل بعد ذلك حجم الحروف ويزداد تبعا لذلك عدد السطور .

ولذا يجب أن نتدرج بعدد سطور كل صفحة من القلة إلى أن نساير بذلك خصائص المستويات القرائية التصاعدية .

هذا وعندما يتحدد حجم الحروف ، وعدد السطور ، تتحدد أيضا المساحات السوداء والبيضاء فى كل صفحة ، ولكل مستوى من مستويات القراءة .

٣ ــ الصفحات : تتأثر العادات القرائية ــ وخاصة فى المستويات الأولى بعدد صفحات المواد القرائية وبمساحة كل منها . فالمجلدات الضخمة توحى إلى الفرد بالصعوبة وتجعل القارئ الجديد يخشى الاقتراب منها . والصفحات القليلة توحى إليه بسهولة المادة المقروءة . ولذا يجب أن يكون عدد صفحات الكتب المبسطة مناسبا لمستوى القراء . ومن الأفضل أن تبدأ هذه الكتب بعدد من الصفحات يساوى ١٦ صفحة لأن هذا العدد يمثل الوحدات الأولى التى يتألف منها الكتاب الكبير ومن الأفضل أيضا أن يكون طول الصفحة ٢٤ سم وعرضها ١٧ سم لأن هذه المساحة من أكثر المساحات شيوعا فى الكتب العادية . وبذلك ندرب القارئ على وحدات الكتاب العادى ومساحته . ونساير بذلك تكوين العادات القرائية المناسبة لتلك الكتب .

٤ ــ الورق : الورق المصقول اللامع يعكس الضوء ويرهق العين أثناء القراءة ولذا فمن الأفضل أن يكون الورق من النوع الذى لايعكس الضوء أى غير تام الصقل :

٥ ــ الحبر : الحروف الغليظة السوداء تبدو قوية . ولذا فمن الأفضل أن يكون سواد الحروف متباينا مع بياض الورقة حتى يجذب الانتباه ويلفت النظر بهذا التباين الشديد . ويمكن أن نستخدم الألوان المتباينة فى عملية الطباعة لنحقق ذلك الهدف وعلينا أن نتخفف بعد ذلك من هذه الطريقة فى المستويات النهائية لمهارة القراءة لنعد الفرد لمطالعة الكتب العادية .

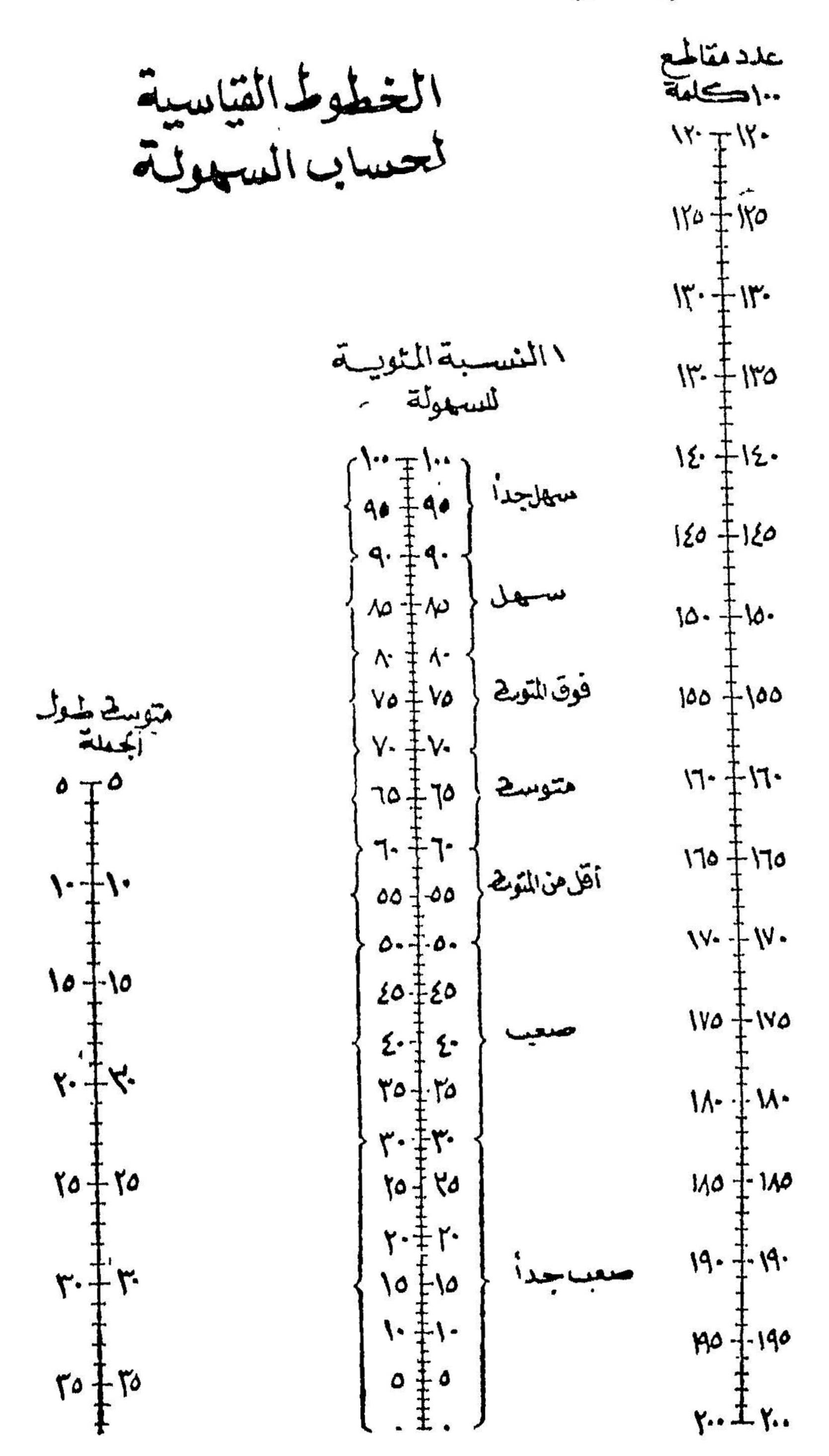
تاسعا ــ الخطوط القياسية للسهولة

أمكن اخضاع بعض عوامل السهولة للتحليل الرياضى . وبذلك تحدد العلاقة بين النسبة المئوية للسهولة وبين عامليها الرئيسيين : عدد مقاطع الكلمة ومتوسط طول الجملة . وتحولت هذه العلاقة إلى خطوط قياسية شأنها فى ذلك شأن الخطوط التى نستخدمها فى المسطرة الحاسبة .

والشكل (١) يبين نتائج إحدى هذه المحاولات حيث يدل العمود الأيمن على الخط القياسى للمقاطع ، ويدل العمود الأيسر على الخط القياسى لطول الجملة ، ويدل العمود الأوسط على أثر العامل الأول والعامل الثانى على النسبة المئوية للسهولة .

فمثلا إذا تصورنا أننا حسبنا عدد مقاطع ١٠٠ كلمة فوجدناه مساويا لـ ١٥٠ كلمة وحسبنا متوسط طول الجملة ووجدناه ١٠

فان الخط المائل الذى يصل نقطة ١٥٠ فى عمود المقاطع بنقطة ١٠ فى عمود طول الجملة يقطع خط النسبة المئوية للسهولة عند ٧٠ وبذلك نستطيع أن نحكم على مستوى السهولة بأنه فى الحد الأعلى للمتوسط والحد الأدنى لفوق المتوسط .



عاشرا — الخطوط القياسية للميل

أمكن أيضا اخضاع الميل القرائى للتحليل الرياضى ، وبذلك تحددت العلاقة بين عامليه الرئيسيين : الكلمات الشخصية ، والجمل الشخصية :

وتحولت هذه العلاقة إلى خطوط قياسية كما يبين ذلك شكل (٢) .

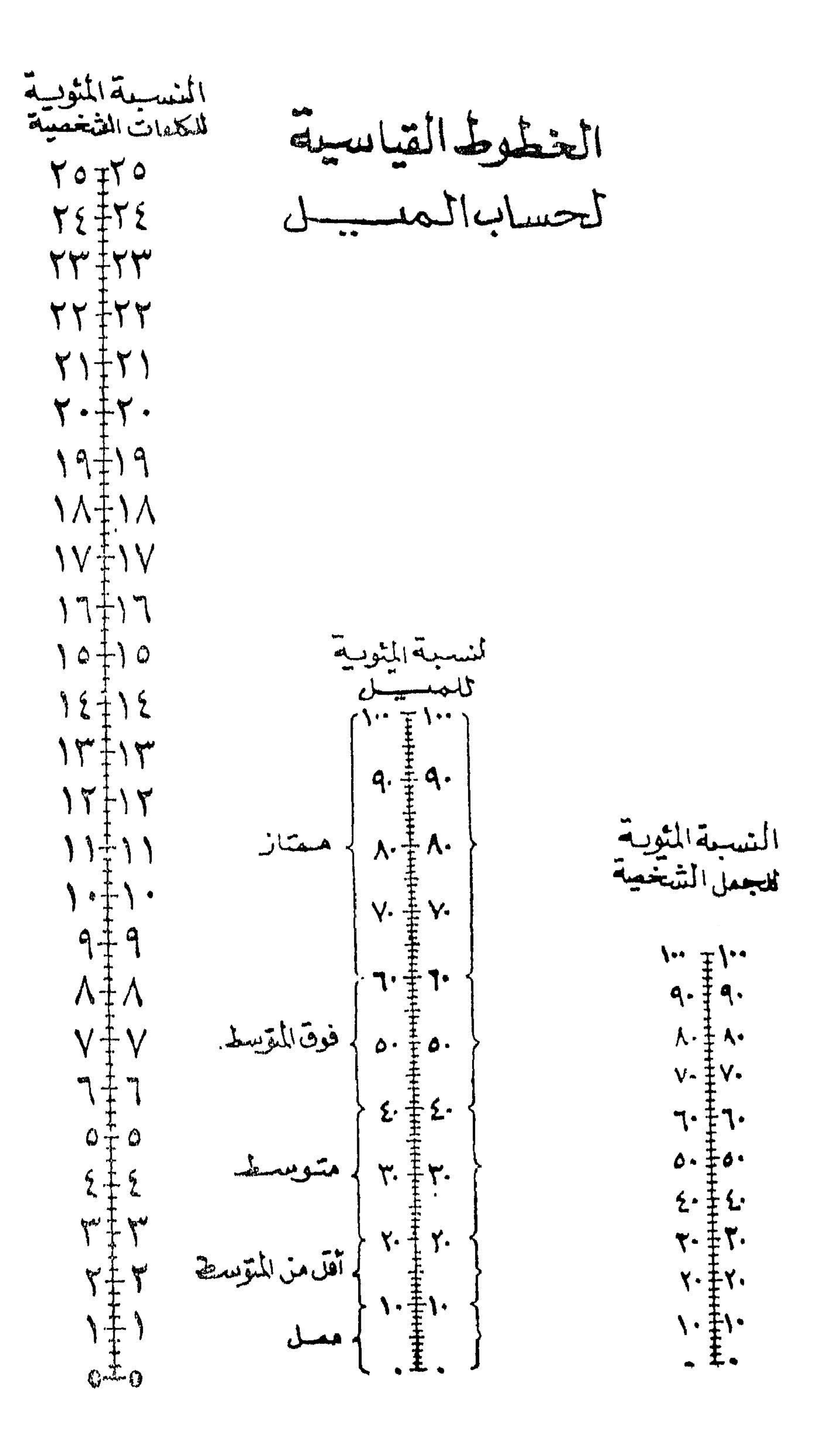
وتحسب النسبة المئوية للميل بنفس الطريقة التى حسبت بها النسبة المئوية للسهولة .

والقاعدة المتبعة فى عد الكلمات الشخصية هى عد أسماء الناس ، والضمائر ، والمهن والوظائف ، على أنها كلمات شخصية .

والقاعدة المتبعة فى عد الجمل الشخصية هى عد جمل الحوار ، والعبارات الموجهة للقارئ ، والأسئلة التى يطرحها الكاتب على القارىء، على أنها جمل شخصية :

فؤاد البهى السيد

الخطوط القياسية لحساب الميل



المــراجع

١ ـ الدكتور محمود رشدى خاطر : قائمة المفردات الشائعة فى اللغة العربية
سرس الليان ١٩٥٨

٢ ـ الدكتور فؤاد البهى السيد : القائمة المغربية للكلمات الشائعة
المغرب العربى ١٩٦١

٣ ـ : الكلمات الأساسية
المغرب العربى ١٩٦٢

٤ ـ : اللغة الأساسية
مجلة مجمع اللغة العربية ١٩٧١

٥ ـ : تحليل المحتوى ـ دراسة احصائية نفسية
للصحافة العربية المتخصصة ـ القاهرة ١٩٦٥

٦ ـ : استفتاء الميول القرائية الصحية ـ المغرب
العربى ١٩٦١

٧ ـ : استفتاء الميول القرائية الفلاحية المغرب
العربى ١٩٦١

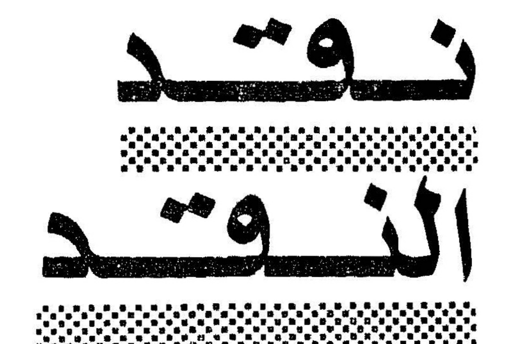
8—Flesch, R. The Art of Plain Talk : Harber and Brothers, 1946

9 —Flesch, R., and Lass, A.H. The Way to Write ; New york : Harper and Brothers, 1947

10—Flesch, R. The art of Readable Writing. New York : Harper and Brothers, 1949.

11 – Gray, W.S., and Leary, B.E. What Makes a book Readable. Chicago : University of Chicago Press, 1935.

12—Large, I. "Predicting Readability." Teachers College Record, 1944, V. 45, PP. 404-419.



للأستاذ محمود غنيم

إذا كان الشعر ليس خالصا كله ، بل فيه كثير من الزائف الذى يحتاج إلى نقد وتمحيص فإن النقد كذلك ليس خالصا كله ، بل فيه كثير يحتاج إلى نقد وتمحيص. ولعل مانحتاج إليه من نقد النقد أكثر مما نحتاج إليه من نقد الشعر. ذلك لأن كثيراً من النقادغُروا قديما وحديثا بتعقب الشعراء بحق أو بغير حق لأهواء فى صدورهم ، أو أوهام فى عقولهم ، وما أقل النقد الذى يسلم من هذين : الهوى والوهم . ولا يفوتنا أن النقد كان قديما وحديثاً مطية ذلولا لطلاب المجد ، ولا سيما إذا كان المنقود من ذوى نباهة الشأن ، الذين يشارإليهم بالبنان ، وأذكر أنى سمعت أول ماسمعت باسمى المازنى والعقاد عندما عرضا لشوقى بالا نتقاد .

ولقد عرضت فى مقال سابق ، نشر بمجلة المجمع لبعض أهواء النقاد وأوهامهم ، غير أن هذا المقال لم يتناول إلا قضايا عامة تدور فى هذا الفلك ، وأريد الآن أن أضع بعض النقاط على الحروف بذكر أمثلة تلقى أضواء كاشفة على ما أشرت إليه ، ومَعاذ الله قبل البدء بإيراد هذه الأمثلة أن أزعم أن النقد كله غير سليم من دواعى الصدور ، أو خطأ القرائح ؛ فثمة – ولاشك – ماينفذ منه إلى الصميم ، فيكون جديراً بتقدير المنقودين أنفسهم ، بله عامةَ الأدباء والمتأدبين ، كما أن هناك ما سببه اختلاف زوايا وجهات النظر بين النقاد والشعراء . ولعل ما أعرضه فى هذا المقال كلّه أو جله من هذا الطراز الذى لم تتحقق له سلامة الأهداف ، ولم يهجنه الهوى والا نحراف.

(١) بين الشاعرين الكبيرين على الجندى وحافظ إبراهيم :

لانظن أن المرحوم حافظ إبراهيم كان – لوكان حيا – يقف مكتوف اليدين مطبق الشفتين أمام تجريح شاعرنا الكبير على الجندى له فى كتاب « الشعراء وإنشاد الشعر » وخاصة ماورد فى هذا الكتاب من نقد لاذع لبيت حافظ

الذى تضمنته مرثيته للمرحوم سعد زغلول.

ونص البيت :

حملوه على المدافع لما
أعجز الهامَ حملُه والرقابا

قال سيادته صفحة ١٤ – من الكتاب مانصه بتصرف :

«بيت زائف» .

«وقد جاء فى هذه القصيدة بيت مُبك مضحك . . . والبيت هو : «حملوه على المدافع . . الخ» «وهذا البيت غاية فى الهجنة ، ونهاية فى السخف ، وهو ذَم صريح للزعيم المرثى ، فهو» لا يصور أعمال «سعد» و مآثره ، ولا نواحيه الوطنية الخالدة ، ولا مواهبه المعنوية المرموقة وإنما يمثله جسدًا ضخما طُوالا هائلا كجسد «عُوج بن عُوق» كما تتحدث عنه الأساطير» .

وفى صفحة ١٧ من الكتاب يقول فى الموضوع نفسه مانصه :

«حافظ والعقاد وغنيم »

«ونعود إلى بيت حافظ المتقدم ، فنقول : نحسبه نظر فيه إلى قول القائل :

«وليس صرير النعش ما تسمعونه
ولكنه أعناق قوم تَقَصَّفُ»

«وليس فتيق المسك ما تجدونه
ولكنه ذاك الثناءُ المخلَّفُ»

ثم يوازن بين بيت حافظ وقول العقاد فى هذا المعنى فى رثاء سعد نفسه :

خرج المدفع يطوى مدفعا
الأساطيل اتّقته والحصونْ

ساكنا بين يديهم بعدما
زلزل الشرق على المغتصبينْ

ثم يوازن أيضاً بين هذا البيت وقول محمود غنيم فى رثاء المرحوم محمد محمود :

سار بين الدموع والزفرات
خيرُ نعش يُقِل خير رُفاتِ

مدفع خامد على مدفع سا
ر من الوجد وارىَ الجمراتِ

ويخرج من الموازنة بأن كلا الشاعرين العقاد وغنيم لم ينزلق إلى ما انزلق إليه حافظ ، ولايسعنا إلا شكر شاعرنا الكبير على حسن ظنه بنا ، ولكننا نقول له : إننا نحب الحق ، ونحب قيصر ، بيد أن الحق أحب إلينا من قيصر .

فهل كان حافظ حقًّا يعنى المعنى الذى ذهب إليه الناقد فى تخريجه ؟ إن صح هذا فليس حافظ جديراً بالنقد والتجريح فقط ، بل إن هذا البيت وحده كفيل بمحو اسمه من سجل عامة الشعراء ، بلْه كبارَهم المعدودين .

أترانا حين نقول لشاعرنا الكبير : «إنه كبير القلب ، أو واسع الصدر » نقصد كبر كتلة القلب ، وما يشغله من حيز ، ونقصد سعة الصدر المادية التى تشبر بالشبر ، وتذرع بالذراع ؟ الجواب : « كلا ثم كلا » وإنما نقصد بكبر القلب ما يفيض به من عواطف وأحاسيس نبيله ، وما ينطوى عليه من حسن النيات وكرم الصفات كما نقصد بسعة الصدر السعة المعنوية التى تندرج تحتها الأريحية ، والصبر عند البأساء ، والحلم على سفه السفهاء ، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق وإذا قال المتنبى فى رثاء محمد بن إسحاق التنوخى :

ماكنت آمل قبل نعشك أن أرى
رضوى على أيدى الجبال تَسيرُ

فهل يقصد ضخامة الجثة التى يحتويها النعش ، وما تتمتع به من ثقل تنوءُ به أعناق الرجال ، فيشبه هذه وتلك بما يمتاز به الجبل من ضخامة وثقل ؟ الجواب « : كلا وألف كلا » وإنما قصد تشبيه المرثى بالجبل فى رزانته ووقاره ومناعته ، ثم جسَّم هذه الصفات المعنوية تجسيما ماديا ، ومن هنا تسنى له أن يعجب من حمل نعش المرثى على أيدى الرجال ، .

ثم نعود إلى بيت حافظ ، فنقول : ليس من الإنصاف أن يقرأ هذا البيت منفصلا عما قبله ؛ فهو أتبع له من الظلال للأجرام ، والبيتان هما :

خرجت أُمة تشيع نعشا
قد حوى أُمة وبحراً عُبابا

حملوه على المدافع لما
أعجز الهام حمله والرقابا

فنحن نرى أن حافظا فى البيت الأول شبه المرثى بالأمة على حد قوله تعالى : «إن إبراهيم كان أُمة قانتا لله» وعلى حد قول أبى نواس :

قولا لهارون إمام الهدى
عند اجتماع المجلس الحاشد

أنت على مابك من قدرة
فلست مثل الفضل بالواجد

ليس على الله بمستنكر
أن يجمع العالم فى واحد

كما شبهه فى البيت نفسه بالبحر على حد قول الشاعر فى ابن الحسين :

عجبت لحراقة ابن الحسيـ
ن – لاغرقت – كيف لاتغرقُ ؟
وبحران من تحتها واحد
ومن فوقها واحد مطبقُ ؟

ومن البداهة بمكان أن كلا التشبيهين لايعنى وصف المشبه بالكثافة ، وغزارة الشحم واللحم ، وضخامة المفاصل العظام ، وإنما يرمى إلى ما يتمتع به من عزائم ومكارم ومناقب ومواهب . ولم يكن عجيبا بعد ذلك أن تعجزا لرقاب والهام عن حمل نعش يُقلّ أمة وبحرا بالمعنى المتقدم ، فإنه لما كان الكلام جاريا مجرى الاستعـــارة التصريحية فى البيت الأول أتبعها بالترشيح فى البيت الثانى ونعنى به إعطاء المشبّه ماللمشبه به من صفات – وهو هنا الكثافة و لثقل – والترشيح من محسنات الاستعارة ، كما يعلم شاعرنا الكبير صاحب الكتاب القيم فى «التشبيه» – وما أكثر مؤلفاته القيمة – وليس الترشيح مقصورا على الليث ذى البلد الذى لم تقلم المفاره . على أن الجديد فى هذا المعنى هو مسألة الالتجاء إلى المدافع عند عجز الرجال عن حمل هذه الأثقال ، ويمكن أن يعد هذا من قبيل حسن التعليل ، أما وصف المرثى بالعظم والضخامة ، وإنزال صفاته المعنوية منازل المواد الحسية فقديم مألوف كما سبقت الإشارة إليه فى بيت المتنبى ، ويمكن أن يعد منه قول الشاعر فى رثاء معن :

فياقبر معن كيف واريت جوده
وقد كان منه البر والبحر مترعا؟
بلى قد وسعت الجود والجود ميت
ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا

كما يمكن أن يعد منه قول أبى الحَسن الأنبارى فى رثاء أبى طاهر بن بقية :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن
يضم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا
عن الأكفان توب السافيات

فالمعالى صفات معنوية لا تشغل حيزا من الفراغ ، فضلا عن أن يضيق بها بطن الأرض ، ولكن لما جعلها من الوفرة والكثرة بحيث تشبه التلال أو الجبال ونحوهما خلع عليها صفات المشبه به ، فضاق بها بطن الغبراء ، ولم يتسع لها إلا فسيح الفضاء

٢ ـ بين الشاعرين الكبيرين : شوقى وعلى الجارم :

وكنا فى مجلس يضم نخبة من الأدباء على رأسه المرحوم الجارم بك ، وجعلنا نتنقل فى رياض الأدب من فنن إلى فنن ، حتى عرض بعضنا لمطلع قصيدة شوقى فى الأزهر :

قم فى فم الدنيا وحى الأزهرا
وانثر على سمع الزمان الجوهرا

وحينئذ انبرى المرحوم الجارم بك قائلا : ألا تستقبحون هذه الصورة ؟ قلنا : أية صورة ؟ قال : صورة الدنيا فى شكل إنسان أو حيوان فاغر فاه ، وشوقى بين فكيها ، قدمه على الفك الأسفل ، ورأسه تحت أنياب الفك الأعلى ، وهو فى الوقت نفسه يصيح بتحية الأزهر الشريف . قلت له : كأنك تفترض أن شوقى يجرد من نفسه شخصا يخاطبه ، قال : ومن يخاطب إذن ؟ قلت : إن الشاعر حر فى اختيار من يفترض خطابه ، فهو تارة يخاطب ذاته ، كما فى قول الشاعر :

أتصحو أم فؤادك غير صاح
عشية هم صحبك بالرواح ؟

وتارة يخاطب اثنين ، كما فى قول الشاعر مثلا :

ألا لا تلومانى كفى اللومَ مابيا
فما لكما فى اللوم خير ولاليا

وتارة يخاطب امرأة ـ زوجة كانت أو غير زوجة ـ كما فى قول الشاعر .

ذرينى للغنى أسعى فإنى
وجدت الناس شرهم الفقيرُ

وتارة يخاطب نفسه ، كما فى قول الشاعر :

أقول لها وقد طارت شَعاعا
من الأبطال : ويحك لن تُراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم
على الأجل الذى لك لن تطاعى

وتارة يخاطب عينه ، كما فى قول الشاعر :

كفكفى الدمع عند هول المصابِ
أو ففيضى دما على الأحبابِ

أما شوقى فهو هنا لا يخاطب نفسه ، حتى تتمثل تلك الصورة المستهجنة ، وإنما يخاطب شعره طالبا إليه أن يخرج من فم الدنيا ، حتى يسمع أبناؤها جميعا تحيته للأزهر . وأشهد أن الجارم بك تلقى هذا التخريج بالقبول الحسن ، وكان رحمه الله ممن ينصاعون للحق إذا اتضحت معالمه .

٣ – بين الشاعرين الكبيرين عباس العقاد وعلى الجارم :

وكنا فى ندوة المرحوم العقاد ذات يوم ، وإذا بجرس المسرة يدق ، وكان المتكلم إحدى المغنيات تطلب إليه أن ينتقى لها من بعض دواوينه قطعة تلحنها وتؤديها ، وأشهد أنه جعل يتصفح ويقلب ، حتى تفصد جبينه عرقا ، ثم أرجأ البحث إلى وقت آخر ، فقلت له : أليس فى هذا المحصول الضخم من شعرك قصيدة تحاكى قصيدة الجارم :

مالى فتنت بلحظك الفتاك
وسلوت كل مليحة إلاكِ ؟

فقال ساخراً : وهل يعجبك هذا المطلع ؟ قلت : ولم لا ؟ قال : ماوجه التعجب هنا ؟ إن اللحظ إذا كان فتانا فقط لم يكن ثمة وجه للتعجب من الافتنان به ، فالشىء من معدنه لا يستغرب ، فما بالك إذا لم يكن هذا اللحظ فتانا فقط ، بل كان فتاكا ؟ إن الافتتان به حينئذ يكون أقرب ، وبالتالى يكون التعجب منه أوغل فى البعد . وكاد العقاد ببلاغته وتدفقه فى عرض قضاياه المنطقية يلبس بيت الجارم التهمة ، ولكننى بعد أن استعدت إدراكى مالبثت أن قلت له : إن للتعجب هنا وجها ، بل وجها ويدين ولسانا وشفتين ، قال : كيف ؟ قلت : مقتضى كون اللحظ فتاكا أن يبتعد الإنسان عنه خوفا على حياته ، لا أن يحوم حوله كما تحوم الفراشة على النيران ، فإذا افتتن الإنسان باللحظ الفتاك كان افتتانه مدعاة للعجب كل العجب ، أترى الإنسان يفتتن بناب الأفعى ، أو بمخالب السبع ، أو بجراثيم التيفوس والتيفود ؟

على أن المرحوم العقاد لم يكن ممن يسلمون بسهولة ، فظل يتكلم ، ويتكلم ، ولكن دفاعى عن بيت الجارم ظل قائما لم يجد ماينال منه

٤ – بين الشاعرين الكبيرين شوقى والعقاد :

وأذكر أننا كنا أيضا فى ندوة المرحوم العقاد ، وكنت إذ ذاك طالبا ، وكان تمثال نهضة مصر فى ذلك الوقت حديث العامة والخاصة ، وطلعت علينا جريدة الأهرام بلامية شوقى فى ذلك التمثال ، تلك اللامية التى يقول فيها متحدثا عن المثال مختار :

تعالوا نرى كيف سوى الصفاةَ

فتاة تلملم أذيالهَا

ثم يستطرد فى قصيدته إلى ذكر محمد على وكيفية استيلائه على مصر ، فيقول :

وليس اللآلئُ ملكَ البحارِ

ولكنها مِلكُ من نالها

فلما بلغ العقاد ذلك البيت وجدته ينتفض كمن لدغته عقرب ، ويضرب كفا بكف ، وهو يصيح قائلا : لقد سجل شوقى بهذا البيت الاحتلال البريطانى على مصر .

والحق أن النقد فى الصميم ، فلم يسعنا إلا التسليم ، ولم ينبس أحدنا ببنت شفة .

٥ – بين العقاد وشاعر ناشىء :

وكان المرحوم العقاد دائم الزراية بما يطلق عليه أصحابه اسم «الشعر الحر» وأذكر أن أحد الدعاة لهذا النوع من الكلام – ولا أقول الشعر – تناول الأستاذ العقاد على صفحات الجرائد بأبيات هجاء ، ورد فيها هذا المصراع :

«تعيش فى عصرنا ضيفا وتشتمنا ؟ »

فلما قرأه المرحوم العقاد قال : أيّنا الضيف ، وأينا صاحب الدار ؟ إننى جئت إلى الدنيا قبله بعشرات السنين ، فمن منا الأصيل ، ومن الطارىء الدخيل ؟ وليس من شك فى أن هذه وجهة نظر لايسع المنصف إلا التسلم بها ، وإن كان صاحبنا ينظر من وجهة أخرى : إنه يعتبر أن المستقبل له ، وأن العقاد وأمثاله ممن بلغوا سن الهرم والشيخوخة هامة اليوم أو غد ؛ فهم أشبه بالضيوف الذين لايطول مكثهم ، بل هم على وشك الرحيل ، وإن كان فى هذا التخريج مافيه من إساءة أدب ، ويذكرنى هذا بقصة ذلك الشاب الغرير الذى رأى شيخا محنى القامة ، فقال له متندرًا : بكم اشتريت هذه القوس ؟ ، فأجابه الشيخ : إن عشت يابنى أخذت مثلها بلاثمن .

٦ – بينى وبين عمدة أديب :

وعلى ذكر أستاذنا المرحوم العقاد أذكر أننى رثيته بقصيدة عينية نشرت بمجلة الرسالة ، وكان مطلعها :

جزع الشرق وأجرى أدمعَهْ

سائلوه أىُّ خطب روَّعهْ

لاتلوموه على فرط الأسى
فيلسوف الشرق خلىَّ موضعهْ
كفِّنوا العقاد فى أسفاره
وادفنوا المرقم والطرس معهْ

واسترسلت فى بناء القصيدة ، حتى وصلت إلى خصوم العقاد من الأقزام الذين كانوا ينالون منه ليرتقوا على حسابه ، فقلت :

نخلة دبَّت عليها نحلةٌ
وخضمٌّ فيه نقَّت ضِفدعَةْ

فأرســـل إلىّ عمدة أديب تعود أن يحاورنى فى مسائل الأدب وقضاياه قائلا : إن الضفادع لاتعيش ، ولاتنق فى الماء المالح . وهو اعتراض — كما ترى — له وجاهته ، جدير بالرد . والحق أنى لم أكن أعرف هذه الظاهرة . على أنى بعد التأمل وجدت هذا الاعتراض لاينال من بناء التشبيه ، ولا يغض من قيمة البيت ، وكان ردى عليه يتبلور فى نقطتين .

(أ) النقطة الأولى أن المشبه به لا يشترط فيه أن يكون ممكن الحدوث ، فنحن نشبه بالغول وبالعنقاء ، والأول حيوان تخيلته العرب ، والثانى طائر لا وجود له أيضا . بل قد ينطوى التشبيه على مايستحيل تصوره ، كقول أبى الحسن التهامى :

ومكلف الأيامِ ضد طباعها
متطلب فى المـاء جــذوة نارْ

كذلك قد يكون المشبه به صورة لا وجود لها إلا فى الخيال كقول الشاعر :

وكان محمرّ الشقيـ
ـق إذا تصوّب أو تصعدْ
أعلام ياقوت نُشـــــر
ن على رماح من زبرجدْ

ولعل تصور الضفادع تنق على ساحل البحر المالح أقرب من تحقق صورة رماح زبرجدية ترف عليها أعلام ياقوتية .

(ب) النقطة الثانية أن معاجم اللغة تفسر الخضم بالبحر الواسع ، وتفسر البحر بالماء الكثير ملحا كان أو عذبا . ويبدو أن تخصيص البحر بالماء الملح ، وتخصيص النهر بالماء العذب اصطلاح جغرافى لا أكثر ، وما لنا نذهب بعيدا ، وقد ورد فى التنزيل الحكيم مانصه « وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أُجاج » ؟ قد يقول قائل : إن البحرين هنا

من باب التغليب ، كما فى قولهم : العُمرَين لأبى بكر وعمر ، والمشرقين للمشرق والمغرب ، ولكن ما الداعى إلى هذا التخريج ما دامت اللغة لاتفرضه ، ولا تأبى المعنى الأصلى؟

(٧) بينى وبين أستاذ جامعى :

ونعنى به الدكتور أحمد كمال زكى الكاتب المعروف ، وهو مولع بنقد الشعر ، كثير التجنى على الشعراء ، وأكثرمظاهر هذا التجنى إنما ينجم عن تطبيق المقاييس العلمية على الصور الشعرية . وعلى سبيل المثال أذكر ملخص نقده للبيتين الآتيين من قصيدة لى فى جمال الربيع .

قالوا الربيع فقلت العدل شيمته
لا فى النهار ولا فى الليل طغيانُ
تعادل الليل فيه والنهار معا
كأنما هو للأيام ميـــــزانُ

يقول سيادته : إن الفكرة فى البيتين غير صحيحة لسبب علمى هو أن الربيع لا يعتدل فيه الليل والنهار إلا فى أول يوم من أيامه ، وسبب ذلك ميل الأرض على مستوى فلكها بمقدار ٢٣٫٥ درجة تقريبا ، وهذا الميل يجعل أشعة الشمس عمودية على خط الاستواء . . إلى آخر ما ذكره مما هو إلى المحاضرات العلمية أقرب منه إلى نقد الأبيات الشعرية .

ولم يسعنى إلا التسليم بالحقيقة العلمية التى ذكرها ، ثم أردفت هذا التسليم بأننا حين نتكلم عن الربيع نعنى مقدمه ، فهو الذى يشيع البهجة ، ويهز المشاعر ، وفى مقدمة هذا الفصل يتعادل الليل والنهار ثم يكونان أقرب إلى التعادل ، وهذا يكفى لتحقيق سلامة البيتين من الوجهة الشعرية . وينبغى أن يدخل فى الحسبان أن نظرة الشاعر إلى الربيع غير نظرة العالم الفلكى إليه ، بل ينبغى أن يفرق الناقد بين نظرة العالم – بصفة عامة – إلى الشىء ونظرة الشاعر إليه ، فإذا شاء مزيدا من التفصيل فى هذه المسألة الهامة قلنا له ما يلى :

(أ) إن الشعر يتغنى مثلا بجمال الربيع ، ولكن العالم الفلكى قد يجرده من كل جمال ، ويعتبره أقسى فصول العام بالنسبة للأصقاع الواقعة فى منطقة خط الاستواء ، حيث تتعامد الشمس على تلك البقاع عند حلول الربيع ، فتصليها حرا يذيب دماغ الضب ، فهل من أجل ذلك ينبغى علينا أن نستهجن كل ما قيل من الشعر العربى والشعر الغربى فى التغنى بجمال الربيع ؟

(ب) إن الشعر يتغنى بجمال الزهر فى الربيع نفسه ، ولكن علم التاريخ الطبيعى يحذرك من الزهر كما يحذرك من الأفاعى والصلال ؛ فهو فى أثناء الليل يمتص الأكسوجين من الهواء ، وينفث ثانى أوكسيد الكربون الذى يفسده ، ومن هنا كان النوم فى الحدائق مظنة الاختناق ، وإلى ذلك يشير شوقى فى قصيدة نهج البردة بقوله محدثا نفسه عن الدنيا :

لا تحفلى بجناها أو جنايتها
الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

(ج) إن الشعر يتغنى بقبلة من خد الحبيب ، أو رشفة من فِيه ، ولكن الطب يحذرك من الأولى لأنها تنقل العدوى ، ويحذرك من الثانية لأن رضاب الحبيب تفرزه غدد خاصة ، لا ليمتص رحيقه ، بل ليسهل عملية ازدراد الطعام ، ويحيل ما فيه من نشويات إلى مواد سكرية . ثم هو لا يفرق بين رضاب الكاعب الحسناء ، ولعاب الحيزبون الشوهاء ، على حين يجد الشاعر الأول سلافا ، والثانى سمازعافا .

(د) يتغنى الشعر مثلا بجمال الماس وأشعة القمر على حين أن العلم لا يرى فى الأول أكثر من حجر يتكوّن فى باطن الأرض بنفس الطريقة التى يتكون بها الفحم ، ولا يرى فى الثانى – ولا سيما بعد الوصول إليه – أكثر من جسم معتم يتكون من صحارى شوهاء جرداء لا تنبض بالحياة .

(هـ) يتسع الشعر مثلا لقول الشاعر :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
قومٌ لقيل اقعدوا يا آل عبّـــــاس

على حين يقول لك العالم الفلكى : إن بيننا وبين الشمس ٩٣ مليون ميل ، فكيف يتسنى الصعود ؟ ولو تسنى الصعود فكيف يتسنى القعود ؟ إن الشمس كتلة غازية ملتهبة ، يتحول الصاعد إليها قبل أن يصلها إلى كتلة من الفحم ؛ فالشعر يرى هذا البيت من قبيل الإغراق فى المديح ، والعلم يرى فيه إلقاء الممدوح بين أحضان الجحيم

وفى هذا القدر كفاية ، فلنجتزىء به والله أعلم بالصواب ، وهو ولى التوفيق

محمود غنيم

معاجمنا اللغوية بين الإحياء والتجديد

للأستاذ حسن كامل الصيرفي

مازلت أذكر بالتقدير والثناء تلك اليد الكريمة التى كانت تقدِّمها إلينا الوزارة المشرفة على التعليم ونحن فى المراحل الأُولى من دراساتنا حين كانت توزع علينا فى مدارسنا المعجم الصغير «مختار الصحاح» ثم من بعده «المصباح المنير»، ثم «القاموس المحيط» لنتعرف منذ نعومة أظفارنا على أُصول هذه اللغة التى نتلقى بها دراساتنا فى كل فروع المعرفة، ونمارس البحث فى هذه المعاجم على ما نريد. على حين أذكر الآن بالأَسى والرثاء عدول تلك الوزارة منذ سنوات عن تقديم مثل هذه المعاجم، فلا يعرف أبناؤنا شيئاً عنها، ولاتقع أبصارهم عليها؛ حتى إذا قُدِّر لواحدٍ منهم أن يطلع على معجم منها وقف حائرًا مشدوهاً لايستطيع أَن يبحث فيها عن شىء، وكأَنه أَمام أَلغاز معقَّدة.

ذلك كان عهدًا عرف لِلُّغة الفصحى التى ننتسب إليها قدرها، ولم يضنّ بمال أَو جهد فى سبيل نشر المعاجم التى وضعها علماءُ اللغة، وتوزيعها على طالبى العلم على أَوسع مدى.

وكانت لاتخلو مكتبة من مكتبات الدور الحكومية من نسخة من أَكبر المعاجم الموضوعة فى العربية وهو «لسان العرب» بأجزائه العشرين. ومازلت أَذكر أَنى حين التحقت بوظيفة فى وزارة الزراعة وجدت فى مكتبة تلك الوزارة نسخة من «لسان العرب»، ونسخة من «المخصص»، ثم وجدت

هذين الكتابين فى مكتبتى مجلس الشيوخ ومجلس النواب عندما انتقلت إلى البرلمان. بل حدثنى صديق أديبٌ كبير تشغل منصباً فى مصلحة البريد فقال إنه عجب حين وجد فى تلك المصلحة نسخة من لسان العرب .

ثم مضى الزمن ، وانصرفت مدارسنا ومعاهدنا عن توزيع المعاجم اللغوية على تلامذتها وطلابها فانقطع طبع هذه المعاجم الصغيرة وندر وجودها ، وارتفع ثمن لسان العرب ارتفاعاً فاحشاً تعذّر معه على الكثرة الساحقة من الأدباء أن يقتنوه . وكما انصرفت المدارس والمعاهد عن تزويد أبنائها بهذه المعاجم فقد انصرفت أيضاً دور الحكومة عن تزويد مكتباتها بواحد منها .

وإنى لأذكر أنى زرت منذ أعوام مكتبة إحدى المدارس فلم أجد بها إلا نسخة واحدة من «المنجد» محفوظة فى حرز مكين لم تمسسها منذ أقتُنيت يدٌ بخيرٍ أو شر ، لا من دارسٍ ، ولا من مدرّس !

* * *

على أن هذا التنكُّر لمعاجمنا اللغوية ، صغيرها وكبيرها ، لم يثنِ عزم القائمين بالذَّوْد عن لغتنا الخالدة ـ لغة كِتابنا الخالد ـ عن المضىّ فى هذا السبيل على الرغم من كل مشقة . فنهض فريق بتحقيق بعضها وإحيائه ، ونهض فريق آخر بتجديده وإنشائه . وجمع بين هذين العملين الجليلين : مجمع اللغة العربية فى القاهرة .

فقد حرص هذا المجمع منذ إنشائه على وضع معجمين : وسيط وكبير إلى جانب عمله فى وضع مصطلحات حديثة فى كل باب من أبواب المعرفة . وأخرج منذ سنوات «المعجم الوسيط» ليسدَّ به ثلمة كبيرة لأن المعاجم الحديثة التى سبقته لم تستطع أن تتخلص من قيود الماضى ، فهو كما يقول الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور : «أوضحُ ، وأدقُّ ، وأضبط ، وأحكمُ منهجاً ، وأحدث طريقةً ؛ وهو فوق هذا مجدِّد ومُعاصِر ، يضع ألفاظ القرن العشرين إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام ، ويهدم الحدود الزمانية والمكانية التى أُقيمت خطأً بين عصور اللغة المختَلفة ، ويثبت

أن فى العربية وحدةً تضمُّ أطرافها ، وحيويةً تستوعب كلَّ ما اتصل بها وتصوغه فى قالَبها ؛ فيه ألفاظ حديثة ، ومصطلحات علمية لم يرضَ المجمع الفرنسىّ أن يدخلها فى معجمه إلاَّ بعد مضىّ مائة سنة تقريباً من نشره ، وفى الطبعة الرابعة ؟ » . ويقول إنه « رسم منهجاً جديداً فى فنّ المعاجم العربى » .

ثم أخرج المجمع منذ عام الجزء الأول من « المعجم الكبير » الذى وقع فى ٧٠٠ صفحة وكُسر على حرف الهمزة . وهو بحق كما ذكر السيد الدكتور الأمين العام للمجمع : « لونٌ جديد فى عالم المعجمات العربية ، فيه تأْصيل وتحقيق ، وجمع واستيعاب ، ورجوع إلى المصادر الأُولى ، وتعويل ما أمكن على النصوص الثابتة » .

* * *

ثم وَلَّى المجمع وجههُ شطر التُّرَاث العربى فى هذا الباب ، فكوّن لجنة لنشر معجم الصغانى « التكملة والذيل والصِّلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية » الذى استدرك فيه مافات الجوهرىَّ فى « الصِّحاح » وخرج إلى الوجود من هذا المعجم جزءان لتلحق بهما أجزاوه الأَربعة الباقية فى تحقيق دقيق وإخراج أنيق .

وقد علمنا أن فى نية المجمع نشر معجم « الصحاح » للجوهرىّ على النهج الذى أخرج به تكملته . وهو عمل جليل ، ويدٌ كريمة يُسْديها أساتذتنا الأَجلاَّءُ أعضاءُ المجمع الموقر تشكرها لهم الأَجيـــال المتعاقبة .

* * *

وأمام هذا التفكير العلمى الجليل ، نرجو مُلحِّين ـ مادام لم تقف ظهور طبعات سابقة لبعض المعاجم حائلاً بين نهوض المجمع بإعادة نشرها ـ أن يُولِى هذا المجمع معجمَ « تهذيب اللغة » للأزهرىّ عناية ورعاية ، فيعيد نشره من جديد ، وأن يقصر أمر تحقيقه على عدد قليل من العلماءِ الذين تمرّسوا بالتحقيق والتدقيق فى التراث العربى ، وعُرفوا بالتقليب والتنقيب فى معاجم اللغة ، وقضوا زهرة شبابهم وما زالوا على الرغم من أكاليل الشيب التى تتوّج رؤوسهم مكِبِّين على أُمهات الكتب فى اللغة والأَدب ، فتعهد إليهم بتحقيق « التهذيب » من جديد ، فهو أحد مصادر « لسان العرب » .

وأن يوكل إلى هذا العدد القليل من العلماء الذين سيقومون بالتحقيق أمر المشاركة فى مراجعة مايتمّ تحقيقه ليكون بين الأجزاء جميعها ترابط وألفة ، فتضبط الأعلام التى تتكرر ضبطاً واحداً ، فلقد وجدنا فى أحد الأجزاء اسم « ابن شُمَيْل » مضبوطاً «ابن شِمِيل » ولا نعلم أن فى هذا الاسم قَوْلَيْن على حد هذا التعبير ، ولِتُنسب الشواهد إلى أصحابها فلانجدها كما هى فى الطبعة الحالية منسوبة فى جزء ، وغير منسوبة فى آخر ، أو مرويّة على وجه فى موضع ، وعلى رواية أخرى فى موضع .

ثم يضع المجمع إلى جانب هؤلاء العلماء طائفة أخرى تقوم بتخريج مانُقل عن الأزهرى فى المعاجم أو كتب اللغة والأدب والتفسير والحديث لتكون إلى جانب مخطوطات هذا المعجم سندًا يرجع إليه فى مقابلة النص .

وليس هذا الرجاء طعناً فى كل ماخرج من أجزاء هذا المعجم ، ولكن الحقيقة التى يلمسها كل من يطّلع عليه هى أن تحقيق بعض الأجزاء لم يرتفع إلى مستوى بعض أجزائه الأخرى التى حققت بدقّة . وقد ظهر لنا خلال الرجوع إليه فى بعض ما نقوم بتحقيقه من دواوين الشعر الجاهلى أن فى الطبعة التى بين أيدينا نقصاً تكرر فى كثير من المواضع ، بل تبيّن لنا سقوط مَوَادّ بأكملها ، وتحريفٌ فى بعض العبارات ، وزاد الطينَ بلّةً سوءُ الطباعة وعدم الدقة فى التصحيح .

ونحن نعلم أن ابن منظور كان شديد التوقِّى فيما ينقل عن المصادر التى بين يديه فهو حين ينقل عن الجوهرى فى الصحاح ينقل كلام الجوهرى بنصّه ، وكذلك يفعل حين ينقل عن الأزهرىّ فى التهذيب ، وأ ينقل عن ابن الأثير فى النهاية ، ويصنع هذا الصنيع فى كل ما يعتمد عليه من المصادر ؛ ناسباً كل نَصٍّ إلى صاحبه فى أمانة . والدليل على أمانته وصدقه ودقته أنه فى مادة «شقف» قال : « أهمله التهذيب » ، وهذا صحيح .

ومن الأمثلة التى نذكرها على سبيل المثال لا الحصر لتكون حجّة تؤيِّد رجاءنا :

● وجدنا ونحن نحقق «ديوان المَتلمس الضُّبَعِى» ابن منظور وهو يروى فى اللسان (٤ : ١٠٤ «جمد») بيت المتلمس :

جَمَادِ لَهَا جمادِ ! ولا تَقُولَنْ
لَهَا أبداً إذا ذُكِرَتْ : حَمَادِ

يقول : «وفى نسخة من التهذيب :

حَمَادِ لها حَمَادِ : ولا تَقُولِى
طَوَالَ الدَّهْرِ ماذُكِرَتْ : جَمَادِ

وفسّر فقال : أحمدْها ولا تذمَّها» .

فهذا النصُّ لم يرد فى طبعة التهذيب فى مادة «جمد» أو فى مادة «حمد» .

● وخلال تحقيقنا لديوان الحارث بن حِلِّزة حيث يقول فى إحدى قصائده :

وثَنَى لهُ تَحْتَ الغُبَارِ يَجُرُّهُ
جَرَّ المُفَاشِغِ هَمَّ بالإرْآمِ

وجدنا ابن منظور يروى فى اللسان (١٠ ـ ٣٣١ «فشغ») نصَّيْن عن الأزهرى :

الأَول : «وروى ابن بَرِّى عن الأَزهرى أن الفُشَاغ يثقّل ويخفف» .

الثانى : «المفاشغة : أن يُجَرَّ وَلَدُ الناقة من تحتها فيُنحَرَ وتُعْطَفَ على ولد آخر يُجَرُّ إليها فيُلْقَى تحتها فتَرأَمُه . يقال : فاشغَ بينهما . وقد فُوشِغَ بها .

وقال ابن حِلِّزة :

بَطَلٌ يُجَرِّرُهُ ولا يَرْثِى له
جَرَّ المُفَاشِغ هَمَّ بالإرآمِ

وقد نقل الفيروزابادىّ فى القاموس المحيط نصَّ عبارة الأزهرى ، ونقلها الزبيدىُّ مع بيت الحارث فى التاج برواية «بَطَلاً» على النصب نقلاً عن الأَزهرى . فرجعنا إلى التهذيب فلم نجد فيه مادة «فشغ» ، فأردنا أن نقطع الشكَّ باليقين فانتقلنا إلى مادة «شغف» لعلّنا نجد هذه المادة فلم نجدها أيضاً ، على حين وجدنا ابن منظور قد نقل فى اللسان (١١ : ٨٠ «شغف») نَصَّيْن كذلك من التهذيب ، ولكنهما ضاعا منه بضياع المادة من النسخة المطبوعة

الأَول : «الشِّغاف : مَوْلِجُ البلغم . ويقال بل هو غشاءُ القلب» .

الثانى : «وروى الأَزهرىُّ عن الحَسَن فى قوله «قَدْ شَغَفَهاحُبًّا» (الآية ٣٠ يوسف) قال : الشَّغَف أن يكوى بطنَها حُبُّه» .

هذه أَمثلة من سقوط موادّ بأَكملها .

أمّا الأمثلة على النقص فهى :

● قال ابن منظور فى اللسان (٥ : ١٠٦ «بحر ») فى السطور ٦ – ٩ : «وحكى الأزهرى عن ابن عَرفة : البَحِيرة : الناقة إذا نتجت خمسة أبطُن ، والخامس ذَكَرٌ نحروه فأكله الرجال والنساءُ ، وإن كان الخامس أنثى بَحَروا أُذُنَها أى شقّوها فكانت حراماً على النساءِ لَحْمُها ولَبَنُها وركوبها ، فإذا ماتت حلّت للنساءِ » .

وقد سقط ذلك من الجزء الخامس صفحة ٣٨ من التهذيب .

● وذكر ابن منظور فى اللسان (١٠ : ١٣٢ «بصر ») عند الكلام على الآية الكريمة « بَلِ الإنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » (١٥ : القيامة) : «قال الأزهرى : يقول بل الإنسان يوم القيامة على نفسه جوارحه بصيرة بما جنى عليها وهو قوله « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ » (٢٤ النور) . قال : ومعنى قوله « بَصِيرةٌ » عليه بما جنى عليها « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » أى ولو أدلَى بكل حَجَّة . وقيل : ولو ألقَى معاذيره : سُتوره والمِعْذار : السِّتر » .

وهـذه العبارة ساقطة من آخر النهر الثانى فى الصفحة ١٧٤ من التهذيب .

وقد جاء بعد الآية فى التهذيب كلام الفرّاء ، وكان ابن منظور قد نقل أيضاً كلام الفرّاء وذلك بعد العبارة التى أخلّت بها طبعة التهذيب ، وهذه العبارة رواها أيضاً عن الأزهرىّ أبوعبيد الهَرَوِىّ أحمد ابن محمد فى كتاب «الغريبيْن » (١ : ١٧٣) .

وأما أمثلة التحريف فعديدة لانستطيع حصرها . ولكن ظهر لنا كما قلنا ونحن نحقق ديوان الحارث بن حِلِّزة أن ابن منظور نقل فى اللسان (٧ : ٢٠٤ « حلز ») كلاماً للجوهرى فى الصحاح ، وكلاماً للأزهرى فى التهـذيب فوجدناه ينقل كلامهما ، ولكنه فى عبارة التهذيب حين عقّب الأزهرى على قولٍ لقُطْرُب وأنه ليس من الثِّقات ، وهو « وله فى اشتقاق الأسماء حروف منكرة » جاءت هذه الكلمة فى التهذيب المطبوع « حروف مفردة » ونصُّ اللسان هو الأصحّ .

ونرجو أن توضع له فهارس متعددة وافية حين يعاد طبعه .

* * *

وإنا لنأمل أن تهيئ الأيام للمعجم العربى الضخم «لسان العرب» نشرة محققة مصححة منسوبة الشواهد ، مختومة بفهارس تكشف عما فى هذا المعجم من معارف وتيسر للباحثين الطريق إليها ، وتكشف لنا عن شعراء زخر بهم هذا الكتاب لم يرد لهم ذكر فى غيره .

وكان المرحوم العلامة أحمد تيمور قد عُنى بتصحيح بعض أخطاء وقع بصره عليها فى هذا المعجم ، ثم عُنى أخيراً الأستاذ عبدالسلام محمد هارون بتعقب أجزائه واحداً بعد آخر فنشر سلسلة من التصويبات لعلها تجمع فى كتاب ليكون فى متناول المنتفعين بهذا المعجم ، وليكون عوناً للمحققين إذا هيأت الظروف لهذا المعجم أن يأخذ حظه من النشر العلمى الجدير به .

ونُحِبُّ أن نشير هنا إلى أن طبعة حديثة من اللسان ظهرت أخيرًا فى بيروت فى ثلاثة أجزاء قام بإعدادها وتصنيفها الأستاذان يوسف خيّاط ونديم مرعشلى ؛ أعادا فيها ترتيب مواده على أوائل الحروف لا على أواخرها ، وألحقا به معجماً ضم كل ماأقرّته المجامع اللغوية فى القاهرة ودمشق وبغداد من مصطلحات . وقد قال عنه العالم الجليل الأستاذ الدكتور عدنان الخطيب فى مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق أن المصنِّفَيْن لهذا المعجم «بلغ توخيهما الكمال فى إخراجه للناس حَدًّا يثير الإعجاب الشديد بَجَلدهما ، والتقدير الخالص لتضحيتهما ، ويدل على مابلغه فنُّ إخراج المعاجم من إتقان وجمال » .

* * *

وقد نشط أخيرا معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية فدفع بالأجزاء الباقيـــة من معجم « المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة » لابن سِيده إلى المطبعة بعد أن توقف نشره منذسنوات عند الجزء الثالث ، فخرج للناس الجزء الرابع ، وأوشك أن يطلع عليهم الجزء الخامس ، لتلحق بهما بقية أجزائه .

* * *

وكانت حكومة دولة الكويت قد نهضت فى السنوات الأخيرة بعبء كبير فى نشر معجم الزبيدى «تاج العروس » وعهدت إلى طائفة من الأساتذة المحققين القيام بتحقيق أجزائه ، ونشرت على

الناس ثمانية أجزاء منه ، ونأمل أن تتقدم خطوات النشر ليكون هذا المعجم بين أيدى الناس فى وقت قريب . وهو جهد تشكر عليه هذه الدولة العربية الناهضة ، وعمل من أعمال وزارة الإعلام هناك يسجّل لها بالشكر والتقدير .

* * *

وثمّة معجم آخر كان المجمع العلمى فى العراق قد عاون على إخراجه فصدر منه الجزءُ الأول ؛ ذلك هو كتاب « العين » للخليل بن أحمد بتحقيق الدكتور عبد الله درويش . وما زلنا نترقب ظهور بقية الأجزاء .

* * *

وفى القاهرة أُعيد نشر معجم « مقاييس اللغة » لابن فارس الذى حققه الأُستاذ عبد السلام هارون فى طبعة جديدة بعد أن نفدت طبعته الأُولى .

ولعلّ الأُستاذ محمد محيى الدين عبدالحميد يكمل نشر معجم ابن فارس « المجمل » الذى نشر منه جزءًا منذ سنوات .

* * *

بقى معجمان جديران بإعادة نشرهما بتحقيق وافٍ : هما « الجمهرة فى اللغة » لابن دريد ، و « المعيار » للشيرازى . ولعل مجامعنا اللغوية الموقرة تتقاسم العمل على إظهارهما مع غيرهما من المعاجم التى لم يقدَّر لها حتى الآن أن تخدم خدمة علمية صحيحة .

* * *

ولنا رجاءٌ أخير يتصل بالمعجم الكبير الذى يخرجه مجمع القاهرة الموقر هو أن يضمَّ الألفاظ التى وردت فى الشعر العربىِّ ولم ترد فى المعاجم القديمة . وإنى لأذكر على سبيل المثال بعض ألفاظ عرضت لى فى شعر المتلمس عند تحقيق ديوانه مثل : « جيش طُوَّس » ، « مَلْزَق » بمعنى ملجأ ، « ترامقه » بمعنى تغلقه .

وفى شعر المثقب العبدىّ : « قُشارىّ » جمع قِشر ، « المُعين » بمعنى الأَجير ، « لُطَم » .

وكان الأُستاذان أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون قد أشارا فى

« المفضليات » وفى « الأَصمعيات » إلى طائفة من الأَلفاظ التى لم ترد فى المعاجم .

ونرجو أَيضاً أَن يضمَّ « المعجم الكبير » المصطلحات الخاصة بعلوم البحار ـ كما أَشرت فى مقالى الذى نشر فى الجزء الرابع والعشرين من مجلة المجمع حيث ذكرت طائفة مما جاءَ فى تآليف ابن ماجد . كذلك ماورد فى مفاتيح العلوم للخوارزمِىّ .

ومع تقديرنا للجهد الذى بُذل فى إخراج « المعجم الكبير » فإن لنا رأْياً فى بعض مانشر فيه من خارِطات كخريطة أَمريكا التى شغلت الصفحة ٤٧٥ ، وخريطة انجلترا التى شغلت أَيضاً الصفحة ٥٣٤ وغيرهما من خارطات لامحلَّ لها فى هذا المعجم ؛ ومن الممكن أَن تصغَّر رسومها ما أَمكن لأَننا لا نتصور أَن أَحداً سيرجع إليها فى المعجم اللغوى وبين يديه العديد من المصورات الجغرافية قديمها وحديثها .

والذى أَراه حَرِيًّا بأن يشغل بعض صفحات هذا المعجم هو خرائط يحدَّد فيها بقدر الإمكان مواضع البلدان التى ذكرها جغرافيّو العرب فى مؤلفاتهم ، والتى تردد ذكرها فى الشعر وفى كتب التاريخ والفتوح .

* * *

كما نرجو ـ وقد أَخذ المجمع الآن فى إعادة طبع « المعجم الوسيط » بعد أَن نفدت طبعته الأُولى ـ أَن يكون قد أُخِذَ بالآراءِ التى أَبديت من طائفة من مقدِّرى هذا العمل الجليل ، كما تكون الطبعة الجديدة قد روعى فيها النظرات الصائبة والتعقيبات الموفقة التى نشرها فى سلسلة من المقالات فى مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق الأُستاذ الدكتور عدنان الخطيب .

* * *

أَمّا المعاجم المتخصصة مثل المعاجم الزراعية والنباتية والطبية والفلكية والحيوانية التى نهض بها أَفراد من علمائنا الأَجلاَّء ، فإنَّا لنرجو إحياءَ هذه المعاجم ، والتوسع فى هذه الأَبواب .

حسن كامل الصيرفى

النشاط المعجمى العربى: أصيل أم دخيل؟

للدكتور محمد سالم الجرح

١ ـ جامعاتنا والوعى المعجمى .

٢ ـ دوافع التأليف المعجمى عند العرب .

٣ ـ ماهو المعجم ؟

٤ ـ النشاط المعجمى عند الأمم القديمة :

(أ) عند المصريين والساميين .

(ب) عند الصينين .

(ج) عند الهنود واليونانيين .

٥ ـ مدى تأثر العرب بغيرهم فى نشاطهم المعجمى .

(١)

كثيراً مايعلن المجمع اللغوى عن حاجته إلى محررين يعملون به ممن تخصصوا فى اللغة العربية بجامعة الأزهر ، أو بكلية دار العلوم ، أو بأقسام اللغة العربية المتعددة ، فيتقدم للعمل به جمع غفير ، لا تلبث إدارة المجمع حين تختبرهم أن تكتشف جهلهم الفاضح بكيفية استعمال أُمَّهاتِ المعاجم العربية فى الكشف عن ألفاظ لغتهم القومية ، التى قضوا للتخصُّص فى دراستها كل حياتهم الجامعية ، ثم يزيد هذا الجهل بشاعة عدم إلمام هؤلاء الخريجين بتاريخ المعجم العربى نفسه ، وهو مجال هام من مجالات التراث الفكرى والعلمى ، تعتز اللغة العربية بحصيلتها الضخمة فيه ، وثروتها الوفيرة منه .

والحق أن الذى يقارن الدارس المتخصص للغة العربية من أبناء الوطن العربى فى هذا الصدد ، بأشباه المتعلمين

وأنصافهم من أبناء اللغات الأوربية يعود بالكثير من الحسرة والألم ، لأن الناشئ من أبناء أى لغة أوربية ذات أدب وحضارة كاللغة الانجليزية مثلا ، يكون ذا وعى معجمى قوى ، لا يسمح له أن يكتفى فى فهمه للجديدعليه من ألفاظ لغته بالاستنتاج المتسرع الذى قد يوحى به السياق – ولكنه معرض للخطأ – أو بالمعنى المشوش الذى قد تؤدى إليه مقارنة الكلمة بأشباهها فى النطق أو الكتابة ، بل إنه لا يثق فى حسه اللغوى فى ضبط الكيفية التى تنطق بها هذه الكلمة الجديدة عليه . ولهذا كله يرجع إلى المعجم فيحصل منه على الوصف الدقيق لكيفية نطق الكلمة ، والتحديد الواضح لمعناها أو معانيها ، والبيان الوافى لاستعمالاتها ، ولدراسات كثيرة أخرى ذات طبيعة لغوية وأدبية وتاريخية واجتماعية تتصل بهذا اللفظ الجديد عليه . وهكذا تنمو الثروة اللفظية عند الناشئين منأبناء هذه اللغات نموًا سليما ، خاليا من اللحن أو التحريف فى اللفظ ، بريئا من اللبس والغموض أو الاهتزاز والتشوش فى المعنى ، مما يساعد اللغة على القيام بدورها لأمتها خير قيام .

فاذا قارنا هذا الوضع بما يحدث للمتخصصين من أبناء العرب فى اللغة العربية وآدابها – بلهَ غيرَهم من ذوى التخصصات الأخرى ، أو صغار الناشئة أو عامة الناس – فإن الحسرة تتعمق فى نفوسنا ، لأن هؤلاء يتمون تعليمهم الجامعى دون أن يتعودوا استعمال معجم ، أو يألفوا الرجوع إلى قامُوس ، مع أن دواعى ذلك بالنسبة للغة العربية ، أشد منها وأقوى بالنسبة للغة كاللغة الانجليزية ؛ ويرجع ذلك إلى أسباب عدة ، منها :

(أ) أن التفاوت بين لغتىْ التخاطب والأدب أوسع فى العربية منه فى الانجليزية .

(ب) أن لأَدبِ اللغة العربية من القداسة التى يضفيها القرآن الكريم ما لا يوجد نظيره فى الانجليزية .

(ج) أن حرص الناطقين بالعربية على وحدتهم الثقافية وتجاذبهم الفكرى يفوق – أو ينبغى أن يفوق – حرص الناطقين بالانجليزية على ذلك .

وعلى الرغم من ذلك كله فإنه يبدو أن شبابنا المثقف يعانى كسلا ذهنيا عجيبا ، بحيث يرضى بالفهم الناقص للنص الأدبى الذى يحتوى مفردات لغوية جديدة عليه ، أو يقنع بما يوحيه السياق من معنى مهتز أو مخطئ لهذه الألفاظ أو — وهذه هى الطامة الكبرى — يردد الألفاظ ترديدًا ببغاويا دون الإحساس بالحاجة إلى فهم ماتعنيه هذه الألفاظ ، بل لعلهم لا يحسنون ترديد هذه الألفاظ فيخطئون حتى فى مجرد نطقها وهم لايشعرون أنهم مخطئون .

وسبب ذلك فى رأيى ، هو أن وعينا المعجمى — إن كان عند شبابنا المثقف وعى معجمى على الإطلاق — أدنى بكثير من المستوى الذى ينبغى أن يكون عليه الوعى المعجمى لأبناء أمة كالأمة العربية ، تتمتع لغتها بتاريخ أدبى طويل ، وتدخر كنوزا ثقافية ثمينة ، وتتطلع إلى مستقبل مستنير كريم . وإذا كان هذا الانحطاط فى الوعى المعجمى يشين غير المتخصصين من أبناء الأمة العربية ، فإنَّ عاره على المتخصصين فى اللغة العربية أنفسهم يكون أشد وأنكى .

لهذا كله تتحتم علينا العناية بالجانب المعجمى من تراثنا اللغوى ، وفاءً لهذا التراث المجيد من ناحية ، وتنمية للوعى المعجمى عند أبناء العربية ومتعلميها من الناحية الأخرى ، فليس هناك شك فى أنه كلما استحكم ربط الاستعمال اللغوى بالمعجم ، كانت اللغة أقل تعرضا للتفتت اللهجى ، والتحريف اللفظى والتفاوت أو الغموض المعنوى ، وبذلك تظل اللغة أكثر ارتباطا بتراثها الأدبى ، وأقدر على التمسك بوحدتها ، ووحدة الناطقين بها ، وعلى الحرص على المستوى المشترك بين مستعمليها . إن ربط اللغة بنشاط معجمى موفق ، وتعميم الوعى المعجمى عند الناطقين بها ، لا يحرم اللغة فى أى مستوى من مستوياتها من التطور الطبيعى ، الهادئ ، المرغوب ، وإنما يعصمها من الفساد السريع ، والتحلل الطفرى ، الذى لو تم لجعل من المتعذر على الأجيال اللاحقة الاستفادة من النتاج الأدبى والفكرى للأجيال السابقة ، بل إنه ربما جعل من المتعذر على مستعملى اللغة فى بقعة جغرافية أن يفهموا فهما

كاملا سليما ما ينتجه أبناء أمتهم فى جيلهم نفسه لكن فى بقعة جغرافية أخرى

وهذا كله يحتم علينا نحن أبناء لغة الضاد إذا كنا حريصين على أن نستعمل فى وطننا الفسيح مستوى لغويا مشتركا (A standard lignuistic génre) أن ندرك الدور الخطير الذى يلعبه المعجم اللغوى ، والوعى المعجمى فى تحقيق ذلك المستوى المنشود .

وأول خطوة فى هذا الإدراك ، أن نتدارس تاريخ المعجم العربى ، وأن نضع النشاط المعجمى العربى فى مكانه الصحيح من تاريخ فن المعجمة العالمى .

(٢)

لم يكد الإسلام ينتشر ، ويدخل فيه أفواج من أمم غير عربية ، حتى اشتدت الحاجة إلى دراسة منظمة للغة العربية لكى يستطيع المسلمون جميعا قراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة ، وفهم نصوصه فهما سليما (فقد كان المسلمون — ولا يزالون — يعتبرون أىّ لحن فى قراءة القرآن إثما عظيما) ، ولكى يتيسر على غير العرب من المسلمين أن يتعلموا اللغة العربية ، ويندمجوا تمام الاندماج فى الأمة الإسلامية . وقد ظهر من علماء المسلمين من كرسوا جهودهم للوفاء بهذه الحاجة فقاموا بملاحظة الظواهر اللغوية فى اللغة العربية على مختلف مستوياتها ملاحظة علمية ، كما قاموا بجمع موادها ، وتدوينها فى مؤلفات حفظ الزمان لنا منها الكنوز الثمينة ، على الرغم من الكثير الذى أباده منها وأضاعه .

ويقرر العلامة العربىّ المغربىّ عبد الرحمن ابن خلدون فى مقدمته [1] ، أن اللغة العربية التى أنزل بها القرآن تعرضت لنوعين من الفساد السريع نتيجة لدخول غير العرب فى الإسلام ، ومحاولتهم استعمال اللغة العربية .

١ — فساد فى اللفظ ، يتمثل فى الخطإ فى النطق ، وقد عولج هذا الفساد بظهور علم النحو .

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون كما ترجمها روزنتال إلى الإنجليزية جـ ٣ ص ٣٣٨ ، وأيضا ص ٤٤٦ — ومابعدها .

٢ ـ فساد فى معنى اللفظ ، يتمثل فى استعمال اللفظ فى غير مجاله المعنوى ، وقد عولج هذا الفساد بظهور المعاجم .

وهكذا ظهر الفرعان التوأمان للبحث اللغوى فى تاريخ اللغة العربية . والذى يعنينا الآن هو التأريخ لفن تأليف المعاجم (أو فن الْمَعْجَمَة) العربية الذى قدر له أن ينمو سريعا حتى يصبح عملاقا ، قلما تستطيع أن تباهى بمثله لغة إنسانية أخرى .

ولحسن الحظ أن التاريخ قد حفظ لنا كثيرا من ملامح المعاناة التى صاحبت مولد هذا العملاق ، وهيأت له ، وأتاحت له أن ينمو ويتطوّر حتى يبلغ الذروة فى قاموس جامع شامل أقرب إلى موسوعة لغوية منه إلى معجم ألفاظ ، ذلك هو « لسان العرب » لابن منظور . ولكن ظهور مثل هذا المعجم الموسوع الشامل ، الدقيق الترتيب ، الجامع لصنوف البحث اللغوى المتعلقة بكل لفظ قد جعل للغة العربية ، مكانة فريدة بين سائر اللغات فى ميدان النشاط المعجمى . فلقد ظلت اللغة العربية منفردة بمثل هذا المعجم الضخم بين لغات الإنسان جميعا فى القديم والحديث ، حتى القرن التاسع عشر الميلادى حين بدأ يظهر على رفوف المكتبات فى أوربا معاجم لبعض اللغات الأُوربية كالإنجليزية والألمانية تضارع المعجم العربى الأسبق « لسان العرب » فى الإحاطة والاتساع .

وهذا التفرد الذى ظلت تتمتع به العربية دون سائر لغات الإنسان فى ميدان النشاط المعجمى فترة طويلة ، قد أوحى إلى كثير من الناس :

(ا) بأن هذا النشاط المعجمى الجبار تجربة عربية بحتة ، هيأت الظروف التاريخية المحلية لميلادها واتخذت بعد الميلاد خطها الطبيعى فى التطور والنمو ، دون أى مؤثر خارجى ، أو تقليد لأى إنتاج أجنبى[1] .

(ب) وبأن النشاط المعجمى الذى صاحب النهضة الحديثة فى أوربا متأثر بما سبقه فى اللغة العربية فى هذا الميدان . فقد كتب المستشرق الإنجليزى جون هاى وود مقالا

---

(١) انظر مثلا « المعجم العربى نشأته وتطوره » للدكتور حسين نصار جـ ١ ص ٢٠١ .

فى مجلة جامعة دار هام (فى ديسمبر ١٩٥٧) قرر فيه تأثر النشاط المعجمى الأوربى بسابقه العربى .

ونحن لا يعنينا أن نتتبع مدى تأثر النشاط المعجمى الحديث فى أوربا بالتأليف المعجمى عند العرب ، ففضل العرب على النهضة الأدبية الحديثة كلها واضح ، مقرر يعترف به العلماء فى أوربا نفسها ، وإذا لم يثبت للمعجم العربى تأثير مباشر على المعجم الأوربى – وهذه نقطة لا تزال تحتاج بحثا موضوعيا منصفا – فإن التأثير غير المباشر لا يمكن أن ينكر !

ولكننا نرى من الإنصاف للبحث العلمى والحقيقة التاريخية أن نتساءل : هل سُبق العرب إلى ميدان التأليف المعجمى على الإطلاق ؟ أى هل كانت هناك شعوب وأمم أخرى قبل الأمة العربية جمعت ألفاظ لغتها فى معجم أو معاجم ، وإن لم تبلغ من الضخامة والإحاطة ما بلغه معجم عربى كلسان العرب ؟ وإذا كان الجواب على هذا السؤال « نعم » ، فإن هذا يقودنا إلى سؤال آخر هل تأثر العرب قليلا أو كثيرا بما سبق إليه غيرهم من الأمم فى ميدان التأليف المعجمى ؟

(٣)

وللإجابة الواضحة عن السؤال الأول نجدنا مساقين إلى محاولة تعريف كلمة « معجم » . والحق أننا هنا نواجه مشكلة غير يسيرة ، فكلمة معجم (ونظائرها فى اللغات الأوربية كالكلمة الإنجليزية Dictionary التى ترتد إلى أصل لاتينى ، والكلمة الإنجليزية Lexicon التى ترتد إلى أصل يونانى) مهما صرفنا النظر عن اشتقاقها ، وظروف استعمالها فى اللغة العربية ، إما أن تعتبر مصطلحا خاصا ، وعندئذ فتحديد معناها هنا متروك للاصطلاح ويمكن أن يُوسَّع معناها الاصطلاحى أو يُضيَّق طبقا لرغبة المصطلحين ، وإما أن يُعتمد فى تحديد معناها على الاستعمال اللغوى العام ، حيث لا يضيِّق المعنى رغباتٌ خاصة أو اعتبارات اصلاحية .

أما إذا اتجهنا إلى التعريف الاصطلاحى فإننا طبعا – نستطيع أن نصطلح على

---

(١) عاد هذا المؤلف فقرر فى كتابه الذى نشره عام ١٩٦٠ عن المعاجم العربية أنه بالغ فى تصويره لهذا التأثر . انظر ص ١ من كتابه هذا .

تعريف المعجم تعريفا لا يكاد يصدق إلا على ماظهر فى العربية من نشاط معجمى ، ثم نقول إن المعجم بهذا التحديد لم يعرف عند غير العرب ، ومِن ثَم فالعرب هم مخترعوه ورواده الأول ، ولكن هذا يكون عنتا لا يفيد منه البحث العلمى قليلا أو كثيرا . ولهذا فإن الأولى بنا أن نحاول تعريف « المعجم » تعريفا عاما ، يصدق على كل محاولة فى ميدان البحث اللغوى تهدف إلى ربط اللفظ المنطوق بالمجال المعنوى الذى يستعمل هذا اللفظ للتعبير عنه ـ وهذا يتفق مع الاشتقاق اللغوى للفظ « معجم » فى اللغة العربية ، فهو من « أعجم الشئ » إذا أزال غموضه ، وأوضح مدلوله .

المعجم ـ إذاً ودون كثير عنت أو حذلقة ـ كل قائمة تجمع كلمات من لغة ما ، على نسق منطقى ما ، وتهدف إلى ربط كل كلمة منها بمعناها ، وإيضاح علاقتها بمدلولها .

وهذا فهم عام لكلمة معجم يغطى كثيرا من ألوان النشاط المعجمى ، ويصدق عليها ، فالرسائل الصغيرة التى تجمع الألفاظ الغريبة أو النادرة فى موضوع ما ، أو فى نص ما ، لتشرحها وتوضح معناها ، تعتبر نشاطا معجميا ، وقوائم الألفاظ التى نعملها للمتأدب ، والناشئ ، والأجنبى ، ليستعملها فى أداء معنى بعينه تعتبر نشاطا معجميا ، والأب أو المدرس حين يفسر لابنه أو تلميذه ما يستعصى عليه فهمه من الكلمات فى أى موقف يقوم من حيث لا يدرى بنشاط معجمى .

وقد يكون من الطريف أن نتتبع خطوات اشتقاق هذا اللفظ « معجم » حتى نتبين كيف تطور حتى أصبح يؤدى هذا المعنى ، والحق أن خطواتنا فى هذا الصدد ليست يقينية على الإطلاق ، فلسنا نعرف يقينا كيف ولا متى تم استعمال هذه الكلمة فى هذا المعنى ـ ولا يزال ذلك يحتاج بحثا دقيقا مستقصيا ـ ولكننا نستطيع من التفسير السريع لبعض مشتقات مادة « ع ج م » أن نستنبط الخطوات التى مر بها هذا اللفظ حتى أصبح يؤدى ذلك المعنى .

فمن المعانى الأساسية لهذه المادة « الغموض والخفاء ، والانبهام ، والعجز عن الإفصاح أو الإبانة » ، ومن مفرداتها فى المعنى الأخير « الأعجم والعجماء » للحيوان الذى

لا ينطق، وبه شبه غير العربيّ – لأنه يُصدر أصواتا غير مفهومة كجعجعة الحيوان، فسمى أعجميا. وقد تعلم العرب الأميون الكتابة من إخوانهم من أبناء الشعوب السامية، حيث اقتبسوا حروف الهجاء، أو الأبجدية، ولكنهم وجدوا أن عددا من هذه الحروف يلتبس رسمه، فابتدعوا تمييزه بطريقة النقْط، ولذا فإن الخط العربيّ يستعمل من النُّقَط عددا لا يستعمله أى خط سامى آخر، وقد سمى العرب عملية نقط الحروف لإزالة لبسها وإبهامها «إعجاما» من قولهم «أعجمت الشئ» إذا أزلت عجمته أى غموضه وخفاءه. وسميت حروف الخط العربى بعد ذلك «حروف المعجم» أى حروف الخط الذى أعجم ونقط فزال منه اللبس والغموض. فقولنا: «حروف المعجم» يجب أن يفهم على تقدير مضاف، والأصل «حروف الخط المعجم» الذى يطلق على الخط العربي دون سائر الخطوط السامية الأخرى

ولا شك أن ذلك الاستعمال مستحدث فى العربية، جاء لاحقا فى الزمن لدخول النقْط» على حروف هجائها[1]. ثم سمى ترتيب أى مادة لغوية ترتيبا يراعى حروف الهجاء «معجما» نظرا لخضوعه لترتيب حروف المعجم، ويقال إن أول كتاب أطلق عليه اسم المعجم، هو «معجم الصحابة» لأحمد بن على بن المثنى التميمى (٢١٠ – ٣٠٧ هـ) كما ألف بعده أبو القاسم عبد الله ابن محمد بن عبد العزيز البغوى المحدِّث (٣١٤ – ٣١٥) كتابين فى أسماء الصحابة سماهما «المعجم الكبير» و«المعجم الصغير» وعن مثل هؤلاء أخذ اللغويون لفظ «معجم»[2] ليطلقوه على ما يؤلفون من كتب تشرح ألفاظ اللغة وتحدد مجالها المعنوى.

وقد يعنى هذا التطور الاشتقاقى ربط المعجم اللغوى بالترتيب الهجائى، فما سمى «المعجم» معجما إلا لترتيبه على حروف المعجم (أى على الهجائية العربية)

(١) لعل مما يستحق الذكر هنا أن الخليل يقول فى مقدمة كتابه «العين»: «إنى جمعته على حروف، الف باء، تاء ... » ولو كان مصطلح «حروف المعجم» شائعا فى الاستعمال لكان أخصر وأدق من تعبير الخليل. وهذا نفسه يرجح عدم ظهور استعمال «حروف المعجم» على عهد الخليل. ويجعلنا بالتالى نشك فى القصة التى رويت عن عبد الملك بن مروان (٢٦ – ٨٦ هـ) أنه سأل جلساءه يوما «أيكم يأتينى بحروف المعجم فى جسده؟» أنظر جورجى زيدان جـ ٣ ص ١١٩

(٢) أنظر أحمد عبد الغفور العطار «الصحاح ومدارس المعجمات» ١٢ ص ٥٣.

ولكن هذا أمر عرضى بحت ، فالصفة المميزة للمعجم اللغوى هى ربطه الألفاظ بمعانيها ، وإيضاحُ علاقتها بمدلولاتها ، كائنا ما كان الترتيب الذى تخضع له هذه الألفاظ داخل المعجم !

(٤)

فإذا عدنا بهذا الفهم الواسع العام لكلمة « معجم » نحاول الإجابة عن تساؤلنا عما إذا كان هناك شعوب سبقت العرب فى ميدان النشاط المعجمى فإننا سنجد الإجابة عن ذلك بالإيجاب .

إن النشاط المعجمى بهذا المعنى الواسع يكاد يكون تلقائيا يمارسه بأى لغة أى أب يشرح لابنه الكلمات الجديدة عليه ، أو أى مدرس يفسر لتلاميذه نصا صعبا أو أى مواطن يرشد أجنبيا إلى معانى ما يطرق أذنه أثناء سياحته من ألفاظ غريبة . ولكننا لا نعنى النشاط المعجمى التلقائى ، وإنما نعنى النشاط المعجمى المنظم . فهل سُبق تأليفُ المعاجم العربية بأى نشاط معجمى منظم عند غيرهم من الأمم ؟ والجواب هنا بالإيجاب أيضا .

فلا شك أن الظروف التاريخيـــة التى اجتمعت للأمة العربية وانتهت إلى دفعها إلى تأليف معاجم للغتها قد وقعت ، وتكررت عند أمم أخرى أقدم من العرب . فالبحث اللغوى عموما ، والتأليف المعجمى بصفة خاصة ، يقدر له النشوء والازدهار تحت ظروف تاريخية خاصة ، أفقية أو رأسية ، يمكن أن تتوفر لأى أمة ؛ ويحدث ذلك بصفة خاصة :

(ا) إذا قدر للهجةٍ أو لغة ما أن تسود على لهجات أو لغات أخرى ، بحيث يصبح من المحتم أو المرغوب فيه على الأقل أن يجيد أبناءُ اللهجات أو اللغات الأخرى تلك اللهجة أو اللغة السائدة ، التى ليست أصلا لهجتهم أو لغتهم . فحرصا على اللهجة أو اللغة السائدة وتيسيرا لمهمة الراغبين فى إجادتها ينشط البحث اللغوى فى وصف ظواهرها ، كما ينشط فى جمع ثروتها اللفظية ، وتحديدها بالمجالات المعنوية التى تستعمل للتعبير عنها (وهذا هو المستوى الأفقى للظروف التاريخية المواتية) .

(ب) إذا قدر للغة ما أن تحظى فى فترة من فترات تاريخها بإنتاج أدبى ممتاز ، يحتل مركز القداسة والإجلال عند أبناء هذه اللغة ، ويصبح بالنسبة إليهم تراثا عزيزا ينبغى الاستمساك به ، والرجوع الدائم إليه ، ومقاومة تيار التطور اللغوى ما أمكن حتى لا يصبح هذا التراث العزيز نتاجا غريبا على الأجيال اللاحقة من أبناء الناطقين بهذه اللغة ، يسيئون فهمه وتذوقه ، أو لا يستطيعون ذلك على الإطلاق. فحينذاك ينشط البحث اللغوى ، والتأليف المعجمى ، ليقيّد اللغة ما أمكن عند تلك المرحلة من التطور التى ظهر خلالها هذا التراث الأدبى المقدس ليتيسر فهمه على الأجيال اللاحقة من الناطقين باللغة (وهذا هو المستوى الرأسى للظروف التاريخية المواتية) .

وقد توفر هذان معا للغة العربية بظهور الإسلام ، ونزول القرآن ، وجمع الحديث النبوى ، ودخول الأعراب من غير قريش فى الإسلام ، ودخول غير العرب من أمم الأعاجم فيه أيضا ، وتقديسهم جميعا للقرآن والحديث ، مما جعل اللغة العربية الفصحى لغة سائدة ينبغى على من لا يجيدها من أبناء العرب أن يجيدها وعلى من لا يعرفها من المسلمين أن يتعلمها ، وهكذا توفرت الظروف التاريخية المواتية على المستوى الأفقى لينشط البحث اللغوى والتأليف المعجمى .

ولقد ربطت قداسة القرآن الكريم اللغة العربية عند تلك المرحلة من مراحل تطورها ، التى نزل القرآن بها ، وهكذا صار للغة العربية تراث مقدس ، وحَرِص العرب والمسلمون على أن يدوم للقرآن يسر تلاوته ، ووضوح معناه عند الأجيال اللاحقة من أبنائهم ، مهما بَعُدَ بهم الزمان ، وتتابعت الأجيال ، فنشط البحث اللغوى والتأليف المعجمى لأن الظروف التاريخية على المستوى الرأسى كانت مواتية أيضا .

وكما توفر الأمران للغة العربية ، فقد توفرا ، أو توفر أحدهما ، للغات أخرى قبل توفرهما للغة العربية إذ أن الحضارة التى أنتجتها الأمة العربية فى ظلال الإسلام كانت الحضارة الوسيطة تاريخيا ، لأنها تقع بين الحضارات القديمة ، والنهضة الحديثة ، وجغرافياً لأنّها تقع فى الوسط

تماما بين حضارتىْ الشرق والغرب . فما توفر للأمة العربية من ظروف تاريخية يمكن أن يكون قد توفر لمن سبقها من الأمم فى نفس المنطقة ، ولمن سبقها أو عاصرها فى مناطق أخرى ، ومن ثم فلاعجب أن نجد فى عدد من اللغات الأخرى قبل العربية ومعها نشاطا معجميا مقصودا ، منظما ، وإن لم يبلغ ذلك النشاط نفسَ الدرجة من الخصوبة والإنتاج التى بلغهافى العربية[1]

(ا) فلقد كشف لنا النشاط الحفرى الجبار الذى تم خلال القرن الماضى عن حضارات أسلافنا الأقدمين فى هذه المنطقة من الدنيا التى كانت مهد الحضارة ، وموطن الثقافات ، ومهبط الوحى ، ومربع الأنبياء ، فعرفنا أن أجدادنا المصريين فى وادى النيل ، وأن أجدادنا الساميين فى وادى دجلة والفرات كانت لهم حضارة ، وثقافة وأدب ، واقتضى ذلك أن يعرفوا البحث اللغوى ، وأن يكون لهم نشاط معجمى ، فالذى يحاول أن يتعلم الهيروغليفية ـ وهى اللغة المقدسة عند المصريين القدماء ـ لا بد أن تُقدَّم له ألفاظُها مرتبة مترتيبا منطقيا على نسق ما ، وتُشرَح شرحا ييسر على الناشىء فهم معناها ، وكذلك كان الحال بالنسبة للأكادية ، وربما زاد من النشاط اللغوى والتأليف المعجمى عند الأكاديين ، أنهم ـ وهم ساميون ـ قاموا على أنقاض حضارة غير سامية ، هى الحضارة السومرية ، وأنهم اتخذوا للغتهم السامية الأكادية نفس الخط المسمارى الذى كان يستعمله أسلافهم السومريون ، فكتبوا به لغتهم غيرَ السامية ، وكان هذا الخط « صوريا » (يرمز بالصورة الواضحة لمدلولها كاملا) ، ولم يكن مقطعيا كما صارت الأكادية ، ومن ثم فقد وجد الأكاديون أنفسهم مضطرين إلى جمع الرموز السومرية فى قوائم ، وإردافها

---

(١) أنظر كتاب المستشرق الانجليزى جون هاى وود عن « فن المعجمة العربيـــة : تاريخه ومكانته فى التاريخ العام لفن المعجمة » اكسفورد ١٩٦٠ الفصل الأول .

ما يوضح قيمتها الصوتية ومدلولاتها بالأكادية ، وقد عُثر فعلا فى مكتبة الملك الأشورى (والأشورية فرع من مجموعة اللهجات السامية الأكادية) أشوربانيبال (٦٨٨–٦٢٥ ق م) على عدد من الألواح يضم بعضها قوائم بالأسماء ، وبعضها الآخر قوائم بالأفعال التى تدل على المهن والحرف ، كما وجدت فى بعض الألواح قوائمُ بتحديد القرابات العائلية ، . . . وهكذا ، أى أنهم كانوا يرتبون «المفردات» اللغوية حسب الموضوعات التى ترتبط بها . وإذا عرفنا أن مكتبة الملك أشوربانيبال كانت تحوى كثيرا من صنوف الإنتاج اللغوى والأدبى والقانونى والدينى ، الذى أُلِّف قبله بمئات السنين ، عرفنا أن شعبا ساميا قديما (أو قل شعبا عربيا نازحا – فليس الأكاديون إلا شقا من العرب غادر وطنه فى الجزيرة العربية إلى وادى النهرين فى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد) قد عرف النشاط المعجمى المنظم قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام بما قد يزيد على ألف عام[1] .

ولكن الحضارات القديمة فى وادى النيل ، أو النهرين ، كانت قد ماتت قبل أن تظهر الحضارة العربية الإسلامية بقرون ، ومن ثم فليس هناك أى احتمال أن يكون للنشاط المعجمى فى هذه الحضارات تأثير مباشر على النشاط المعجمى عند العرب .

(ب) وهناك شعب آخر قديم كان له نشاط معجمى ، ولكنه لم يكن بعيدا عن العرب تاريخيا فحسب ، وإنما كان بعيدا عنهم جغرافيا أيضا ، فليس ثمة أى احتمال لوجود أى علاقة للنشاط المعجمى عنده بالنشاط المعجمى عند العرب ولكننا نشير إليه هنا استكمالا للفائدة العلمية واستيفاء للمقارنة ، وذلك هو الشعب الصينى .

---

(١) أنظر مقدمة كتاب فون سودن عن النحو الأكادى .

إن الصينيين أنفسهم يزعمون بأن حضارتهم كانت قائمة منذ الأزل ، ولكننا على أى حال لا نعثر على معاجم للغتهم تسبق المائة الثانية قبل الميلاد ، حيث نجد معجم اره يا (Erh Ya) الذى يعتبر مجموعة من الألفاظ مقسمة حسب الموضوعات إلى ثلاثة عشر بابا – أحدها للعلاقات العائلية ، والثانى للأدوات والآلات ، والثالث للطيور ، وهكذا . وخلال القرن الأول للميلاد نجد معجما صينيا أكمل وأوفى هو معجم شوون (Shou Wen) الذى يضم من المفردات ١٠٦٠٠ لفظا ، ومع ذلك فهو غير مستوعب ، ولايزال موجودا فى المكتبات الصينية إلى الآن . ويقرر مؤلفوه أن هدفهم هو «شرح مفردات النصوص المقدسة» ، مما يقرب بين – الظروف التاريخية لظهوره ، وظروف ظهور النشاط المعجمى عند العرب ! ومما يذكر أن الكتابة الصينية كانت – ولا تزال – صورية ، فكلّ مفرد فى اللغة الصينية له جوانب ثلاثة : رمز مرسوم ، قيمة صوتية منطوقة ، معنى مدرك . ولأن كتابتنا صوتية فإننا لا ندرك خلافا كبيرا بين الرسم والنطق ، أما فى الصينية – وكل الخطوط الصورية – فإن الرمز المكتوب الذى هو صورة أصلا ، قد يعطى العديد من القيم الصوتية المختلفة. ويدور ترتيب المعجم الصينى المذكور على الجانب الأول وهو طبيعة الصورة ، أو الرمز المكتوب ، فيقسم المفردات التى يشرحها إلى ما يقرب من ستمائة باب ، يجمع كل باب طائفة متشابهة من الصور المرسومة التى تأخذ كل منها من الشرح مايوضح كيف تنطق ، وماذا تعنى. وأول معجم صينى يرتب المفردات طبقا لنطقها لا لرسمها هو معجم هوفاين (Hu Fa Yen) الذى ألف فيما بين عامى ٥٨١ – ٦٠١ ميلادية . ويبدو أن الصين كانوا قد تأثروا فيه بالدراسة الصوتية فى اللغة السنسكرتية – وهى اللغة المقدسة عند الهنود

القدماء - وأن الاهتمام بالجانب الصوتى كان قد انتقل من الهند إلى الصين مع الرهبان البوذيين . وسوف نرى أن هناك قدرا من الاحتمال أن العرب قد استنشقوا بعض نسائم البحث اللغوى القادمة من الهند ، فإذا صح ذلك يكون كل من الصينيين والعرب - على الرغم من انقطاع العلاقة المباشرة بينهما فى هذا الأمر - قد أفاد من مصدر واحد ، ذلك هو البحث اللغوى فى السنسكريتية[1] ولا شك أن هناك شبها بين أمتى الصين والعرب فى اهتمام كل منها بلغتها ، وبالتراث الدينى الذى كتب بها ، وفى المنهج العلمى الذى اتبعته كل منهما منذ عهد بعيد فى دراسة لغتها ،وفى المعاجم العديدة التى ألفتها كل منهما ، لتجميع ألفاظ لغتها وتشرحها . ولكن اختلاف طبيعة النظام الكتابى فى اللغتين اختلافا كاملا ، جعل طبيعة المشاكل التى تعترض التأليف المعجمى فيهما ، والحلول التى تقدم لها مختلفة تماما .

(ج) وقبيل مولد المسيح كان الفرعان التوأمان للبحث اللغوى (التقعيدُ والمعجمةُ) قد نضجا ، واحتلا مكانا بارزا ، فى كل من - السنسكريتية واليونانية . وهذا يعنينا عند التأريخ للتأليف المعجمى عند العرب ، لأننا نعلم علم اليقين أن العرب قد تأثروا بكلتا الحضارتين فى مجالات أخرى من مجالات حضارتهم ، فقد تأثر العرب باليونان فى الفلسفة والعلوم ، وبالهنود فى القصص والحكايات والموسيقى والرياضيات ، ولذلك فان تأثر العرب بهما أو باحداهما فى ميدان البحث اللغوى يجب أن يكون موضع التحرى والتساؤل. ولنرجئ هذا التساؤل الآن لنلقى نظرة عابرة على البحث اللغوى والنشاط والمعجمى فى اللغتين .

(١) أنظر مقالة (Dictionary) فى كل من دائرتى المعارف البريطانية واليهودية ، وراجع أيضا كتاب جون هاى ود عن فن المعجمة العربية ص ٦ ، وكتاب عبد الغفور العطار ص ٥٦ .

أما فى السنسكريتية فقد نشط التقعيد فيها قبل المَعجمة ، فقد ألف كتاب بابينى (Panini) فى قواعد السنسكريتية حوالى عام ٣٠٠ ق م وقد عرّف الهنود قبل أرسطو مثلا أنواع الكلمة ، وإمكان اشتقاق كلمات كثيرة من « جذر » فعلى واحد . . الخ ، واندفع الهنود القدماء إلى عمل المعاجم لشرح ألفاظ نصوصهم الدينية والمحافظة على إمكان تلاوتها ، وفهمها ، كما حاولوا أن يجمعوا « غريب » اللغة ليعينوا شعراءهم على استعمال ما يريدون منه ، بل إنهم كى ييسروا حفظ هذا « الغريب » ضمنوه مؤلفات منظومة ! ومن المؤسف أن كثيرا من نتاج النشاط المعجمى القديم فى السنسكريتية قد ضاع . وأقدم معجم سنسكريتى موجود هو — الأماراكوصا (The Amarəkoça) التى ترجع إلى القرن الخامس الميلادى ،وهو معجم مترادفات ، وله ملحق بالمشترك اللفظى وآخر بالمفردات غير المتصرفة . والحق أن معظم النشاط المعجمى عند الهنود كان يرتكز على الترتيب المعنوى ، فيرتب الألفاظ طبقا لمعانيها ، وهو اتجاه يغاير الاتجاه الرئيسى فى النشاط المعجمى عند العرب . والحق كذلك أن المعاجم السنسكريتية الضخمة لم تظهر وتنتشر إلا بعد القرن الثانى عشر الميلادى ، حين كان التراث المعجمى للعربية قد اكتمل له إنتاج رائع جبار . ولم تنته المعاجم السنسكريتية حتى الآن إلى نمط مثالى فى ترتيب مادتها اللغوية ، كذلك النمط المثالى فى الترتيب الهجائى الذى انتهت إليه المعاجم العربية منذ عصر الزمخشرى[1] .

وأما فى اليونانية فقد بدأ البحث اللغوى كذلك بالتقعيد ، ثم ثنى بالمَعجمة فمنذ القرن الثانى قبل الميلاد عرف نحاة اليونانية كثيرا من فنون البحث اللغوى وقسموا الكلمة مثلا إلى ثمانية أنواع ، وهو نفس العدد الذى تقسم إليه الكلمة فى النحو الإنجليزى المعاصر ، ولكن الفلسفة طغت على البحث اللغوى عند اليونانيين ، وانتقل الصراع بين مذهبىْ الفلاسفة من قياسيين ،

---

(١) يعتبر الترتيب الأبجدى لمادة المعجم الذى طبقه الزمخشرى فى كتابه « أساس البلاغة » أكمل ترتيب أبجدى عرفه تاريخ المعاجم حتى عصر الزمخشرى فى العربية وغيرها ، أنظر بحثنا الذى نشر بالانجليزية عن : « دور الزمخشرى فى تطور المعجم العربى » فى مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة – مجلد ٢٤ جزء أول .

يحتِّمون فرض القياس على الشواذ ، واستقرائيين يقرّون كل مثال مهما كان شاذا – إلى علماء البحث اللغوى ، ولعل هذا مما انعكس على البحث اللغوى عند العرب أيضا ، حيث نجد مدرسة البصرة أميل إلى احترام القياس ، ومدرسة الكوفة تصر على احترام الشواذ .

وأقدم معجم يونانى جاءتنا أخباره هو معجم أبو قراط (Hippoctares Lexikon) الذى ألفه جلاوكوس Glaucux عام ١٨٠ ق م .

وفى عهد الإمبراطور أغسطس ، الذى ولد فيه السيد المسيح ، وضع فاليريوس (Valerius) معجما ترجمة عنوانه هى : « فى معانى الألفاظ » شبيها بمعاجمنا العصرية تماما . ولكن العصر الذهبى للتأليف المعجمى عند اليونان كان فى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح ، وبخاصة فى ثغرنا المجيد الاسكندرية . . ولا يعنينا كثيرا سرد الأسماء الغريبة للمعاجم ومؤلفيها عند اليونان ، خاصة وأنها كثيرة متعددة ، وحسبنا أن نؤكد أن اليونانية حظيت بنشاط معجمى شَمل فروع التأليف المعجمى كلها أو كاد ، فقد عرفوا الترتيب المعنوى للثروة اللفظية مثلا فى معجم يوليوس – بولوكس (Yulius Pollux) الذى ظهر فى القرن الرابع الميلادى ويشبه إلى حد بعيد مخصص ابن سيده – كما خلَّفت مدرسة الاسكندرية فى القرن الرابع والخامس عدداً من المؤلفات المعجمية المختلفة منها « ما اتفق لفظه . واختلف معناه » لأمونيوس Ammonius ومعجم « اللهجات والسمات المحلية » لهزيشيوس Hesychius ومعجم « الاشتقاق » لأوريون الطيبى (المنسوب إلى طيبة فى مصر) .

ومن الواضح أنه لم يكن لليونان تأثير مباشر على العرب فى ميدان التأليف المعجمى ، وإلا لاهتدى العرب منذ البداية إلى الترتيب الهجائى الحديث الذى استعمله اليونانيون منذ عصر ميلاد المسيح عليه السلام ، دون أن يمروا بمراحل طويلة مختلفة من التجارب المضنية .

(٥)

وإذا كنا قد لمحنا حتى الآن إلى الاتجاهات الرئيسية فى التأليف المعجمى

عند عدد من الأمم المتحضرة التى سبقت العرب إلى الظهور على مسرح التاريخ ، فإنه قد حان لنا أن نتساءل : هل كان لهذا النشاط أو بعضه فضل على النشاط المعجمى عند العرب ؟ ولعل القارئ قد أحسّ أننا ، عن طريق الاستئصال ، قد استبعدنا تأثر العرب المباشر فى ميدان التأليف المعجمى بالمصريين القدماء ، أو الأكاديين أو الصينيين ، أو اليونانيين ، ولم يبق أمامنا إلا التساؤل عن احتمال تأثر العرب بالنشاط اللغوى والتأليف المعجمى فى اللغة السنسكرينية . وهنا يجد المرء المنصف نفسه فى حيرة يدعو إليها اصطدام الشواهد والقرائن .

فمن الواضح أن ظروفا تاريخية مواتية (أفقية ورأسية[1]) قد اقتضت ظهور هذا اللون من النشاط المعجمىّ فى العربية ، ومن الواضح كذلك أن التجربة المعجمية قد مرت على التربة العربية بكل مراحل نموها وتطورها ، ولم تُنقل جاهزة ناضجة من أى بيئة أخرى ، فقد بدأت المحاولاتُ الأولى فى النشاط المعجمى بشرح غريب القرآن ، ثم شرح غريب الحديث النبوى ، ثم بدأت الشروح المختلفة للتراث الشعرى أيضا تظهر إلى حيّز الوجود. وجمهرة التعريفات التى تضمنتها المعاجم اللغوية فيما بعد مستمدة من هذه الشروح الأولية لغريب القرآن والحديث والشعر ، ثم بدئ التأليف الفعلى للمعاجم برسائل صغيرة تجمع النادر والغريب ، أو تضم الألفاظ التى تتداعى فى موضوع واحد ، كل هذا قبل أن يتم التفكير فى تأليف معجم شامل مستوعب . وحين اتجه التفكيرُ إلى تأليف مثل هذا المعجم ، فقد مرت مشاكل جمع مادته اللغوية ، وترتيبها ، وطريقة تعريفها بالكثير من التجارب قبل أن تبلغ ذلك المستوى من الكمال الذى بلغته والذى لا يقنعنا ولا يرضينا ، لأننا كنا نرجو لها أن تفوقه ، وما زلنا نتوقع أن تفوقه فى جهودها المقبلة فى التأليف المعجمى.

كل هذا يؤكد أن التجربة المعجمية فى اللغة العربية إنما هى عربية أصيلة من

(١) أنظر الفقرة الرابعة من هذا البحث .

بدايتها إلى نهايتها ، وأنها انعكاس صادق للظروف والملابسات والإمكانيات العربية البحتة .

وكل ما يعكر صفو هذا الاستنتاج هو ما ينوه إليه المستشرقون[1] من أننا نحسن بشى من الطفرة فى ظهور معجم العين للخليل ، بفكرته المعقدة ، ومنهجه العلمى الدقيق وترتيبه الصوتى ، وهدفه الطموح إلى الاستيعاب والشمول . فلا يمكن أن يكون ذلك نموا طبيعيا لرسائل الغريب والنادر ، أو المفردات الدالة على الزرع والمطر . وهذه الطفرة فى ظهور العين ، بالإضافة إلى ظروف حياة الرائد الخليل نفسه — وأنه عاش فى خراسان قريبا من الهند ، وتأثر بالثقافة الهندية فى نواحى أخرى من جهوده العقلية[2] — كل هذا يوحى بالشك فى احتمال تأثر الخليل بالسنسكريتية .

ويتحمس مؤرخو المعاجم العربية من المعاصرين كالدكتور عبد الله درويش ، والدكتور حسين نصار قبله[3] ، لدحض هذه الشبهة ، ويؤكدون أن الخليل قد « اخترع » هذا النظام بعقليته الفذة ، دون أى تأثر أجنبى .

والحق أننا لو استبدلنا كلمة « اخترع » بكلمة « اقتبس » ما نال ذلك من فضل الخليل ولا من مجد العرب شيئا ، فإن الإنسان العبقرى الفذ — فى نظرنا — هو الذى يتمثل ما حوله من ثقافات ، ويفيد بها ، ويتفاعل معها ويَخْرُجُ منها بنمط جديد يغايرها ، ويضاف إليها ، ويزيد عليها دون أن يقلدها تقليدا أعمى . ولم يقل أحد إن العبقرية هى أن يغلق المرء الفذ على نفسه جدرانا أربعة محكمة ، يعيش فيها ، لا يدرى ما أنتجت الإنسانية قبله ، ولا كيف يفكر معاصروه

(١) من أمثال جون هاى وود : أنظر كتابه عن فن المعجمة العربية ص ٨ .

(٢) أنظر : الدكتور عبد الله درويش « المعاجم العربية » .

(٣) اقرأ هذه الفقرة من كتاب الدكتور حسين نصار ج ١ ص ٢٠١ : « ولكننا نرى أن الهنود إذا كانوا قد توصلوا إلى نظام المخارج بفضل ترتيلهم للفيدا المقدسة كما يقولون ، فليس مايمنع أن العرب قد وصلوا إليه بفضل ترتيلهم القرآن الكريم » .

ثم يأتى بعد ذلك من تلافيف مخه وحدها ما لم يأت بمثله أحد .

فالنظرة الواقعية المنصفة إلى مشكلة تأثر الخليل – رائد المعجم العربى – بالسنسكريتية تحتم علينا أن نشير إلى احتمال قيام هذا التأثر ، دون أن نرتفع بهذا الاحتمال إلى درجة الثبوت والتأكد ، أو نهبط به إلى مستوى الرفض والاستبعاد . وحتى لو صدق الشك فى تأثر الخليل بالهندية ، وثبت هذا الاحتمال ، فان ذلك لا يُخرج التجربة العربية – التى عانت فنَّ المعجمة من البداية إلى النهاية معاناة كاملة ، وأثبتت فيه عبقريتها وثراءها ، وفضلها على غيرها من الشعوب – عن مكانة الأصالة ، أو يحرمها من فضل السبق ، أو ينتقص منها مزية الامتياز ! !

محمد سالم الجرح



في الجانب الإحصائي اللغوي

للدكتور أحمد علم الدين الجندي

مقـــدمة :

قدمت في مقال سابق (لكتب اللغات) بمدخل تاريخي للعصر وللمؤلفين ، ثم درست هناك هذه المصادر الأولى (للغات) في ضوء المنهج الوصفي ، مقدما نماذج من نصوصها ، وشواهد من رواياتها وأسانيدها .

وفي هذا المقال أعرض دراسة جديدة حول هذه الآثار في ضوء المنهج الإحصائي معتمدا على نشر لوحات إحصائية (لأول مرة) في مؤلفات من عزيت لهم كتب لغات مفقودة ، وهذه المؤلفات الموجودة قد تأثرت إلى حدّ كبير بكتب (اللغات المفقودة) بعد أن نضح على هذه المؤلفات صور وملامح من كتب (اللغات) فهي تمثلها وتصورها ، بل تعطينا إلى حدّ ما (عيّنة) صادقة مما كانت تشتمل عليه هذه الكتب المفقودة من لهجات القبائل العربية كيفاً وكمّا . وهذه اللوحات الإحصائية لبعض الآثار التي وصلتنا من مؤلفات يونس بن حبيب البصري ١٨٢ هـ ، والفراء ٢٠٧ هـ ، وأبي عبيدة معمر بن المثنى ٢١٠ هـ ، وأبي زيد الأنصاري ٢١٥ هـ ، والأصمعي ٢١٦ هـ ، وابن دريد ٣٢١ هـ ، وجميع هؤلاء الأعلام ألفوا في (كتب اللغات المفقودة) .

ثم ثنيت بتقديم لوحات إحصائية أُخرى فى المصادر المختلفة التى يمكن أن تكون قد تأَثرت بكتب (اللغات المفقودة) . ثم ثلثت بلوحات إحصائية أَيضا عن مدى رواية العلماءِ – الذين لهم كتب لغات مفقودة – للهجات القبائل العربية فى كتابى (المخصص لابن سيده ، وهمع الهوامع لجلال الدين السيوطى) وذلك لننتقل من المعلوم إلى المجهول الذى نسعى فى كشفه وإزاحة الستار عنه . وقدمت تعقيبا ونقدا على هذه اللوحات الإحصائية . ثم تحدثت عن تفرّدمن أَلف فى (كتب اللغات) بعزو بعض الصيغ اللهجية ، ثم موقف المصادر الثانوية من الروايات الأُولى المسندة إلى من أَلف فى (كتب اللغات) ، والأَحكام التى صدرت على اللهجات مادحة وقادحة ، ثم أَخيرا عرضت لروايات مسندة إلى من أَلف فى (كتب اللغات) المفقودة ظهر منها مدى التناقض والاضطراب .

أولا :

الجانب الاحصائى للهجات القبائل فى تأليف من عزيت لهم كتب لغات مفقودة .

(ا) كتاب « النوادر » لأَبى عبد الرحمن يونس بن حبيب البصرى ١٨٢ هـ .

والكتاب مفقود ، وقد سجل السيوطى فى مزهره[1] اقتباسات منه :

لهجة	: الحجاز	تميم
عدد ورودها	: ٢٧ مرة	٢٧ مرة

وأَغلب هذه المقابلات بين اللهجتين التميمية والحجازية تدور حول :

(ا) المستوى الصوتى .　　　　(ب) المستوى الصرفى .

ولم يتعرض يونس للمستوى الدلالى ، كما لم يستشهد على صيغ اللهجات بشواهد شعرية ، ولم يتناول الظواهر اللهجية فى القبائل العربية الأُخرى فى غير تميم والحجاز، ولعل هذا الاختصار كان من عمل السيوطى نفسه لا من يونس بن حبيب .

---

(١) ٢ – ٢٧٥ فما بعدها .

(ب) « ما تفرد به أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب البصرى » .

وهو النوع الثانى من كتاب (الشوارد فى اللغات[1]) » .

لهجة	: تميم	هذيل	العالية	نجد	بنى يربوع
عدد ورودها	: ١	١	١	١	١

(ج) كتاب المذكر والمؤنث ، لأبى زكريا الفراء ٢٧٠ هـ . (المطبعة العلمية بحلب ١٣٤٥ هـ) .

لهجة	: الحجاز	أسد	نجد	عُكْل	قيس	اليمن	دُبَيْر	تميم	عامر	باهلة
عدد ورودها	: ٧	٦	٤	١	١	١	١	١	١	١

(د) كتاب الأيام والليالى والشهور للفراء[2] ط الأميرية .

لهجة	: أسد	كلب	ربيعة
عدد ورودها	: ١	١	١

(هـ) كتاب مجاز القرآن صنعة أبى عبيدة معمر بن المثنى التيمى[3] ٢١٠ هـ .

وميدان الإحصائية فيه من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الزمر .

لهجة	: نجد	تميم	الحجاز	العالية	كنانة	بعض المكيين	لغة أكلونى البراغيث
عدد ورودها	: ٢	١	١	١	١	١	١

---

(١) بغية الوعاة : ٢٢٧ والكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤١٨ لغة ، ومعنون باسم (ما تفرد به بعض أئمة اللغة) وهو نفسه كتاب (الشوارد فى اللغات) للحسن الصغانى ٦٥٠ هـ . وأنظر أعلام العرب ٧٥ — الفصل الأول . تأليف د. حسين نصار .

(٢) كرر الفراء النقل عن العرب فى هذا الكتاب أكثر من عشرين مرة حيث يقول (ومن العرب) كما استعمل الفراء فى هذا الكتاب ألفاظا عدة فاتت المعاجم وكتب العربية : ص ١٠ ، ص ٢٩ ، ص٥٦ ، ص ٦٣ وأنظر : أبو زكريا الفراء ومذهبه فى النحو واللغة ص ٤٩٧ د. أحمد مكى الأنصارى.

(٣) حققه د. محمد فؤاد سزكين . ط أولى . الخانجى بالقاهرة .

(و) النوادر فى اللغة ، لأبى زيد الأنصارى ٢١٥ هـ. (ط. بيروت ١٨٩٤ م) .

لهجة	:	طيء	تميم	كلاب	قيس	عقيل	ضبّة	عكل	بلْحارث بن كعب
عدد ورودها	:	٥	٤	٣	٣	٢	٢	٢	١
		أسد	اليهود	حمير	بكر بن وائل	قُشير	العالية	نُمير	مضر
		١	١	١	١	١	١	١	١
		بنى كعب بن عبد الله بن أبى بكر	كُليب	بلْعنبر	قريش .				
		١	١	١	١				

(ز) كتاب المطر لأبى زيد الأنصارى :

لهجة	:	كلاب	قيس
عدد ورودها	:	٢	١

(ح) كتاب الهمز لأبى زيد الأنصارى[1] (ط. بيروت) .

لهجة	:	تميم	قيس	الحجاز	الْقُشَيْرِيين	بنى الْحِرْمَاز
عدد ورودها	:	٣	٣	١	١	١

(ط) كتاب الإبل للأصمعى ٢١٦ هـ .

لهجة	:	الحجاز	تميم	قيس
عدد ورودها	:	١	١	١

(ى) كتاب خلق الإنسان للأصمعى :

لهجة	:	« لغة » العجّاج
عدد ورودها	:	١

(١) رواية الشيخ أبى الفضل عمر بن عبيد الله بن البقال .

(ك) كتاب النخل للأصمعى : ضمن كتاب البلغة فى شذور اللغة. المطبعة الكاثوليكية ط. بيروت[1] ١٩٠٨ م.

لهجة :	الحجاز	نجد	المدينة	بلحارث بن كعب	اليمامة
عدد ورودها :	٤	٤	٢	٢	١

(ل) كتاب الكرم* للأصمعى (ضمن كتاب البلغة فى شذور اللغة).

لهجة :	الطائف	غير الطائفيّين	آخرين من الطائفيّين
عدد ورودها :	٢	١	١

(م) كتاب الوحوش للأصمعى (نشره الدكتور Rudolf Geyer[2])

لهجة :	هذيل	اليمن	الحجاز	العالية
عدد ورودها :	٢	٢	١	١

(ن) كتاب** الأضداد للأصمعى (نشره الدكتور أوغست هفنر[3])

لهجة :	الحجاز	هذيل	طيء	العراق	نجد	نمير	تميم	قيس	عقيل
عدد ورودها :	٣	٢	٢	١	١	١	١	١	١
	هلال	حمير							
	١	١							

(١) نشرها د. أوغست هفنر والأب لويس شيخو اليسوعى. (٢) فينا ١٨٨٨ م.

(٣) مع كتاب الأضداد لابن السكيت والسجستانى والصغانى. ط بيروت ١٩١٢ م.

* حدث شك حول نسبة هذا الكتاب للأصمعى، ومن المحتمل أن يكون لأبى عبيد معاصر الأصمعى، أو لأبى حاتم السجستانى تلميذ الأصمعى (مقدمة كتاب النخل والكرم ص ٦٣).

** رابنى فى أول الأمر ظل من الشك حول نسبة هذا الكتاب للأصمعى والسبب فى ذلك : أن كتاب الأضداد لابن السكيت قد عزا فيه لعشر قبائل، وكتاب الأضداد للأصمعى هذا عزا فيه إلى إحدى عشرة قبيلة فالاتفاق واضح، كما أن التشابه فى مادة الكتابين ملحوظ، ولفتنى إلى هذا الشك أيضا د. رمضان عبد التواب حيث يرى أن الأصمعى فى كتابه يروى عن أبى عبيدة معمر بن المثنى، وبينهما من العداء والمعاصرة مالا يسمح بالرواية، كما أنه روى فيه عن (الأثرم) ت ٢٣٢ هـ وهو من تلاميذ الأصمعى فكتاب الأضداد للأصمعى ليس له. وإنما هو رواية أخرى لأضداد ابن السكيت.

(س) كتاب اشتقاق الأسماء للأصمعى[١] (مخطوط بدار الكتب المصرية ٣٣٢ لغة تيمور ضمن مجموعة).

لهجة	: الحجاز .
عدد ورودها	:

(ع) كتاب الاشتقاق لابن دريد الأزدى ٣٢١ هـ Göttingen

لهجة	: اليمن	الحجاز	تميم	حمير	ربيعة	نجد	طيئ	الأزد
عدد ورودها	: ٦	٣	٢	٢	١	١	١	١
	زهران	الشّرْى .						
	١	١	١					

ثانيا :

الجانب الإحصائى للهجات القبائل فى المصادر المختلفة التى تأثرت بكتب اللغات المفقودة :

وقد اخترت من هذه المصنفات ما يمثل العلوم والفنون المختلفة ، فاخترت من كتب النحو والصرف : كتاب سيبويه ، وتسهيل ابن مالك ، وشرح المفصّل لابن يعيش ، وشرح الشافية للمحقق رضىّ الدين .

من كتب النحو والصرف :

(أ) كتاب سيبويه ١٨٨ هـ .

لهجة	: تميم	الحجاز	أسد	قيس	بكر بن وائل	طيئ	هذيل	ربيعة
عدد ورودها	: ٢٧	٢٦	٥	٥	٣	٣	٣	١
	بنى سعد	فزارة	بنى عدىّ	كعب	سليم	غنىّ	العُلْويّون	
	١	١	١	١	١	١	١	

---

(١) وأحيانا يعزو الأصمعى فى هذا الكتاب إلى (بعض العرب) كقوله : جحاش من المجاحشة ، يجاحش الرجل الرجل فيجحش وجهه إذا كدحه ، وبعض العرب يقول « جحاس – بالسين » .

وقد عزا فيه إلى خمس عشرة قبيلة ، على حين بلغت لهجات القبائل فى شرح السيرافى على سيبويه خمسا وعشرين ، وقد زاد اللهجات الآتية عن كتاب سيبويه :

لهجة : العراق النَّضير تغلب البصرة الموصل خثْعم المدينة مكة خيبر بغداد الكوفة أَزْد الشَّراة

(ب) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك (٦٧٢ هـ)[1] .

لهجة	تميم	الحجاز	سليم	عقيل	أسد	كنانة	قيس	هذيل
عدد ورودها	٢١	١٨	٤	٣	٣	٢	٢	٢
	طيئ	بلحارث	كلاب	همدان	فقْعس	خزاعة	عكل	
	٢	١	١	١	١	١	١	
	بلْعنبر	اليمامة	فزارة	يتعاقبون	نجد	قضاعة		
	١	١	١	١	١	١		
	ربيعة	لخم	بكر	كلب				
	١	١	١	١				

(ج) شرح شافية ابن الحاجب للمحقق رضى الدين الاستراباذى ت ٦٨٨ هـ .

لهجة	تميم	الحجاز	طيئ	قيس	عامر	أسد	هذيل	غَنى
عدد ورودها	٢٢	١٥	٦	٣	٢	٢	١	١
	كعب	بكر بن وائل	ربيعة	أزْد السّراة	فزارة	كلب	سَليم	
	١	١	١	١	١	١	١	
	بنى عدىّ	نجد	مكة	حمير				
	١	١	١	١				

---

(١) تحقيق الدكتور محمد كامل بركات ، ط الكاتب العربى .

(د) شرح المفصل لابن يعيش ت ٦٤٣ هـ

لهجة :	تميم	الحجاز	طيء	أسد	هذيل	قريش	قيس	سليم	بلحارث بن كعب
عدد ورودها :	٣١	٢٤	٧	٣	٣	٢	٢	٢	٢

تهامة	حنْظلة	بلعنبر	الأَنصار	عقيل	اليمن	فزارة
١	١	١	١	١	١	١

بني سعد	قضاعة	أَزد السّراة	بطون من ربيعة
١	١	١	١

ومن المعاجم :

(هـ) لسان[1] العرب لابن منظور ت (٧١١ هـ)

لهجة :	تميم	الحجاز	هذيل	أَسد	طيء	قيس	نجد	حمير	كلاب
عدد ورودها :	١١٨	١١٠	٨٣	٥٣	٤٧	٤١	٢٤	٢٢	١٩

سليم	عقيل	سعد	العالية	قضاعة	المدينة	ربيعة
١٧	١٦	١٣	١٠	١٠	١٠	١٠

قريش	بلحارث بن كعب	عامر	مكة	كلب	الأَزْد	هوازن
٩	٩	٩	٨	٨	٦	٥

عكل	ضبّة	بكر بن وائل	فزارة	عبد القيس	حنْظلة
٥	٥	٥	٥	٤	٣

باهلة	أَزد شنوءة	الأَنصار	بلعنبر	كنانة	العراق
٣	٣	٣	٣	٣	٢

فقعس	الغور	خيبر	الشحر	تهامة	أشجع
٢	٢	٢	٢	٢	٢

---

(١) فاقت لهجة اليمن فى اللسان إحصائيا غيرها من اللهجات المرصودة ، ولم أهتم باحصائها بدقة ؛ لأن ابن منظور خلط بين اللهجة اليمنية والحميرية ، وذلك لا يتفق والبحث العلمى الحديث .

عليا مضر	سفلى مضر	عوف بن سعد	بهراء	اليمامة	خثعم
١	١	١	١	١	١
نمير	خزاعة	سعد بن بكر	بنى عبيد	جَديلة	تغلب
١	١	١	١	١	١
وَهْبيل	غَنْم	الطائف	الرِّباب	بثينة	جهينة
١	١	١	١	١	١
تيم بن ثعلبة	أزد السّراة	غنى	عجلان	بنى عدىّ	تيم الرباب
١	١	١	١	١	١
بنى سلامة	ثقيف	مجاشع	معدّ	همدان	
١	١	١	١	١	

ومن كتب اللغة العامة :

(و) المزهر فى علوم اللغة للسيوطى ت ٩١١ هـ .

لهجة	تميم	الحجاز	طيء	هذيل	اليمن	قيس	نجد	حمير	أزد شنوءة
عدد ورودها :	٥٨	٤٩	٦	٤	٤	٣	٢	٢	٢
	قريش	أسد	عامر	سُليم	البحرين	قضاعة	نزار	عبدالقيس	
	٢	٢	١	١	١	١	١	١	
	كلاب	العالية	هوازن	ضبه	الأنصار	مكة	عقيل		
	١	١	١	١	١	١	١		

ومن كتب اللغة الخاصة :

(ز) الإبدال لأبى الطيب[1] اللغوى ت ٣٥١ هـ .

لهجة	تميم	طيء	أسد	الحجاز	بنى دبير	كلاب	قريش	هذيل
عدد ورودها :	٥	٤	٣	٢	١	١	١	١
	العالية	أزد شنوءة						
	١	١						

(١) ط دمشق ١٩٦٠ – الجزء الأول تحقيق الأستاذ عز الدين التنوخى ، وكذلك الجزء الثانى : دمشق ١٩٦١

(ح) كتاب (ليس فى كلام العرب) للحسين بن أحمد بن خالويه ت ٣٧٠ هـ ، ويشمل هذا الإحصاء القسم الأول من الكتاب المطبوع بتحقيق الشنقيطى ، كما يشمل القسم الخامس من الكتاب وهو قرابة ١٨٠ ورقة من القطع المتوسط والمصور بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية تحت رقم ٢٢٢ ميكروفلم عن نسخة فريدة مخطوطة بالأستانة بمكتبة شهيد على رقم (٢١٤٣) .

لهجة	:	تميم	أسد	عقيل	اليمن	عبد القيس	بلحارث بن كعب
عدد ورودها	:	٢	٢	٢	٢	٢	١

مكة	شامية	أهل البحرين
١	١	١

ومن كتب شروح الأشعار :

(ط) [1] شرح ديوان الحماسة لأبى على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى ٤٢١ هـ .

لهجة	:	طيء	تمم	الحجاز	هذيل	اليمن	قيس .
عدد ورودها	:	٥	٤	٢	٢	١	١

ومن كتب اللغة : مفردات لغوية خاصة تدور فى فلك واحد وهى كتب التضاد الجنسى [2]

(ى) ما يذكر ويؤنث من الإنسان ومن اللباس لأبى موسى [3] الحامض ت ٢٥٢ هـ

لهجة :

عددها : لم يعز فيه المؤلف إلى قبيلة ما .

---

(١) ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) يعنى : المذكر والمؤنث

(٣) حققه وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب .

(ك) كتاب التذكير والتأنيث لأبي حاتم السجستاني[1] ت ٢٥٥ هـ .

لهجة :	تميم	الحجاز	قيس	أسد	نجد
عددها :	٢	٢	١	١	١

(ل) كتاب المذكر والمؤنث[2] لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد ت ٢٨٥ هـ

لهجة : لم يعز فيه المبرد إلى قبيلة ما .

(م) كتاب المذكر[3] والمؤنث لابن جنى ت ٢٩٢ هـ

لهجة :	أسد	نجد	الحجاز
عددها	١	١	١

(ن) المذكر والمؤنث[4] لأبي الحسين سعيد بن إبراهيم التُّسْتَرى (أواسط القرن الرابع الهجرى) .

لهجة :	الحجاز	أهل نجد	بعض بنى أسد	غير الحجاز	أسد	بعض عكل
عددها :	٥	٣	٢	٢	٢	١

غير نجد	بعض قيس
١	١

---

(١) مخطوط بالتيمورية رقم ٢٦٤ لغة .

(٢) مخطوط بالتيمورية رقم ٤٠١ لغة ، وهو برواية أبي على الحسن بن أحمد بن عبد الغفار عن أبي بكر محمد بن السرى السراج عن المبرد .

(٣) مخطوط بالتيمورية رقم ٣٨٨ لغة .

(٤) مخطوط بدار الكتب ٣٤٣ لغة ويقع الكتاب فى ذيل كتاب مجهول المؤلف والاسم جميعا وهو مرتب على نسق حروف المعجم ، والنسخة بها سقط بقية حرف (ص) إلى بقية حرف (ع) .

(س) مختصر فى المؤنث [1] والمذكر لأبى الحسين أحمد بن فارس ت ٣٩٥ هـ

لهجة : تميم .

عددها : ١

(ع) البلغة فى الفرق [2] بين المذكر والمؤنث لأبى البركات بن الأنبارى (٥١٣ هـ - ٥٧٧ هـ)

لهجة : لم يعز فيه المؤلف إلى قبيلة ما .

(ف) قصيدة ابن الحاجب [3] ت ٦٤٦ هـ فى الأسماء المذكرة والمؤنثة .

لهجة : لم يعز فيه المؤلف إلى قبيلة ما .

(ص) عقد الجوهرة فى الأسماء المؤنثة والمذكرة ، نظم الإمام عبد الرحمن بن الحسن [4]

لهجة :	أسد	الحجاز	نجد
عددها :	١	١	١

(ق) فتح الرحمن [5] بشرح ما يذكر ويؤنث من أعضاء الإنسان، لأحمد بن أحمد ابن محمد السجاعى ت (١١٩٧ هـ) .

لهجة :	طيىء	تميم .
عددها :	١	١

---

(١) مخطوط بالتيمورية ٢٦٥ لغة .

(٢) حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب .

(٣) مخطوط بالتيمورية فى مجموعة لغوية ٣٢٧ لغة .

(٤) مخطوط بالتيمورية رقم ٣٢٧ لغة فى مجموعة .

(٥) مخطوط رقم ٢٦٩ لغة تيمور ، والكتاب شرح منظومته فى الأعضاء التى يجوز التذكير والتأنيث وكتبها محمد فنى إبراهيم لثلاث خلت من شعبان ١٣٠٥ هـ .

(ر) رسالة فى المؤنثات السماعية[1] لنور الدين الجزائرى .

لهجة : لم يعز فيها المؤلف إلى قبيلة ما .

(ش) نبذة فى المؤنثات السماعية (لم يعرف مؤلفها[2]) .

لهجة : لم يعز فيها المؤلف إلى قبيلة ما .

(ت) الإمتاع[3] بما يتوقف تأنيثه على السماع للأستاذ الأكبر محمد الخضر حسين[4] .

لهجة :	تميم	أسد	الحجاز
عددها	٢	٢	٣

ثالثا

لوحة إحصائية عن مدى رواية العلماء — الذين لهم كتب لغات مفقودة — للهجات القبائل العربية فى كتابى (المخصص : لابن سيده ، والهمع للسيوطى) :

(ا) إحصائية ابن سيده (ت ٤٥٨ هـ) فى المخصص

ابن دريد	(بصرى لغوى)	٣٩ مرة
أبو زيد الأنصارى	(بصرى نحوى)	١٣ مرة
يونس بن حبيب	(بصرى نحوى)	٦ مرات
الأصمعى	(بصرى لغوى)	٤ مرات
أبو عبيدة معمر بن المثنى	(بصرى لغوى)	٣ مرات
الفراء	(كوفى نحوى)	٣ مرات

(١) ط بيروت ١٩٠٨ م .

(٢) مخطوط بالتيمورية ٣٢٧ لغة ضمن مجموعة .

(٣) ط مكتبة دار الفتح بدمشق .

(٤) ولد الأستاذ الأكبر فى (١٢٩٤ هـ — ١٨٧٧ م) (وتوفى سنة ١٩٥٨ م وتولى مشيخة الأزهر سنة ١٩٥٢ وكان عضوا فى مجمع اللغة العربية) .

(ب) إحصائية السيوطى ت ٩١١ هـ فى الهمع :

الفراء	(كوفى نحوى)	٦	مرات[١] .
أبو زيد الأنصارى	(بصرى نحوى)	٢	مرتان[٢] .
أبو عبيدة معمر بن المثنى	(بصرى لغوى)	١	واحدة[٣] .

تعقيب ونقد

أولا : يلاحظ على منهج سيبويه فى إيراده لهجات القبائل من خلال كتابه :

أنه تارة يحكى اللهجات عن العرب بواسطة أبى الخطاب[٤] ، ويونس[٥] والخليل[٦] ، وكثيرا مايقول (وجميع ماوصفنا من هذه اللغات سمعناه من الخليل ويونس عن العرب[٧]) وتارة أخرى يسمعها بنفسه[٨] ويحكيها ، أو يوجه السؤال عنها إلى العرب فيقول : (سألنا العُلْويِّين والتميميين . . .[٩]) كما كان يصدر أحكاما منهجية عن اللهجة كقوله (استوت اللغتان فسارت على أقيس الوجهين[١٠]) أويصف لهجة الحجاز بقوله (وهى عربية جائزة[١١]) أو بقوله (وهى اللغة العربية القديمة الجيدة[١٢]) أو بقوله «والحجازية هى اللغة الأولى القدمى[١٣]) .

---

(١) الهمع ١ – ٤١ ، ٢ – ٣٤ ، ٥٥ ، ٧٩ ، ٣٣ ، ١ – ١٣٤

(٢) الهمع ١ – ١١٢ ، ٢ – ٣٣ .

(٣) الهمع ٢ – ٣

(٤) الكتاب ٢ – ٢٨٧ ، ٤٠٨

(٥) الكتاب ١ – ٢٤٨ ، ٣١٧ ، ٢ – ١٦٠

(٦) الكتاب ١ – ٣١٧ ، ٢ – ١٦٠ ، ٢٨٧

(٧) الكتاب ١ – ٣١٨

(٨) شرح المفصل لا بن يعيش ٩ – ٧٢ ، ٧٧ ، ١١٨ ، ١٠ – ١٤١

(٩) الكتاب ٢ – ٧ ٤

(١٠) الكتاب ١ – ٢٩ ، ٣٦٢

(١١) ٢ – ٤١٦

(١٢) ٢ – ٤٢٤

(١٣) ٢ – ٤١

وقد يستعمل أُسلوب المعلم فى عرض اللهجة مثل «إعلم أَن بنى تميم يقولون فى موضع الرفع : ذهب أَمس بما فيه[1] . . . » وقوله (واعلم أَن الهمزة التى يحقق أَمثالها أَهل التحقيق من بنى تميم وأَهل الحجاز ،وتجعل فى لغة أَهل التخفيف بين بين تبدل مكانها الأَلف إذا كان ما قبلها مفتوحا ، والياء إذا ما كان ما قبلها مكسورا ، والواو إذا كان ما قبلها مضموما وليس ذا بقياس[2] » وقوله «واعلم أَن قوما من ربيعة. . .[3] » وأَحيانا أُخرى يؤكد الخبر كقوله فى إجراء القول مجرى الظن مطلقا عند بنى سليم «وسأَلت أَبا الخطاب عنه غير مرة[4] » أَو يحدد معالم اللهجة اتساعا وانكماشا كقوله «وزعم لى بعض العرب أَن ياهذا زيدٌ كثير فى كلام طىء[5] » وكقوله «فأَما ناس كثير من تميم وناس من أَسد[6] . . . » أَو «سمعنا بعض بنى تميم من بنى عدىّ . .[7] » .

وأَحيانا تضطرب عنده الحدود بين الضرورة واللهجة فيجنح إلى القول بالضرورة ، فقد رأَى فى تسكين الياء فى المنصوب الناقص ضرورة ، على حين أَجاز ذلك أَبو حاتم السجستانى فى الاختيار ، وقال إنه لغة فصيحة ، وخرج عليه قوله تعالى (من أَوسط ما تطعمون أَهاليكم) بسكون الياء[8] ، كما حكم المبرد بجواز ذلك فى سعة الكلام[9] .

أَما منهج سيبويه فى سند اللهجة : فكان لا يلتزم طريقا واحدا كقوله «وقد بلغنا أَن قوما من أَهل الحجاز من أَهل التحقيق يحققون : نبىءٌ وبريئةٌ وذلك قليل ردىء[10] » أَو يقول «سمعنا ناسا من العرب كثيرا يقولون[11] . . . » أَو «وقد سمعنا من العرب من يشمه الرفع[12] . . . » أَو «سمعنا ذلك من تميم وأَسد[13] » أَو «وسمعنا عربيا وثوقا بعربيته يقول . . .[14] » أَو يروى اللهجة عمن سمعها من العرب كقوله «حدثنا

(١) ٢ — ٤٣
(٢) ٢ — ١٦٩
(٣) ٢ — ٢٩٤
(٤) ١ — ٦٣
(٥) ١ — ٣٠٨
(٦) ٢ — ٢٩٥ ، ٢٩٩
(٧) ٢ — ٢٨٧
(٨) الهمع ١ — ٥٣
(٩) شرح ابن عقيل ١ — ٧٣ حاشية
(١٠) الكتاب ٢ — ١٧٠
(١١) الكتاب ١ — ١٦٦
(١٢) المصدر السابق ١ — ٤٥٠
(١٣) السابق ٢ — ٢٨٥
(١٤) السابق ١ — ٤١٥

يونس أن بعض العرب . . .[1]» أو «حدثنا الخليل وأبو الخطاب أنها لغة لفزارة وناس من قيس[2]» وأحيانا يأتى بالسماع عاما فلا يحدد قبيلا من العرب كقوله «وسمعناهم يقولون : هو يضربها[3]». وإنما استعمل سيبويه سلاسل الإسناد ليحيط اللهجة بالتثبت والضبط ، وذلك أقرب إلى منهج المحدثين .

وسقنا هذا الحديث عن كتاب سيبويه ، لأنه كثيرا ما يروى اللهجات عن أستاذه يونس البصرى كما سبق ، ويونس صاحب «كتاب اللغات» المفقود ، وما فى كتاب سيبويه من إشارات لهجية عن يونس تعطى صورة مّا عن مؤلفه المفقود فى اللغات - عن طريق غير مباشر - والذى نحاول أن نتلمس شبحه من المصادر التى تكون ربما نقلت عنه .

ثانيا : بمقارنة كتب المذكر والمؤنث السابقة بكتاب الفراء فى المذكر والمؤنث - نرى أن كتاب الفراء يفوقهم جميعا فى العزو إلى لهجات القبائل ، وذلك يرجع فيما أظن إلى أن الفراء - وقد ألف كتابا - لا يزال مفقودا - فى اللغات - استفاد منه ، ونقل عنه فيما يختص بلهجات القبائل ، بل ربما استفاد منه غيره أيضا ممن ألف فى هذا الفن كأبى الحسين سعيد بن إبراهيم التسترى فى كتابه المذكر والمؤنث حيث كان أكثر ما ينقله من لهجات معزوة إلى القبائل العربية فى ظاهرة التذكير والتأنيث - كان مردها إلى الفراء[4]

ثالثا : كشفتْ لنا اللوحات الإحصائية عن تفاوت العلماء فى العزو إلى القبائل قلة وكثرة مع اتحادهم فى نوع التأليف . قارن اللوحتين الإحصائيتين لكتابى الاشتقاق للأصمعى وابن دريد .

رابعا : كما أبرزتُ لوحة إحصائية عن كتاب «ليس فى كلام العرب» لابن خالويه ؛ لأنه نقل فيه نصوصا من كتاب اللغات لأبى زيد من ذلك قوله «ليس فى كلام العرب نِسْوةٌ بمعنى النسيان إلا فى كتاب اللغات : نَسيت الشىءُ أنساه نِسْيانا ونِسْيا

---

(١) السابق ١ - ٣١٧ (٢) السابق ٢ - ٢٨٧ (٣) السابق ٢ - ٢٨٥

(٤) ص ٢ ، ٦ ، ٨ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ من المخطوطة ٣٠٤٣ لغة بدار الكتب

ونَسَاوةً ونِسْوة . قال : وكتبت امرأة إلى زوجها : فوالله ما أدري أصرمْت أم مللت أم نسيت ؟ فكتب لها :

فلستُ بصرّام ولا ذى ملالة ولا نِسْوة للعهد يا أمّ جعفر[1]

وأرجح أن ابن خالويه كان يعبّ من كتاب اللغات لأبي زيد مباشرة ، أو أنه نقل عنه بواسطة أبي بكر بن دريد ، يؤكد ذلك أنه ورد فى كتب الطبقات أن ابن خالويه أخذ عن ابن دريد[2] وابن دريد نقل فى جمهرته من كتاب اللغات لأبي زيد[3] . وكان ابن خالويه كما جاء عن ابن الأنبارى[4] يميل إلى تسجيل اللغات المختلفة .

خامسا : كما أشارت اللوحات الإحصائية إلى ارتفاع تسجيل اللهجات فى الجانب الشرقى عنه فى الجانب الغربي فى الجزيرة العربية ؛ ولعل السرّ فى ذلك يرجع إلى أن الجانب الشرقى كان على صلة دائمة بالآراميين والفرس والأسواق الأدبية الشرقية فتأثر بها ، وسجل حياته اللغوية ، ونشاطه الشعرى ، حتى إذا أشرق فجر الإسلام وضحاه رحل إليهم الرواة واللغويون فسجلوا ما سمعوه منهم ، بعكس الجانب الغربي حيث ضنّ البيزنطيون بتشجيع عرب الغرب على تسجيل تراثه وأدبه ؛ إذ كانت سياستهم مادية نفعية[5] .

سادسا : أن المفردات اللغوية الخاصة التى تدور فى فلك واحد ككتب التضاد الجنسى تصور منهجا للتفكير اللغوى ، وذلك من خلال الأحكام التى كان يصدرها الرواة كقول أبى الحسين سعيد التسترى فى كتابه المذكر والمؤنث فى تعليقه على بعض الصيغ المذكرة والمؤنثة «وهو شاذ غير مختار ولا معمول عليه البتة[6] » وقوله «وأهل نجد يقولون زوجة

---

(١) فى كتاب «ليس فى كلام العرب» ١١٠ دار مصر . أو مللت — وصححته كما فى الجمهرة ٣ — ٤٨٥ «أم مللت» ولمقارنة النص أنظر : الجمهرة ٣ — ٤٨٥ وليس فى كلام العرب ١٠٩ — ١١٠ واللسان : نسا ٢٠ — ١٩٣

(٢) نزهة الألباء ٣١١ نهضة مصر

(٣) الجمهرة ٣ — ٤٧٢ ، ٤٨٤

(٤) نزهة الألباء ٣١٢

(٥) الأمثال فى النثر العربي القديم : د. عبد المجيد عابدين

(٦) ص ٩

للأنثى وهو أكثر من زوج ، وزوج أفصح من زوجة[1] » كما أنه يحدد أبعاد اللهجة كمًّا وكيفًا مثل « وبعض أسد . . . . وبعض عكل . . . . وبعض قيس » ، كما نرى هذه المفردات تصور ضيق الأصمعى فى تقبل اللهجات ومثاله ماجاء فى البلغة فى الفرق بين المذكر والمؤنث لأبى البركات الأنبارى «وأنكر الأصمعى فيها التذكير[2] »أى القفا. وقول الأصمعى عن العنق «لا أعرف فيه التأنيث[3] » . كما تتكرر عبارة «ولم يعرفه الأصمعى[4] » فى كتب التذكير والتأنيث كثيراً .

سابعا : فى إحصاء المزهر للسيوطى – يلاحظ أنه نقل ٢٧ لهجة لكل من الحجاز وتميم وذلك عن يونس بن حبيب فى كتابه النوادر ، كما نقل ١٦ لهجة لكل من الحجاز وتميم أيضا عن اليزيدى فى كتابه النوادر ، ومعنى هذا أن كتب « النوادر » وكتب « اللغات » كانت تدور فى فلك واحد تقريبا ، يؤكد ذلك أن كتب النوادر تكثر فيها لهجات القبائل ، وذلك يقوى التقارب بينهما شكلا وموضوعا .

ثامنا : إن المصنفات السابقة عزت لهجات القبائل إلى بيئات جغرافية شاسعة : كاليمن والحجاز واليمامة ونجد والعالية ، وأحيانا كانت تنكمش الرقعة الجغرافية حتى تبرز معالمها : كالعزو إلى عالية تميم[5] ، وسفلى قيس[6] ، أوعليا مضر[7] وسفلاها ، أو لغة أهل الغور[8] ، أو لغة أهل الجوف[9] . كما تعزوها حينا إلى مجموعات قبلية وأحلاف مثل : الرّباب – فقد كونوا حلفا اشتمل على خمس قبائل وهى : ضبة وثور وعكل وتيم

---

(١) ص ٧ (٢) ص ٧٢ (٣) ص ٧٢

(٤) أنظر فتح الرحمن بشرح ما يذكر ويؤنث من أعضاء الإنسان : لأحمد السجاعى مخطوط رقم ٢٦٩ لغة تيمور ، والمذكر والمؤنث للتسترى : ص ٢ ، ١١ مخطوط بدار الكتب ٣٤٣ لغة ، وكتاب التذكير والتأنيث للسجستانى ص ٢ ، ١٨ مخطوط بالتيمورية ٢٦٤ لغة

(٥) هو بنو عمرو بن تميم ، وهم بنو الهجيم والعنبر ومازن : اللسان ١٩ – ٣٢٦

(٦) هم بطونها المتفرعة منها والتى تسكن نجدا مجاورة لتميم كعقيل وغنى .

(٧) عليا مضر – هى القبائل التى تقارب المدينة وماحولها ودنا منها ، وسفلاها : هى القبائل التى تقاربها نجدا .

(٨) الفائق للزمخشرى ٣ – ١٩٨ فما بعدها . (٩) الجمهرة ٣ – ٣٠٢

وعدىّ – وسموا جميعا باسم الرباب[1] ؛ لأنهم أدخلوا أيديهم فى ربّ وتحالفوا عليه[2] ، ومثل الرباب – هوازن.[3] التى يرجح أنها كانت فى الأصل حلفا ضم جملة قبائل ، ومثلهما فى ذلك خثعم* – وقد ذهب (ليفى ديلا فيدا) فى المعلمة الإسلامية إلى أن خثعما ليست قبيلة فى الأصل ، وإنما هى حلف تألف من قبائل متعددة تجمعها مصالح مشتركة[4] : كما كان العزو يشمل حينا آخر أكبر وحدة سياسية فى اصطلاح النسابين كالعزو إلى إلى مضر وعدنان ، أو يشمل أصغر وحدة سياسية كالعزو إلى لهجات البطون والفروع والأحياء : كلهجات بنى الهُجَيْم[5] ، وزبيد[6] . وحيدان ، وكلب[7] وهما بطنان من قضاعة ، ونبهان وهى بطن من طىء ، وكعب بن ربيعة وهى بطن من عامر بن صعصعة. كما وجدتُ بعض مصادر الإحصاء تعزو لهجات القبائل إلى الحواضر : كلهجة مكة والمدينة والطائف وخيبر والعراق . كما يلاحظ أن عدد اللهجات تكثر كثرة غامرة – إذا عزيت إلى القبائل المشهورة : كتميم والحجاز على حين تخبو وتضعف إذا عزيت إلى القبائل المغمورة . على أن الرقعة الجغرافية والمناخ الفكرى كثيرا ما يحددان اللهجات كمّا وكيفا ، ومن ذلك أن بعض أجزاء الجزيرة العربية كان مستودعا لنشر لهجات من نوع خاص ، ويظهر ذلك فى كثرة ما جاء عن أهل المدينة والطائف من مفردات لهجية وافرة اختصت بها النخل والكرم ؛ لاشتهار هذين المكانين بهذين النوعين ، ومن هنا يمكن أن نعلّل وجود صورة النخلة على عملتهم النقدية[8] ، كما سجل القرآن الكريم ذلك فى قوله

---

(١) نهاية الأرب للقلقشندى ١٣٣ ومعجم كحالة ٢ – ٤١٥ وفى نسب عدنان وقحطان ص ٦ أنها أربع قبائل .

(٢) اللسان ١/٣٨٨

(٣) تاريخ العرب : ٤ – ٣٢١ جواد على * وهى بطن من أراش، من القحطانية : نهاية الأرب ٢٤٣ .

(٤) تاريخ العرب ٤ – ٢٦٣ جواد على .

(٥) بطن من تميم من العدنانية . نهاية الأرب للقلقشندى ٧٨ .

(٦) بطن من سعد العشيرة من القحطانية . نهاية الأرب ٢٦٨

(٧) وكانت ديارها تتاخم ديار جذام من الشمال ، وتنتسب إلى كلب بن وبرة ، وكانت تنزل ديار الشام عند ظهور الإسلام .

(٨) تاريخ العرب ٨ – ١٦٥ د. جواد على

« ما قطعتم من لينة : الحشر آية ٥ » وهى النخلة بلغة الأوس[1] ؛ كما لوحظ أيضا أن هذه المفردات القبلية لما هاجرت من أماكنها الأصلية ـ أصابها فى تطوافها وهجراتها انحراف صوتى ودلالى ؛ لأنها انتقلت إلى بيئة جديدة[2] .

كما يلاحظ على اللوحة الإحصائية لديوان الحماسة شرح المرزوقى أن لهجات طيىء قد زادت عن غيرها من اللهجات ، بل فاقت لهجة تميم والحجاز ، وهما يتصدران ذروة الإحصاء بين القبائل ، وعللت تفوق طيىء عليهما فى هذه اللوحة بأن أباتمام قد اختار أكثر شعراء الحماسة من قبيلة طيىء . وما قيل عن أبى تمام يمكن أن يقال عن ابن دريد فى كتابه (الاشتقاق) حيث برزت فى المقدمة ـ لهجة اليمن . وذلك فى اللوحة الإحصائية السابقة ، وتعليل ذلك يسير ؛ إذ أن ابن دريد يمنىّ ، فهو متأثر بالعاطفة القبلية .

رابعا

تفرّد بعض مَن ألف فى « كتب اللغات » بعزو بعض الصيغ .

تفرّد المؤلفون فى كتب (لغات القبائل) المفقودة ـ بعزو سجلته لهم المصادر الثانوية ولم نسمعه من غيرهم .

(ا) فالفراءُ ٢٠٧ هـ يذكر أن « الهُون[3] فى لغة قريش : الهوان ، وبعض تميم يجعل الهُون مصدرا للشىء الهيِّن . . . . إلى أن قال : سمعت الهوان فى مثل هذا المعنى من بنى إنسان[4] . قال (الفراءُ) قال (العربى) لبعير له : ما به بأس غيرهوانه[5] . كمايتفرد الفراءُ بحكاية لهجة (القنانىّ) . جاءَ فى إصلاح المنطق[6] « ويقال : مخّ رير ورار ، وهو الرقيق يدق عند الهزال كالماء ، وزعم الفراءُ قال : لغة القنانىّ[7] رَيْر بفتح الراء وأنشد : « والسّاق منِّى باردات الرَّيْر »

---

(١) كتاب اللغات فى القرآن ٤٨ .

(٢) أنظر كتاب النخل للأصمعى ٦٥ – ٧١ وكتاب الكرم له أيضا ٧٥ – ٧٦ وانظر اللسان ١٩ – ٩٨ .

(٣) معانى القرآن للفراء ٢ – ١٠٦ فما بعدها

(٤) هى اسم قبيلة عربية : أنظر نهاية الأرب للقلقشندى ٨٨ .

(٥) يعنى : أنه هين خفيف الثمن .

(٦) ص ٨٩

(٧) ينسب إلى قنان بطن من بلحارث بن كعب : اللسان ١٧ – ٢٢٩ .

وفى لهجة القنانى هذه كما رواها الفراء تحولت الحركة البسيطة i أو a إلى أخرى مركبة ai وهى التى تسمى بـ Diphthong . وأرجح أن لهجة القنانى أعرق فى القدم من غيرها .

(ب) وأبو عبيدة معمر بن المثنى ت ٢١٠ هـ يتفرد بعزو ورد فى تركيب غريب ، فقد جاء فى الخزانة [١] عن عمر بن الخطاب « كذب عليكم الحج ، كذب عليكم العمرة ، كذب عليكم الجهاد ، ثلاثة أسفار كذبن عليكم » كما ورد شاهد شعرى لهذا التركيب فى قول الشاعر :

وذبيانية أوصت بنيها بأن كذب القراطف والقروف [٢]

وقد وردت الروايات برفع الإسم تارة ، وبنصبه أخرى أى : الحج والحج ، وفى المسائل القصريات « كذب عليكم الحج - أنه كلامان كأنه قال : كذب يعني رجلا ذم إليه الحج ، ثم هيّج المخاطب على الحج ، فقال : عليك الحج [٣] » وفى حجة الفارسى [٤] ، ومخصص ابن سيدة [٥] : أن مضر تنصب به ، وأن اليمن ترفع به . لكن وردت رواية فى كتاب النوادر لأبى مسحل الأعرابى [٦] عن أبى عبيدة معمر بن المثنى فى حديث عمر السابق « كذب عليكم الحج . . . أنه سمعها من العرب يرفعون بها [٧] فى معنى الإغراء ، قال أبو عبيدة : ماخلا

(١) خزانة الأدب ٣ - ٩ فما بعدها

(٢) الخزانة ٢ - ٢٨٩ والقراطف جمع قرطف وهو القطيفة . والقروف : وعاء من الجلد يدبغ بالقرفة ويجعل فيه الخلع ويطبخ بتوابل .

(٣) الفائق فى غريب الحديث ٢ - ٤٠٢ للزمخشرى .

(٤) ١ - ٢١٠ مخطوط بدار الكتب

(٥) ٣ - ٨٦

(٦) ١ - ١١٤ فمابعدها ط دمشق تحقيق د : عزة حسن .

(٧) أى يقرءون الاسم الواقع بعد كذب مرفوعا على أنه فاعل كذب .

أعرابيا من غنيّ[1] — وكان فصيحا — فإنه نصب[2] ؛ وذلك أنه دخل منزلى فرأى شويهة مضرورة فقال : ما بال هذه على ما أرى ؟ فقلتُ : إنا لنعلفها . قال : كذب عليك البزْرَ والنَّوى . فأتيت به يونس بن حبيب فكتبها عنه .

ويستنتج من النص السابق أن أبا عبيدة — وقد ألف كتابا فى اللغات ؛ ولا يزال مفقودا — أتى بجديد حيث أضاف (غنيًّا) إلى قائمة القبائل الناطقة بالنصب ، ثم وثق هذه اللهجة بأن ساقها فى جوّها وبيئتها ، فهى ملاحظة مباشرة ، كما أنه أتى بالراوى إلى يونس بن حبيب — وهو ممن ألف فى كتب اللغات أيضا ولا يزال كتابه مفقودا — ليلاحظ هذا الأعرابى فى لهجته ويسمع منه ؛ ولهذا تلقف يونس اللهجة وسجلها إيمانا بأن اللهجات المخالفة يجب أن تعيش وتبقى ، ويظهر أن أصحاب كتب اللغات المفقودة — كانوا يسجلون موادهم عن القبائل تسجيلا موثقا مباشرا كما رأيت .

(ج) كما تفرد أبو زيد فى نوادره[3] بصيغة عزاها لغة لبنى كعب بن عبد الله بن أبى بكر حيث يقولون على التحويل «رفَيْتُ الثوب أرفيه رفياً» ، والعرب تقول «رفأْت الثوب أرفَوُهُ رفأً» .

(د) وتفرد ابن دريد بذكر لغة زهران[4] ، ولغة الثّمْرى[5] .

ويظهر أن غيرهم من العلماء الذين لم يؤلفوا فى لغات القبائل — كانوا يتفردون أحيانا بعزو بعض الصيغ القبلية كالخليل : حيث ذكر لهجة الخفاجيين[6] ، والليث : فقد تفرد بذكر لهجة أهل بثينة[7] .

---

(١) قبيلة من قيس عيلان وديارها بنجد بجوار طيء وعند حمى ضرية .

(٢) أى نصب الاسم الواقع بعد كذب على الإغراء . (٣) ١٩٣

(٤) وهم بطن من شنوءة : الاشتقاق ٢٩٧ وستنفلد .

(٥) الاشتقاق ٢٩٩ وهم بطن من زهران بن كعب .

(٦) العين ١١٦ ط بغداد (٧) اللسان ١٨ — ٣١٨

ويمكن أن نثير هنا سؤالا مؤداه هل كانت (كتب اللغات) تعالج وضع اللهجة في مستويات اجتماعية خاصة ؟ لا نستطيع الإجابة الآن لفقد (كتب اللغات) إلا أنني أستطيع أن أذكر أن المصادر الثانوية ورد بها عزو لطبقة اجتماعية خاصة ، ففي اللسان ج٨ ص ٢٥٩ قال أبو عدنان : سمعت التميميات يقلن : الهَوْش والبَوْش كثرة الناس والدواب . ولا أستطيع الحزم إن كان اللسان نقل لهجة نساء تميم عن كتب اللغات أو عن غيرها لاسيما أن الذى رواها أبو عدنان ، وليس هو ممن ألف فى (كتب اللغات) .

خامسا

موقف المصادر الثانوية من بعض الروايات اللهجية المسندة إلى مَنْ ألف فى كتب اللغات :

كثيرا ما تنقل لنا بعض المصادر الثانوية لهجات مصدرها بعض العلماء الذين ألفوا فى (كتب اللغات) ، إلا أن هذه اللهجات نقلت مبتورة أو ناقصة ، ويظن الباحث أن هذا النقص كان من المصدر الاصلى ، وبالبحث وجدتُ أن هذا التشويه والمسخ كان غالبا من المصادر الثانوية التى نقلت عن المصادر الأُولى ، ولنأخذ أمثلة يسيرة توضح هذا الجانب :

(أ) فقد نقل اللسان[1] حكاية عن الفراء (وله كتاب لغات مفقود) مفادها : أن قوما من العرب يخفضون (بلعل) . فالفراءُ فى هذه الرواية لم يحدد أى هذه القبائل التى تخفض بلعلّ ، وكأن إهمال العزو من الفراء نفسه ، ولكن الهمع[2] ينقل أن الجر بها لغة عقيلية ـ حكاها الفراء وأبو زيد والأخفش . فالفراءُ وأبو زيد ـ وكلاهما ألف فى لغات القبائل ـ لم يهملا العزو كما تشير إليه رواية اللسان السابقة .

(ب) وحكى ابن يعيش[3] عن الفراء أن بعض العرب يفتح لام الأمر ، فالرواية لم تحدد مَن بعض العرب ؟ وتوهم أن الفراءَ كان مقصّرا فى هذا ، ولكن السيوطى يبدد هذا الوهم حيث حكى عن الفراء أن فتح لام الأمر لغة سليم[4] إن لم تقع بعد الواو أو الفاء أو ثم .

---

(١) ١٦ ـ ٢٤ (٢) ٢ ـ ٣٢ (٣) ٩ ـ ٢٤ (٤) الهمع : ٢ ـ ٥٥

جَ) كما نقل ابن دريد عن أبي زيد – وله مؤلف فى اللغات مفقود – «هداوَى وهدايا[1]» مهملة العزو كماترى ، لكن رواية اللسان عن أبي زيد هى «الهَدِيَة جمعها هدايا ، وهداوَى – وهى لغة أهل المدينة ، وعن أبي زيد : الهداوَى لغة عليا معدّ ، وسفلاها : الهدايا[2] . وأُرجح أن ابن دريد هو الذى اختصر العزو السابق وحذف منه النسبة إلى القبائل ؛ بدليل أن اللسان قد ساق العزو كاملا عن أبي زيد ، مشيرا إلى عزوه للقبائل .

سادسا

أحكام صدرت على لهجات القبائل مادحة حينا ، وقادحة أخرى .

من العجيب عندما نتصفح أحد المعاجم الكبرى للغتنا العربية ، نصطدم بأوصاف وأحكام مختلفة للهجات قبلية ونعرض الآن نموذجا من هذه الأوصاف وتلك الأحكام .

١ – صفات للهجات غير منسوبة ولا تأثير لها : كقولهم : هي لغة[3] ، أو لغة معروفة[4] مشهورة ، أو فى بعض اللغات[5] ، أو لغة قوم[6] ،أو لغة بعضهم[7] ، أو لغة قليلة[8] .

٢ – أحكام تتضمن خلع صفات لها تأثير على لهجات غير منسوبة : كقولهم – لغة رديئة[9] أو رديّة ،أو ضعيفة ورديئة[10] أو شنعاء[11] أو لغة علياء[12] أو اللغة العالية[13]

---

(١) الجمهرة ٣ – ٤٧٢ (٢) اللسان ٢٠ – ٢٣٣

(٣) حماسة المرزوقى ٣ – ١٣٥٩ ، ١٤٣٨ ، المخصص ٤ – ١٣٣

(٤) المخصص ١٧ – ١٩ (٥) الجمهرة ٣ – ١٩

(٦) نوادر اللغة لأبي زيد ٤٠ ، الكامل للمبرد ١ – ١٨٦ ط التجارية

(٧) أمالى الشجرى ٢–٣٤ والمخصص ١٤–١٤ (٨) سيبويه ٢ – ٢٩٦

(٩) أمالى الشجرى ٢ – ٣٤ ، ١ – ٣٨١

(١٠) اللسان ٢٠ – ١٣٩ (١١) اللسان ٣ – ١٤٩ ، ٤ – ٢٢٧

(١٢) أمالى الشجرى ٢ – ٧٩ (١٣) المصباح ٥٧١

أو خبيثة[١٣] أو شرّ اللغات[١٤] أو لغة سوء[١٥] أو لغة لا خير فيها[١٦] أو لا يعبأ بها ، أو لغة الخطيئة من أحياء العرب[١٧]

٣ ـ أحكام منهجية تتضمن مدحا للهجات قبلية منسوبة :

(ا) كقولهم عن لهجة الحجاز : والإدغام أحسن ، والبيان عربى حجازى[١٨] أو عربى حسن[١٩] ، أو (وهى الحجازية الجيدة)[٢٠] أو (اللغة الحجازية هى اللغة الأولى القدمى[٢١]) كما نسمع مدحا وإطراء للهجة الحجاز ولكن من نوع آخر مثل « العرب الذين ترضى عربيتهم » أو : الموثوق بعربيتهم ، أو فصحاء العرب[٢٢] » .

(ب) كما نسمع مدحا لمعسكر آخر يمثل الكتلة التميمية ، ومن ذلك : ما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنه ورد عليه الوفود ، فأقرأ الأخماس[٢٣] كل خمس على لغته فكان أعرب القوم تميم . ويقول أبو عمرو بن العلاء ـ « أفصح الناس عليا تميم . . . وفى رواية سفلى تميم[٢٤] » .

(ج) بعض القبائل الأخرى : كقبيلة (جَرْم) قال الأصمعى : وجرم فصحاء العرب[٢٥] » وقال الخليل : أفصح العرب : نصر قُعين ، أو قعين نصر[٢٦] .

---

(١٣) الشافية ٢ ـ ٢٤٧
(١٤) الخزانة ١ ـ ٢٣٥
(١٥) المزهر ١ ـ ٢٢٥
(١٦) المرجع السابق
(١٧) اللسان ٥ ـ ٤٧
(١٨) الكتاب ٢ ـ ٤٠٧
(١٩) المرجع السابق ٢ ـ ٤١٢
(٢٠) السابق ٢ ـ ٤٢٩
(٢١) اللسان ٥ ـ ٢٧٦
(٢٢) العربية يوهان فك ٥١

(٢٣) الفاضل للمبرد ١١٣ ، والمراد بالأخماس : أخماس البصرة وهى : العالية . بكر بن وائل . تميم . عبد القيس . الأزد .

(٢٤) المزهر : ٢ ـ ٤٨٣ والصاحبى ٢٨ وعليا تميم هو : بنو عمرو بن تميم ـ وهم بنو الهجيم والعنبر ومازن .

(٢٥) الفائق للزمخشرى ٢ ـ ٤٥٩ ، وجرم : بطن من طيء من القحطانية ٢٠٩ نهاية الأرب للقلقشندى

(٢٦) كتاب العين ٨٨ فصلة مطبوعة فى بغداد ، ١٩٣ تحقيق الدكتور عبد الله عبد الفتاح درويش ، وهم بنو نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان من أسد . نهاية الأرب القلقشندى ٤٣٠

ويرى المقدسى[1] أن أفصح لغات العرب هذيل ، كما يصف ابن منظور فى اللسان[2] الخزاعيين بأنهم من (من أعرب الناس) ، وأن ثقيفا أفصح العرب . كما روى : أفصح العرب أبرهم[3]

وهذه الأحكام التى صدرت على لهجات القبائل أقف منها موقف الشك ؛ لأن الدافع لها إما : دينى أو سياسى أو قبلى ، فمثلا (جَرْم) والحكم عليها بأنها أفصح أو من فصحاء العرب ، جاءت فى حوار لمعاوية يوما عندما سأل عن أفصح الناس ؟ فقام رجل من السماط[4] فقال : قوم تباعدوا عن فراتية العراق ، وتيامنوا عن كشكشة تميم وتياسروا عن كسكسة بكر . . . .. فقال له معاوية : من أولئك ؟ فقال : قومى يا أمير المؤمنين : فقال له معاوية : من أنت ؟ قال : أنا رجل من (جَرْم)[5] ومما يدعو إلى العجب أن رواية أخرى جاءت فى خزانة البغدادى[6] والدرّة[7] وفيها بعد بيان ما سبق : مَنْ أولئك ؟ (أى : أفصح الناس) فقال : قومك يا أمير المومنين .

والمسألة لاتعدو فى نظرى لتخريج هاتين الروايتين المتضاربتين أن معاوية إن منح برّه ، فأطعم الطعام ، وأنفق الأموال فأفصح القبائل : قبيلة أمير المؤمنين . وإن بخل الأمير ، فمنع برّه ، أو ضعفت سطوته (فجرم) أفصح العرب . هذا عن جرم ! ! أما أن (ثقيفا) هى الأخرى أفصح العرب ، فلا بأس من أن تكون كذلك ، ولكن يجب أن يكون ذلك فى عهد الحجاج الثقفى وحده ، صاحب السيف المبلل بالدم القانى ، الذى أذلّ به الأمة العربية ، وحطم عزتها به وكرامتها ، فإذا بها تقر له ولقبيلته (ثقيف) بكل ما يهوى ويتمنى ، ومن السهل أن ننقد كثيرا من الروايات فى ضوء السياسة حينا ، والدين والعصبية حينا آخر .

---

(١) أحسن التقاسيم ١ - ٩٧ ط ٢ نشره Degoeje (٢) ١٢ - ١٠٤

(٣) معناه أبعدهم فى البر والبدو دارا (مقدمة معجم فيشر ص ١٣) .

(٤) وزان كتاب وهو الجانب أو الصف من الناس . (٥) الكامل ١ - ٣٧١ والمفصل للزمخشرى ٣٣٣

(٦) ٤ - ٥٩٥ فما بعدها ط بولاق . (٧) ١١٤ ط أولى

على أن الكمال اللغوى فى الفصاحة فى ضوء ما طالعتنا به الرواية السابقة ــ أمر يسيطر عليه الذوق الشخصي وتنقصه البراهين العلمية الأصيلة ، إذ لم تحدد هذه الروايات نوع الفصاحة أو الأصوات أو التراكيب النحوية أوالنظام الصرفى أو الدلالى : ثم إننا لا نعلم شيئا ذا بال عن مستوى بعض هذه القبائل فى مجتمعها مثل : جرم أو نصر قعين . وقعين نصر ؛ لأن اللغة فى مراحل حياتها لا تنفصل عن النفس البشرية والمجتمع والتاريخ ، فإذا أضفت إلى ذلك أن ما جمعته من اللوحات الإحصائية لجميع لهجات القبائل ، لا ترى فى (جرم) ولا فى (نصر قعين) ما يراه الخليل من أنهم يمثلون الفصاحة فضلا عن أنهم « أفصح العرب » .

٤ ــ أحكام منهجية تتضمن قدحا للهجات قبلية منسوبة :

عرضنا فيما تقدم أحكاما منهجية تتضمن قوافل المادحين للهجات بعض القبائل وعقبت على ذلك بما أراه ، وسنعرض الآن مواكب القادحين كذلك ، معقبا فى ذلك كله بما أراه أيضا . فقد عثرت على أحكام من نوع آخر غير ما سبق تتمثل فى مصادرة اللهجة ومقاومتها أو معارضتها من ذلك مثلا :

(ا) موقف الأخفش ٢٢١ ه حين عقب على قراءة قرآنية صورت لهجة عربية وهى لهجة بنى يربوع بقوله « ما سمعت هذا من أحد من العرب[١] ولا من النحويين » ، وأنكرها كذلك أبو حاتم ت ٢٥٥ ه[٢] : وأما موقف أبى العباس المبرد ت ٢٨٥ ه منها فكان صارما عنيفا صارخا ، يصور غضبه هذا وثورته ما جاء فى تفسير القرطبى[٣] على لسان المبرد من قوله « لو صليت خلف إمام يقرأ (بمصرخيِّ)[٤] بالكسر لأخذت نعلى ومضيت » فانظر كيف يحتج الرجل على سماعه لهجة عربية تواكبها قراءة قرآنية ــ بخروجه عن جماعة المسلمين وإمامتهم ! . وقد نعتها الزجاج ت ٣١١ ه بأنها « عند جميع النحويين رديئة »

(١) البحر المحيط ٥ ــ ٤١٩ ، وأنظر الخزانة ٢ ــ ٢٥٨
(٢) الدر اللقيط ٥ ــ ٤١٩ (٣) ٥ ــ ٣ (٤) سورة إبراهيم من الآية ٢٢

مرذولة [1] » ! ! أما الزمخشرى ت ٥٣٨ هـ فاكتفى بأن رماها بالضعف [2]
أما المعرى ت ٤٤٩ هـ فيرى (إجماع أصحاب العربية على كراهة هذه القراءة [3]) كما يرى أن أبا عمرو ما أجاز هذه القراءة إلا متهزئا [4] .
وإذا كان جميع ما تقدم من العلماء - القادحين من البصريين ، فإنا لا نعجب لموقفهم وإنكارهم لهجة عربية صحّت سماعا ، كما أنها صحت قياسا ؛ إذ الياء كسرت اتباعا للكسرة التى بعدها فى (بمصرخىِّ إنى) واللسان فيها يعمل من موضع واحد ، ووجه واحد ، ففيها الانسجام وتقريب الأصوات بعضها من بعض ، وتلك شريعة العربية وسنة فيها متبعة ، وإنما العجيب أن ينكرها شيخ من علماء الكوفة ، ويرمى قارئيها بالوهم [5] ذلكم هو أبو زكريا الفراء .

(ب) وفى شرح التصريح [6] فى مبحث ما لا ينصرف « وأما ما نقل عن بنى أسد أنهم يقولون : « سكرانة » ويصرفون « سكران » فقال الزَّبيدى : « ذكر يعقوب أن ذلك ضعيف ردىء » . ثم قال : وقال أبو حاتم : لبنى أسد مناكير لا يؤخذ بها » وكتب الشيخ « يس » على قوله : وقال أبو حاتم : « لبنى أسد مناكير . . . » قال : وجه كونها مناكير أنها مخالفة للغات الفصيحة » [7] .

(جـ) فإذا أسرعت بنا عجلة التاريخ وجدنا الهمدانى ت ٣٣٤ هـ يصف بعض اللهجات - عند حديثه عن العلاقات اللغوية فى جنوبى الجزيرة العربية -

---

(١) إبراز المعانى ٣٦٩ لأبى شامة . (٢) خزانة الأدب للبغدادى ٢ / ٢٥٩
(٣) التصريح ٢ / ٦٠ (٤) الغفران للمعرى ٢٣٩ فما بعدها .
(٥) قرأ بها الأعمش ويحيى بن وثاب ، كما قرأ بها حمزة أحد القراء السبعة .
(٦) ٢ / ٢١٣ وانظر النص فى كتاب لحن العوام للزبيدى ص ١٦٢ تحقيق د . رمضان عبد التواب وفيه (ولبنى أسد لغات يرغب عنها) .
(٧) حاشية « يس » على التصريح ٢ / ٢١٣

كلهجة عدن - بأنها « مولدة رديئة » وفى بعضهم « نَوْك وحماقة »[1] وبعضهم « غتم »[2] كما يصف بعض لهجاتهم بأن فيها « قحة متعقدة »[3] كما أنكر الأزهرى (٢٨٢ - ٣٧٠ هـ) لهجة هذلية معتمدا فى ذلك على الطعن فى نصر بن سيار[4] ، ووسمه بأنه ليس بحجة لأنه رواها[5] ، وهنا يعتمد الأزهرى فى غمز اللهجة على الطعن فى مؤديها .

ويصف المقدسى ٣٧٥ هـ لسان الأحقاف بأنه « وحش[6] أو أن لسان هراة - لا يصلح إلا للكنيف[7] . ويصف اللهجة بأن فيها « انغلاقا »[8] أو لسانهم فيه حلاوة أو عجلة[9] ، أو فى كلامهم طنين[10] ، وأخيرا يسم عربية العراق بأنها «حسنة فاسدة »[11] ويرى الدكتور إبراهيم أنيس : أن المقدسى لم يكن فيما يبدو أكثر من رحالة أو عابر سبيل يصف ما يقع له وصفا سريعا دون دراسة قائمة على أسس علمية فلم يكن متخصصا فى دراسة اللهجات[12] .

ويصف ابن جنى (٣٩٢ هـ) لهجة عربية بأنها لغة مرذولة[13] كما نرى

---

(١) صفة جزيرة العرب : ١٣٤ للهمدانى تحقيق بليهد النجدى .

(٢) السابق ١٣٥

(٣) السابق ١٣٥

(٤) اللسان ١ - ٤٠٠

(٥) السماع والقياس ٤٣ تيمور

(٦) أحسن التقاسيم ٩٧ .

(٧) السابق ٢ - ٣٣٥ والكنيف فى الأصل : الساتر ، وقيل للمرحاض كنيف ؛ لأنه يستر قاضى الحاجة .

(٨) السابق

(٩) السابق ٣٦٨

(١٠) السابق ٢ - ٤١٨

(١١) السابق ١٢٨

(١٢) مستقبل اللغة العربية المشتركة ٣٥ فما بعدها للدكتور إبراهيم أنيس .

(١٣) المحتسب ١ - ١١٠ مخطوط بالتيمورية .

أحمد بن فارس ت (٣٩٥ هـ) وهو كوفى [١] أو ممن خلط المذهبين [٢] — قد ظهرت معارضته للهجات القبائل فى صور منها :

(أ) الشك فى كثير منها [٣]

(ب) رميه ابن دريد بالتدليس عندما يعزو لليمن [٤]

(ج) غمزه لبعض اللهجات [٥] ، وسخريته منها [٦] .

وكذلك الحريرى (٥١٦ هـ) يسم أسلوبا يمثل لهجة عربية بقوله « وهو مالا يعبأ ولا يقاس عليه [٧] » كما حكم على صيغة (أرياح) بالخطأ ، وصوابها عنده « هبت الأرواح » . مع أنها لغة لبنى أسد [٨] . وعلى سنته نسمع أبا شامة (٦٦٥ هـ) يعقب على إحدى اللهجات بقوله « ولاتعجبنى تلك اللغة ؛ لأنها ليست لغة أهل الحجاز [٩] » كما يصف بعض العلماء لهجة يمنية بقوله « وهذه لغة لا ينبغى أن يلتفت إليها ، فإن اللغة اليمانية فيها أشياء منكرة خارجة عن المقاييس [١٠] » .

ويمكن أن نلمح أوصافا عدة ، وأحكاما كثيرة على لغات : أهل مكة والمدينة والبصرة والكوفة وغيرها [١١] .

ولعل سبب هذه الأحكام القاسية التى رأينا طرفا يسيرا منها أنها صدرت عن دوائر النحاة : كالأخفش والفراء والمبرد والزجاج والمعرى والزمخشرى وأحزابهم ، أو من لغويين متزمتين كأبى حاتم والحريرى والأزهرى وابن فارس ، وهؤلاء جميعا أصحاب

---

(١) إنباه الرواة ١ — ٩٤ والبغية ١ — ٣٥٢

(٢) الفهرست ١٢٥

(٣) المقاييس ٢ — ٢٨٥

(٤) المقاييس ٤ — ٣٠٧

(٥) المقاييس ٤ — ٢٩

(٦) المقاييس ٤ — ٣٧٨

(٧) الدرة : ٣٥

(٨) شرح الدرة ٦٦ وحكاها اللحيانى

(٩) إبراز المعانى لأبى شامة ٤٨٨

(١٠) ماتلحن فيه العامة للكسائى : ٣٥ هامش

(١١) البيان والتبيين للجاحظ : ١ — ١٨ فما بعدها ، ص ٤٦ .

معايير موضوعة ، ومقاييس مصنوعة ، ونظم ضاغطة آسرة [1] ، فحاولوا إخضاع اللهجات لها مع اختلاف مشاربها ومنازعها ، ولما فلتت هذه اللهجات من أحكامهم وموازينهم وتقنينهم رموها بما سبق من : رداءة وسوء ، وقبح وشناعة ، وخبث وشرّ ! وخطيئة وحماقة ، وفساد وانغلاق .

والمفروض أن أصحاب كل لهجة عربية كانوا يراعون مستوى صوابيا اجتماعيا عندما يتكلمون وعلى أساس هذا المستوى يكون الحكم بالصحة والخطأ ، والمجتمع وحده ـ لا النحاة ولا اللغويون ـ هو الذى يصدر مثل هذه الأحكام ، أو يخلع هذه الصفات ، وهذا المستوى الصوابى كما يراه الدكتور تمام [2] : فكرة لا تتصل باللغة فحسب ، وإنما تتناول كل ناحية من نواحى النشاط الاجتماعى ، وتوجد فى كل شئون الثقافة بالمعنى الأعم ، أى بالمعنى الأنثروبولوجى الذى يشمل العادات والتقاليد واللغة والدين وغيرها .

سابعا

مدى التناقض فى الروايات المسندة إلى من ألف فى « كتب اللغات » :

ورد فى المصادر العربية روايات كثيرة حملت بذورا للهجات القبائل ، رواها أو سمعها من العرب العلماء الذين ألفوا (كتب اللغات) التى تحدثنا عنها ، وقد اشتملت هذه الروايات على اضطراب وتناقض فى عزو لهجات القبائل العربية ، وهذه نماذج منها على سبيل المثال لا الحصر لاحظت أن يكون الراوى لها أو أحد رواتها من الذين ألفوا فى (كتب اللغات) المفقودة :

(أ) عن ابن دريد (وقد ألف كتابا فى اللغات) : الرُّمخة : والجمع الرُّمخ

---

(١) انظر مثلا من دوائر النحاة قول ابن مالك فى (اشتغال العامل عن المعمول) ....
(فما أبيح افعل ودع مالم يبح). وتستطيع أن تسمع فى هذا الشطر دكتاتورية النحاة الصارمة ، وكأنهم قادة حرب فى ميدان حرب يأمرون وينهون .

(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية ٥٧ ، ٦٧ دكتور تمام حسان ١٩٥٨ م .

وقالوا : الرِمَخ وهو البلح لغة يمانية [1] ، وفى نسخة أخرى من الجمهرة قال : بأنها لغة طائية [2] .

كما ورد فى الجمهرة عن ابن دريد مادة (جَبَى) : الجَبَى : ما حول البئر لغة يمانية ، وفى نسخة أخرى من الجمهرة لغة تميمية [3]

وفى الجمهرة عن ابن دريد مادة (حفَو) والحوْف : فى لغة مهرة بن حيدان : الثوب ، وفى نسخة أخرى من الجمهرة فى : لغة هذيل [4] .

كماروى عن ابن دريد أيضا فى مادة (السرح) وأهل الحجاز يسمون الأسد : سرحانا ، وفى نسخة أخرى من الجمهرة : وأهل اليمن [5] .

(ب) استشهد اللغويون بقول أبى ذؤيب الهذلى :

على أَطـــرِقا باليات الخيـا م إلا الثمامُ وإلا العصِى [6]

ويروى (علا أطرُقا) من العلو – فعلا ماضيا . وأطرقا – بضم الراء – جمع طريق فى لغة هذيل ، فمن أنث الطريق جمعه على أطرُق مثل : عناق وأعنق ، ومن ذكّر جمعه على أطرقاء : كصديق وأصدقاء فيكون قد قصره ضرورة [7] . وأرجح أن (أطرقا) ليس جمع طريق على لغة هذيل ؛ لأننى وجدت هذليا آخر استعمل (أطرقة [8]) و (أطرقى [9]) فهى اسم مكان أو موضع بالحجاز بدليل تغييرصيغته ، وكثيرا ما تخضع أسماء المكان والبلدان لمثل هذا التحريف . والذى دفعنى إلى الحديث عن ذلك أن الأصمعى وهو ممن ألف فى اللغات – لم يسر فى ركاب من جعله جمع طريق على لغة هذيل بل ذهب فى هذا : أن ثلاثة نفر

---

(١) الجمهرة ٢ / ٢١٤ (٢) المرجع السابق .
(٣) الجمهرة ٣ / ٢٠٠ (٤) السابق ٢ / ١٧٩
(٥) السابق ٢ / ١٣٢ (٦) ديوان الهزليين ١ / ٦٥
(٧) معجم البلدان ١ / ٢٨٦ ط السعادة (٨) معجم ما استعجم ١ / ١٦٧ فما بعدها تحقيق السقا
(٩) رواية أخرى لشاهد أبى ذؤيب : معجم البلدان ١ / ٢٨٦

كانوا بهذا المكان فسمعوا أصواتا فقال أحدهم لصاحبيه (أطرقا) فسمّى بذلك.
ومما يؤكد ذلك ما جاء فى معجم البلدان[1] من قول عبد الله بن أمية المخزومى :

إنى زعيم أن تسيروا وتهربوا وأن تتركوا الزهران تعوى ثعالبه
وأن تتركوا ماء بجزعة أطرقا وأن تسلكوا أىّ الأراك أطايبه

فالظهران والأراك : اسما مكان ، واقتران (أطرقا) بهما يؤكد أنها اسم مكان أيضا .

كما ورد فى اللسان شاهد منسوب إلى قيس بن العيزار الهذلى :

بما هى مقناة أنيق نباتُها مِربٌ فتهواها المخاض النوازع[2]

فمقناة - بالقاف معناها موافقة لكل من نزلها من قومه ، مقاناة البياض بصفرة : أى يوافق بياضها صفرتها . لكن ورد عن الأصمعى : أن (مفناة) بالفاء لغة هذيل[3] فما ورد عن الأصمعى مفناة - بالفاء وهى لهجة هذيل يعارضه ما عزى إلى قيس بن عيزارة - وهو من هذيل ، وجاء بها بالقاف فى ديوان قبيلته[4] ، ولهذا أرجح أن التصحيف لعب دوره فى هذه الكلمة ، فجاءت على هذين الشكلين ، وما أكثرما يفعل التصحيف ! والدليل على أن الكلمة مصحفة - أننا لم نجد إلا شاهدا (لمقناة) بالقاف دون الفاء .

وإذا كان الأصمعى قد خانه التوفيق فى هذ المرة ، فقد واتاه ووا كبه عندما ساق السيوطى أمثلة لتعاقب الفاء مع القاف فى قولهم : العقار - بالقاف : إصلاح النخل وتلقيحها ، كما أوردها (العفار) بالفاء - بهذا المعنى[5] وأرى أنه تصحيف من السيوطى بدليل ما جاء فى كتاب (النخل) للأصمعى من قول أهل المدينة « كنا فى العفار - بالفاء : أى إصلاح النخل وتأبيره[6] كما أن السيوطى قد خانه التوفيق حين ساق

---

(١) ١ / ٢٨٦ (٢) اللسان ٢٠ / ٢٦ وفى ديوان الهذليين : ٣/ق٢ ٧٩ قيس بن عيزارة .
(٣) اللسان ٢٠ / ٢٦ (٤) ديوان الهذليين ٣ / ٧٩ (٥) المزهر ١ / ٥٥٥
(٦) كتاب النخل للأصمعى ٦٩ ضمن مجموعة باسم (البلغة فى شذور اللغة) ط الكاثوليكية .

هذا على سبيل الإبدال والتعاقب بين الحرفين . ولا أرى ذلك ؛ إلا إذا كانت هناك علاقة مخرجية أو وصفية بين البدل والمبدل منه تسمح بانتقال أحد الصوتين إلى الآخر ، ولا علاقة بين القاف والفاء .

(ج) ورد فى ديوان الهذليين[1] قول أبى دويب :

تدلّى عليها بين سِبٍّ وخيْطة ... بجرداء مثل الوكف يكبو غرابُها

يشير إلى أن الخيطة : الوتد بلغة هذيل ، والسبٌّ بلغة هذيل : الحبل .

لكن ذكر أبو عبيدة (وهو ممن ألف كتابا فى اللغات) ما يخالف هذا فى بيت الهذلى ، وفسّر الخيطة بالحبل ، والسبّ بالوتد[2] .

(د) روى أبو عبيد فى الغريب المصنف[3] أنه سمع من أبى زيد الأنصارى (وهو ممن ألف كتابا فى اللغات) قوله : السّدْفة فى لغة تميم : الظلمة ، والسّدفة فى لغة قيس : الضوء . وقد وردت روايتان مماثلتان لما تقدم عن أبى زيد ، أولاهما فى كتاب الأضداد للأصمعى[4] وثانيتهما فى اللسان[5] . لكن العجيب أن ترد رواية رابعة فى مخصص بن سيده[6] تفيد عكس ما تقدم حيث أن : السّدفة فى لغة تميم : الضوء ، وعند قيس : الظلمة[7]

(هـ) ورد فى لسان العرب[8] : الوذيلة — هى المرآة : طائية . قال أبو عمرو الشيبانى ، وهو ممن ألف (فى كتب اللغات) قال الهذلى : الوذيلة : المرآة

(١) ١ / ٧٩
(٢) الجمهرة ١ / ٣٢
(٣) أنظر المزهر ١ / ٣٩٠ ، ٤٠١
(٤) ص ٣٥
(٥) ١١ / ٤٧ فا بعدها
(٦) ٩ / ٤١

(٧) لعل اختصاص كل قبيلة بمعنى جاء متأخرا ، والمعنى العام : أن السدفة كانت تعبر عن حالة بين الظلمة والنور ، ثم تحدد معناها عند القبائل فأدى إلى التضاد (فى اللهجات العربية ٢١٢ ط ٣ دكتور أنيس) . وذلك معنى ماجاء فى المخصص ٩ / ٤١ : وبعضهم يجعل السدفة اختلاط الضوء والظلمة جميعا كوقت مابين صلاة الفجر إلى الإسفار .

(٨) ١٤ / ٢٤٩

فى لغتنا ، ثم ساق ابن منظور شاهدا على ذلك من قول أبى كبير الهذلى :

وبياض وجه لم تَحُلْ أسرارُه مثل الوذيلة أو كَشَنْف الأنْضُرِ[1]

كما فسّر الزمخشرى (الوذائل) فى شعر الطِّرِمّاح بأنها جمع وذيلة وهى المرآة بلغة هذيل[2] .

فالوذيلة – كما ترى مرة : هى المرآة فى لغة طِىء ، ومرة أخرى هى المرآة فى لغة هذيل ! ! والعجيب أنها فسّرت فى شعر الطرمّاح على أنها لغة هذيل ، والطرمّاح من طيء ! !

(و) ولنستمع إلى جحفلة من الروايات المختلفة المتناقضة فى مادة واحدة حيث شارك فى روايتها ابن دريد وغيره .

١ – يقول الخليل فى العين بتحقيق الكرملى : تقول هذيل : عَنَج على شَنَج . «بفتح النون فيهما» أى رجل على جمل[3] ، وفى تحقيق الدكتور عبد الله درويش * «عنْج على شنْج» . بسكون النون فيهما .

٢ – الشنج والغنج : الشيخ الكبير . فأما العنج – بالعين غير المعجمة : البعير لغة هذلية . يقال : رأيت شيخا على عنج أى شيخا مسنًّا على بعير[4] .

٣ – تقول هذيل : شنج على عنج . أى : شيخ على بعير ثقيل[5] .

٤ – الشّنج : الشيخ فى بعض اللغات . ومن أمثالهم : شنج على عنج : أى شيخ على بعير ثقيل ، والعنج : الشيخ فى بعض اللغات[6] .

(١) وفى ديوان الهذليين ٢/١٠٢ «كسيف» . (٢) اللسان (وذل) .

(٣) كتاب العين ١٣٦ ط بغداد تحقيق الكرملى .

* كتاب العين للخليل : ١ / ٢٦٦ تحقيق الدكتور عبد الله عبد الفتاح درويش . «ويقال بالغين» .

(٤) إبدال أبى الطيب ٢ / ٢٢٦ فا بعدها ط دمشق .

(٥) الجمهرة ٢ / ٩٧ (٦) المخصص ١ / ٤٤

٥ – هذيل تقول : غنج على شنج . الغنج : الشيخ . والشنج : الجمل[1] .

٦ – الشنج : الشيخ هذلية . يقولون : شنج على غنج .أى شيخ على جمل[2]

٧ – الغنج : الشيخ . وهذيل تقول : غنج على شنج . يريدون بالغنج : الشيخ ، وبالشيخ : الجمل[3] .

٨ – الغنج – محركة : الشيخ هذلية لغة فى المهملة ، والشنج محركة – الجمل[4]

٩ – هذيل تقول : غنج على شنج . الغنج : الرجل ، وقيل : الغنج – الشيخ فى لغة هذيل ، والشنج : الجمل الثقيل[5] .

١٠ – هذيل تقول : غنج على شنج . أى : رجل على جمل . فالغنج هو الرجل ، والشنج هو الجمل[6] .

١١ – شيخ على غنج : أى شيخ هرم على جمل ثقيل ،والعنج بلغة هذيل :الرجل ، وقيل ، هو بالغين معجمة . قال الأزهرى : ولم أسمعه بالعين[7] من أحد يُرجع إلى علمه ، ولا أدرى ما صحته[8] ؟

فانظر إلى التشويش والخلط ، والتصحيف والتحريف ، حيث جعلوا (العنج) بالغين مرة ،وبالعين أخرى ثم هما بفتح النون (عنج ،شنج) فى رواية وبسكونهما فى *أخرى ،كما اختلفوا فى دلالته (عنج) فجعلوه مرة

---

(١) المحكم : الغين المعجمة والجيم والنون . نقلا من إبدال أبى الطيب ٢ – ٢٢٧ محقق .

(٢) المحكم حرف الشين والجيم والنون نقلا من إبدال أبى الطيب ٢ – ٢٢٧

(٣) جامع القزاز : أنظر إبدال أبى الطيب ٢ – ٢٢٧

(٤) القاموس : (الغنج ، والشنج)

(٥) لسان العرب ٣ – ١٦٢

(٦) لسان العرب ٣ – ١٣٤

(٧) صحتها (بالغين) المعجمة كما فى التاج (عنج) .

(٨) اللسان ٣ – ١٥٤ .

* قارن كتاب العين للخليل ١٣٦ تحقيق الكرملى ، بالكتاب نفسه ١ – ٢٦٦ تحقيق الدكتور عبد الله عبدالفتاح درويش .

(الشيخ) ومرة (الرجل)، ثم نرى: الغنج أو العنج مكان الشيخ، أو بمعنى الجمل والبعير، ثم أخيرا نرى (الشنج) بمعنى الشيخ، أو الشنج بمعنى الجمل - كل هذا عند قبيلة واحدة فى مكان واحد، وزمان واحد!!

وقد طلبتُ استشارة واحد من هذيل وهو ساعدة بن جؤيّة فأجابنى من شعره المسجل فى ديوان قبيلته[1].

فناشُوا بأرسان الجياد وقرّبوا   عَناجيجَهم مجنوبةً بالرواحل

(فالعناجيج) كما ترى: بالعين المهملة لا المعجمة، ومعناها: الإبل الطويلة الأعناق، وبهذا وحده ينكشف النقاب عن وجه الصواب. وربما يرجع هذا الخلط إلى أن المادة اللهجية للقبيلة - حين عبرت التاريخ الطويل على أيدى الرواة - لم يكن السبيل إلى نقلها التلقى والمشافهة، بل كان السبيل وحده هو التخمين والاجتهاد وتفاوت الذوق بين الرواة فى فهم المادة اللهجية؛ ولهذا أصيبت بالمسخ والخلط، كما أصيبت الدلالة بما هو أقسى، حتى أن ديوان القبيلة - وهو الأثر الباقى من دواوين القبائل - لم يسلم من هذا العبث.

يوضح هذا المعنى الدكتور إبراهيم أنيس فى كتابه[2] حيث يرى: «أن شراح ديوان هذيل حين كان يعييهم تفسير كلمة من الكلمات أو تبرير صيغتها كانوا يعمدون إلى القول بأنها لهجة هذيل، فليس ما ورد بالديوان مما يسمى بلغة هذيل إلا نوعا من مماحكات المفسرين والشراح» بل إن أكثر هؤلاء الرواة كانوا لا صلة لهم بهذيل؛ ولهذا لم يستشيروا الهذليين فى معنى أشعارهم وألفاظهم، ومن هنا يجب أن نتقبل نقل هؤلاء الرواة بحذر شديد، وحيطة بالغة، وروية وأناة.

(ز) روايات متضاربة فى مادة واحدة شارك فى روايتها عن العرب: الفراء، وأبو عبيدة، وأبو زيد، والأصمعى. وجميعهم ألفوا كتبا فى (اللغات).

(١) ديوان الهذليين ٢ - ٢١٩ وانظر شرح أشعار الهذليين ٣ - ١٠٢٥، ١١٨٣.
(٢) فى اللهجات العربية ٤٤ ط ٣ وانظر نماذج نقدية أخرى فى لغة الديوان ص ٤٤ - ٤٥

١ ـ رواية أبى زيد الأنصارى ورد فى نوادر اللغة لأبى زيد[1] « ويقال : فاضت نفسه : لغة ضبّة ، قال دكَيْن « فُقِئتْ عين وفاضت نفسٌ[2] » .

وفى الجمهرة[3] عن أبى حاتم قال : « سمعت أبا زيد يقول : بنو ضبة وحدهم يقولون : فاظت نفسه » وفى اللسان[4] عن أبى حاتم : سمعت أبا زيد يقول : « بنو ضبة وحدهم يقولون : فاضت نفسه » وكذلك حكى المازنى عن أبى زيد . وفى كامل المبرد[5] عن أبى زيد قال : « كل العرب يقولون : فاضت نفسه إلا بنى ضبة ، فإنهم يقولون : فاظت نفسه » .

٢ ـ رواية أبى عبيدة . قال المبرد : أخبرنى التوزى عن أبى عبيدة قال : كل العرب تقول : فاضت نفسه بالضاد ـ إلا بنى ضبة[6] فإنهم يقولون : فاظت نفسه بالظاء[7] » . وفى اللسان[8] عن أبى عبيدة قال : فاظت نفسه بالظاء لغة قيس ، وبالضاد لغة تميم .

٣ ـ رواية الفراء . ورد فى اللسان[9] عن الفراء : أهل الحجاز وطيىء يقولون : فاظت نفسه ، وقضاعة وتميم وقيس يقولون :فاضت نفسه » . وفى مكان آخر من اللسان[10] عند الفراء أيضا أنه عزا صيغة الضاد إلى تميم وكلب .

٤ ـ رواية الأصمعى . روى عنه أبو القاسم الزجاجى أنه : كان لا يجمع بين الظاء والنفس[11] ـ أى أن الأصمعى لا يجيز : فاظت نفسه ـ بل يقول : فاضت نفسه . على حين أجاز ذلك أبو زيد « فاضت نفسه وفاظت نفسه[12] » كما وردت الشواهد على ذلك من لغة العرب مما يقف فى وجه الاصمعى[13] . ويظهر أن الاصمعى وقع فى حيرة من أمر

---

(١) ٢٤٠ (٢) الصواب : ففقئت : أنظر إصلاح المنطق ٢٨٦ .
(٣) ٣ ـ ١٢٣ (٤) ٩ ـ ٧٧ (٥) ١ ـ ١٥٧
(٦) وهى من طابخة من العدنانية ـ أخت تميم : نهاية الأرب للقلقشندى ٣١٨ ، قبائل العرب ٢ ـ ٦٦١ كحالة .
(٧) المزهر ١ ـ ٥٦٢ (٨) ٩ ـ ٧٧
(٩) ٩ ـ ٣٣٤ (١٠) ٩ ـ ٣٣٣
(١١) اللسان ٩ ـ ٣٣٤ (١٢) الجمهرة ٣ ـ ١٢٣
(١٣) شرح ابن عقيل ١ ـ ٢٨٣ واللسان ٩ ـ ٣٣٤

هذين الحرفين حين قال : تتبعت لغات العرب كلها فلم أجد فيها أشكل من الفرق بين الضاد والظاء [1] . والصاحب بن عباد ت ٣٨٥ هـ يرى أن هذين الحرفين «قد اعتاص معرفتهما على عامة الكتاب ، لتقارب أجناسهما فى المسامع ، واشكال أصل تأسيس كل واحد منهما ، والتباس حقيقة كتابتهما » [2] والقاضى محمد بن نشوان الحميرى ت ٦١٠ هـ يرى أن الذى لا يستطيع أن يفرق بين هذين الحرفين : يهوى فى هُوى المهالك ويكتب الضاد بصورة الظاء والظاء بصورة الضاد ، ويكون إصلاحه كالإفساد ، وعلى هذا أكثر كتاب هذا الزمن [3] » .

والذى يهمنى أن أقرر أن هذه الروايات السابقة ، وجميعها لعلماء ألفوا فى (كتب اللغات) ـ تتناكر ولا تتلاقى حتى عند الراوى الواحد ، وهى فى النهاية تؤكد صلتها بـ(كتب اللغات) بل هى لحمتها وسداها . وماعبر عنه الأصمعى : بأنه لم يجد أشكل من الفرق بين الضاد والظاء ، يؤكده ماروى من أن رجلا قال لعمر «ياأمير المؤمنين : أيظحّى بضبى ؟ قال وما عليك وقلت : أيضحى بظبى ؟ قال إنها لغة . قال : انقطع العتاب ولا يضحى بشىء من الوحش [4] ، وفى رواية أخرى أنه كسر لام لغة ، فكان عجبهم من كسره لام لغة أشد من عجبهم من قلب الضاد ظاء ، والظاء ضادا [5] . ولهذا حذر ابن الجزرى فى النشر [6] من الخلط بينهما لاسيما فى القرآن ، لأنه قد يؤدى إلى حرج دينى ولبس فى المعنى يقول : «فليحذر مِن قلبه «أى صوت الضاد إلى الظاء لاسيما فيما يشتبه بلفظه نحو : ضل من تدعون إلا إياه » يشتبه بقوله «ظل » أى : بقّى من تدعون ، وشتان بين المعنيين .

ويظهر أن الضاد التى وصفت فى كتب القدماء قد مرت بأطوار تاريخية حتى وصلت إلى ما هى عليه فى لهجاتنا الحديثة ، وكانت فى تطورها تنطق أحيانا : كالظاء وأحيانا : كالزاى وأخرى : كالصاد ــ ولهذا كانت الضاد العربية تقابل صادا فى اللغات الأكدية

---

(١) البيان والتبيين ٢ ــ ٢١٥

(٢) الفرق بين الضاد والظاء : ص ٣ للصاحب أبى القاسم إسماعيل بن عباد . بغداد ١٣٨٠ هـ ١٩٦١ م .

(٣) مختصر فى الفرق بين الضاد والظاء : ص ٤ للقاضى محمد بن نشوان . بغداد ١٣٨٠ هـ ــ ١٩٦١ م .

(٤) المزهر ١ ــ ٥٦٣ (٥) السابق ١ ــ ٥٦٣

(٦) ١ ــ ٢١٩ فما بعدها

والعبرية ، كما تقابل ظاءا أو صادا فى اللغة الأوجريتية ، كما كانت تكتب صادا فى الكتابات النبطية وتنطق ضادا ، وهذا مهد للخلط. الذى ذاع وانتشر فى العصور المتأخرة فى العراق والأردن وليبيا والمغرب وغيرها ، كما وجد هذا الخلط بينهما فى بقاع بعيدة كصقلية[1] والأندلس[2] .

<u>وفى النهاية</u> : لقد اغتالت يد الضياع ثروة لغوية عزيزة ، حين فقدت الكتب التى ألفت فى (اللغات) إذ كانت تصور جانبا لغويا شعبيا بعد أن انقطع دورانه على الألسنة فشمّرت لجمعها بأسانيدها على طريقة المحدِّثين من خلال المصادر العربية على اختلاف نحلها ، وتعقبتها جردا وبحثا فرصدت الروايات والسماعات والنقول الخارجية المبثوثة فى كتب علوم القرآن واللغة والشعر والنحو والأمثال والغريب والنوادر والمفردات التى سبقت المعاجم ، والتى كان مصدرها هؤلاء الأعلام الذين ألفوا (كتب اللغات) .

ولقد لمحت فى هذا العمل بذورا هامة للعربية فى تاريخها الطويل على المستويات الصوتية والتركيبية والمعجمية والدلالية – بعد أن ضنّ التاريخ فى فجره وضحاه بتسجيله فلم يفتح قلبه ليسطر لهجات هذه القبائل ؛ لأنه رأى فى بعثها قطع روابط شعوب الأمة العربية ، وتأكيدا لظهور العصبيات ، ولو كان قد سجلها التاريخ – حفاظا على مجد أمة ، وتاريخ شعب ، ومستودع حضارة – لأمكننا قبل الآن أن نكتب مولفا فى تاريخ لهجات القبائل العربية وأدوارها الاجتماعية ، وأن نسدّ رقعة فى هذا العمل قد اتسعت اليوم على الراقع .

---

(١) يؤيد هذا مايقوله ابن مكى الصقلى ت ٥٠١ هـ « فأما العامة وأكثر الخاصة فلا يفرقون بينهما فى كتاب ولا قرآن » تثقيف اللسان وتلقيح الجنان ص ٩١ تحقيق الدكتور عبد العزيز مطر .

(٢) يؤكد هذا أن أبا بكر الزبيدى الأندلسى ت ٣٧١ هـ – ورد له خطاب من الوزير أبى الحسن المصحفى جاءت فيه كلمة (فاضت نفسه) بالضاد فجاوبه الزبيدى بمنظوم بين له فيه الخطأ دون تصريح :

قل للوزير السنّى محتده ... لى ذمة منك أنت حافظُها

....

لا قدعنّ حاجتى مطرّحة ... فإن نفسى قد فاظ فائظها

معجم الأدباء ١٨ – ١٨٢ —

كما قدمت فى هذا العمل لغة إحصائية[1] شاملة (لأول مرة) ـ ولغة الإحصاء ـ هى المنهج العملى الذى يعتمد عليه فى إظهار الحقائق وتقويمها ، وحسبى أن مثل هذا العمل بعث إلى الحياة تراثاً عزيزا قد اختفى ، ونورا وهّاجاً قد خبا ، وأثارة من علم الأولين كانت مطويةً فنُشرتْ ، ومخبوءة فى ضمير النسيان فكُشفتْ .

احمد علم الدين الجندى

= ففطن المصحف إلى خطئه ، وطلب الإيضاح بالشاهد فى قوله :

فقد أتتنى فديتَ شاغلةً النفس أن قلت فاظ فائظها — فأجابه الزبيدى شعرا — محتجا لمايقول :

أتانى كتاب من كريم مكرّم فنفّس عن نفسٍ تكاد تفيظ

وباحث عن (فاظت) وقبلى قالها رجال لديهم فى العلوم حظوظ

روى ذاك عن كيسانَ سهلٌ وأنشدوا مقال أبى الغيّاظ وهو مغيظ

إلى أن قال :

فلا حفظ الرحمن روحك حيّة ولا هى فى الأرواح حين تفيظ

معجم الأدباء ١٨ — ١٨٣ وانظر : مقدمة كتاب لحن العوام ص٢٠ للزبيدى ، تحقيق د. رمضان عبد التواب (دار العروبة) وانظر : بحثا مبتكراً للدكتور إبراهيم أنيس ...... (معنى القول المأثور « لغة الضاد ») دورة ٣٣ لمجمع اللغوى بالقاهرة وانظر كذلك بحثا قيما للدكتور خليل نامى بمجلة كلية الآداب ج ٢١ العدد الأول مايو ١٩٥٩

(١) انظر اللوحات الإحصائية السابقة فى هذا المقال ، وكذلك فى مقالين سابقين لنا بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة عدد ٢٥ ، ٢٦



المثل .. بين الفصحى والعامية

للأستاذ محمد قنديل البقلى



المثل فيما نعرف هو خلاصة تجربة من التجارب يعبر به الإنسان عن تلك التجربة وما أفاد منها وما قر فى نفسه من حكم عليها .

والتجارب تعرض للناس كافة يستوى فى ذلك عالمهم وجاهلهم ، ونتيجة لتلك المشاركة الواسعة فى التجارب تختلف الأحكام أو تختلف الكلمات المعبرة عن تلك التجارب ، فالحكم على التجربة لاشك متأثر تأثرا خاصا بالحاكم عليها ، فما تثيره التجربة فى نفس إنسان يختلف شيئا عما تثيره فى نفس إنسان آخر ، ثم إن صاحب التجربة الذى هو بصدد الحكم عليها يختلف قدرة وأداءً وشعورا وإحساسا .

وما من شك فى أن أحكاما كثيرة صدرت عن أُناس كثيرين كانت لهم تجارب كثيرة ، ولكن هذه الأحكام منها ما يبلغ أن يؤثر ، ومنها مالا يبلغ أن يؤثر ، فكان ثمة أحكام مأثورة لها قوتها فى الدلالة ولها قوتها فى الشمول ، ولها عمقها ، ولها أثرها فى النفوس . وهذه الأحكام التى توفرت لها هذه الصفات وغيرها أقبل الناس عليها حفظا ، وأقبلوا عليها تمثلا بها ، وهى التى أصبحنا نسميها الأمثال ، وجمعناها وشرحنا ملابساتها ليعيش عليها الناس يتمثلونها فيما يعن لهم من تجارب مشابهة .

أماتلك الأحكام التى لم ترزق قوة تعبير ولاسعة شمول ولا عمق تفكير فأهملت ، ولم تجد من يعنى بها حفظا ، ولا من يعنى بها تدوينا .

فالإنسان ما يفرغ حياته يجرب ، وما يفرغ حياته كلها يحكم على تجاربه ، ولكن هذه الأحكام ما يبلغ أن يروى ، كما قدمنا ، ومنها ما لا يبلغ أن يروى ، وهذا القسم الذى حظى بأن يروى هو ما نأثره عن السلف نحتذيه ونمعن النظر فيه . أما ذلك القسم الآخر فهو على الرغم من وجوده زمنا ما إلا أنه سرعان ما فنى وذهب ، ولم يعد من مرويات الناس .

وما أنت ترى أن المثل فى مقدور صاحب التجربة ما دام يملك قدرة التعبير ، ومادام يملك نفسا متأثرة بالتجربة تأثرا يخرجها من الصمت إلى الكلام . وحين كانت اللغة العربية تسود الناس سيادة كاملة أو شبه كاملة ، أعنى فى عصرها الأول ، كانت الأمثال كلها تكاد تنبع من معين واحد هو الفصحى ، أما حين أخذت اللغة الفصحى تتقلص سيادتها شيئا ونشأت إلى جانب اللغة الفصحى لهجات عامية ، أخذ معين الأمثال يختلف شيئا ، فكان ثمة أمثال تؤدى فصيحة ، وأمثال تؤدى عامية . والعامية ، كما نعرف ، تختلف فى بيئة عنها فى بيئة أخرى . من أجل ذلك ، كان ذلك الاختلاف فى لفظ ذلك المثل الواحد الذى يرد فى العامية .

ونحن بين تراث من الأمثال الفصيحة يكاد يرتد إلى عصور بذاتها لا يعدوها إلى تلك العصور التى انتهى عندها المثل الفصيح ، ولم نعد نظفر بأمثلة أخرى لغير تلك العصور ، وما نظن أن العلة فى ذلك أن تجارب الناس انتهت عند تلك العصور أو أن الناس فقدوا الحكم على مايعن لهم من تجارب ، أوأنهم فقدوا القدرة على التعبير عما يحسون ، وأرجح الظن فى تعليل ذلك أن وسائل الرواية التى تهيأت للأقدمين لم تعد مهيأة لمن جاء بعدهم . وقد كان من الممكن أن تقوم الكتابة مكان الرواية ، ولكن الذى نظنه أن الناس لم تعد لهم العناية بالمثل قولا وحفظا كما كانت تلك العناية للأقدمين .

والغريب أن هذا الركن الذى فقدناه فى الفصحى لم نفقده فى العامية . ونحن لم نفقد العناية بالمثل وحده فى الفصحى ، بل فقدنا العناية بالخطبة أيضا ، وغيرها من أساليب القول النثرية كالأوامر والتوقيعات ، وما إلى ذلك مما جرى هذا المجرى ، فلم تعد لنا عناية بتدوين هذا أو روايته إلا فى القليل ، مع أن الأزمان المختلفة لم تحرم مثل هذا ، وما نشك أن ثمة أفرادا جاءوا على توالى الأزمان ، وكانت لهم فى تلك الميادين من القول جولات .

وهكذا نرى أنفسنا فى ميدان الأمثلة التى جاءت فى الفصحى بين يدى جملة خاصة بقرون سلفت ووقفت عندها . أما عن الأمثال التى جاءت فى العامية فما نظنها وقفت عند عصر بعينه ، بل سايرت الأزمان المختلفة ، ونكاد نخالها على لسان كل عصر ، بل منها ما يكاد يولد إلى اليوم .

والعلة فى تجدد المثل العامى وبقائه حيا دون المثل الفصيح هى فيما نظن أن المثل العامى لاسيما فى تلك العصور التى انزوت فيها الفصحى وأصبحت فيها اللغة الرسمية له وجوده على ألسنة الكثرة ، فهو أدبهم الذى لا أدب لهم غيره ، فما هم برواة شعر ولا برواة نثر ، ولكنهم على الأمثال يحيون أولا ، إذ فيها نوادرهم وطرائفهم ، وهذه النوادر والطرائف بعيد أن تجمد ، وبعيد على أذهان العامة أن تخمد هى الأخرى . من أجل ذلك كان المثل حيا متجددا على ألسنة العامة ، على حين انقطع على ألسنة الخاصة أو قل لم يجد من ينقله من لسان الخواص ، على حين وجد من ينقله من لسان العوام .

والمتتبع للأمثلة العربية فى العصور المختلفة للغة العربية يجد أن ثمة ظواهر ثلاث :

١ ــ ظاهرة تشير إلى سيادة المثل الفصيح سيادة كاملة وذلك إبان كانت الفصحى هى اللغة التى لا تزاحمها لهجات عامية .

٢ ــ ظاهرة شاركت العامية فيها الفصحى ، وذلك خلال تلك العصور التى لم تكن للفصحى السيادة الكاملة .

٣ ــ ظاهرة اختفى فيها المثل الفصيح وانتعش فيها المثل العامى ، وذلك فى العصور التى تخلفت فيها اللغة الفصحى .

أما عن الظاهرة الاولى وهى تلك التى ساد فيها المثل العربى أيام سيادة الفصحى فحسبنا تلك الجهود التى بدأت فيما نظن مع منتصف القرن الثانى الهجرى تقريبا ، وكان أول من وضع فيها كتابا هو الضبى المفضل بن محمد بن يعلى المتوفى سنة ١٦٨هـ ، ثم تلاه فيما نعلم يونس النحوى المتوفى سنة ١٨٢هـ ، ثم تتالت الجهود من بعد يونس تباعا فرأينا مثل ذلك الجهد لأبى عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠هـ ، ثم لأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ ،ثم لابن الأعرابى محمد بن زياد المتوفى سنة ٢٣١ هـ ،ثم لابن حبيب أبى محمد جعفر بن محمد المتوفى سنة ٢٤٥ هـ ، ثم لثعلب أبى العباس أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ هـ ، ثم لابن الأنبارى أبى بكر محمد بن القاسم المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ، ثم للخالع الحسين بن محمد المتوفى سنة ٣٨٠هـ ،ثم للعسكرى أبى هلال الحسن بن عبد الله المتوفى سنة ٣٩٥هـ .

وكان ثمة نفر غير هؤلاء كانت لهم أيضا جهود فى الأمثال منهم الأصمعى وأبى زيد وأبى عمرو وأبى فيد وحمزه بن حسن إلى كثير غيرهم بلغت مؤلفاتهم الخمسين ، وظلت هذه الجهود الكثيرة مفرقة تترقب من يتصدى لها جمعا وتبويبا إلى أن أتيح لها الميدانى أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابورى المتوفى سنة ٥١٨هـ ، فجمع فيها كتابا تربى أمثاله على ستة آلاف ، وكان ذلك فيما يقول الميدانى فى مقدمته بتكليف من ضياء الدولة صفى الملوك أبى على محمد بن أرسلان .

وهذا الجمع الواسع الذى كان منهج الميدانى حمله على ألا يفرق بين الغث والثمين ولكنه على كل حال جاء كتابا مجزئا فى بابه ، لم يفت الميدانى فيه الرجوع إلى جميع المؤلفات التى سبقته وقد عقب على الأمثال بشروح كثيرة وقصص طويل نقله عمن سبقوه فى ذلك الميدان من الذين ألفوا فى الأمثال أو من الذين كانت لهم تواليف فى القصص والأمثال من أمثال عبيد بن شريه وعطاء بن مصعب والشرقى بن القطامى .

. وقد أفادنا الميدانى فى كتابه فائدة فهو قد يكون المؤرخ الأول لظهور المثل المولد ، فقد أعقب كل باب من أبواب الأمثال الصحيحة بباب يجمع أمثال المولدين . والميدانى كما نعلم من تاريخ وفاته كان يعاصر تلك الحقبة الزمنية التى كانت اللغة قد تخلفت فيها شيئا وظهرت اللغة المولدة ، وبالتالى المثل المولد .

ومن بعد الميدانى جاء الزمخشرى أبوالقاسم محمود بن عمر المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ، فألف كتابه المستقصى فى الأمثال ، ولم يكن قد وقع له كتاب مجمع الأمثال للميدانى قبل شروعه فى مؤلفه هذا ، ويقال إنه بعد أن أطال النظر فى كتاب الأمثال ندم على تأليفه كتابه المستقصى لأنه جاء دون جهد سابقه.

* * *

هذا عن الظاهرة الأولى ظاهرة شيوع المثل الفصيح لشيوع العربية الفصحى ، وقد رأينا أن الأمثال كانت عربية فصيحة حين كانت اللغة العربية لم يعتورها وهن ، ثم لم يكن بد من أن تكون تلك الأمثال فصيحة إذ هى كانت تحكى جاهلية الناطق فيها عربى قح ، ثم تحكى حقبة إسلامية لم تتخلف فيها العربية ، فكان من المستبعد أو من المستحيل أن تكون ثمة أمثال بغير العربية .

ولقد ترجم العرب لاشك عن الفارسية وعن غيرها من اليونانية ، وهم لاشك أيضا أنهم قد ترجموا بعض الحكم التى هى تجرى مجرى الأمثال من الآداب الفارسية ومن الآداب اليونانية ، وعصر الترجمة ، هذا كما نعلم ، يكاد يكون ساير عصور ازدهار اللغة وقوتها من أجل ذلك كان التعبير المترجم لتلك الحكم المنقولة عن الفارسية واليونانية هو الآخر عربيا فصيحا ، وكان من مجموع ما دون من أمثال العرب جاهلية وإسلاما ، ومن ذلك الذى ترجم عن الفارسية واليونانية ما يمثل تلك الظاهرة الأولى ، وهى ظاهرة شيوع المثل الفصيح لشيوع العربية الفصحى وتمكنها على الألسنة .

* * *

أما عن الظاهرة الثانية وهى تلك الظاهرة التى يساير فيها المثل العربى مثل عامى ، فتلك ظاهرة تعليلها يسير ، وقد يكون الأمر فى ذلك مرده إلى أمور منها ·

(ا) تناول المثل العربى بشىء من التعبير العامى يختلف باختلاف المتحدث ، وهذا المتحدث يختلف أيضا باختلاف البيئات ، وهذا النوع من التحريف الذى

دخل على المثل العربى ونتج عنه تلك الأمثلة التى تبدو عربية فى مبناها وفى الكثير من مظاهرها كتب لأمثاله البقاء إلى جانب تلك الأمثال العربية المناظرة ، فاذا ما روى المثل العربى فى بيئة من البيئات العربية ، روى إلى جانبه ذلك المثل الذى دخله شىء من التحوير . والشىء الملاحظ أن هذا التحوير لم يتكرر ، واكتفت تلك البيئات الشعبية بالتحوير الأول وعدته من موروثها الذى لا تبديل فيه تماما ، كما عد المثل العربى المناظر له ، وأصبح لذلك المثل العامى المحوّر قدسية ذلك المثل العربى الأصلى . وكما يرُد المخطئ فى هذا كذلك يُرد فى ذاك ، وعلى الرغم من أنه ليس ثمة كثرة كثيرة من تلك الأمثال العربية المحوّرة ، وأعنى الأمثال ذات المظهر العامى والدلالة العربية ، فما نشك فى أن تلك الأمثال العربية كلها يسرت وسهلت وتناولها العامة بألسنتهم فحرفوا فيها وبدلوا ، اللهم إلا ما كان منها سهلا ، فلم يجد العامة فيه مدخلا يدخلون منه إليه تبديل أو تحوير .

ومن أمثلة تلك الطائفة :

١ ـ يقول المثل العربى : إن للحيطان آذانا .

ويقول المثل العامى المصرى : الحيطان لها ودان[١] .

ويقول المثل العامى الموصلى : الحائط لو آذان .

٢ ـ يقول المثل العربى : أحب أهل الكلب إليه خانقه .

ويقول المثل العامى المصرى : القط ما يحب إلا خناقه[٢] ويقول المثل العامى الجزائرى : الكلب ما يحب إلا خانقه .

---

(١) كتابنا : وحدة الأمثال العامية فى البلاد العربية ص ١٤٨ – الأنجلو ١٩٦٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٧١

٣ – يقول المثل العربى : الشعير يؤكل ويذم .

ويقول المثل العامى : ديش الشعير يتاكل وينزم[1] والمثل فى نجد : الشعير المأكول المذموم .

٤ – يقول المثل العربى : الشبعان يفت للجوعان فتا بطيئا .

ويقول المثل العامى المصرى : الشبعان يفِتْ للجيعان فت بَطِئ[2] ويقول أهل الموصل : الشبعان ما يعرف يدرد الجوعان .

(ب) ثم إن بعض الأمثال تجىء فى العامية بمثابة الشرح للمثل العربى ، فاذا هذا المثل العامى هو هو فى العربية غير أنه فى العامية يكاد يكون شرحا لنظيره فى العربية ومن أمثلة تلك الطائفة :

١ – يقول المثل العربى : إذا ضربت فأوجع فان الملامة واحدة .

ويقول المثل العامى فى مصر : إن طعمت اشبع وإن ضربت اوجع[3] .

وهذا المثل فى الجزائر : إذا ضربت أوجع وإذا أطعمت شبع .

وفى الموصل : إذا أطعمت أشبع وإذا ضربت أوجع .

٢ – يقول المثل العربى : شبر فى ألية خير من ذراع فى رية .

ويقول المثل العامى المصرى : قيراط فى اللِّية ولا فَدَّان فى الكروش[4] .

والمثل العامى فى نجد : شبر من ذنب الخروف ولا بوْع من ذنب البقره .

٣ – يقول المثل العربى : شهر ليس لك فيه رزق لا تعد أيامه .

ويقول المثل العامى المصرى : الشهر اللى ما هو لك ما تعد ايّامه[5] .

ويقول المثل العامى الشامى :الشهر اللى مابيجيك منه ماهيه ماتعد أيامه .

---

(١) كتابنا : وحدة الأمثال العامية فى البلاد العربية ص ٥٥

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٦ (٣) المصدر السابق ص ٥٩

(٤) المصدر السابق ص ٢٤١ (٥) المصدر السابق ص ٢٢٩ .

ويقول المثل العامى السودانى : شهراً مالك فيه نفقه ما تعد أيامه .

ويقول المثل العامى فى الجزائر والمغرب : الشهر إلى ما يدخلك كراه ما تحسبه شي .

٤ – يقول المثل العربى : صاحت عصافير بطنه .

ويقول المثل العامى : عصافير بطنه زقزقت .

٥ – يقول المثل العربى : إن الحديد بالحديد يفلح .

ويقول المثل العامى : زى الحديد يقطع بعضه[1] .

٦ – يقول المثل العربى : إبنك إبن بوحك .

ويقول المثل العامى : إبنك إللى من صلبك .

(ج) ونحن لا ننسى أن الفكر الذى يملكه الرجل الفصيح قد لا يبعد كثيرا عن الفكر الذى يملكه الرجل العامى ، وأن ذلك الحدث الذى أملى ذلك المثل العربى على عربى فصيح من الممكن أن يوجد مثله فيملى مثلا على لسان رجل عامى ، وإذا حقيقة المثلين واحدة وإذا أداؤهما يكاد يكون واحدا لا يختلفان إلا فى أن أولهما يؤدى بعبارة عربية فصيحة ، وثانيهما مؤدى بعبارة عامية شعبية ، وهذا أمر تقع أشباهه لنا فى حياتنا عامة فقد يجتمع اثنان على منظر واحد ويكون تأثرهما واحدا ، كما يكون تعبيرهما عن ذلك التأثر واحدا أيضا فى مبناه لا يختلف إلا فى الأداء ، فما من شك أن من الأمثال العامية التى سايرت الأمثال العربية طائفة لم تنشأ عن تحريف وتبديل ، وإنما نشأت عن اتحاد فى الحديث والتفكير والتأثر .

---

(١) كتابنا : وحدة الأمثال العامية فى البلاد العربية ص ٢٦٧

ومن أمثلة هذا :

١ - يقول المثل العربي : إذا ذكرت الذئب فأعد له العصا .

ويقول المثل العامي المصري : أذكر الديب وهيِّ له القضيب[١] .

ويقول المثل العامي الموصلي : تذكر الكلب فحضر العصا .

ويقول المثل العامي في نجد : إلى أطريت الكلاب فولم العصا .

٢ - يقول المثل العربي : أبرد من عضرس (عضرس : الماء الجامد) .

ويقول المثل العامي المصري : أبرد من ميّة طوبة[٢] .

ويقول المثل العامي في العراق : أبرد من هوا عنتر .

ويقول المثل العامي الجزائري : أبرد من الثلج .

ويقول المثل العامي المغربي : أبرد من سيكوك في الليالي (وسيكوك هو طعام الكسكسى حينما يضاف إليه المخيض الحامض من اللبن وهو من أطعمة فصل الصيف لبرودته ولا يؤكل في الشتاء) .

٣ - يقول المثل العربي : تغذ بالجدي قبل أن يتعشى بك .

ويقول المثل العامي المصري : اتغدّى بالديب قبل ما يتعشى بك[٣] .

ويقول المثل العامي الموصلي : تغدّى بينو قبل ما يتعشى بيك .

٤ - يقول المثل العربي : الدينار القصير يسوى دراهم كثيرة .

ويقول المثل العامي المصري : القرش الابيض ينفع في اليوم الاسود[٤] .

ويقول المثل العامي في الموصل : اغفع القرش الابيض لليوم الاسود .

ويقول المثل العامي الشامي : القرش الابيض لليوم الاسود .

---

(١) كتابنا : وحدة الأمثال العامية في البلاد العربية ص ١٠٢

(٢) المصدر السابق ص ١٠٣

(٣) المصدر السابق ص ١٠٠

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٠

ويقول المثل العامى فى بغداد : قرش الابيض ينفع بيوم الأسود وأيضا المثل : احفظ الفلس يحفظك الدينار .

٥ - يقول المثل العربى : السلف تلف .

ويقول المثل العامى المصرى : السلف تلف والرد خسارة[1] .

ويقول المثل العامى فى نجد وفى جزيرة العرب : السلف تلف .

ويقول المثل العامى فى الجزائر وفى المغرب : السلف يربى العداوة .

٦ - يقول المثل العربى : بيتى أستر لعوراتى .

ويقول المثل العامى المصرى : ياداري يا ستر عارى[2] .

ويقول المثل العامى فى الموصل : بيتى يستر عيبى .

هذه طائفة من أمثال تلك الظاهرة الثانية وهى كما ترى تنحصر تحت أسباب ثلاثة ، هى كما قلنا :

(ا) إما تحريف المثل العربى على ألوان من التحريف يختلف باختلاف المتحدث وباختلاف البيئة .

(ب) وإما مجيء المثل العامى شرحا للمثل العربى وهذا أيضا يختلف باختلاف الشارح وباختلاف البيئة .

(ج) وإما أمثلة مبتدعة فى العامية كما ابتدعت فى العربية أملتها الظروف والأحداث متفقة فى الحالين . والملاحظ أن الكثير من الأمثلة التى اتفقت عربية وعامية كثرتها من الضربين الأولين ، أعنى من الضرب الذى جاء محرفا ومن الضرب الذى جاء شارحا وقلتها من الضرب الذى جاء ابتداعا .وليس معنى هذا أن العوام لم يقولوا ابتداعا كما قال الفصحاء بل إن مرجع تلك القلة فيما يبدو

(١) كتابنا : وحدة الأمثال العامية فى البلاد العربية ص ٢٢٦ (٢) المصدر السابق ص ١٩٤

إلى أن القلة فى الأمثلة العامية المبتدعة لم تقف للأمثلة العربية التى من بابتها وكانت الغلبة للمثل العربى . من أجل ذلك لم يعش منها إلا القليل على حين عاشت من الأمثلة المحرفة والشارحة كثرة كثيرة لأنها هى فى الواقع ترديد للمثل العربى على صورة غير عربية .

* * *

أما عن الظاهرة الثالثة وهى تلك الأمثال العامية التى وردت على غير غرار لها فى العربية ، أعنى تلك الأمثال التى جاءت مباعدة للأمثال العربية ، وهذا التباعد :

١ ـ إما تباعد فى اللفظ مع اتفاق فى المعنى .

٢ ـ وإما تباعد لفظا ومعنى .

وهذه الظاهرة بشقيها تكاد تتصل بالضرب الثالث من الظاهرة الثانية ، أعنى ذلك الضرب الذى جاء نتيجة اتفاق الفكرة ، غير أن الأمر هناك مقصور على تلك الأمثال العامية التى جاءت مواءمة للأمثال العربية فى مساقها ، والفرق بين الأمرين هنا وهناك أنها هناك سايرت المثل العربى أو قاربت أن تسايره حتى أنك لتكاد تحس أن المثل العامى صورة من المثل العربى تكاد تحمل على التحريف أو الشرح ، أعنى الضربين الأول والثانى من تلك الظاهرة الثانية لولا أن ثمة ملامح من الفكر المستقل تشير إلى أن المثل العامى وإن بدا قريبا من المثل العربى إلا أنه يحمل طابع الإبداع فى الفكرة . والأمر هنا فى تلك الظاهرة الثالثة وإن كان متصلا بما سبق لسبب ما غير أنه قوى الانفصال : فالمثل العامى هنا بضربيه فى هذه الظاهرة مستقل تماما يشعرنا بأنه جاء إبداعا لا اتباعا ، وهذا ما يؤكد ما قلنا من قبل أن الفكر الموحى بالمثل ليس مقصورا على الرجل الفصيح وحده بل يشاركه الرجل العامى ، وأنه ما دامت هناك عامية فثمة أمثال عامية ، منها تلك التى جاءت تحريفا أو شرحا للأمثلة العربية ، ومنها التى جاءت إبداعا ، وقد قلنا إن هذه التى جاءت إبداعا فى العامية لاسيما حين تنتعش العربية وتنقشع العامية ، فالمثل العامى لا يقف للمثل العربى

إلا فى ظروف محددة وبيئات بعينها ، تكون العربية قد أُصيبت هنا وهناك بالوهن ، وهذا ما كان من تلك الأَمثال العامية التى ضربنا بها المثل عند الحديث عن الضرب الثالث من الظاهرة الثانية .

ولكن تلك الأَمثال العامية التى تجىءُ ابتداعا أيضا ولا تساير المثل العربى ولا تكون صورة منه لفظا ، أَو تلك التى تغاير المثل العربى معنى ولفظا وهما هذان الشقان من تلك الظاهرة ، فهذه الأَمثال العامية لا شك قويت على أن تصمد ، تختلف درجة صمودها بانتعاش العربية وهمودها ، ولكنها لا شك باقية بقاءً ثابتا غير بقاءِ أَمثلة الضرب الثالث من الظاهرة الثانية ، إذ هى فيها إبداع وفيها فكرة مستقلة إلى جانب ذلك الإبداع ،ولكنها على ذلك تختلف ، فما كان منها متفقا مع المثل العربى فى معناه دون لفظه كان موضع موازنة ، فإن كان أداؤه أيسر وأَسلس وأَلصق بالنفوس كان أَقوى على مغالبة ومقارعة المثل العربى يؤخذ بهذا حينا ويؤخذ بذلك حينا وقد يؤخذ بهما معا .

أَما تلك الأَمثال العامية التى جاءت ولا وجود لها فى العربية لفظا ولا معنى فهى لا شك أَخلد وأَبقى من أَمثلة الضرب الأَول من هذه الظاهرة .

وما من شك أَن انكماش العربية فى عصورها وانحصارها فى بيئات محدودة ضيقة كان له أَثران :

الأَثر الأَول : فقدانا ذلك الرجل الناطق بالفصحى يعطينا المثل ويعطينا الحكمة ، فلم نعد نظفر بنظراءِ هؤُلاءِ السلف الذين تركوا لنا تلك الأَمثلة العربية الفصيحة ، يستملونها من الأَحداث والوقائع .

الأَثر الثانى : نهوض رجال من الشعب لغتهم العامية مقام هؤُلاءِ الرجال الذين فقدناهم يستلهمون الأَحداث والوقائع يعطوننا أَمثلة تعوضنا عن تلك الأَمثلة العربية وتكاد تكون فى قوتها فكرة وإيجازا ورمزا وإشارة ودلالة على حوادث مفصلة تنطوى تحت أَجنحتها

وأمثلة هذه الظاهرة بشقيها من القوة بمكان لأنها ليست اتباعا بل هى إبداعا تحوى الفكرة الأصيلة وتحوى الاستقراء العميق وتدل على مكانة مبدعيها .

وإليك أمثلة من الشق الأول ، أعنى من تلك التى اتفقت معنى ولم تتفق لفظا وستحس معى فيها جوانب القوة والعمق اللذين ضمنا لهما البقاء على الرغم من أنه ليس ثمة تدوين يحفظ لها بقاءها وهى على الرغم من فقدانها ذلك التدوين فهى تعيش على الألسنة يتناقلها جيل بعد جيل ، ولكنها لاشك بعد أن يكتب للفصحى أن تسود سيكتب لها ما كتب للأمثلة العربية من تحول على ألسنة العوام ، وما نستبعد أن تصبح تلك الأمثلة العامية أمثلة فصحى بعد أن تتناولها ألسنة الفصحاء بالصقل والإعراب .

وما سيحدث لهذا الضرب الأول سيحدث للضرب الثانى أيضا من تلك الظاهرة ، أعنى تلك الأمثلة العامية التى لا وجود لها فى العربية لفظا ومعنى . وها هى ذى أمثلة ذلك الشق الأول :

المثل العامى	المثل العربى
ـ الغَنى غَنُّوا له والفقير إيه يعْملوا لُه	ـ إن الحبيب إلى الاخوان ذو المال
ـ ابْعد عن الشَّرْ وغَنِّى له	ـ اذا ترابلك الشر فاقعد به
ـ القَوَالبْ نَامتْ والانْصَاصْ قَامتْ	ـ إن البغاث بأرضنا يستنسر
ـ قالوا يا حَمَا ما كُنْتيش كنَّه قالت كنت ونْسيتْ	ـ إن الحماة أولعت بالكنة
ـ إذا وقع القدر عمى البصر	ـ إذا جاء الحين حارت العين
ـ مَحَدِّشْ يقْطع مناخيرُه من وشُّه	ـ أنفك منك وإن كان أذن
ـ أنا واخُويَا على ابن عَمِّى وانا وابن عمِّى على الغَريبْ	ـ آكل لحمى ولا أدعه لآكل

المثل العامى	المثل العربى
ـ قَابْلُوهم بالصُّوتْ لَيغْلبُوكُم	ـ إبدأهم بالصراخ يفروا
ـ لا جْلْ الورد ينْسقى العُلّيق	ـ بعلة الزرع يسقى القرع
ـ مال الكُنَزى للنُّزهى	ـ بشر مال الشحيح بحادث أو وارث
ـ ضَرَبْ وبكى وسَبَّق واشْتَكى	ـ تلدغ العقرب وتصيىء
ـ اللى فى الدّسْت تطَلَّعُه المَغرَفَه	ـ تخرج المقدحة ما فى قعر البرمة
ـ إن كان لك صاحب لا تْعَامْلُه ولاَ تْنَاسْبُه	ـ تعاشروا كالإخوان وتعاملوا كالأجانب
ـ خُدْ من دَقْن القرْدْ شَعْره	ـ دمعة من عوراء غنيمة
ـ أبو جُعْران فى بيتُه سُلطان	ـ الذيخ فى خلوته مثل الأسد
ـ اللى أوِّلُه شَرط آخرُه نُورْ	ـ الشرط أملك عليك أم لك
ـ صَامْ صامْ وفِطِرْ على بَصَله	ـ صام حولا ثم شرب بولا
ـ لِسَانَكْ حُصَانَك إن صُنْتُه صَانَكْ	ـ عثرة القدم أسلم من عثرة اللسان
ـ الإيدْ البَطَّالة نِجسة	ـ غبار العمل خير من زعفران العطلة

وبعد أمثلة هذا الشق الأول نسوق إليك جملة من أمثلة الشق الثانى التى انفردت بها العامية لفظا ومعنى ، ولم نجد لها مع طول الاستقصاء نظائر فى العربية فيما نعلم :

أمثلة عامية :

ـ ابن ادم الله أَخَدُه الله وابن الكُبَّه طلع القُبَّة
ـ اجا للعميان ولد قَلَعُوا عِينُه من التَّحْسيس
ـ اصْرف ما فى الجيبْ يأْتيك ما فى الغِيبْ

- الطَّحَّان ياخُدْ حِفَان بحْفَان وربنا ياخد حصان بحصان

- تِجْرى يا ابن آدم جَرْىْ الوُحُوش وغير رزْقَك ما تْحُوش

- يُرزُق الهاجَع والنَّاجَع واللى نَايِمْ على سْنَاخْ ودْنُه

- ابن آدم يِتْربَط من لِسانه والبِهيمْ مِن وِدَانُه

- اقطَعْ ودن الكلب ودَلِّيها واللى فيه خَصْلَه ما يْخَلِّيها

- اللى يِعْمِل ضَهرُه قَنْطَرهْ يِسْتَحمِل الدُّوسْ

- حيلة العاجز دموعه

- زىْ الإبره تِكْسِى الناس وهى عِرْيانِه

- زَىْ القُرادْ ما يرْكَبْ إلا الجِتّه الضَّعيفِه

- الضُّحْكْ ع الشَّفَاتِيرْ والقلب يِسْبُغْ مناديل

- العاقل من غَمزِه والجاهِل من رَفْصَه

- عيِّبتْ القِدْره ع المغرفه قالت لها ياسُوده ومحرَّقَه

- القَشْر والنَّشر والعَشا خُبِّيزه

- فى الوِش مرَايه وفى القفا سِلاَّيه

- كُبُرْ البصل وادوّر ونِسى حَالُه الأَول

- كَتَّر من الفَضَايِحْ اللا انا رَايِحْ

- كُلْ رَاسْ مِطَاطِيِّه تَحتِها أَلْف بَلِيِّه

- الكلب ما يْعُضِّش فى وِدْن أَخُوه

- كَلُوا الهِدِيّه وكَسرُوا الزِّبْدِيِّه

- لُولاكْ يالسانى ما انْسَكِّيتْ يا قَفَايه

- لو بَصْ الجمل لِصَنَمه لَقَطمُه

- ما تِقِرْ بخيرى الا لما تشُوفْ غيرى
- واحد شَايِلْ دَقْنُه والتّانى تَعْبان ليه
- جُرْحٌ السِّلاحْ يِبْرا وجُرْح اللسان ما يِبْرا

هذه كلمة موجزة عن الصلة بين الأَمثلة العربية والأَمثلة العامية ، وما نعلم أَن المثل العامى انطلقت الأَلسنة بالتعبير به إلا حين فقدت التعبير عنه بالفصحى ، وكما وجد المثل العامى على أَنقاض المثل العربى فسوف يعود الأَمر إلى المثل العربى ليعيش على أَنقاض المثل العامى ، وهذا رهن بانتعاش الفصحى وسيادتها ، فما أَحرص كل متكلم بالفصحى على أَن يجرى لسانه بالفصيح ، وعهدنا بالناس حين تفصح أَلسنتهم أَن يتجنبوا أَن ترد على أَلسنتهم أَمثلة عامية ،وذلك أَملنا فى أَن تتطور تلك الأَمثلة العامية إلى أُخرى فصيحة وأَن نجد بيننا من الفصحاء من يصلوا إبداع الأَمثال فلا ينقطع هذا الخلق حتى يستمر حبل الأَمثال موصولا ولا تنفرد العامية دون العربية .

محمد قنديل البقلى

اللهجة العامية المصرية في القرن الحادى عشر الهجرى

للدكتور رمضان عبد التواب



يوسف المغربي هو أبو المحاسن يوسف جمال الدين بن زكريا بن حرب المغربي المصرى الأزهرى [1] ، تنحدر أسرته من أصل مغربى ، وقد ولد هو بالقاهرة فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى ، وتوفى بها فى سنة ١٠١٩ هـ .

وكتابه : « دفع الإصر عن كلام أهل مصر » وثيقة لغوية مهمة ، سجل فيه صاحبه كثيراً من ظواهر العامية المصرية فى القرن الحادى عشر الهجرى . وقد وصل إلينا فى نسخة مكتوبة بخط المؤلف ، انتهى منها فى منتصف جمادى الأولى سنة ١٠١٥ هـ ، أى قبل وفاته بأربع سنوات ، ثم انتقلت بعد ذلك بمدة إلى أبى عبدالله محمد شمس الدين بن أحمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ ، والذى اختصرها فى كتابه الذى سماه : « القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب [2] » . ثم انتقلت المخطوطة بعد ذلك إلى يوسف الملّوى ، الشهير بابن الوكيل ، الذى نسخ مختصر ابن أبى السرور السابق [3] ، وانتقلت بعد ذلك إلى الشيخ محمد عياد

---

(١) انظر ترجمته فى ريحانة الألبا للخفاجى ٢ / ٣٢ وخلاصة الأثر للمحبى ٤ / ٥٠١ وهدية العارفين ٢ / ٥٦٦ وبروكلمان GAL II 285 ; S II 394

(٢) حققه السيد إبراهيم سالم ، وطبعته المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، فى سلسلة « تراثنا » بالقاهرة ١٩٦٢ وانظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ص ٣٠٤

(٣) انظر مقدمة المقتضب ص ٢ — ٧

الطنطاوى المعلم الأول للغة العربية فى روسيا ، وبعد وفاته فى ١٢٧٨ هـ ، دخلت المخطوطة فى حوزة الكلية الشرقية بجامعة بطرسبرج ـ ليننجراد ، ولا تزال هناك وتحمل رقم Ms, O, 778

وقد ظهر الكتاب مصوراً عن هذه النسخة فى عام ١٩٦٨ بموسكو فى سلسلة آثار الآداب الشرقية ، وذلك بعناية الدكتور عبد السلام أحمد عواد ، الذى قدم له ببحث عن المؤلف بالعربية والروسية ، وذيله بفهارس كثيرة متنوعة نافعة .

ومخطوطة الكتاب ليست كاملة ، بل تنقص إحدى عشرة كراسة ، ويبدأ النقص من أول الكراسة الثالثة ، أى فى باب الباء فصل القاف (مادة : قطرب) ، حتى نهاية الكراسة الثالثة عشرة ، أى إلى باب الفاء فصل الراء (مادة : ردف) ، وإذا كان عدد أوراق الكراسة عشر ورقات ، فالناقص ١١٠ ورقات تقريبا . وقد حدث هذا النقص بعد اختصار ابن أبى السرور للمخطوطة ، وبعد نسخ ابن الوكيل لهذا المختصر ؛ لأن نسختى المختصر كاملتان .

وهذه المخطوطة هى مسوّدة المؤلف . ففيها تغييرات وإضافات وتنقيحات بخطه ، مثلما وقع فى صفحة (١٣ب/١٠) عند قوله : « ويقولون : لبن رايب ، ولم أر فى اللغة ما يناسبه ، لافى رأب المهموز ، ولافى راب بالألف اللينة » ، فقد ضرب المؤلف على عبارة : «ولم أر فى اللغة . . . بالألف اللينة » وكتب على الهامش : «وهو صحيح . قال المجدى : راب اللبن روبا خثر ، ولبن را يب ، أو هو مايمخض ويخرج زبده . وروبه وأرابه » . كما قال فى آخره (١٣٣ أ/٢١) : « وكتبه مؤلفه الفقير يوسف المغربى عفى عنه والمسلمين آمين » .

وقد بدأ المؤلف بالعمل فيه فى منتصف شوال سنة ١٠١٤ هـ وانتهى منه فى ليلة النصف من جمادى الأولى سنة ١٠١٥ هـ ، فقد ورد فى آخره قوله (١٣٣ أ/٢) : «فإن هذا الكتاب حصل فى مدة يسيرة ، يسر الله عسيره ، فإن مافيه من المنظوم نظم حال الكتابة مع جريان القلم ، وكأنه نقل من نسخة ثَمَّ . وكانت البداية فيه فى نصف شوال عام أربعة

عشر وألف ، والختام ليلة النصف من جمادى الأولى عام خمسة عشر وألف ، مع الاشتغال بسواه من أمور المعاش والمعاد ، والقيام بأمور العيال والأولاد »

وقد سمى المغربى كتابه فى البداية : « الفضل العام وقاموس العوام » فقال فى مقدمته (٢أ / ٧) : « فقصد الفقير يوسف المغربى أدخله الله فى شفاعة النبى العربى أن يرتب هذا الكتاب على أبهج ترتيب ، ويهذب مايقع من عوام أهل مصر بأن يرجعه للصواب ، وهذا هو التعريب . مغترفا من القاموس والعباب ، مبينا لما حكم بخطئه أنه صواب . وسميته : الفضل العام وقاموس العوام » .

ثم تردد بعد هذا فى تسميته بتسميات أخرى ، إلى أن استقر على تسمية : « دفع الإصر عن كلام أهل مصر » ، وانظر فى ذلك مقدمة الناشر ص ١١ – ١٢ .

وقد عين المغربى فى النص السابق مراجعه ، فحصرهافى القاموس والعباب ، وإن كان اعتماده على القاموس أكثر من اعتماده على العباب ، وقد تأثر به فى ترتيب مادة كتابه ونبه على ذلك فى قوله (٣ أ / ١٨) : « وهو على حروف الهجاء كالقاموس مع تسامح فى الأصل والزائد » .

ومع ذلك فإنه لم يسلم من التصحيف والتحريف فى نص القاموس ، مثال ذلك قوله (٥٩ ب / ٨) : « يقولون : فلان زَعْلُوك ، يعنون أنه فقير . وكثيرا مايقع هذا من المغاربة ، يقولون على الفقراء الحجاج منهم زعاليك والذى فى القاموس : زُعْلُوك كعصفور : السمين من الإبل ، والقصير اللئيم ، جمعه زعالك وزعاليك » .

والذى فى القاموس : « الزُّعْكُوك » بكافين فى باب الكاف فصل الزاى (٣ / ٣٠٥) ولم يرد فيه : « زعلوك » بتاتا . ويظهر أن النسخة التى كانت بيده من القاموس كانت قد أهملت وضع شرطة الكاف الأولى ، على عادة كثير من المخطوطات القديمة ، فاشتبهت لذلك باللام ، مع أن وضع الكلمة فى باب الكاف كان من الممكن أن يجنبه الوقوع فى هذا التحريف .

وقد أشار المغربى إلى هذه الكلمة مرة أخرى فى صفحة (٦١ أ / ١) فقال : «الصُّعلوك كعصفور : الفقير ، وتصعلك : افتقر . وهذا الذى تقول (العامة) فيه زعلوك . وقد تبدل الزاى صادا ، فلا يكون لحنا . ولكن لم ينص عليه فى القاموس» . فهو هنا يصر مرة أخرى على ورود كلمة «زعلوك» فى القاموس بغير هذا المعنى ، وإن كان قد فطن هنا إلى العلاقة بينها وبين كلمة : «صعلوك» ؛ فقد رققت الصاد ، وجهرت لتأثرها بالعين المجهورة ، فصارت زايا ، غير أنه عكس الكلام فقال : «وقد تبدل الزاى صادا ، فلا يكون لحنا» .

ويحكى المغربى فى كتابه كثيرا عن نفسه ، ويروى لنا بعض ما أصابه فى مراحل حياته المختلفة ، فهو يقول مثلا (٥١ أ / ١١) : «قلت : قد مرضت بهذا المرض ، أى الفواق ، حتى التبس على بعض من عادنى بالفواق عند النزع ، فظن أنى أفوق بنفسى ، أى أجود بها ، وهى على الخروج ، فذهب من وقته لقاضى البلد ، يسأله فى وظيفة لى . وقال : قد مات يوسف المغربى الآن ، وبذل فيها دنيا ، وكتبت الحجة ، فكان الشفاء فى ذلك اليوم ، ففى عقبه عادنى الأخ الأكرم سيدى محمد أبو الصواب ، ويسر الأمر ووصف لى المصطكى والعود الماوردى ، فاستعملته فبرأت ، ثم اتفق أننى سرت فى جنازة بنت من سعى علىّ ، ومشيت بالعسر ؛ لأنه لم تتكمل صحتى ، فقال لى بعض الأصحاب : عجبت منك ! هو يشيع موتك ، ويأخذ وظيفتك ، وأنت تمشى فى جنازة بنته . . . القصة ، فتعجبت وقلت : أنا لا أتشوش منه ؛ لأنى بعد الفقد لا أبالى بمن تكون فى يده ، بل كونها مع بعض الأصحاب أولى من الأجنبى ، ولم أعاتبه ، وقطعت حجته ، وذهبت رشوته» .

كما يروى قصة أخرى طريفة فى سبب تعلمه النحو وصيرورته من العلماء فيقول (٧٠ أ / ٢) : «قال الفقير مصنف الكتاب : إن من التحدث بالنعمة ما سأقوله ، وهو أننى كنت أصنع حمائل السيف فى حال الصغر . . . وذلك بعد موت الوالد ، ودفن فى البقيع

الشريف ، وجئت لمصر رأيت أخوالى يصنعونها وعلمونى ففتح الله على فيها . . . ومع شغلى أتلو القرآن العظيم وأقرأ فى سبع بجامع طولون من المغرب إلى العشاء فكنت فى أثناء القراءة أتأمل اختلاف الحركات فى الكلمات ، ولم تكون هذه الكلمة مرفوعة ، والأُخرى منصوبة ، إلى غير ذلك . فسألت عن ذلك إمام الجامع ، وهو مولانا الشيخ شعيب جزاه الله عنى ، فقال لى : إذا اشتغلت بالنحو نصف سنة ، علمت ذلك خصوصا إن حفظت شيئا من متن ألفية ابن مالك ، وأعطانى إياها فكتبت منها لوحا ، وصرت أقرأ فيه ليلا ، فمنعنى أحد أخوالى عن ذلك ، وقال : ما فى أقاربنا علماء تطلع عالم لمن؟ وصار ينهرنى ويقيمنى من القراءة ليلا ؛ لئلا أنعس نهارًا ، فلا أشتغل كثيرًا ، فإنه يغلب عليه حب الدنيا ، فلا زلت[1] أقرأ خفية بعد نومه حتى حفظت الألفية تماما . فقدر الله أنهم جمعوا من الحمائل ما يساوى ألوفا من الدنانير . . . فعزموا على السفر للسودان لأجل بيعها ... واتفق أن ساعدنى جمع من الناس على أنهم يتركوننى بمصر أشتغل بالعلم ، وكان خالى يوسف رحمه الله يحب لى ذلك فقام على أخيه إبراهيم فاحتج بكونى صغير السن ، وكيف نتركه وحده إلى أن سمحوا لى بالجلوس فى دكان لهم ملآنة بالقماش من سائر الأنواع ، وأن أبيع فيها وأصرف الفائدة على زوجاتهم وعيالهم إلى أن يحضروا ، فوافقت على ذلك ظاهرًا ، ثم بعد مدة يسيرة بعت السلعة وأخليت الدكان ، وأبنت الزوجات عنهم ؛ لأنهم وكلونى فى ذلك إن طالت غيبتهم ، واشتريت كتبا وجئت الأزهر والحمدلله . . . ».

ومع أن الكتاب مؤلف فى الدفاع عن لغة أهل مصر ، فقد كثرت فيه الاستطرادات لأدنى مناسبة ، كقول المغربى مثلا (٩٥أ/ ١٤) : « ويقولون : فلان يبرجم : إذا كثر كلامه . ويستعملونه فى صوت الحمام ، يقولون الحمام

(١) هذا التعبير من التعبيرات الشائعة حتى اليوم ، وهو لحن ؛ لأن « لا » حرف نفى مختص بالفعل المضارع ، ولا يدخل على الماضى إلا إذا كان هناك عطف على منفى مثل : « ما كلمنى ولا كلمته » أو تكررت مع الماضى المتكرر ، مثل قوله تعالى : « فلا صدق ولا صلى » . فاذا دخلت على الماضى فيما عدا ذلك ، كان الكلام دعاء لا إخبارا ، مثل قول ذى الرمة :

ألا يا اسلمى يا دارمى على البلى ... ولا زال منهلا بجرعائك القطر

يبرجم . والذى فى اللغة : البرجمة : غلظ الكلام . والبراجم : مفاصل الأصابع . والبراجم : قوم ، فى المثل : إن الشقى وافد البراجم ،لأن عمرو ابن هند أحرق تسعة وتسعين رجلا من بنى دارم ، وحلف ليحرقن منهم مائة ، فمر رجل فاشتم رائحة فظن شواء اتخذه الملك ، فعدا إليه ليرزأ منه ، فقيل له : ممن أنت ؟ فقال : من البراجم ، فكمل به مائة » .

كما يظهر فى الكتاب اهتمام مؤلفه بذكر فوائد الأعشاب والنباتات والثمار فمثلا (٩٦أ/ ٩) الثوم إذا كان مسخنا «مخرج للنفخ والدود ، جيد للنسيان والربو والسعال المزمن ، والطحال والخاصرة والقولنج ، وعرق النسا والورك والنقرس ، ولسع الهوام والحيات والعقارب والكَلِب الكَلْب ، والعطش البلغمى ، وتقطير البول » ، وهو إذا شوى مفيد « لوجع الأسنان المتآكلة ،حافظ صحة المبرودين والمشايخ ، ردىء للبواسير والزحير والحبالى والمرضعات والصداع » .

بل قد يذكر المغربى ثمرة من الثمار ليتحدث عن فوائدها الطبية فحسب ، كقوله (١١٤ب/١) : «ويقولون : الرمان وهو معروف ، الواحدة بهاء . فائدة : جلده ملين للطبيعة والسعال ، وحامضه بالعكس ، ومُرّه نافع من التهاب المعدة ووجع الفؤاد . وللرمان ستة طعوم كما التفاح ، وهو محمود لرقته وسرعة انحلاله ولطافته » .

ويبدو من نصوص الكتاب أن صاحبه يعرف التركية وينظم فيها شعرا (انظر مثلا ص : ٦ أ / ٨ ؛ ٦٦ أ / ١٥) ، كما يعرف الفارسية كذلك ، إذ يقول مثلا (فى صفحة ٢٣ أ / ١٠) : «ومما ترجمته فيه من أبيات كلستان الشيخ سعدى » ، كما قال بعد أن ذكر اشتقاق كلمة بالفارسية (١٠أ/ ١٤) : «وإنما ذكرت مثل هذا هنا حتى يعلم أن هذا الكتاب اسم على مسمى ، وأنه الفضل العام ، لايخص العربى ، إلاأننى لاأكثر من ذلك لئلا يصعب على من لا يعرف الفارسى ، وكثيرماهم » .

وفى الكتاب مادة نافعة لاستنباط كثير من الأحكام عن لغة أهل مصر فى القرن الحادى عشر الهجرى ،

وعوامل تطورها من العربية الفصحى فى ضوء القوانين اللغوية التى أرسى قواعدها المحدثون من علماء اللغات .
وقد اجتهد المغربى فى تعليل تطور الكلمات التى أتى بها فى كتابه ، فأصاب المحز فى بعضها ، وخانه التوفيق فى الكثير منها ؛ لأنه كان فى كثير من الأحيان يجهل أصل الكلمة ، ويخدعه ما آلت إليه حالها فى شكلها الأخير ، فيربط بينها وبين مادة أخرى لاصلة لها بها .

ومن ذلك قوله (١١٤ ب / ٢٠) : يقولون : فلان استنّانى حتى زهق ، أو استنّيته كذلك . وتأويله بعيد جدا قال (يقصد صاحب القاموس كعادته ، والكلام فيه ٤ / ٢٣٣) : الأَشْتَن والأُشتَان أصول الشجر البالية ، واحدتها أُشتَنة . وأستَن : دخل فى السنة ، قلب : أسنت ، فيمكن أن يحمل قولهم : فلان استنانى على ذلك ، مبالغة أى كأنه انتظر سنة . ولا يخفى ما فيه من البعد » .

فهو فى هذا المثال يربط بين كلمة : « استنىّ » فى العامية المصرية ، « وأستن » مقلوب « أسنت » التى أوردها صاحب القاموس . ولو بحث قليلا لعلم أن أصل الكلمة هو : « استأنى » بمعنى انتظر[1] ، فسقطت الهمزة ، وأغلق المقطع بتشديد النون ، أو بعبارة أخرى استغنى عن المد بالتضعيف ، وتلك ظاهرة تعرفها اللغة العربية فى تطورها ؛ كقولهم فى : «بالُوعة » « بلُّوعة » ، وهى الكلمة التى تطورت عندنا الآن إلى « بَلّاعة » تبعاً لقانون المماثلة الصوتية بين الحركات[2] .

ويحار المغربى حين يكشف عن كلمة من الكلمات العامية فى القاموس ، فيجدها فى شكلها الأخير تماثل كلمة أُخرى ، لاصلة بينهما فى المعنى ؛ كقوله : (٣٠ أ / ٤) « ويقولون على معلم الأولاد : فقى ، ولم تعلم ؛ لأن الفَقَى لغة وادٍ باليمامة ، ونخل لبنى العنبر » . وأصل هذه الكلمة ، كما هو معروف : « فقيه » ، سقطت منها الهاء ، وهى من الأصوات الخفية التى تسقط كثيرا من أواخر الكلمات فى العامية ، مثل هاء الغائب فى قولنا : « كتابه » و « قلمه » ، ثم حركت الفاء

---

(١) انظر لسان العرب (أنى) ١٨ / ٥١

(٢) انظر لهذه الظاهرة أمثلة أخرى فى كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ١٢٣ ، ٣١٦

بالكسر تبعاً لقانون المماثلة الصوتية بين الحركات.

ولكنه كان فى بعض الأحيان يتوقف، إذا لم يكن على علم بأصل الكلمة، كقوله (١٤ أ / ٨) : « ويقولون للبرسيم : ربّة . ولم أعرف فيه شيئاً الآن » ! والذى لم يعرفه المغربى يوجد فى لسان العرب لابن منظور، وهو لم يرجع إليه. قال فى اللسان (ربب) ١ / ٣٩٢ : « والرِّبّة بالكسر نبتة صيفية . وقيل هو كل ما اخضر فى القيظ من جميع ضروب النبات . وقيل : هو ضروب من الشجر أو النبت فلم يحدّ. والجمع الربب » . ومثل ذلك أيضاً قوله (٣٥ ب / ١٤) : « ويقولون : هف طلع النهـــار، يريدون سرعة الشىء وكنت أفهم أن هُفّ حكاية صوت من يطفئ السراج . ولم أنظر فيها شيئاً فانظرها » .

وأحيانا يقطع المؤلف بأن الكلمة لاأصل لها، كقوله (١٣٢ أ / ٢) : « يقولون : ورّيت فلانا كذا، يريدون : أطلعته عليه، أى أريته له . وليس له أصل » . ويبدو أن أصل هذا الفعل هو : « رأّى » بتضعيف الهمزة، وعندما سقطت الهمزة أصبح الفعل : « رَوّى » وهو مايستعمله العراقيون حتى اليوم، فيقولون : « رَوِّيتُه إياه » بمعنى أريته إياه . أما لهجة مصر فقد حدث فيها قلب مكانى بين الراء والواو، فصار الفعل : « وَرّى » .

وهناك أمثلة أخرى كثيرة للقلب المكانى منتشرة فى ثنايا الكتاب ؛ كقوله (٢٣ ب / ١٢) : « ويقولون : زِحْلِفة، على الدابة المسماة : سلحفاة » فقد جهرت السين فى هذا المثال بسبب مجاورتها للام المجهورة ؛ ثم حدث القلب المكانى بين اللام والحاء، وقصرت حركة الفاء بسبب انتقال النبر .

وكقوله (٢٥ ب / ٧) : « ويقولون سقّف على يديه أو بيديه ولم أنظره » ؛ فأصل هذا الفعل « صَفّق » فحدث قلب مكانى بين الفاء والقاف، ورققت الصاد فصارت سينا. وأغلب الظن أن القاف كانت قد قلبت هى الأخرى همزة، كما يحدث الآن فى معظم بلاد مصر،

غير أن الكتابة التقليدية المحافظة كانت تستر مظهر هذا التطور[1].

ومثل ذلك القلب المكانى الذى نعرفه فى كلمة : « مِلْعَقة » وتطورها إلى « مَعْلَقة » هذا القلب المكانى كان معروفا كذلك فى أيام المغربى ؛ يقول (٤٩ب/١٢) : « ويقولون : مَعْلَقة لآلة يؤكل بها ويشرب . ولم أرها فى القاموس ، والذى فيه : رجل ذو مَعْلَقة ، كمرحلة ، يتعلق بكل ما أصابه ، انتهى . ويمكن بالقياس أن تكون الآلة : معْلَقة بالكسر ، تعلق الطعام والشراب . أو يقال : إنها ملعقة ، بتقديم اللام من اللعق » .. وما سبق أن قلناه فى قاف « صفق » يمكن أن يقال هنا فى قاف « ملعقة » . وانظر كذلك عنده (٥٤ب/٣) .

وكما أن القلب فى هذه الكلمات قديم منذ أيام المغربى ، أو ربما قبل ذلك ، فإن ضياع أصوات مابين الأسنان من العامية المصرية قديم هو الآخر ، نجد له أمثلة كثيرة عند المغربى ؛ فمن أمثلة ضياع « الذال » وتحولها إلى « دال » قوله (٩٢ب/١) : «يقولون فى السبب : فلان ندل ، بالإهمال ، وإنما هو نذل بالمعجمة » وقوله (١٠٨ب/٤) : «ويقولون : فلان يهدرم الكلام . وله أصل ؛ قال : الهذرمة سرعة الكلام والقراءة ، إلا أنه بالمعجمة » ، وقوله (١٢٥ أ/١١) : « يقولون : فلان جلس حِدَا فلان ، أى قريبا منه . وهى تصحيف عن حذائه ، بالذال المعجمة » .

ومن أمثلة ضَياع « الثاء » وانقلابها « تاء » قوله (٦٣أ/١٩) : «يقولون على الشجر : أتْل ؛ بالمثناة ، وإنما هو أثْل بالمثلثة ، واحده أثلة » ، وقوله (٦٧ أ/ ١٨) : « ويقولون : أكلنا الشيء ورمينا تِفْله . والصواب : الثُفل بالمثلثة وبالضم » ، وقوله (٩٦ أ/ ٧) : « ويقولون : تُوم بالمثناة وإنما هو ثُوم بالمثلثة »

ومن أمثلة ضياع « الظاء » وتحولها إلى « ضاد » قوله (٧١ ب / ١) ويقولون : حَنْضَل ، على الحنظل ، بالظاء المشالة ، وليس له وجه ؛ فإن الحنضل الغدير الصغير » !

---

(١) انظر هنا كذلك : لحن العامة والتطور اللغوى ص ٦٥ (هامش ١) وصفحة ٣٥٦ .

ولم تكن العامة فى عصر المغربى تهمز كثيراً من الكلمات التى تهمزها الفصحى ، تماماكما ننطق اليوم : «رفا الثوب» بدلا من « رفأ الثوب » (٩أ/١) ، ومثل ذلك أيضاً قوله (٩٨أ/١٦) : «يقولون : يزوم عليه إذا هم به أن يغلبه . وفى القاموس : زأم كمنع : أكل أكلا شديداً ، وزأمه ذعره . . . وهذا قد يناسب قولهم : فلان زام علىّ ، أى ذعرنى » . ومثل هذا الفعل كان مضارعه : «يزأم» بفتح العين كيمنع ، غير أنه لما ضاع منه الهمز من عينه ، تصرف تصرف الأجوف؛ مثل : قال يقول ومات ويموت ، ورام يروم .

ويضرب قانون المماثلة بسهم وافر فى تطور معظم الأمثلة التى ذكرها المغربى ؛ كقوله (٢٤أ / ٢٠) : «ويقولون : عمل له الفرح بزَفّة وليست الزَفّة بهذا اللفظ فى اللغة . . . وأنسب من هذا أن الزُفّة بالضم تطلق على الزُمرة . والزُفّة دائما فى زمرة ، إلا أنهم حرفوها من الضم إلى الفتح . وفيه مافيه » ، فتحول ضمة الزاى هنا إلى فتحة سببها المماثلة الصوتية مع فتحة الفاء .

ومن أمثلة ذلك أيضا قوله (٦٢أ/١٠) : «ويقولون : كحك العيد وإنما هو الكعك . خبز معروف ، فارسى معرب» ، فقد همست العين هنا فتحولت حاء ، بسبب المماثلة الصوتية بينها وبين الكاف المهموسة .

أما كلمة : «ضُرْم» التى يطلقها المصريون على الدُبر ، فلم يعرف المغربى أنها متطورة عن كلمة «سُرْم» الواردة فى القاموس المحيط (٤/١٢٨) فى قوله : «السُّرم بالضم مخرج الثفل وهو طرف المعى المستقيم» . فقال المغربى (١٠٢ب / ٣) : «ويقولون على الاست : صُرم ، ولم يعلم . قال : صَرَمه يصرِمه صَرْماً ويضم : قطعه قطعا. وصرم الرجل : قطع كلامه . والاسم الصُّرم بالضم » فقد خلط المغربى هنا بين كلمة «صُرْم» المتطورة عن «سُرْم» وكلمة «صُرْم» بمعنى قطع . والسبب فى انقلاب السين صادا هو المماثلة

الصوتية بين السين والراء ؛ لأن الراء في العربية ذات قيمة تفخيمية ، وهي تميل إلى تفخيم الأصوات المجاورة لها ، كقولنا : «طور» في «ثور» و «صور» في «سور» و «أخرص» في «أخرس» و «رَقَص» في «رفس» و «ضَرْب» في «درب» وغير ذلك .

أما إذا حدثت هذه المماثلة في الزمن القديم أي في عصور الاحتجاج اللغوي ، فإن المغربي يعترف بها ، شأنه في ذلك شأن سائر اللغويين ؛ كقوله (٤١ب/٨) : «ويقولون – ولكن يقع من البعض : فلان يزدق ، أي يصدق . وهو يصدق ؛ قال في القاموس : الزدق بالكسر لغة في الصدق ، وأنا أزدق منه» ، فقد جهرت الصاد هنا بسبب مجاورتها للدال المجهورة ، فتحولت زايا مفخمة ، وكتبت بالزاي المعروفة ؛ لعدم وجود رمز للزاي المفخمة في الكتابة العربية .

والاعتراف بالتطور القديم في الألفاظ ، وعدّه من الفصيح ، له أمثلة أخرى في الكتاب كقوله (٤٣ب/١٣) : «ويقولون لمن ولدله مولود : أيّ يوم سُبوعه . وكان القياس : أسبوعه ، ولكن قال (القاموس ٣ / ٣٦) : «والأسبوع من الأيام والسُّبوع وبضمهما» ، وقوله (١٢٩أ/٩) : «يقولون : علوان الكتاب ، باللام ، وهو صحيح كالعنوان بالنون» ، فمما لاشك فيه أن الأصل هنا هو كلمة «عنوان» ، وأن الثانية متطورة عنها بسبب تأثير قانون المخالفة الصوتية بين النونين في هذه الكلمة ، غير أن ذلك قدوقع من العرب في عصور الاحتجاج ، ولذلك روى لنا على أنه جائز وصحيح ؛ إذ مقياس الصواب والخطأ هنا ، هو السماع وعدمه عند هؤلاء اللغويين الذين رووا لنا هذه الألفاظ .

أما السبب في تطور كلمة : «نصف» في العامية إلى «نُصّ» في قوله (٣٤أ/١٠) «ويقولون : نُصّ فضة ، وإنما هو نصف . قال (القاموس ٣ / ٢٠٠) : النصف مثلثة : أحد شقي الشيء» – فهو أن الفاء من الأصوات المهموسة التي تخفى بعض الشيء عند النطق ، فيبدو كأن الصوت السابق عليها مضعف .

وأما إطلاقهم «أتانة» على أنثى الحمار، بدلا من «أتان» (١٠٩ أ/ ٨) فهو متفق مع الاتجاه العام إلى إلحاق تاء التأنيث بمعظم المؤنثات السماعية إن أريد الاحتفاظ بالتأنيث فيها؛ مثل قولنا: «خمرة» فى «خمر» و«كبدة» فى «كبد» و«عقربة» فى «عقرب» و«سكينة» فى «سكين» وما إلى ذلك.

ويبدو من بعض أمثلة الكتاب شيء من التطور فى لغتنا الحالية، لغة التخاطب فى مصر، عنها فى عصر المغربى. ومن أمثلة ذلك انقلاب القاف غينا فى قولنا: «زغزغ» بدلا من «زقزق» التى كانت لاتزال مستعملة فى عصر المؤلف؛ إذ يقول (٤٢ ب/ ١٦): «ويقولون: زقرقه ليضحك. قال فى المختصر: الزقزقة ترقيص الطفل. وفى القاموس: الزقزقة الضحك الضعيف والخفة وصوت طار عند الصبيح، وترقيص الصبى، كالزقزاق بالكسر، ولكن خلاف المشاهد فإن الزقزقة الآن: العبث باليد، وتحريكها فى خاصرة الصبى ليضحكه. وهذا خلاف الترقيص. فانظر فيه».

فالتطور الحادث فى هذا اللفظ فى عصر المؤلف، كان فى معناه لا فى صوته، ولكن الذى حدث عندنا الآن بالإضافة إلى ذلك هو تحول القاف إلى غين. وانقلاب القاف غينا أمر يعرفه السودانيون، وبعض قرى جنوبى العراق. وعندنا من هذه الظاهرة فى عاميتنا المصرية مثال آخر هو قولنا: «مش غادر» بمعنى: لا أقدر.

وقد عرف المغربى أصل كلمة: «فين» (١٢٠أ/ ٦) وأنها كانت فى الأصل: «فى أين» فسقطت الهمزة، وهذا مايوافقه عليه العلماء المحدثون[1]. غير أنه ضل فى البحث عن أصل كلمة: «إيمتا» فى قوله (٣ب/ ٩): «ويقولون إذا وعد أحد بشيء مثلا، فيقول له: إيمتا يكون. وليس لها وجه إلا أن تكون (إى) زائدة. ومتى للسؤال عن الوقت. أو أن (إى) وحدها حرف جواب، فكأنه يقول إذا قيل له: نعم

(١) انظر: اصول الكلمات العامية، لحسن توفيق العدل ص ٦٠.

ما أشرتم به مى ؟ » . والحقيقة أن هذه الكلمة ليست مركبة من (إى) و (متى) كما يبدو فى الظاهر ، بل الذى حدث هو أن «متى» سكنت ميمها للسرعة فى النطق ، فجئ بهمزة الوصل ، لئلا يبتدأ بساكن ، وعندما انتقل النبر إلى هذه الهمزة طالت حركتها بعض الشىء ، فلذلك كتبها المغربى بالياء : «إيمتا» .

وعلى الرغم من عدم معرفة المغربى باللغة العبرية ، فإنه استطاع أن يصحح التعبير العبرى الشائع عند من يشتغلون بالسحر من العامة ، وهو :
אֶהְיֶה אֲשֶׁר אֶהְיֶה = أكون الذى أكون (يعنى أنا من أنا) ، إذ يقوله العامة : «أهيا شراهيا» وقد جعله المغربى : «إهيا أشر إهيا» وهو قريب من النطق العبرى الصحيح وهو : «إهْيه أشِرْ إهْيه» ، وإن كان المغربى قد ظن أن هذا التعبير يونانى وهما منه ؛ فقال (١٢١ب/١٣) : «يقولون : أهيا شراهيا . قال : وهو خطأ ، وإنما هو : إهيا بكسر الهمزة — أشر إهيا ، بفتح الهمزة والشين . أى الأزلى الذى لم يزل ، يونانية » .

وهناك فى الكتاب أمثلة كثيرة لتطور الصيغ فى العامية المصرية ؛ فمن أمثلة تطور صيغة (فُعْلُول) ، بضم الفاء ، إلى (فَعْلُول) ، بفتحها قوله (٩٦أ/٣) . «يقولون . صاحب بَلعوم ، أى كثير الأكل ، فيفتحون الباء ، وإنما هو بالضم مجرى الطعام فى الحلق » ، وقوله (٩٦ب/١٥) : «ويقولون : الخرطوم بالفتح ، وإنما هو الخُرْطُوم بالضم ، كزنبور : الأنف أو مقدمه » ، وقوله (١١٦ب/٨) : «ويقولون : أعطاه العَرْبُون ، بفتح العين مع أنه بضمها » .

ومن أمثلة تطور (فِعليل) ، بكسر الفاء ، إلى (فَعْليل) بفتح الفاء قوله (٦٥ب/١) : «ويقولون : البَرْطِيل شيخ كبير ، فيفتحون الباء ، وإنما هو البِرطيل بالكسر » ، وقوله (٤٢ب/١٠) : «يقولون : فلان زَنْدِيق ، فيفتحون الزاى ، وإنما هو بكسرها » ، وقوله (٩٠ب/١) : «يقولون : قَنْديل بفتح القاف ، وإنما هو بكسرها » .

ومن أمثلة تطور صيغة (مِفْعَلة) بكسر الميم ، إلى (مَفْعَلة) بفتح الميم قوله

(١١٣ ب/ ٥) : « ويقولون لما يوضع فيه القناديل : مَدْخَنة ، بفتح الميم ، وإنما هى مِدْخنة ، كمكنسة » .

ومن أمثلة تطور (فعُول) بفتح الفاء وضم العين ، إلى (فُعُول) بضمهما قوله (٢٥ أ / ٢٠) : «ويقولون لمايسف : سُفُوف ، بضم السين ، وهو سَفُوف كصبور » ، وقوله (٥٤ب / ١) : « ويقولون : لُعُوق ، بضم اللام ، وإنما هو بفتحها . قال فى القاموس : لعوق كصبور : مايُلعق » .

أما تطور دلالة الألفاظ فى عامية مصر فى عصر المغربى ، فلها أمثلة كثيرة كذلك فى الكتاب ، فمن أمثلة تخصيص الدلالة استعمالهم كلمة : « الطرب » فى معنى الفرح ، كما نستخدمها فى أيامنا هذه ، وهى تدل فى الأصل على حركة الفرح والحزن ، يقول (١٦أ /١٨) : «ويقولون : حصل لفلان الطرب ، يخصونه بحركة الفرح ، وهو يطلق على حركة الفرح والحزن من الأضداد . ورجل مطراب وطروب . وقد ظهر الآن أن قولهم : لو اتفق حماران لأطربا ، أى حركا حركة حزن ، لا حركة فرح ؛ إذ صوت الحمار بمفرده يحرك حركة الحزن ، ويستفاد منه ، فكيف مع الازدواج » .

ومن أمثلة انتقال الدلالة بسبب إحدى علاقات المجاز المرسل ، استعمالهم « تشنيف الآذان » بمعنى إسماعها ماحسن من الأصوات ، وهو فى الأصل يعنى إلباسها الشنف وهو القرطُ . يقول المغربى (٢٦ب / ١٥) : « ويقولون عند السماع : شنفتم المسامع ، فلومشى معهم أحد فى تشنيف المسامع لما شنفوا المسامع . ومعنى ذلك أن الشنف بالكسر وسكون النون . . . هو القرط للأذن ؛ وشنف الجارية فتشنفت : جعل لها شنفا ، مثل قرطها القرط فتقرطت . فكأن المسمع بحسن سماعه ألقى فى المسامع شنوفا وجواهر ، فصح قولهم : شنفتم المسامع » .

أما «تقطيع فروة» الإنسان ، فمعناه فى عصر المغربى : ذكره بالمحاسن ، يقول (١٢٩ ب / ١٣) : «يقولون : كنا نقطع فروتك ، أى كنا نذكرك بالمحاسن ، ولكن لا يخفى مافيه من الإبهام ، فإن الفروة للخروف ، والفروة جلد الرأس » . وقد تطور هذا المعنى فى عاميتنا الحالية ، فأصبحنا لانفهم من هذا التعبير إلا ذكر مساوىء الانسان لامحاسنه .

هذا هو تحليل بعض الظواهر اللغوية التى يفيض بها هذا الكتاب الممتاز ، وهو وثيقة لغوية نادرة فى دراسة اللهجات العربية . وكم كنا نتمنى لوجاد علينا التراث العربى بالكثير من أمثال هذه الوثيقة فى عصور العربية المختلفة ، وبقاعها المتفرقة ، لتلقى بعض الضوء على مراحل التطور اللغوى لكثير من الظواهر اللغوية فى العربية .

رمضان عبد التواب

أقام المجمع حفل استقبال لعضوه الجديد من تونس الأستاذ الشاذلي القليبي ، الذي خلف المغفور له الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب . وقد أقيم الحفل في الساعة الخامسة من مساء الثلاثاء ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٣٩٠ هـ الموافق ٢٣ من فبراير سنة ١٩٧١ م . وفيما يلي ما ألقي في الحفل من كلمات :

كلمة الأستاذ زكي المهندس في استقبال الأستاذ :

الشاذلي القليبي

حضرات الزملاء :

سيداتي ، سادتي :

إنه ليسر المؤتمر أعظم السرور أن يستقبل الليلة زميلا كبيرا وعالما جليلا ، هو السيد الأستاذ الشاذلي القليبي الذي اختير عضوا عاملا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة من تونس الشقيق ، خلفا للعالم الكبير المرحوم حسن حسني عبد الوهاب . والمؤتمر إذ يهنيء الزميل الجديد بما نال من ثقة وتقدير ، ليسعده كل السعادة أن يرى كفاية عربية جديدة تضاف إلى كفاياته ، ونشاطا علميا جديدا يلتقي بنشاطه .

كذلك كان تونس الشقيق وسيظل دائما يزودنا بذوي الثقافات العالية ، والكفايات الممتازة ليشاركونا في تأدية أهم رسالة تتصل بقوميتنا ونهضتنا ، وهي خدمة اللغة العربية .

ولعل من محاسن المصادفات أن يكون استقبال الزميل بعد عودته من الحج ، وأن يجيء إلينا بعد حج مبرور ، وسعي مشكور ، وذنب مغفور ، إن شاء الله :

وما من شك في أن وفاة العالم الكبير المرحوم حسن حسني عبد الوهاب ، قد تركت بيننا فراغا علميا واسعا ، ولكننا على يقين بأن الزميل الجديد سيكون خير خلف لخير سلف ، وأنه سيملأ هذا الفراغ بما عرف عنه من كفاية ونشاط . ولعلنا في هذه المناسبة نذكر قول شاعرنا القديم :

إذا سيد منا خلا قام سيد
قؤول لما قال الكرام فعول

فأهلا بالزميل الجديد ، ومرحبا به في مجمع الخالدين .

• • كلمة الأستاذ عبد الله كنون :

سيدى الرئيس :

سادتى :

تتكافأ البلاد العربية مجدا وشرفا ، وتتعاطف إحساسا وشعورا ، وهى فى النهضة كأفراس الرهان تستبق إلى ما يعلى شأن العروبة ويرفع من قدرها إلى ما كانت عليه فى الماضى وأكثر .

ونحن العرب وإن كنا من أصل واحد ونبعة مشتركة ، وتؤلف بيننا هذه الضاد التى تصوغ فكرنا وتطلق ألسنتنا بما يزيد وحدتنا تماسكاً ، وعروتنا توثقا ، إلا أننا بحكم تباعد الديار واختلاف المناخ قد يتميز مغرب منا من مشرق ، بل موطن من موطن ، بما لا يعدو ما تتميز به بلدة من أخرى فى القطر الواحد ، من بعض السمات والعلامات ، ولكن ذلك ليس بمؤثر فى العمق شيئا ، بل هو أحرى أن يكون مظهرا من مظاهر التكامل وانعكاسا لجميع السجايا والأوصاف ، ولو شئت لقلت اللغيات واللهجات التى عرفت بها بعض القبائل والبطون من أجدادنا العرب القدماء .

فما نشاهده من عادات وأعراف تختلف من بلد عربى لآخر ، لعله أن يكون مما أثر عن هؤلاء القوم أو أولئك من العرب الذين نزلوا بهذا البلد أو ذاك ، ومثل ذلك يقال فيما نسمعه من لفظ ونبر يختص بشعب عربى دون آخر . ولو تفرغنا لدراسة ذلك ورده إلى مصادره الأولى لوقفنا على الكثير المعجب من أصول شعوبنا العربية وخصائصها .

أولئك مثل الطيب كلٌ له شذى
وبمجموعه أذكى أريجا إذا شُمّا

لهذا كان تمثيل البلاد العربية فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة فكرة صائبة وأمرا ضروريا من أجل استكمال الوجود العربى ، واستيعاب العناصر المكونة للطاقة اللغوية فى كل بلاد العرب ، ومن أجل التعريف بجهود المجمع فى سبيل النهوض باللغة العربية وإحلالها المحل اللائق بها بين اللغات الحية ، فإن هذه الجهود أو أكثرها يبقى مجهولا لدى أبناء العربية فى وطنهم الكبير الممتد من الخليج إلى المحيط ، ومن يستطيع أن يعرف بها غير رسل هذه البلاد الذين يشاركون بما أوتوا من علم

ومعرفة إلى جانب إخوانهم فى عاصمة الفكر العربى ، القاهرة المعزية الناصرية ، فى بناء ذلك الصرح العتيد ، ويلمسون من كثب ما يقوم به المجمع والمجمعيون من عمل عظيم فى هذا السبيل ، فيرجعون إلى قومهم يتحدثون بما رأوا وما سمعوا ، وينشرونه فى الأوساط العلمية التى تستفيد منه الفائدة الجلة ، وبذلك تحصل النتيجة المرغوبة ولا يبقى أحد يتساءل : أين المجمع وماذا عمل؟

ومن يقل للمسك : أين الشذى ؟
كذبه فى الحال من شما

هذا إلى الإجماع من ممثلى البلاد العربية على مقررات المجمع وأوضاعه ، ذلك الإجماع الذى يقطع الشغب ويرد الدعوى بتعدد المصطلحات العربية واختلافها ، وهى دعوى طالما رددها بعض الكتاب وركز فيها المتنطعون هجومهم على المجمع وعلى اللغة العربية ذاتها ، فمن المسلم به أنه بعدما ينعقد مؤتمر المجمع السنوى ، ويحضره النخبة المعنية بالمباحث اللغوية ، وتتفق كلمتها على ما يوضع بين أيديها من مصطلحات وقرارات تصبح هذه المصطلحات والقرارات هى المعمول بها والمعوّل عليها بالإجماع ، ويصير ما عداها لاغيا وغير مقبول .

وإننا إذ نتوصل من أمانة المجمع لما نتوصل به من أعمال المجلس لإبداء النظر فيها ، وإذ نجتمع هنا كل سنة فى المؤتمر ، ثم يحدونا هذا التوافق ، والعمل ضمن خطة موحدة لإرساء قواعد لغتنا ، وتصفية مواردها العذبة من الشوائب والأكدار ، فيأتى كل واحد منا بخير ما عنده ، ولا نثبت أننا وطن واحد تسكنه أمة واحدة وحسب ، ولكننا فوق ذلك ، نعمل ما عمله أجدادنا فى أسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز ، وفى موسم الحج بخاصة ، فنختار من الألفاظ أعذبها ، ومن الأساليب أعجبها ، ونخرج بحصيلة من الكلم ، تؤدى ما نحن فى حاجة إليه من أغراض ومقاصد من غير أن تبعد بنا عن بيان يعرب وقحطان ، وبلاغة السنة والقرآن .

واليوم هذه أرض الكنانة ، وهى حرم آمن للعلم تجيء اليه ثمرات العقول من كل الآفاق ، تمضى على سنتها المحمودة فتستقبل فى حظيرة مجمعها الموقر عضوا جديدا من بلد عربى ، عريق ، هو القطر التونسى الشقيق ، خلفا لزميل كريم ، ومجمعى عظيم ، خلا كرسيه باستئثار رحمة الله به .

وإذا ذكرنا تونس فإننا نذكر القيروان وحضارتها وعلومها وآدابها فى وقت كانت فيه ثالثة عواصم العالم العربى والإسلامى بعد بغداد وقرطبة ، ونذكر دولة الأغالبة وعظمتها ، وفتوحاتها التى جعلت من غرب البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية خالصة ، ناهيكم بفتح جزيرة صقلية وما نشأ فيها للعرب من مدنية وسلطان نوّه بهما شاعر الإسلام محمد إقبال حين قال ، وقد مر بهذه الجزيرة : « سلام عليك أيتها الأرض التى

التى تحتضنين حضارة الإسلام » . وحسبنا أن نذكر ابن رشيق وابن شرف من أبناء هذه الأرض الطيبة ، لنقدر ما ساهمت به فى الدراسات اللغوية والأدبية التى نعنى بها فى هذا المجمع ، فابن رشيق هو صاحب كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده الذى يعد من أوائل الكتب المنهجية فى هذا الفن ، وابن شرف هو الشاعر الذى عبر عن الزيف السياسى المتمثل فى حكومات دول الطوائف فى الأندلس ، بما صار مضرب الأمثال على لسان كل عربى ، حين قال :

مما يزهدنى فى أرض أندلس
أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها
كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

فإذا انتقلنا من ميدان الأدب واللغة والشعر إلى ميدان العلم والفلسفة والاجتماع وذكرنا ابن خلدون من نوابغ تونس وعباقرتها ، فإننا نذكر ما يملأ النفس عظمة وفخرا ، ويطاول الزمان خلودا وذكرا . إنه المفكر العربى الأصيل السباق إلى وضع علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، والذى أحصى علوم عصره وقام بدراسة مقارنة بين حضارة الإسلام وغيرها من الحضارات ، وتنبأ بسقوط دولة العرب فى الأندلس ، وحلل النفسية العربية وعناصر تكوين المجتمع العربى ، ووصف داءه ودواءه ، وبقى إلى آخر أيام حياته يعيش مع أحداث عصره ، ويندمج فى مختلف أوساط أمته ، مسجلا تجاربه وملاحظاته التى بهر بها الدارسين والعلماء من الغربيين قبل الشرقيين ، وبذلك صح أن يعتبر أحد الأفذاذ من رجال الفكر العلمى الإنسانى فى العالم أجمع .

أما إذا أردنا أن نستعرض ما أعطته تونس فى مجال الفكر والدراسات الإسلامية ، فإن ذلك شىء يطول ، ولكن يكفى أن نبدأ بما أنجزه سحنون من عمل ضخم فى هذا الصدد ، وهو تأليفه للكتاب الذائع الصيت الذى يعد قمة كتب الفقه فى المذهب المالكى ، والمرجع الأول لمشترعى المالكية فى العالم الإسلامى ، أعنى كتاب المدونة الكبرى . وأن نختم بمختصر ابن عرفة فى المادة نفسها وهو الكتاب الذى استوعب بأوجز عبارة ، مسائل المدونة وما قام حولها من الدراسات ، وتميز بتعاريفه الدقيقة وحدوده المنطقية التى حيرت العلماء ، ووضعت عليها كذلك الشروح والتعاليق. إن ذكر هذين العلمين الشهيرين سحنون وابن عرفة من رجال تونس النابغين فى العلوم الإسلامية هو من باب الاكتفاء بالعنوان عن قراءة الكتاب ، وإلا فإن من أنجبتهم الديار التونسية فى هذا الباب ، قبل وبعد، هو مما تخطئه الحصر، وأكثرهم إن لم أقل كلهم من ذوى الوزن الثقيل .

هذا فى الماضى . وفى الحاضر : هل أذكر جهاد تونس وتضحياتها الجسيمة فى سبيل الاستقلال وانتزاع حريتها من يد المستعمر الغاصب ؟ وهل أذكر كتابها، وصحافييها

اللامعين الذين ناصروا القضية العربية والإسلامية وجهاد الشعوب الشقيقة فى المغرب والمشرق ، ولم يقصروا اهتمامهم قط على قضية بلادهم رغم ما كانوا يتعرضون له من امتحان واضطهاد ؟ وهل أذكر علماءها الكبار الذين أدركنا بعضهم أحياء مثل الشيخ سالم أبوحاجب الذى ألحق الأحفادبالأجداد، والشيخ المكى ابن عزوز الذى عرفه المغرب والمشرق بسعة العلم والاطلاع إذ عاش ردحا من عمره فى الآستانة عاصمة الخلافةالعثمانية ؟ وهل أذكر أمير شعرائها الصديق النبيل الشاذلى خزندار ، ونابغتها الفذ أبا القاسم الشابى ؟ وهل أذكر الشيخ الخضر حسين الذى ولى مشيخة الأزهر وكان مثال العالم المتخلق الكريم ، وفقيدينا العزيزين حسن حسنى عبد الوهاب والفاضل ابن عاشور ؟

إنها سلسلة طويلة كثيرة الحلقات ، والوقت لا يسمح بتتبع أفرادها وذكر أسمائهم ، وكيف بالكلام عليهم والتعريف بهم ؟.

والمراد أن أقول إن هذه هى تونس التى ثلج مجمع اللغة العربية اليوم بممثلها الجديد من بابه الواسع ، فماذا عن هذا الزميل الفاضل ؟

إن الأستاذ القليبى يحمل اسم الشاذلى ، وتلك لمحة أخرى من لمحات الحياة الروحية لشعب تونس الكريم ، لا سيا إذا عرفنا أن هذا يشيع بين التونسيين كثيرا : وقصة ذلك أن الشاذلية كان لها انتشار كبير فى تونس ومريدون صادقون متمسكون بحبلها متفانون فى حبها حتى إنهم يسموه أبناءهم بوصفها الذى يفيد الانتماء اليها منذ الولادة ، أملا فى سلوك طريقها الواعية والنشوء على تربيتها الحسنة :

والشاذلية كما لا يخفى هى مذهب من مذاهب التصوف ، أنشأه الشيخ أبو الحسن الشاذلى الغمارى المغربى ، تلميذ الشيخ عبد السلام بن مشيش صاحب الصلاة المشيشية المعروفة ، وبناه على طريقة الجنيد إمام الصوفية من أهل السنة ، وطهره من بدع المتصوفة المدعين وضلالاتهم التى تجافى أصول الدين، وجعل أساسه محبة الله ورسوله والتمسك بالشريعة النبوية الغراء ، طبقا للحديث الشريف القائل : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » .

وقد كان الشاذلى مرّ بتونس عند رحلته إلى المشرق فأخذ الناس عنه وانتشر مذهبه هناك ، وكان من تأثيره فى المجتمع التونسى ما رأينا من الإخلاص له والتعلق به إلى حد تسمية الآباء أبناءهم فى القرن العشرين بما يرجى من الاتصاف به .

ولئلا يكون كلامى هذا من باب الشعر والخيال أذكر بعض الوقائع التاريخية التى تصوّر لنا المجتمع التونسى كما وصفناه ، وهى مما ذكره أحد علمائها الأثبات الثقات وليس مما رواه الإخباريون أو القصّاص ، وذلك ما جاء فى شرح العلامة الأبىّ على صحيح مسلم ، وهو تلميذ ابن عرفة سالف الذكر ، فقد قال : « كان قضاء تونس فى أيام الدولة الموّحدية لا يولاه إلا قضاة من مراكش ، فاتفق مرة أن قدم إليها قاض فجلس مجلس الحكم فبقى أياما لا يأتيه أحد ، فظن أن القوم لم يرضوا به ، ثم قدم إليه خصمان من أهل سوق الجبة فقال أحدهما : أصلحك الله إن هذا شريكى وقد باع جُبّة من أعرابى وأنا لا أستحل مال الأعراب . فعلم القاضى حينئذ أن عدم اتيان الخصوم إليه إنما هو لتناصفهم ومراعاتهم جانب الله » . ويعنى بالأعراب عرب الصعيد الذين اكتسحوا الشمال الإفريقى وكانوا ثائرين على السلطة الشرعية ، فأموالهم لم تكن تخلو من شبهة .

وهذه واقعة أخرى مما رواه الأبىّ أيضا قال : « وسقط دينار من أحد المسارة بطريق العطارين فبقى ملقى مدة لا يرفعه أحد ، ثم بعد ذلك لم يوجد فقال الناس : اليوم دخل بلدنا غريب » .

تلك هى بعض الملامح من صوفية المجتمع التونسى الذى حقق ما حلم به الفلاسفة قديما من المدينة الفاضلة ، وذلك هو بعض ما يوحى اسم الشاذلى لكل تونسى فاضل حين يسمى ابنه به ، كما فعل والد زميلنا الكريم .

وقد ولد الأستاذ الشاذلى القليبى فى عاصمة تونس بتاريخ ٦ من سبتمبر سنة ١٩٢٥ م ، وزاول تعليمه الابتدائى والثانوى بالمدرسة الصادقية ، وبعد التخرج منها التحق بجامعة السربون فى باريس حيث واصل دراسته العالية وحصل على شهادة الإجازة فى الآداب العربية سنة ١٩٤٨ م ، ثم على شهادة الإجازة فى الفلسفة سنة ١٩٤٩ م ، ثم على شهادة التبريز فى الآداب واللغة العربية سنة ١٩٥٠م ورجع إلى وطنه تونس واشتغل بالتعليم فى السلك الثانوى ، وبإلقاء بعض الدروس فى معهد الدراسات العليا الذى كان حينئذ يعد فرعا لجامعة باريس فى تونس ، وفى سنة ١٩٥٧ م التحق نهائيا بالتعليم العالى فكان من الأساتذة المؤسسين لمدرسة المعلمين العليا ، وفى سنة ١٩٥٩ م دعى للاضطلاع بالإدارة العامة للإذاعة والتلفزة ، وفى سنة ١٩٦١ م عيّن وزيرا للشئون الثقافية والأخبار ، وبقى فى هذا المنصب إلى منتصف سنة ١٩٧٠ م وهو الآن نائب بمجلس الأمة ، ورئيس لبلدية مدينة قرطاج ، ورئيس للمركز الثقافى الدولى (بالحمامات) .

إنها وظائف هامة شغلها ويشغلها الأستاذ القليبى منذ انتهاء تحصيله ، ومسئوليات كبيرة تحملها بجد وإخلاص ، اهتماما بنشر العلم وتثقيف العقول تارة ، وقياما بواجبه الوطنى فى تسيير أجهزة الدولة تارة أخرى ، فهو رجل علم وعمل وتفكير وتدبير ، برهن

على علمه بدروسه التى استفاد منها العديد من التلامذة والطلاب ، وأسندت إليه الدولة مهام جسيمة فأظهر من الكفاءة والمقدرة فى الاضطلاع بها ما جعلها تنقله من مهم إلى مهم ، ثقة به واعتمادا عليه، وهكذا نجح فى الميدانين الثقافى والإدارى وكان من خاصة من قيل فيهم :

إذا أيقظتك حروب العـــدا
فنبّـــه لهـــا عمـــرا ثم نم

وللأستاذ الشاذلى القليبى مجالات أخرى من النشاط الاجتماعى والثقافى علاوة على ما كان يتقلده من وظائف ومسئوليات، فقد انتسب منذ عودته من فرنسا سنة ١٩٥٠ م إلى الحركة العمالية التى أصبح فيما بعد من قادتها المرموقين ، كما شارك فى تحرير جريدة الصباح اليومية منذ بروزها إلى الوجود وأشرف على إدارة جريدة صورة العمل التى يصدرها الاتحاد العام التونسى للشغل ابتداء من سنة ١٩٥٤ م إلى سنة ١٩٥٦ م وكثيرا ما حرر المقالات الافتتاحية لجريدة لكسيون الفرنسية التى تصدر اليوم باسم جون أفريكا .

وكان من أكبر المشاركين فى تحرير مجلة الندوة من أول ظهورها سنة ١٩٥٣ م وتولى الإشراف على إدارتها وتحريرها سنتى ١٩٥٤ ١٩٥٥ م . . . وهذا النشاط الحافل فى العمل الصحفى باللسانين العربى والفرنسى لا بد أن يكون له حصيلة أدبية ذات نزعة إنسانية ولاسيما ما اختص منه بالنضال العمالى، وهو نضال قديم فى تونس أفرد بالتأليف ، فلو جمع ما كتبه الأستاذ فيه لتهيأ لنا أن نطلع على أفكاره فى هذا الموضوع الذى يمت إلى الحركات الليبرالية فى العالم بسبب وثيق .

وللأستاذ القليبى مشروعات تآليف أدبية لم تدع له اهتماماته الكثيرة المتنوعة من الوقت ما يمكنه من تحقيقها وإخراجها إلى حيز الوجود . . وقد نشر له بحث فى مشكلة فلسطين بعنوان « العرب أمام قضية فلسطين» وله كتاب قيد الطبع يحمل اسم « آفاق ومسالك » .

ويعتبر زميلنا الجديد رائدا للثقافة التونسية الحديثة ، فهو أول من خطط لها وأوضح معالمها ، وأول تونسى أشرف على جهاز حكومى يضم جميع اختصاصاتها فى وزارة الشئون الثقافية التى بقى فيها تسع سنوات ، متوالية يرسى قواعدها فى مختلف المجالات ، وإليه يرجع الفضل فى إحياء التراث الفكرى والفنى والتاريخى بتونس .

وقد عرف له فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة رئيس الجمهورية التونسية هذه المزيه فقلده الوشاح الأكبر من وسامى الاستقلال والجمهورية ، كما عرفت مزاياه كثير من الدول الشقيقة والصديقة وفى طليعتها الجمهورية العربية المتحدة التى قلدته أيضا الوشاح الأكبر من وسام الجمهورية المصرى:

وأخيرا اختاره مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م عضوا عاملا ممثلا لتونس خلفا للعلامة المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب .

أيها السادة :

هذا هو الزميل الجديد الذى شرفنى المجمع بأن أكون نائبا عنه فى استقباله وأن أقدمه إليكم بحكم أننا معا ننتمى إلى المغرب العربى . وقد رأيتم أنه شخصية لامعة وأنه جدير بهذا الشرف الذى أولاه إياه مجمع الخالدين . فهو يجر من ورائه تاريخا حافلا بالمجد والعظمة وماضيا زاهرا بالعلم والحضارة لبلد يأتى فى الطليعة من بلاد وطننا العربى الكبير هو تونس الخضراء . وهو يمثل الجيل الصاعد من أبناء الجمهورية التونسية الذى ناضل فى غير ما ميدان من أجل بناء الاستقلال والمحافظة على الذاتية العربية لبلده ، بما أعلى للثقافة من شأن ، وما أحيا من تراث الفكر العربى الذى أخنى عليه الإهمال والنسيان .

والمجمع إذ يفتح أبوابه فى وجوه العاملين المجدين الذين تتدفق فى عروقهم وقلوبهم دماء الشباب الحارة ، إنما يريد من ذلك أن يعزز جهود الشيوخ الراسخين ويزاوج الحكمة والمقدرة . ولذلك فإن زميلنا الجديد ، وإن كان يخلف علما من أعلام الفكر ، وطودا من أطواد المعرفة ، وعضوا قديما من أعضاء المجمع ساير الركب وشارك فى أعماله من لدن إنشائه وتكوينه ، فإنى مستبشر به ومتوسم فيه أنه سيكون خير خلف لخير سلف ، لأنى لا أرى قصر الفضائل على المتقدمين وحتمية تفوق السابقين على اللاحقين خصوصا فى مجال العلم والأدب ، ولله دره العلامة ابن مالك النحوى الطائى الجيانى الدمشقى الذى قال فى طالعة كتابه التسهيل : « وإذا كانت العلوم منحا إلهية ومواهب اختصاصية فغير مستغرب أن يدخر منها للمتأخرين ما عسر نيله على كثير من المتقدمين » . والأمر على كل حال يتعلق بالجد والاجتهاد والمثابرة والمصابرة ، كما قال ابن البناء السرقسطى فى المباحث الأصلية :

ولم تزل كل نفوس الأحيـــا
عـــلامة دراكة للأشيـــا
وإنمـــا تحجبهـــا الأبـــدان
والأنفس الـــنزع والشيطان
فـــكل من أذاقهم جهـــاده
أظهر للعاجز خرق العـــادة

والأستاذ القليبى قد عرفنا من جهاده الدائب وكفاحه المستمر ما يجعلنا نؤمن بأنه سيملأ الفراغ الذى تركه سلفه المرحوم فى العمل المجمعى ، وأنه سيكون منه للمجمع خلف تقر به الأعين .

وإنى أقدم له أصدق التهانى لعضوية المجمع وأتمنى له النجاح التام فى مهمته الجديدة وذلك باسمى وباسمكم جميعا ، وأهدى إلى تونس المنجبة تحيات المجمعيين وعواطفهم السامية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

• • كلمة الأستاذ الشاذلى القليبى :

سيادة الرئيس

حضرات السادة الأعضاء المحترمين

أيها السادة والسيدات :

فى هذه اللحظة التى أقف فيها أمامكم تخالجنى جملة من المشاعر ليس من الهين أن أميز بعضها من بعض ، فأحللها بما أبتغى من دقة ووضوح . ولعلها ، إذا أنا رمت إجلاءها وتمحيصها ، تفقد هذا الطعم السخى الذى تختص به ، والذى هو من اعتمالها فى وحدة متماسكة متضافرة .

فلقد استمعت بمزيد التأثر للكلمة اللطيفة التى تولى إلقاءها باسم المجمع الأخ العزيز الأستاذ عبد الله كنون ، وإن كنت متحرجا مما اشتملت عليه فى حقى مما ليس من حقى .

فاسمحوا لى بأن أتوجه إليه بجزيل الشكر وأخلص شواهد العرفان مشفوعة بالمودة والتقدير .

ولاشك أن أهم ما يفعم نفسى ، وأنا أحضر هذه الجلسة التى تتفضلون فيها باستقبالى ، إنما هو شعور الاعتزاز بالانتساب إلى هذا المجمع الجليل الذى سجل له التاريخ من الخدمات فى الذود عن العربية وإبراز طاقتها ما جعله بحق أولى المؤسسات الثقافية فى العالم العربى .

وإنى ، إزاء هذا الاعتزاز ، لا أجد بدا من الاعتراف بأنى أوجس فى نفسى نوعا من الإشفاق من مشاركتكم تحمل هذه المسؤولية الثقيلة التى تضطلعون بها عن جدارة وسعة علم .

على أنى قد يشد أزرى ، فى هذا الموقف أمامكم ، أنى من الذين ، إن تعذر عليهم أن ينقطعوا للبحث والدرس طوال حياتهم ، فعساهم لم يعدموا فرصة النضال فى سبيل إحياء الثقافة العربية وتدعيم مكانتها بين الأجيال الصاعدة .

وهل لمجمعكم هذا من غاية أنبل من الحفاظ على الذاتية العربية ، بإحياء مقوماتها وتوثيق أواصرها وتدعيم أركانها ؟

لذلك أجدنى — سيادة الرئيس ، حضرات السادة الزملاء — معتزا ، عظيم الاعتزاز ، بهذه الدعوة الكريمة التى تفضلتم بها والتى تخولنى شرف الانضمام إلى مجمعكم .

ذلك أنى أشعر صادق الشعور بتجاوب عميق بين ما كنت فيه من عمل وفكر فى حقل الدولة ، وما رسمه المجمع لنفسه من أهداف تتلخص فى كلمات ثلاث : الحفاظ والتطوير والشمول ، أى جمع كلمة كل من يعنون

بمصير اللغة العربية وثقافتها ، من المشرق ومن المغرب على السواء ، لتحقيق الحفاظ والتطوير :

وإنه لمن مفاخر المجمع أنه لم يقصر عمله على البلاد المصرية بل تخطى حدود الأوطان السياسية وأراد لرسالته إشعاعاً غير مقطوع ولا ممنوع : فاحتضن من مختلف الأقطار العربية : أعلاماً أجلاء ساهموا فى تدعيمه وآزروه فى النهوض بأعباء المهمة الملقاة على كاهله .

ومن بين هؤلاء رجال من المغرب العربى الكبير . ومن تونس على الأخص ،شخصيات من أفذاذ علمائنا قاموا بدور هام فى تركيز المجمع النهج لمساعيه الموفقة . منهم من كان قد استوطن مصر كالشيخ محمد الخضر حسين ، ومنهم من اختير لعضوية المجمع رغم بعد الشقة كالشيخ الإمام الطاهر ابن عاشور حفظه الله وأمد فى أنفاسه والمرحومين الأستاذين حسن حسنى عبد الوهاب والشيخ محمد الفاضل ابن عاشور .

ولئن كانت التقاليد المجمعية تقتضى المبادرة بالحديث عن السلف الذى دعيت إلى خلافته بالمجمع ، فإنى أستأذنكم ، قبل التفرغ لذلك ، فى كلمة أرى لزاما على أن أترحم بها على روح شيخنا الأستاذ الفاضل ابن عاشور الذى وافاه الأجل وهو فى عنفوان قوته الفكرية ، يكافح من أجل إعلاء شأن اللغة العربية وإشعاع الثقافة الإسلامية .

ولقد كان يحتل منزلة خاصة فى تونس وفى بلاد المغرب الكبير ، إذ كان يمثل الوفاء المثير للقيم الروحية فى أجلى مظاهرها ، والذود عن مقومات تراثنا الثقافى والحضارى مع التفتح الخصيب لتيارات الفكر الحديث وشواغل العصر ، يحدوه فى ذلك يقين المؤمن بأنه ليس بين هذه وتلك تناقض فى الجوهر ولا فى الغايات .

وكان — من جملة سلوكه ومواقفه — يتضوع معنى أساسى : هو طلب الموافقات والسعى إلى التأليف ، والحرص على الملاءمة بين أنماط وشواغل وقيم ، يعتقد فى قرارة نفسه أن الجمع بينها ضرورى لحياة الإنسان .

ولقد خبرتم تبحره فى العلوم العربية والإسلامية وهو، مع التوغل فى جميعها ، لم يكن يتقيد بلون من ألوانها . فقد كان مع الإحاطة بالعلوم الشرعية مولعا بالدراسات اللغوية والأدبية ، مشغوفا بالأبحاث التاريخية ، ذا مشاركة مرموقة فى جميعها ، دون اقتصار على القديم منها ولا إغفال لأى مشرب من مشاربها . فتهيأت له بذلك ثقافة موسوعية فى غير عسف ، طريفة حية فى غير تكلف .

إلى جانب هذه الثقافة التقليدية المتنوعة ، كان الشيخ الفاضل دائم السعى إلى الاطلاع على الثقافات الأجنبية ، والتفتح لمقتضيات الروح العلمى الجديد والتجاوب مع مشاغل الشباب .

فلا عناصر ثقافته الأصلية بقيت لديه منفصلة بعضها عن بعض ، ولا فكره النير بقى بمعزل عن تيارات العصر ، بل انصهرت هذه وتلك حتى تألف منها ثقافة فذة حية متحركة دوما بحكم التحاور والتفاعل بين التقليد والاجتهاد . فكان لذلك يعتبر بحق نموذجا لفئة المفكرين الذين يقومون فى تونس بحركة التوفيق بين الحفاظ والتجديد .

وإلى هذه الفئة ينتسب سلفنا نابه الذكر المؤرخ التونسى المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب .

وقد كان من الأعضاء المؤسسين لهذا المجمع ، من أولئك الذين قال عنهم حضرة الأمين العام الدكتور إبراهيم مدكور إنهم « الرعيل الأول الذى أسهم فى بناء مجمع اللغة العربية وتشييد صرحه » ، وإنه كان أحد خمسة من أعلام العالم العربى وشيوخه فى الأدب واللغة ... صدر بتعيينهم مرسوم ملكى فى السادس من أكتوبر لعام ١٩٣٣ ، بقوا أعضاء بالمجمع إلى أن لقوا ربهم ، يمدون المجمع بفيض من واسع علمهم ، ويغذونه بغذاء صالح من دقيق بحثهم »

هذا ما تفضل به السيد الأمين العام فى أربعينية الفقيد المنعقدة بتونس يوم ١٥ جانفى ١٩٦٩ ، وقد استهل به كلمته القيمة التى ألقاها نيابة عن المجمع وتعزية لتونس باسم هذا القطر الشقيق .

ولقد كان لهذه التحية وقعها البالغ فى أوساط المثقفين التونسيين ، إذ بين تونس ومصر أواصر أخوة وتعاطف وتقدير متأصلة فى النفوس والتاريخ . وقد كان الفقيد يعتبر مصر وطنه الثانى ، يحبه ويعتز به . ولقد سأله الملك فؤاد عن رأيه فى مصر فقال له : « سئل أبو العباس المقّرى ، مصنف كتاب نفح الطيب ، عما شاهده بمصر حين زارها ، فأجاب : « من لم يزر مصر لا يعرف عز الإسلام » . وأنا أقول بقوله ولا أحيد عنه .

ذلك أن حسن حسنى عبد الوهاب شب واكتهل فى عصر كانت فيه معظم البلاد العربية تحت السيطرة الأجنبية ، وكانت مصر إذ ذاك فى طليعة الحركة التحريرية ، قد خطت فى ميادين السياسة والثقافة خطى جعلتها محل اعتزاز العرب كافة .

فقد ولد سنة ١٨٨٤ ، أى بعد انتصاب الحماية الفرنسية على تونس بنحو ثلاثة أعوام . فنشأ فى بلد مبتور السيادة ، خاضع لدولة أجنبية تتولى إدارة شئونه ، وتسعى بكل وسائل القهر والإغراء إلى إدماجه فى القومية الفرنسية لسانا وثقافة وحضارة .

وكان والده متخرجا من الزيتونة ، ولكنه تعلم الفرنسية حتى أجادها ، وكان موظفا فى الدولة ، ومولعا بالتاريخ .

وكان من الطبيعى أن يحرص الوالد على تلقين ابنه الثقافتين العربية والفرنسية معا . فوجهه إلى المدرسة الصادقية التى كانت أسست فى عهد الإصلاح قبيل انتصاب الحماية الفرنسية .

وقد كان لهذا المعهد دور خطير جدا فى تكوين الجيل التونسى الجديد الذى اضطلع ، مع ثلة من خريجى الزيتونة ، بقيادة الحركة الوطنية والفكرية فى تونس ، فى صدر هذا القرن .

ذلك أن برامج التعليم فى المعهد الصادقى كانت ترمى إلى هدفين أساسيين : فكانت تعنى بتعليم اللغة والأدب مع تلقين الاعتزاز بالحضارة العربية الإسلامية،وذلك على يد نخبة من أكابر شيوخ الزيتونة خاصة ، ولكن فى نفس الوقت كانت هذه البرامج تقتضى تعليم اللسان الفرنسى وجملة من العلوم والفنون الحديثة ، وهى بذلك تمكن الطلاب من ثقافة عصرية متفتحة الآفاق .

فكان المعهد الصادقى إذن يجمع بين محاسن التعليم الزيتونى من حيث هو تعليم قومى أصيل ، وبين مزايا التعليم الفرنسى من حيث هو تعليم عصرى متفتح . وكان ذلك يساعد متخرجى الصادقية على الانخراط بالجامعات الفرنسية .

ولقد تابع حسن حسنى عبد الوهاب دراساته العليا بباريس بمدرسة العلوم السياسية كما كان يحضر دروسا ومحاضرات فى علوم شتى . ولكن ظروفا عائلية عاقته عن المواصلة فعاد إلى تونس،وانخرط فى سلك الوظيفة العمومية،ولم يزل بها يتقلب فى مختلف المناصب السامية حتى أقعده المرض قبيل وفاته ببضع سنوات .

ولئن كانت حياة الفقيد حافلة بأنواع النشاط الخاصة بمجالات الإدارة والدولة ، فقد كانت أيضا مليئة بالأعمال العلمية الجليلة وذلك منذ ريعان شبابه . فقد كلف بدروس فى التاريخ العام سنوات طويلة بمعهدين من أشهر المعاهد التونسية الحرة . وحضر أغلب مؤتمرات المستشرقين ابتداء من سنة ١٩٠٥، وكانت له بها مشاركة مرموقة ، وأسندت إليه رئاسة الوفد التونسى إلى مؤتمر الموسيقى الشرقية الذى انعقد بالقاهرة سنة ١٩٣٢ ، وخلال هذه الرحلة تمكنت علاقات مودة وتقدير بينه وبين عدد من شخصيات العصر ، فى مقدمتها الملك فؤاد ، وكان يقول عنه : « وفى نظرى أن الملك فؤاد كان بلا نزاع من أجلّ ملوك المسلمين ومن أقواهم حبا لجمع كلمة العروبة ورغبة صادقة فى الدفاع عن الحضارة الإسلامية . . . » .

وفى شىء من الاعتزاز ، يضيف قائلا : « هو الذى عيننى عضوا دائما فى مجمع اللغة العربية لأول تأسيسه آخر سنة ١٩٣٢ » .

وقد كان المرحوم عضوا فى مجامع علمية كثيرة ، نخص بالذكر منها المجمع العلمى

ربى بدمشق منذ تأسيسه ، والمجمع العلمى العراقى ،والمجمع الفرنسى للنقائش والفنون الجميلة ، والمعهد التاريخى الأسبانى .

وللفقيد إنتاج كثير متنوع ، متجه أغلبه إلى تاريخ تونس ومظاهر الحضارة العربية الإسلامية بها،وكان ذلك موقفا تجاه تيارات الفرنسة التى كادت تكتسح الذاتية العربية فى بلاد المغرب،وتطمس معالمها عن الأجيال التى نشأت بعد الاحتلال الفرنسى .

أما الأغراض العامة التى تناولتها مختلف أبحاثه التاريخية ، سواء منها الكتب والمقالات والفصول — وهذه تمثل أغلب إنتاجه — فليس أبلغ فى تحديدها مما كتبه هو نفسه فى وصف تأليفه الجامع الذى أسماه « كتاب العمر » ، ولم تسمح له الأقدار بإتمامه قبل وفاته ، إذ يقول عنه :

« والكتاب الذى أشير إليه يتضمن كل ما يمت بصلة إلى تاريخ العلم والاجتماع والأدب والفن فى البلاد التونسية منذ استقرت بها طلائع النور العربى إلى هذا الزمان القريب[1] » .

ويبين المؤلف مقاصده التى يرمى إليها من وراء هذه الأبحاث ، فيقول :

« وأرجو أن تلقى من النابتة الجديدة إقبالا يزيد به التونسيون المحدثون ارتباطا بماضيهم الخالد ، ويتلمسون فيه عونا على مستقبلهم الزاهر . فإنى لأومن أصدق الإيمان بأن جذورنا المتأصلة فى تاريخ أجدادنا وثيقة الصلة بوعينا القومى الحديث[2] . . . . »

وبقدر ما كان المؤرخ التونسى مغرما بالتاريخ العربى باعتباره مرآة لأمجادنا الماضية ودعامة أساسية من دعائم الذاتية القومية ، كان يحرص على الاقتباس من الطرائق العلمية الجديدة لدرس هذا التاريخ وإجلاء غوامضه، وقد مكنته ثقافته الفرنسية من الاطلاع عليها فى تآليف المؤرخين الغربيين ، وخاصة فى أبحاث المستشرقين الذين عنوا بدراسة الحضارة العربية وتاريخ الشعوب الإسلامية .

ومن الجدير بالتذكير أن المؤرخ عبدالوهاب كتب الكثير من بحوثه بالفرنسية ، وذلك إما لتقديمها إلى مؤتمرات عالمية ، وإما للإسهام بها فى نشريات ومجلات أجنبية ، نخص بالذكر منها دائرة المعارف الإسلامية التى أمضى العديد من فصولها .

ومن الحق أن نقول أيضا إنه كان فى طليعة المؤرخين العرب المحدثين الذين أخضعوا البحث التاريخى لمعطيات الآثار ، لاستنباط ما ليس مذكورا فى الكتب أو لمكافحة المعلومات المنقولة فيها، بما تشهد به النقائش والنقود ومختلف الأعراض التى تكشف عنها الحفريات .

---

(١) ورقات ، ١ ، ص ٧

(٢) ورقات ، ١ ، ص ١٠ ، ١١

فمن هذه الوجهة ، يمكن القول فى غير مبالغة إن عبد الوهاب خطا بالدراسات التاريخية فى تونس أشواطا وجعلها تتصف بالدقة والأمانة،وتهتم بالنفاذ إلى المقومات الحضارية .

كما كان له فضل لا ينكر فى توجيه ما يسميه بـ « النابتة الجديدة » إلى الاهتمام بالآثار والغيرة عليها باعتبارها أحد المصادر الهامة لتاريخ البلاد .

وكان له تأثير غير قليل فى أوساط الباحثين الشبان ، سواء منهم الجامعيون أو غيرهم فقد كان كثير الاتصال بهم يجتمع بهم فى بيته ويساعدهم فى أبحاثهم، ويطلعهم على ما جمعه من نفائس التحف والمخطوطات .

والحق يقال لقد كانت للفقيد شخصية جذابة ملكت له قلوب أصدقائه ومر يديه بما اجتمع فيها من شمائل شرقية عذبة،ونواح مغرية لطيفة،جعلت مجالسه عنوان الإمتاع والمؤانسة ومنتدى رجال الظرف والعلم .

وقد لا يكون من المبالغة فى شىء أن نقول إن تأثيره بالاتصال المباشر وبالسمر وبالإشعاع الشخصى لم يقل أهمية عن تأثيره بواسطة كتبه وبحوثه المنشورة .

على أن حسن حسنى عبد الوهاب ، وإن غلب عليه الولوع بمادة التاريخ ، لم يكن ذلك ليثنيه عن الاهتمام بما سواه من العلوم والفنون . فكان واسع الاطلاع على الأدب واللغة . تشهد بذلك فصول له وتحقيقات لنصوص قديمة تولى نشرها والتعريف بها ، كما تشهد على ذلك مساهمته فى مداولات المجمع ، سواء منها العادية أو المتعلقة بمشاكل حيوية تهم حياة اللغة ورسالتها الحضارية ومكانتها بين سائر اللغات الحية فى القرن العشرين .

ولا جرم أن كان اهتمامه باللغة من الوجهة التاريخية ، ينظر إلى اللغة نظرة المؤرخ الذى يعتبرها ظاهرة تاريخية واجتماعية واجب درسها من بين جملة المظاهر الحضارية التى يعنى ببحثها وإجلاء العوامل المؤثرة فيها .

وقد وقف فى هذا الصدد مواقف معروفة مدرجة فى سجلات المجمع ، وكان صادرا فيها عن نظرة متحركة هى أقرب إلى ما تعودناه عند سلفه ، تونسى النشأة والثقافة ، عبد الرحمن بن خلدون ، الذى كان له شأن أيضا فى هذه البلاد ؛ فكانت نظرته إلى اللغة نظرة المؤرخ المفكر الذى لا يرضى بالوقوف عند الأحداث الماضية يصفها ويعللها ، بل هو يسعى إلى ربطها بالحاضر،لإجلاء معالم الحاضر واستكشاف ملامح المستقبل . ذلك أن عبد الوهاب ، وإن كانت نفسه تطفح بالاعتزاز بأمجاد العروبة والإسلام — ولربما من أجل هذا الاعتزاز — لم يكن يطمئن إلى ما آلت إليه العربية من ركود أضعف قدرتها على الأداء ،وحط نفوذها الحضارى .

وهو فى الحقيقة مشكل المشاكل ، لزام علينا أن نمعن النظر فيه لأنه متصل بمنزلة الثقافة العربية بين الثقافات الغازية التى تتنازع السيطرة على العالم .

فنحن ننتمى إلى لغة فذة بما تختص به من أساليب فى الأداء والإبلاغ ، وكذلك فيما انفردت به من استقرار رغم التطور والنمو اللذين لازماها منذ البدء ، غير أن صورة عنها ضيقة شاعت فى بعض الأوساط من أبنائها — ومن غير أبنائها — تقول بأنها لغة خطابة وترتيل . ولا شك أن الذين يأخذون بهذا الرأى يقصدون أن العربية من طبيعتها عدم التقيد بالضبط والجموح عن مسالك التوضيح .

وصحيح أن أولى خصائص العربية أنها لغة خطابة وترتيل ، بها نزل الكتاب المبين الذى من أسمائه « القرآن » و « الذكر » ، إشارة بذلك إلى أنه أولا وبالذات « خطاب » موجه إلى الناس يرتل ترتيلا . ولعل هذه الظاهرة الخاصة بالعربية هى التى جعلت الشعر العربى فى مختلف عصوره وأطواره تغلب عليه أريحية الخطابة وإيقاعات الترتيل .

ولكن ، إن كانت العربية لغة خطابية مثلى فإنه من الحيف حصر طاقاتها فى ذلك . وهى — على كل — لم تقصر عن القيام بالدور الجديد الذى دعيت إليه لما أصبحت لغة أمة فاتحة ، عليها أن تبنى حضارة من أهم الحضارات الإنسانية . فإذا هى سرعان ما تطورت إلى لغة كتابة وتأليف ، ولغة إدارة وفقه وتشريع ، ولغة فلسفة وعلوم وصناعات . فاتسع مجالها ، وظهرت لها وجوه وطاقات جديدة ، تنقاد لأغراض ابن المقفع والجاحظ ، وتفى بحاجة الفارابى وابن رشد وابن خلدون ، دون أن يمس ذلك التطور جوهرها أو يمزق لحمتها .

ذلك أن اللغة على شاكلة البشر الذين يتكلمونها ، فيخضعونها لأغراضهم المختلفة وحاجاتهم المتجددة .

وإنما غلب الجمود عليها فى عصور الانحطاط لما تقلصت الانتفاضات الفكرية وضعفت جذور الفكر عن مواصلة العمل الحضارى ، الذى قوامه اجتهاد متواصل وكشف عن مغلقات الكون ، وسير دائم لخفايا الإنسان . فلم تعد المجتمعات العربية قادرة على ترويض لغتها ؛ إذ لم تعد قائمة بالدور الخلاق الذى كانت اضطلعت به فى ميادين الفكر والعلم .

وإنما بسبب توقف هذا العمل الحضارى الخلاق حدث التقطع فى سيل اللغة ، فتجمدت الفصحى لغة أهل الفكر والعلم فى حين انطلقت لغة الكلام فى مسالكها الخاصة بحكم الضرورة . ولم يزل الفتق يتسع بينهما حتى أصبح هذا البون الذى نشهده اليوم ، وفى ذلك يكمن أخطر مشكل تجابهه العربية فى نهضتها الحديثة .

فنحن لا يهمنا من اللغة هذه الثنائية بين الفصحى والدارجة بقدر ما يهمنا جمود الفصحى وانفصال الدارجات عنها .

وقد تعرضت شعوب كثيرة لمثل هذا المشكل، ولكنها استطاعت أن تتغلب عليه بفضل ما احتفظت به الفصحى عندهم من دور إيجابى فى مجالات الفكر والفنون الصناعية ، وبفضل ما تهيأ لهذه الشعوب منذ أمد طويل من نشر واسع للتعليم باللغة التى اعتبرتها وهى الفصحى .

وليس أبلغ حجة على ذلك من التطور الذى نشهده اليوم، نتيجة انتشار التعليم ووسائل الإعلام والتثقيف فى أغلب البلاد العربية .

فالتعليم يؤثر فى الفصحى من جهة ؛ وذلك بأن يدخل عليها مفاهيم وصيغا فكرية جديدة ، إذ يستعملها فى تبليغ معان وعلوم لم تكن تدرس بها ، وهو ، من جهة أخرى ، يقرب البون بين الفصحى والدارجات لدى فئة المتعلمين ، نظراً إلى ما يقع بين هذه وتلك من تفاعل .

أما الوسائل السمعية البصرية المتجهة إلى الجماهير ، كالإذاعة والتلفزيون والسينما ، فإنها تقوم اليوم بنشر لغة فصحى مبسطة — سميت أحيانا باللغة الثالثة — قد أخذت تشيع بين الناس ويتضافر مفعولها مع تأثير التعليم .

لذلك نعتقد أن قضية اللغة العربية ، وما تعانيه من صعوبات فى الأداء والتبليغ فى ميادين الفكر والعلوم ، إنما هى قضية حضارية ، لا قضية لغوية . والأمر فيها راجع إلى موقف الشعوب العربية ، وراجع أولاً وبالذات إلى موقف النخبة المستنيرة وصحة عزيمتها على كسب الرهان الحضارى الذى تواجهه .

فكثيرا ما يتساءل المثقفون : هل العربية فى مقدورها أن تصبح من جديد لغة العلوم والفنون الصناعية ؟ ويبدو أن السؤال ينبغى أن يكون : هل المجتمعات العربية قادرة على إعطاء اللغة العربية هذه المكانة ؟ وذلك مرتبط بقدرتها ، أى قدرة هذه المجتمعات ، على أن تنبت فئة من رجال الفكر والعلم يساهمون فى عملية الإنشاء والابتكار ، عوض الاقتصار على الاستهلاك السلبى بالنقل والتقليد .

فالقضية تعود إذن فى آخر الأمر إلى قدرة المجتمعات العربية على الخروج من طور التخلف واللحاق بركب الحضارة الجديدة والمشاركة الإيجابية فى تشييد هذه الحضارة .

وبذلك نلمس مدى التضامن المكين بين النهضة الثقافية والنهضة الحضارية التى تهم المجتمع كافة ، وهو من الأسباب الرئيسية التى من أجلها لم يكتب لما سمى بـ « النهضة » عندنا أن ينمو، ويؤتى أكله، ويشع على جميع قطاعات المجتمع ، إذ تصدت النهضة للهياكل السطحية، ولم تعمد إلى تغيير الأوضاع الباطنة العميقة الجذور .

وليس معنى ذلك أننا غير مطالبين بأى عمل فى المجال الثقافى ، ريثما تخرج مجتمعاتنا من التخلف . فإن ذلك يكون تنصلا من المسؤولية وإخلادا إلى التواكل . وبقدر

ما نرفض القول بعجز جوهرى كامن فى أحشاء اللغة العربية ، نأبى ترقب أى حل سحرى من وراء عملية الخروج من التخلف .

فالخروج من التخلف والنمو والتطور طريق شاقة طويلة ، ونضال شامل ، علينا فيه واجبات أكيدة ، عاجلة وآجلة نحو لغتنا وثقافتنا ومجتمعاتنا . ذلك أن النهضة عملية متضامنة الأوصال شاملة لكل القطاعات . وبناء ثقافة مّا إنما هو وجه من وجوه هذا النضال ، وضرب من الرهان ، ومغامرة تقتضى فحولة العزيمة إلى حد التعنت دون استكانة ولا رضى بالدون .

وأولى واجباتنا تجديد الروح والأساليب فى تثقيف النشء وذلك بأن تتجه العناية إلى تلقين لغة حية مرنة صالحة لأداء معان مضبوطة . ولابد لذلك من الإقلاع عن حشو الأدمغة بألفاظ وصيغ لاتدعو الحاجة إلى حفظها وكثيرا ما سبق حفظها تصور مدلولاتها ، وقليلا ما يعنى بضبط معانيها والتمييز بينها وبين مترادفاتها . على هذا النحو نتمكن من إعداد آلة طيعة تمتاز بما تمتاز به اللغات العصرية من سهولة التركيب ودقة التعبير ووضوح التبليغ . ذلك أن تعليم اللغة عند الأمم المتقدمة إنما هو ترويض للفكر على مسالك الوضوح والدقة والضبط .

ولاشك أن لمجمع اللغة العربية دورا هاما فى الحفاظ على اللغة ، فى أوسع معانى الحفاظ وأنبلها وأبعثها على الاعتزاز ، إذا نحن اعتبرنا الحفاظ لايقف عند مجرد الإبقاء ، بل يتعداه إلى ضمان الوسائل الكفيلة بأن تستعيد العربية مكانتها الحضارية ؟

وإنه لمن حقه المساهمة — وقد تصدى لذلك منذ تأسيسه — فى جعل العربية فى مستوى مقتضيات العصر فى كافة الميادين الحيوية .

ولئن كان من الطبيعى ، بالنسبة إلى المصطلحات الحديثة ، أن نجرب طرقا مختلفة لنقلها إلى العربية ، فقد وفق إلى السبيل المثلى حين أعرض عن ترجمة المفردات الغربية بصورة مبدئية دون مراعاة تأكد الحاجة إليها ، ووجه عنايته إلى ما يتوقف عليه التعليم أو تستوجبه البحوث العلمية والفنون الصناعية . ذلك أنه لافائدة ترجى من اصطلاحات لاتدعو الضرورة إلى استعمالها فورا ، فتبقى نسيًا منسيًّا ، ولا تكون لها أى « جدوى » علميه ولا اجتماعية .

وفى صورة مراعاة الحاجة الماسة ، فإن النظر فيما قد يكون شاع استعماله على ألسنة أهل الذكر خير من استنباط مفردات يعسر فرضها فى واقع الاستعمال . لذلك يحسن تشريك أهل الذكر من كل البلاد العربية حتى لاتستقر فى بعض البلاد ألفاظ تكون مجهولة فى غيرها .

أما فى خصوص سائر الأغراض العامة ، فمن حق المجتمع أن يشرف بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، على إعداد معجم يكون

أداة تثقيف عام ، لا تؤخذ الألفاظ فيه مفردات ميتة ، بل تضبط فيه مختلف وجوه استعمالها ، مبوبة ، ومعززة بشواهد مقتبسة من أهم المراجع القديمة والحديثة .

وبذلك يتسنى مراقبة تطور اللغة ،وضبط مقاصدها الجديدة وإصلاح ما تسرب إلى تراكيبها من فساد أو عجمة ، لا فى الصحافة فقط ، بل أحيانا على ألسنة خاصة المثقفين وفى كتاباتهم ، وأحيانا كثيرة أيضا فى النصوص الرسمية التى هى من وثائق الدولة .

وكثيرا ما يعزى شيوع الخطأ واللحن إلى أن العربية معقدة من حيث قواعدها غامضة من حيث كتابتها . وصحيح أن لغتنا صعبة المراس فى نحوها وصرفها ، كما أن هجاءها لايدل دلالة واضحة على نطق ألفاظها وما ينتاب الكلم من أحوال داخل الجملة .

ولاشك أنه من المفيد ، لاسيما فى مراحل التعليم الأولى ، تلافى هذه الأنقاص حتى يسهل على المتعلمين حذفها ،واجتناب الرطانات التى تعلق باللسان ،ويصعب بعد إزالتها .

وقد اشتكى الأجانب من هذه العقبات التى تعترض سبيل من يريد تعلم العربية . وقد قيل عن الكتابة العربية إن قراءتها متوقفة على فهم المعنى ، بينما الشأن فى اللغات الأوربية أن تكون القراءة وسيلة إلى فهم المعنى ،وقال بعضهم أن العربية لغة نحاة فقهاء .

ولئن كانت هذه الملاحظات على جانب من الصحة ، رغم مافيها من مبالغة مقصودة ، فإنه يمكن الرد عليها بأن كتابة اليابانية مثلا على جانب غير قليل من العسر والتعقيد ، ولم يمنع ذلك أبناءها من تحقيق ماهم عليه اليوم من جمع غريب بين متناقضين : المحافظة الشديدة على التراث والتقاليد ، والتقدم المذهل فى العلوم والفنون الصناعية والاقتصاد حتى إن بلدهم ليعتبر فى طليعة البلاد المتقدمة.

ولست أقصد من ذلك أنه لاحاجة بنا إلى تيسير اللغة ، بل قصدى أنه لاينبغى أن نحمّل اللغة تبعة ما نشكوه اليوم من وهن وتخلف فى الميدان الثقافى والحضارى .

ومثل هذه القضايا لاتحل باجتهادات فردية ، وليس لأى قطر أن يشترع فيها بمفرده ، وبمعزل عن بقية الأقطار ، وإلا انفصمت تلك اللحمة التى هى من أنفس مكاسب الثقافة العربية .

وإنه من حظ العربية أن كان لها هذا المجال الفسيح الذى يتمثل فى مجموعة كبيرة من الشعوب ،ولم يتهيأ مثله إلا لقلة من اللغات الحية .

على أنه ينبغى أن نصارح أنفسنا بأن كسب ثقافتنا اليوم من هذا المجال الفسيح لم يكن على قدر أهمية المجموعة البشرية المنتسبة إليها .

وأول سبب فى ذلك تفاوت هذه الشعوب فى النمو والطاقات الفكرية . فكان الحمل على كاهل عدد قليل . ومن الطبيعى أن يكون دور بعض الأقطار فى تغذية الثقافة أوسع مدى وأقوى فاعلية بحكم درجة نموها وأوضاعها التاريخية والاجتماعية .

ومن الطبيعى أن يكون دور مصر فى طليعة هذه الجهود الرامية إلى التقدم بالفكر العربى أشواطا نحو الوضوح والموضوعية والنفاذ إلى قضايا الإنسان الجوهرية ، والسيطرة على ما به المعاش فى يوم الناس هذا .

غير أنه ، إلى جانب هذا السبب الأول المتمثل فى تفاوت الثقافات ، يقوم سبب ثان وهو سوء تنظيم العلاقات الثقافية بين مختلف البلاد العربية .

وحبذا لو وضع المجمع فى جدول أعماله النظر فى مشروع يهدف إلى إقامة « سوق ثقافية مشتركة » ، فيتقدم به إلى الحكومات المعينة لتتولى هى دراسة شروطه ومقتضياته ونتائجه فى المجالين الثقافى والاقتصادى .

فليس من شك أن لجميع الاقطار مغانم عاجلة ومصالح آجلة فى قيام علاقات تضبط بوضوح نظام المبادلات الثقافية بينها ، على قاعدة تضافر الجهود بحسب الاشتراك فى المنافع .

وإذا ما تسنى لهذه السوق المشتركة أن تؤسس على مبدأ مساهمة كل قطر مساهمة فعلية ، وقابلة للنمو والتطور ، فى كافة ميادين الفكر والفن والعلم ، وبالنسبة إلى كل عمليات الإنتاج والنقل والنشر ، فإن الثقافة العربية بذلك تستطيع أن تحقق قفزة عظيمة نحو اللحاق ، بمستوى الثقافات الناهضة .

سيادة الرئيس :

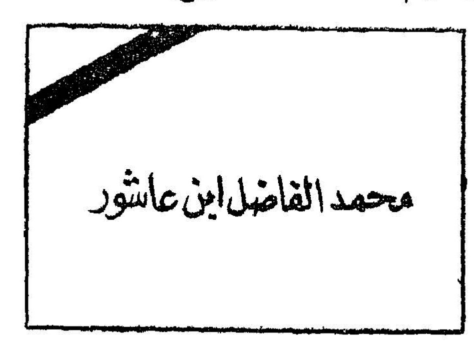
حضرات السادة والسيدات .

إن مجمع اللغة العربية قام بأعمال جليلة ولا تزال العربية تنتظر منه جليل الخدمات وعظيم الجهود فى الذود عنها وتفجير طاقاتها. ويكفيه عزاءً أنه دوما محط الآمال وكعبة القصّاد بفضل ما اجتمع فى رحابه من كفاءات ممتازة ومتنوعة .

والله ولى التوفيق ، وإليه نتجه بالحمد أولاً وآخرا .

فى الساعة الخامسة من مساء الخميس ٢٢ من ذى الحجة سنة ١٣٩٠ هـ الموافق ١٨ من فبراير سنه ١٩٧١ م أقام المجمع حفل تأبين لفقيده المغفور له الأستاذ الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور عضو المجمع من تونس ، الذى استأثرت به رحمة الله فى ١٩٧٠/٤/١٩ . وفيما يلى ما ألقى فى هذا الحفل :

كلمة الأستاذ زكى المهندس فى تأبين المرحوم الأستاذ الشيخ :



حضرات الزملاء .

سيداتى سادتى :

يعز علينا أن نجتمع الليلة لتأبين زميل كريم وعالم جليل هو المغفور له الأستاذ محمد الفاضل ابن عاشور عضو المجمع من تونس الشقيقة .

لقد كانت وفاته مفاجأة أليمة لنا جميعا ، فقد كان رحمة الله بيننا فى المؤتمر الماضى متمتعا بأكمل صحة مملوءا حيوية ونشاطا ، شأنه فى كل مؤتمر فكانت وفاته صدمة شديدة الوقع على نفوسنا . فما من دورة من دورات المؤتمر إلا وجاء إلينا الفقيد حاملا ثروة علمية ضخمة أعدها من دراسته الواسعة وعلمه الغزير وثقافته العربية والغربية الممتازة .

على أننا إذ نبكى الفقيد الليلة لانبكى فيه عضوا مجمعيا نشيطا منتجا فحسب ، وإنما نبكى فيه رجلا عربيا أصيلا ، وعالما من أعلام القضاء ، ورائدا من رواد الفكر الإسلامى . ولعل من أعجب تصاريف القدر أن الفقيد طيب الله ثراه وقف هنا — وفى هذه القاعة نفسها — منذ زمن قريب يؤبن زميله وصديقه العالم الجليل المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب ، يبكى فيه علمه وخلقه. وما كان أحد يدرى أنه هو نفسه سيصبح مرثيا بعد أن كان راثيا ، ومبكيا عليه بعد أن كان باكيا . ولكن ما حيلتنا فى قضاء الله الذى لاراد لقضائه ولا معقب لحكمه . تلك هى طبيعة الحياة ، ما يكاد يرى فيها الإنسان مخبرا حتى يرى خبرا من الأخبار . رحم الله الفقيد وأجزل مثوبته، وأسكنه فسيح جناته .

• • كلمة الدكتور ابراهيم مدكور :

سيدى الرئيس ، سادتى

نودع اليوم شيخا جليلا ، وزميلا كريما اختطف منا على عجل ، وحرمنا من علمه وفضله ، ونحن أحوج مانكون إليه .

والموت نقاد على كفـــه
جواهر يختار منها الجيـاد

نودع الفاضل ابن عاشور ، وقد كان فاضلا حقا ، سماه كذلك جده لأبيه ، وكأنما كان يكتنه الحجب . فجاء ابن ابنه فاضلا فى زيه وسمته ، يملأ العين جلالا ووقارا ، والقلب تقديرا واحتراما ، وفاضلافى قوله وعمله ، حديثه جد لا هزل فيه ، ومسلكه قدوة حسنة ، أدب جم ، وتواضع بالغ ، وعطف ورأفة ، وبذل للنفس والمال فى سبيل الخير والناس .

ونودع عالما كبيرا ، وإماما من أئمة الأدب واللغة والفقه والتشريع ، ورائدا من رواد الإصلاح والتجديد . وكم نعمنا نحن هنا بأدبه الرقيق ، وبحثه العميق ، ودرسه الواسع . لايعنى إلا بدقائق الأمور ، ولايعرض إلا للمعضلات ، كان حجة فى تراثنا الإسلامى جميعه ، وبخاصة ماخفى منه من أخبار المغرب وبلاد الأندلس ، ومحيطا بثمار الثقافة الغربية وما انتهت إليه من علم وفلسفة ؛ فاستكمل وسائل الدعوة إلى الإصلاح والتجديد ، واضطلع بها فى إيمان ويقين ، وجد وإخلاص ، حريصا على أن يربط الحاضر بالماضى ، وأن يلائم بين الجديد والقديم .

ومجال القول فيه ذو سعة ، وفى سيرته عبرة ، وفى علمه نفع كبير . وحسبنا الآن أن نؤرخ له فى اختصار ، وأن نعرض لشئ من جوانب نشاطه وثقافته الواسعة .

* * *

ولد الفقيد الكريم فى الثانى من شوال عام ١٣٢٧هـ ، الموافق ١٠ من أكتوبر عام ١٩٠٩م ونشأ فى بيت علم وفضل ، وتتلمذ لوالده ، وهو إمام فى علوم الدين واللغة ، قبل أن يتتلمذ لمعلم آخر . تتلمذ له فى صباه ، فبدأ تحت إشرافه فى حفظ القرآن ولما يجاوز الثالثة وفى تعلم القراءة فى بعض كتب المطالعة المصرية ، وحفظ بعض المتون كالأجرومية والألفية وهو فى السادسة . ووجه فى العاشرة إلى تعلم اللغة الفرنسية على أيدى معلمين خصوصيين فى منزله . وكأنما أريد به أن تقصر طفولته على بيته وأسرته ، فلم يدخل المكتب الابتدائى ، ولم يعرف من الأطفال إلا أبناء الأقارب . وفى الثالثة عشرة من عمره بدأ يدرس القراءات والنحو والفقه والتوحيد . وفى العام التالى التحق بجامع الزيتونة ، وبقى

به إلى أن تخرج فيه ، ومنذ ذلك لم تنقطع صلته به ، تولى التدريس به فى سن مبكرة ، وبقى يتدرج طبقة بعد طبقة إلى أن أصبح أستاذا وقد جاوز الأربعين بقليل ، ثم عميدا للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين عام ١٩٦١ ، ولكنه لم يبعد قط عن والده وأستاذه الأول ، عاش إلى جانبه طول حياته ، واستمع إلى دروسه فى الأدب والتفسير والحديث بجامع الزيتونة مدة خمس سنين ، ودرج طول حياته على أن يقرأ بين يديه كل ليلة من ليالى رمضان بعد صلاة التراويح قدرا من كتب الحديث والرجال واللغة ، كالبخارى ومسلم ، والإصابة ، والنهاية ، ولسان العرب . وقد نعمت بلقاء الأب والابن ، وأشهد أنى لم أر مثله ابنا هو سر أبيه وصورة كاملة له .

وإلى جانب هذه البيئة الخاصة تفتحت أمامه آفاق شتى ، واتصل بالحركات الثقافية فى العالم الإسلامى عامة ، وفى شمال إفريقية خاصة ، ولم يفته أن ينهل من حياض الثقافة الغربية . رحل إلى فرنسا لأول مرة وهو فى سن السابعة عشرة ، وكان لهذه الرحلة أثر كبير فى نفسه ، ثم توالت رحلاته إلى أوربا وبعض بلاد الشرق الأدنى . واشترك فى عدد غير قليل من الندوات والمؤتمرات ، ودعى للتدريس فى كثير من المعاهد والجامعات وأسهم فى عدة هيئات ، كالرابطة الإسلامية بمكة ، والجامعة الإسلامية بالمدينة ، وجمعية الجامعات الإسلامية بفاس . واختير عضوا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٦١ ، وعضوا بمجمع البحوث الإسلامية فى العام التالى .

وللقاهرة فى نفسه منزلة خاصة ، يحن إليها عن بعد ، ويطيب له المقام فيها عن قرب . يتتبع نشاطها الثقافى ، ويجد فى لقاءاتها الفكرية متاعا لايعادله متاع . ولا أزال أذكره ، وهو واقف بيننا فى العام الماضى يقول : «حياك الله يا أرض الكنانة ، وبارك لك فى هذا الجارى من صعيدك إلى شطك ، يتدفق خيرا ، ويترقرق ريا ، ويتألق نورا ، ويترفع طهرا وصفاء . وهل يجد أليف عهدك — يامصر — خيرا من نيلك السعيد ، يحييك به ، وهو الذى تحيين به أنت كل وافد عليك ، كما كان آل جفنة ، فيما شهد حسان ، يسقون قاصديهم : بردى يصفق بالرحيق السلسل . فهذه تحيتك — يامصر — تعود إليك ، لانجد أحسن منها حتى نحييك بها » .

اضطلع الفاضل بالإفتاء والقضاء ، إلى جانب عمله فى الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين ، وكان التدريس أحب إلى نفسه . حاضر فى القرية كما حاضر فى المدينة وخطب فى العامة كما خطب فى الخاصة ، وكان محببا إلى طلبته ومستمعيه ، يحرصون على حضور درسه ، ويسارعون إلى استماع خطبه ومحاضراته . وجل مانشر من مؤلفاته ، إنما هو مجموعة دروس ومحاضرات ألقاها ، أو بحوث أعدها لندوة أو مؤتمر . فدعى عام ١٩٥٥ إلى معهد الدراسات العربية العليا

بالقاهرة ، وألقى سلسلة من المحاضرات أخرجت فى كتاب كبير تحت عنوان : « الحركة الأدبية والفكرية بتونس » ونشر له مجمع البحوث الإسلامية أخيرا بحثا قيما : « فى التفسير ورجاله » . وله فى مجلة مجمعكم ومجموعات محاضراته بحوث لها وزنها وقيمتها ولو تخفف من بعض أعبائه ومُدّ فى أجله لغذى المكتبة العربية بغذاء أوفر . وله دراسات بالفرنسية قدمها فى بعض المؤتمرات الدولية . ويغلب على الظن أن له مخلفات لم تنشر بعد ، ونعتقد أن أصدقاءه وتلاميذه لن يترددوا فى إخراجها إلى النور ، كى يفيد منها القراء والباحثون .

* * *

هذه فى إيجاز هى حياة الفقيد التى كانت ملأى بالنشاط والعمل ، غنية على قصرها بالدرس والبحث . ونود أن نقف عند ثلاثة فقط من جوانبها :

(١) الفاضل ابن عاشور مؤرخ الفكر الإسلامى :

فى وسعنا أن نقرر أن تاريخ الدراسات الإسلامية على اختلافها لم ينل بعد حظه ، ولم يكتب كتابة دقيقة مستوعبة ؛ فلم يكشف عن أصولها ، ولم تتضح مراحل نموها وتطورها ولم تعرف آثارها فى الحركات الفكرية الأخرى ، ولم تبين أسباب جمودها وتخلفها . ولا تزال فى ذلك كله عالة بوجه خاص على ابن خلدون فى « مقدمته » ، وقنعنا فى الغالب بالصورة الأخيرة التى وصلت إلينا . وقد أحس بهذا النقص فقيدنا ، كما أحس به معاصرون آخرون ، ومكنته ثقافته الواسعة من تدارك شئ منه . ومن أوضح ما حاوله فى هذا الباب مؤلفه الذى أشرنا إليه من قبل « فى التفسير ورجاله » والذى ظهر بعد موته بقليل ، ويقع فى نحو ١٨٠ صفحة من القطع الصغير .

ويعالج هذا المؤلف تاريخ علم التفسير منذ نشأته إلى اليوم ، من ابن عباس إلى محمد عبده و « تفسير المنار » ، ويوضح مناهج التفسير المختلفة من أخذ بالمأثور ، أو بالنظر والمعقول ، أو من جمع بينهما ، ويربط التفسير بموضوع إعجاز القرآن الذى كان له شأن فى نمو هذا العلم وتنوع أبحاثه وطرائقه ، وفسر هذا الإعجاز على صور شتى ، فقيل بالإعجاز الغيبى ، والإعجاز العلمى . والإعجاز البلاغى ، ويعرف المؤلف بكبار المفسرين وأهم كتبهم فى المراحل المتلاحقة ، ويقف طويلا عند بعض الأعلام ، كالطبرى والزمخشرى والرازى والبيضاوى بين القدامى ، وكالألوسى ومحمد عبده بين المحدثين . وله فى كل هذا ملاحظات دقيقة ومقارنات شائقة .

ويمكن أن يضاف إلى هذا بحثان آخران لا يخلوان — على قصرهما — من جدة وطرافة ، وهما : أولا : « الاجتهاد ، ماضيه وحاضره » وقد ألقى فى المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية ، ويستعرض فيه باختصار الأدوار

التى مر بها الاجتهاد والتشريع الإسلامى منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا . فيشير إلى كبار المجتهدين من الصحابة والتابعين ، وإلى نشأة المذاهب الفقهية الكبرى ويعرض لاختلاف المجتهدين ، باختلاف طبائعهم وميولهم ، ومدى تفهمهم للنصوص من كتاب أو سنة ، وتباين العادات والتقاليد من بلد إلى آخر . وقد عرف من قديم تسامح ابن عباس وتشدد عبد الله بن عمر ، واختلاف تشريع المدينة عن تشريع العراق والشام ومصر . ويلاحظ فقيدنا بحق أن المشرعين من الصحابة والتابعين ورجال القرنين الثانى والثالث للهجرة كانوا أكثر منا طلاقة وحرية فى قياس الأشباه والنظائر واستنباط الأحكام الشرعية . ويوم أن استكملت المدارس الفقهية بحوثها ، واستقرت أصولها وفروعها ؛ قنع أتباع كل مدرسة بالأخذ عنها ، وضاق منذ القرن الرابع مجال الاجتهاد والاستنباط فى التشريع ، وذهب إمام الحرمين فى القرن الخامس إلى أن ليس ثمة موضوع لم يعرض له الفقهاء السابقون . وتنوسى الاجتهاد أو كاد ينسى ، واستمسك العامة والخاصة بالتقليد ، الأمر الذى لم يرق ابن تيمية ولا تلميذه ابن قيم الجوزية فى القرن الثامن ، ورفضا معا تقليد المذاهب الأربعة ، ودعوا إلى الرجوع إلى ماكان عليه السلف . وظهرت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بوادر دعوة إلى شئ من التحرر على أيدى الدهلوى فى الهند والشوكانى فى اليمن ، وعززها الأستاذ الإمام فى القرن الرابع عشر ، وترتبت عليها اتجاهات عملية تختار من المذاهب السابقة أنسبها للظروف الحاضرة . ولاشك فى أن العالم الإسلامى كان عرضة منذ القرن الماضى لاعتبارات وأوضاع جديدة لم يعرفها السلف ، ولابد من مواجهتها بتشريع واجتهاد طليق على نحوما صنع الأوائل ولم يكن الاجتهاد فى التشريع منذ بدأ من عمل العامة والدهماء ، وإنما اضطلع به الخاصة ، بل خاصة الخاصة ، وحبذا لو تكوّن — كما يرى الأستاذ الكبير الطاهر ابن عاشور والد الفقيد — مجلس إسلامى يضم كبار فقهاء المسلمين فى العالم أجمع لمواجهة التطورات الحديثة ، وما أشبه هذا المجلس بمجمع البحوث الإسلامية فى مصر .

وأما البحث الثانى فيدور حول « السند التونسى فى متن اللغة » ، وقد نشر فى الجزء التاسع عشر من مجلة المجمع — وفيه عرض شامل للدراسات اللغوية وشيوخها فى الأندلس وشمال إفريقية من القرن الرابع إلى آخر القرن الثامن الهجرى ، ثم انتقل السند إلى مصر ، وتلقاه ابن حجر والسيوطى والمرتضى الزبيدى . ويشهد هذا البحث مرة أخرى على مدى تمكن الفقيد من تاريخ الثقافة العربية فى نواحيها المختلفة ، وعلى مدى معرفته لكبار الرجال ، إن فى الفقه ، أو فى الأدب أو فى اللغة .

(٢) الفاضل ابن عاشور المجمعى :

لاترجع صلة فقيدنا بمجمع اللغة العربية إلى عام ١٩٦١ فحسب ، يوم أن اختير لعضويته العاملة ، بل تصعد إلى أبعد من ذلك —

فقد كان يتتبع نشاطه منذ إنشائه ، وكان يعتز باشتراك عضوين عاملين فيه كانا من أحب الناس إليه ، وهما الخضر حسين ، وحسن حسنى عبد الوهاب ، واشتراك والده أطال الله بقاءه ، فى بحوثه وأعماله بالمراسلة . وكان يعتز أيضا بشيوخ المجمع الآخرين من عرب ومصريين ، ويقدر ما انتهوا إليه من اقتراحات وقرارات ترمى إلى تطويع اللغة لحاجات العصر ومقتضيات العلم والحضارة الحديثة . كان يؤمن بهذه الرسالة إيمانا جازما قبل أن يدخل المجمع ، ويوم أن دخله لم يتردد فى أن يسهم فيها بكل ما وسعه من علم وخبرة . ولقد قضى معنا عشر سنوات كاملة كلها خصب وإنتاج ، ولم يتخلف عن مؤتمر من مؤتمراتنا إلا لضرورة قاهرة . وأخذ الكلمة فى افتتاح مؤتمر الدورة الثلاثين والدورة السادسة والثلاثين ، وأبن فقيد تونس الكبير الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى الدورة الخامسة والثلاثين . وغذى المجلة ببحث قيم سبق أن أشرنا إليه ، وقدم للمؤتمر بحثين هامين فى الدورة الثلاثين والدورة الرابعة والثلاثين ، أولهما : « تحرير أفعل التفضيل من ربقة قياس نحوى فاسد » ، والثانى : « المصطلح الفقهى فى المذهب المالكى » . ولن نقف عند ملاحظاته الدقيقة وتعليقاته النافعة على بحوث وموضاعات عرضت فى المؤتمرات الماضية ، ويكفينا أن ننوه بهاتين الدراستين .

فأما الدراسة الأولى فوليدة تجربة لرجل عاش مع القواعد النحوية والصرفية زمنا غير قصير ، ولمس مافيها من أقيسة جاوزت الحد ، واستنتاجات لم تبن على تحر تام للاستعمال القديم ، لاسيما لدى البصريين المحدثين . ورأى أن فيها « مجالا للنظر ، وأن من الخير أن نقللها ، وأن نتحرر من وثاقها ما أمكن توسيعا للغة ، وتيسيرا على طلابها » . ومن أوضح الأمثلة على ذلك أفعل التفضيل وهو من التصاريف التى تتجلى فيها عبقرية العربية ، ويشيع استعماله اليوم لتقدير النسب وضبط القيم ، وتفضيل صفة أو أمر على آخر . ولكن النحاة ضيقوا أوزانه ، وأثقلوه بشروط كثيرة تعقد استعماله . وفى بحث جاد عميق حاول الفاضل ابن عاشور أن يفك هذه القيود ، وأن يبين مافى هذه الشروط من تزيد وتعسف . وقد استقبل المجمعيون بحثه بحماس وتقدير بالغين ، وقضت لجنة الأصول بالمجمع فى نظره زمنا طويلا ، وعقبت عليه بدراسات أخرى متعددة . وانتهت إلى الأخذ بكثير مما قال به من تيسير أمر هذه الصيغة ، وتمكين الناس من استعمالها فى طلاقة . وعنده أن باب الاجتهاد مفتوح فى النحو كما هو مفتوح فى التشريع ، وعلينا أن نيسر قواعده ، للدراسين والباحثين ، لأن اللغة ملك أبناء العروبة جميعا ، ونحن نريد بهم أن ينطقوها ويكتبوها فى يسر . وقد كان الفقيد ينوى أن يتقدم إلى المجمع بوسائل لتعلم النحو بطريقة تضمن تطهير العربية من اللحن ، ولاشك فى أن هذا أملنا جميعا وغايتنا ، المنشودة .

وأما الدراسة الثانية فبيان لنشأة المصطلح الفقهي في الإسلام ، وأنه ضرب من الوضع أدى إلى تكوين مجموعات من الحقائق العرفية التي تتميز من الحقائق اللغوية — وتعرض الفقيد لتاريخ المصطلح الفقهي في المذهب المالكي ، مبينا أنه نشأ في القرن الثاني على أيدي مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، ووريث الحركة الفقهية النشيطة بالمدينة في عهد الصحابة والتابعين : وقد عرف بمتانة السليقة وقوة الارتجال . وفي « الموطأ » قدر لا بأس به من هذه المصطلحات توارثه تلاميذ مالك من بعده ، وغذوه وصقلوه . ثم أخذ المذهب المالكي ينتشر في أقطار مختلفة ، مما أدى إلى اتساع لغة التعبير الفقهي وتنوعها وفي القرن الثالث وضع سحنون « المدونة » التي تشتمل على أربعين ألف مسألة ، وتعد الموسوعة الأولى في الفقه المالكي ، فزادت المصطلح وضوحا وضبطا ودقة . وجاء أبو زيد القيرواني ، فوضع في القرن الرابع عدة كتب ساعدت على الضبط والتحديد ، ولخص « المدونة » ، ففتح باب الملخصات التي شاعت في القرون التالية . ومن أهمها ما صنعه فقهاء مصر المالكيون كابن الحاجب والقرافي في القرن السابع ، وخليل في القرن الثامن : ولم يقنع هؤلاء الفقهاء بوضع المصطلحات ، بل عرفوها وجهدوا ماوسعهم في ضبط هذه التعريفات ، وانضم إلى هذا كتب القضاء والأحكام ، والتوثيق والفتوى ، التي طبقت المصطلحات النظرية تطبيقا عمليا .

وتوافر بهذا ثروة لغوية فقهية أفاد منها أساتذة الحقوق وعلماء القانون في العصر الحاضر ؛ وعليها عولوا فيما ترجموا وألفوا . ويذهب الفاضل إلى أن للفقه المالكي خاصة شأنا فيما ترجم من كتب القانون من الفرنسية وإليها بشمال إفريقية في المائة سنة الأخيرة .

ولا نزاع في أن الفقه كان أسبق الدراسات الإسلامية إلى تكوين لغته الخاصة ، وعنها أخذت دراسات إسلامية أخرى نشأت معه أو ظهرت بعده ، وقد لوحظ أن في النحو والمنطق مثلا ألفاظا يمكن ردها إلى المصطلح الفقهي . وحبذا لو عولج على هذا النحو المصطلح الفقهي في المذاهب الأخرى ، وجمع في قوائم ثابتة ، وتتبع تطوره في المراحل المتعاقبة . ففي ذلك ما يعين على ربط المصطلحات الفقهية بعضها ببعض ، وما يمكن من إحياء ما ينبغي إحياؤه منها .

(٣) الفاضل ابن عاشور أحد رواد الإصلاح والتجديد :

وختاما لا بد لنا أن نقول كلمة عن الفاضل ابن عاشور المصلح ، ودعوة الإصلاح في تونس قديمة العهد ؛ تصعد إلى أخريات القرن الماضي ، وتحذو حذو حركات النهوض في العالم الإسلامي ، وفي مصر خاصة ، تتصل بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وجمعية العروة الوثقى ، وكان لهذه الجمعية فرع في تونس ، يتلقى صحيفتها ويروج دعوتها وعلى رأسه الشيخ محمد السنوسي الذي طوف

بالبلاد الإسلامية ، واتصل بكبار مفكريها ، وعد عنوانا لعصره فى الدعوة إلى النهوض والتجديد ، وكان على علاقة مستمرة بالأستاذ الإمام . ويوم أن عطلت جريدة العروة الوثقى سافر محمد عبده إلى تونس عام ١٨٨٤ وأقام نحو أربعين يوما لقى فيها أعضاء العروة الوثقى من التونسيين ، وتبادل الحديث معهم فى شئون الإصلاح الدينى والاجتماعى ، وكان لزيارته أثر كبير ، وما إن سافر إلى بيروت حتى أخذت سلطات الاحتلال تنكل بأنصاره ، وبخاصة السنوسى .

وقد تهدأ دعوات الإصلاح أحيانا لكى تتفادى العاطفة ، ثم لا تلبث أن تستأنف نشاطها . وفى عام ١٨٩٦ أنشئت الجمعية الخلدونية على هدى من تعاليم الأستاذ الإمام : لنشر العلوم العصرية باللغة العربية من جغرافيا وتاريخ واقتصاد ، وعلوم طبيعية ورياضية . وأقبل عليها طلاب الزيتونة ، ورغبوا فى أن يمتد هذا التعليم إلى معهدهم ، واستجاب المسئولون لذلك . وأخذت حركة الإصلاح تقوى وتشتد ، متأسية بما كان يجرى فى مصر على أيدى محمد عبده وما كان ينشر فى « مجلة المنار » . وغذاها فى أول هذا القرن شاب من طلبة الزيتونة والخلدونية ، غريب الشكل والنزعة والمنطق والقلم ، هو عبد العزيز الثعالبى . عاش فى مصر زمنا ، ثم عاد إلى تونس يردد أفكار جمال الدين ومحمد عبده ، ويدعو إلى فهم الدين والوجود . وفى هذا كله ما دفع محمد عبده إلى أن يزور تونس مرة أخرى فى عام ١٩٠٣ ، قبل وفاته بعامين ، واهتزت لزيارته أندية العلم والأدب ، والتف حوله رجال الإصلاح ، ومن بينهم شاب فى الرابعة والعشرين هو الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور والد الفقيد ، أطال الله بقاءه ، وكان من أبرز مدرسى الزيتونة ، شبابا وذكاء ، وعلما وأدبا ، وعده الأستاذ الإمام سفير دعوته فى الزيتونة .

فى هذا الجو نشأ الفاضل ابن عاشور ، وربى فى بيت من بيوت شيوخ الإسلام ودعاة الإصلاح ، وكان طبيعيا أن يسير فى ركب أبيه . وفى سن العشرين أخذ يتصل بحركات الإصلاح ، فانغمس فى العمل بالجمعية الخيرية ، وارتبط بالجمعية الخلدونية ، وبدأ يحاضر فيها إلى جانب الشيوخ الكبار . واتصل أيضا بجمعية قدماء الصادقية ، وهى دعامة جديدة من دعائم الإصلاح فى تونس ، ربى أعضاؤها على أساس من الثقافة الفرنسية ، ولكنهم ما لبثوا أن مزجوها بالثقافة العربية ، وتلاقوا مع الخلدونيين فى الدعوة إلى الإصلاح . ولقد كان الفاضل مؤمنا بالحضارة الإسلامية الإيمان كله ، يراها حضارة تعتد بالإنسان كل الاعتداد ، وتقوم على دعامة روحية دون أن تهمل شأن المادة . وكان ملما إلماما دقيقا بأسرارها ، ومتفتحا لما فى الحضارة الغربية من جوانب نافعة . وكان همه أن يلائم بين هذين الطرفين وأن يبين أن تعاليم الإسلام لا تتعارض فى شيء مع النهوض الجاد والتقدم السليم . نفذ إلى روح الإسلام ، وأدرك فى وضوح

رسالته الخالدة ، وأخذ ينشرها بلغة العصر ، فقرب المسافة بين القديم والجديد ، وربط الماضى بالحاضر . وحبب إلى الشباب الذين رأوا فى درسه ما تطمئن إليه قلوبهم ، وما تدعو اليه حاجة النهوض والتقدم .

أخذ بما ارتآه الأستاذ الإمام من أن النهوض الحق هو ما قام على دعائم ثقافية سليمة ، فعدل مناهج الدراسة بكلية الشريعة وأصول الدين . وما إن تولى رياسة الجمعية الخلدونية عام ١٩٤٥ ، حتى أنشأ بها معهد البحوث الإسلامية ، ونظم مؤتمر الثقافة الإسلامية عام ١٩٤٩ ، وكان مضرب المثل فى درسه وبحثه ، فى حديثه وكتابته ، لاتكاد تعرض مشكلة من مشاكل الحضارة إلا واجهها مواجهة تامة ، وقدم لها الحلول السليمة ، وجهد ما وسعه فى أن يوفق بين تعاليم الدين ومقتضيات الفكر الحديث . وكان يرى أن الثقافة الإسلامية إن فهمت على وجهها لم يبق محل للاختلاف عليها ، وهى خير وسيلة لجمع كلمة المسلمين وضم شملهم . وقد أنفق جهدا غير قليل فى الدعوة إلى الإخاء والوحدة . وحدة المغرب الكبير ، ووحدة العالم العربى ، بل وحدة المسلمين عامة .

* * *

سيداتى ، سادتى

هذا هو الفاضل ابن عاشور الإنسان الذى أسر القلوب بإنسانيته ، والمسلم الصادق الذى وقف حياته على خدمة الدين ونصرته ، والفقيه الضليع فى فقهه ، واللغوى الحجة فى لغته . فقدناه ، ففقدنا مرشدا حكيما ، عرف كيف يحبب الناس فى دعوته . فقدناه ، ففقدنا طرازا من دعاة النهوض والتجديد الذين ليس من اليسير أن نجد من يخلفهم أو يحل محلهم . بكته تونس ، وبكته معها مصر أحر البكاء ، وبكاه كل من عرفه من أبناء العروبة والإسلام . تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته ، وألهمنا وآله الصبر والسلوان .

• • قصيدة للأستاذ عزيز أباظة :

ردَع الردى . وهو القوىُّ الرادعُ
للراحلين ، مآثر وصنائعُ

حَتْمٌ على ثَبَجَ الحياة يزيلها
وتزيلها هى ، وهى ذكرٌ ذائعُ

ماما ت من خلفاؤه حسناته
تزكو عوارفها ، وفضلٌ شائعُ

لهفى على الإنسان . عمرٌ ضيقٌ
ومدار طاقته الجليلُ الواسعُ

مُسْتخلَف هو فى الزمان لِربِّه
وبقاؤه فيه السرابُ الخادعُ

تُرجَى بدائه عَقْله فإذا ذكا
إشراقها ، دهَم الحِمامُ الفاجعُ

سبعونه إن عاشها وهى المدى
تمضى كما ينجابُ برقٌ لامعُ

لو أُنصِف الإنسان أُرْجِئَ يومُه
فترفُّ عنه روائعُ وبدائعُ

لكنها سُنَن الوجود ، جمادُه
باق ، وللحى الحِمام مُسارعُ

* * *

المجمعىُّ الثَّبت أَدركه الردَى
فى حين يُرجى منه نفعٌ جامعُ

حامٍى عن الفصحى ، وذادَ بمنطق
كالصبحِ لايَقْوى عليه مُقارعُ

وإذا احتبَى ذو الرأى بالإيمان لم
يُرْهبه مخشىُّ البوادر دارعُ

يا فاضل الفضلاء يابن عشيرة
زان الحِجَى فيها القنوتُ الخاشعُ

آباؤك المرضىُّ عن آلائهم
للسالكين وسائلٌ وذرائعُ

للعلم بين صدورهم حَرَم وفى
أَفنائهم للصالحات مطالعُ

خلَّفت مَجْمعك الحزين وأنت فى
أَعلامه العلَم الأَشَمُّ الفارعُ

فى كل معضلة تهيج به ومبـ
ـهمة تناشبه فقولك قاطعُ

تُدلى به مستوثقاً متواضعا
لله ذاك العالِمُ المتواضعُ

وإذا خطبتَ فمِصْقَعٌ مترسِّلٌ
لَهجتْ به فى المِدْرهين مصاقعُ

واذا احتشدتَ مُحاضرا أو شارحا
انهلَّ عنك العارضُ المتدافعُ

وإذا سكتَّ فرب صمتٍ فاصل
فيه الخطاب . وللسكوت مواضعُ

وجمعت بين العلم والآداب فى
نَسَق ، وجَمْعهما العسير الشاسعُ

عِلْم ، وما العلماءُ إلا مِشْعل
للخير هاد ، للضلالة قاشِعُ

أَدَب ، وما الأُدباءُ إلا عَيْلَمٌ
فيه لألوان الجمال مَشارعُ

لَهْفى على « الزيتونة العظمى » التى
ثكلتك حين مكانُها بك تالعُ

كالروض جانبه الولىُّ الهامعُ
والأُمِّ فارقها الحفىُّ النافعُ

إن زُلْتَ عنها فالألى زاملت من
أقطابها عُمُدٌ لها ومراجعُ

الأَزهر المعمور توأمها . وعن
صحنيهما انفجر الضياءُ الساطعُ

حِصنان للإِسلام ، ذاك بنوره
غازٍ ، وهذا مانع ومدافعُ

بكياك بالدمع الغزير وربما
سالت بحبات القلوب مدامعُ

* * *

يافاضل الفضلاءِ قد بارحتنا
وبقلبك الريَّان همٌّ قابعُ

مما أَصاب العرب فى أَقدارهم
هامٌ « منكَّسة » وخدٌّ ضارعُ

ليست مصارعنا نكال عدونا
سَقَطاتنا حُفَر لنا ومصارع

قُل للعروبة مغربًا ومشارقا
ما ناهضٌ يقظٌ كمن هو هاجعُ

نهج التغلب ليس رَهْوا ، إنه
للسالكيه زلازلٌ وزعازعٌ

ما بالوعيد ولا النشيد ولا الشعا
رات الزوائف يُستردُّ الضائعُ

كلا ولا يجدى ابتهالٌ ظاهر
يزجيه دمعاً ساجدٌ أو راكعُ
ندعو لأدْنَى الحقِّ يأْسُو جرحنا
دولاً ، وفينا الحق أعسر ظالع
ونهيب بالدنيا لتدعمَ حقنا
وحقوق أكثرنا الغداةَ ضوائع
والحق وهو الحق ليس بقائم
مالم يسانده الجهادُ القامعُ
ما وَحْدة بين الصفوف مفيدة
حين الدخائل للخلاف نوازعُ
والكَرْه إن ندخله فى عَدد وفى
عُدَد ولم نُخْلص ، فجهدٌ خائعُ
أقسمت إن صفت النفوس وسالمت
ذِلَّ المواثبُ واستكان الطامعُ
قد آن أن نئد «الأنا» فإذا امَّحتْ
كشف الظلام لنا النهارُ الماتعُ

* * * *

يافاضل الفضلاء إن كرائم السـ
ـقم استبد بها العداةُ الجائعُ
فسدت موازين الشباب فلم نعد
ندرى ، أيافعةٌ مشت أم يافعُ
وانتابت الأَدبَ المقدَّس محنة
فإذا خمائله الوسام دوامـــعُ
ومسممين بكل ضغن واغـــر
طُويت عليه سَرائر وأَضالـعُ
ومَذاهب ، رجْسُ الوجود وشَرُّه
متراكبٌ فى روحها متدافـعُ
ثاروا على المأْثور مما أَبدعتْ
حِقَبٌ لعُلْوِىٍّ البيان جوامعُ
قالوا : نجدِّد ،قلت : فى عبث وما
العبث المهوَّس نافع أَو شافعُ
فالقصة انتُزعت بَدَائهُ عقلهـا
منها ، فسِيقت وهى هَذْرخالعُ
والشِّعر رُوِّعَ أيْكُه وكأَنمـــــا
زحمت بلابله عليه ضفادعُ
والرسم أَرعن ، كل خطوة ريشة
هاذٍ يُمجمج وَهْمَه ويتـــابعُ
وهوًى بموسيقى الجمال وسحرها
صخَبٌ إذا ينقضُّ قلتَ : قعاقعُ
الخطب فيك تموج فى أَسدافه
لغة أَلحَّ خصومُها وتشايعـــوا

زحفوا على أقداسها وتراثها

ولهم من الإحن العِمَاق دوافعُ

قالوا : لقد عجَز الفصيح فبات لا

يقوى على استيعاب ماهو واقعُ

كذَبوا على عِلم بأَن كذبوا فما

أَمٌّ اللغى إلا الخضم الواسـعُ

وسعت حضارةَ كل عصر فاحتوى

آفاقَ فكرته الفصيحُ الناصعُ

ولقد نظرتَ إلى جديدهم الذى

صُكَّت به فى المشرقين مسامعُ

فإذا بأَكثره المهيض جناحـه

إما المسِفُّ أَو الهُذاءُ الصـادعُ

ولعل سائغه هو المنشقُّ فى

قصد ، ومن بعض الأَصالة نابعُ

لن تُرزأَ الفصحى ، فحافظها على

شفة الدنا الذِّكْرُ الحكيم الجامعُ

* * *

يا تونس الخضراء عشت منيفةً

للسؤدد المكسوب فيك مَراتعُ

ولكل باذخ عزة موسومة

بالعتق فيك مَشارفٌ ومطَالـعُ

وعلى ثراك الطهر كم خلب الرُّبى

شادٍ ، وكم هز الخمائلَ ساجعُ

ياتونس الخضراء أَمسك إن يذق

عنتا ، فحاضرك الكريم الرائعُ

يهنيك أَنك أُمُّ شعب ناهض

حــر يسدده رئيسٌ بارعُ

قل «للحبيب أَبى رقيبة» :دمت قوّ

امَ البلاد لك المقـام الفارعُ

فاسلم وأَتمم مابنيت موفَّقاً

والله داعمُ ما بنيت ورافعُ

* * * *

يافاضل الفضلا إلى أَن نلتقى

يهفو إليك وفاؤنا ويطالـعُ

هذا مُصابك إنْ أَلمَّ بتونس

فأَمضَّ ، فهو على العروبة واقعُ

ليس المعزّى والدٌ لك كابرٌ

إن المعزى فيك عصر جازعُ

فاذهب فإن العلم والأَدب الذى

أَصَّلْتَ ، يُتْمُهما بفقدك لاذعُ

واذهب كما مال الهداة فإن همو

ذهبوا ؛ فنورهم المقيم الساطعُ

• • كلمة الدكتور الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة :

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

معالى الرئيس الجليل

سعادة الأمين العام المبجل

حضرات السادة العلماء الكرام أعضاء المجمع الموقر

سيداتى سادتى

فى هذه المناسبة الشاجية الجليلة التى يتناول فيها القول علمان من أعلام المجمع وعميدان من عمداء الفكر واللغة ، ما كان يحسن بى وأنا السكيت أن أقتحم هذا الميدان فأشارك بالكلام أو أساجل الفرسان . هذا إلى أن الأشجان الثائرة والأحزان المتجددة فى النفس تعوق مثلى عن القول فى هذا الموقف ، غير أن اقتراح العالمين الجليلين ، والأستاذين الكريمين : الدكتور إبراهيم مدكور ، والشيخ محمد بهجة الأثرى ، اللذين اعتبرانى من أسرة الفقيد لما يعلمان من صلتى بالمغفور له شيخى وأستاذى سيدى محمد الفاضل ابن عاشور قدس الله ثراه ـ حملنى على استجابة الطلبة فى الإسهام بكلمة فى هذا الحفل الخاشع . واعتقادى أنها لا تنى بحق الراحل الكريم وإنما هى دمعة محزون أرجو أن يكتبنى الله بها من الأوفياء المخلصين ، وأطمع أن يجعلها منى عرفانا للجميل الذى أسبغه على الفقيد وطوقنى به من ثلاثين عاما خلت من جوان (يونيو) ١٩٤١ إلى أن تقبله الله راضيا مرضيا .

فقد أنعم الله على بصحبته وخالص محبته ولزمته ثلاثة عقود من عمره المبارك كنت فيها أترقى فى اتصالى به وتعاونى معه من منزلة إلى أخرى ، حتى كتب لى فى إجازته إياى فى العلوم الشرعية واللغوية قائلا : « فلم نزل فى تقارب واتصال وتعاون على جلائل الأعمال حتى أصبحت مودته عندى علقاً كامل النفاسة ، وبنوته لى مصداق بيت الحماسة :

نحن بنى نهشل لا ندعى لأب
عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

فلقد كان لى شيخا ومربيا وأبا ، وأفادنى الاتصال به والملازمة له علما ورأيا وجميل أخلاق وصفات ، وواسع معرفة وباهر محاضرات ، أدعو الله أن يفرغ عليه من شآبيب الرحمة ويجزيه عنى وعن أمثالى الجزاء الأوفى ويوفر لنا بما ابتلانا به فيه أجرا .

حضرات الأساتذة

أيها السادة

انتسب الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور الحسنى الأشعرى المالكى التونسى المغربى الأندلسى إلى مجمعكم هذا الموقر من سنة ١٩٦١ فتسنى لكل من عرفه أو خالطه خلال ما بين

حفل استقباله وتكريمه بالأمس ، وحفل توديعه وتأبينه اليوم ، أن يلمس فى فقيدنا الراحل قيما وصفات ويتبين منه مواقف وكمالات ، كان اجتماعها فيه عنوانا دالا عليه وتحديدا كاملا لشخصيته .

ولو أننا عمدنا فى استعراض سريع إلى الإيماء إلى جوانب هذه الشخصية لألفيناها تنطق حضارة وأدبا،وتفيض معرفة وعلما وتسمو تقى ودينا .

أول ما يطالعك من الشيخ الفاضل أخلاقه الفاضلة . كان رحمه الله حسن الأخلاق ، موطأ الأكناف كريم المعاشرة ، جم أدب النفس مع رقة حاشية،وجميل ذوق،وفرط ذكاء وحسن تقدير للأمور .

اقتبس ذلك من بيئته النبيلة الراقية ، بيت العلم والشرف والمجد والوزارة ، ومن والده المعظم شيخنا محمد الطاهر ابن عاشور أطال الله عمره وبارك فى حياته العامرة بجلائل الأعمال وكريم الخلال ، ثم من تلك الأوساط الكريمة الفاضلة التى كان لها اتصال بأسرته ، ومن العلماء والأشراف أصحاب المجادة والرئاسة الذين كانوا يترددون على والده يفدون عليه من كل صوب وبلد،وتشدهم به أواصر القربى أو تربطهم به علاقات الإخاء والمودة . فكان بحكم هذه البيئة ناشئا فى وسط راق رائق ، توفرت له به أسباب المعرفة الغزيرة والخلق الرضى مع أذواق حضرية ممتازة . وهو إلى ما عكف عليه فى البيت فى سنى الطفولة من حفظ للقرآن الكريم وتلق للعقيدة الصافية،وتأدب بالسنة النبوية الشريفة، واستظهار لأهم المتون فى علوم الوسائل والمقاصد ، قد شدا اللغة الفرنسية وآدابها وتعلق بالتاريخ الإنسانى الحضرى والفكرى ، ووجد من مطالعاته قبل دخوله إلى الجامع الأعظم «جامع الزيتونة »–عمره الله– أول مدرسة خارج البيت انتسب إليها ، ما نمى مداركه وصقل مواهبه،وهيأه تهيئة كاملة للأخذ بأسباب المعرفة الدقيقة والعلم المتين .

وقد كان اتصاله بوالده وأستاذه خارج حلقات الدروس مستمراً دائماً طول حياته سفراً وحضراً إلى أن لقى ربه . وكانت له من ارتباطه وامتزاجه به منزلة مزدوجة من البنوة والصحبة،شاهدنا آثارها المباركة الزكية فيما كان عليه الفقيد من كمال التخرج فى الناحيتين العلمية والسلوكية؛وفيما كان يتحلى به رضى الله عنه من أخلاق النبوة .

ويظاهر هذا الجانب الخلقى فى شخصية الراحل الكريم جانب آخر عظيم عرفه الخاصة والعامة فيه،هو غزارة علمه واتساع ثقافته وصحة مداركه وسداد رأيه .

ومرد هذا أولا – كما ألمعنا إلى ذلك عند الحديث عن ظروف نشأته– إلى حسن تكوينه ، غير أن الأدب البيتى والتكوين فى المدرسة الأولى المنزلية لايغنيان عن استفراغ الوسع فى طلب العلم والتبحر فيه . لذلك رأينا

الشاب محمدا الفاضل ابن عاشور يدخل الجامع الأعظم ويجلس إلى حلقاته يأخذ عن أعلام البحث والدرس وأساطين الفقه واللغة أمثال والده، والعالمين الجليلين المرحومين شيخ الإسلام محمد بن يوسف والمحقق النابغة الشيخ محمد النخلي، ثم إمام الأدب ورجل الفكر الضليع المتميز المرحوم الشيخ محمد مناشو، فهناك توفر الطالب الشاب على دراسة علوم المنقول والمعقول، منكبا على المصادر والتصانيف الهامة فى العلوم الشرعية، يذاكر فى علوم القرآن، والتفسير والحديث والفقه والأصول والكلام ومقاصد الشريعة والتصوف، ويقرأ ويدرس بغاية الإمعان والتعمق كتب اللغة وعلوم العربية وأسرارها، متنقلا من ذلك إلى مطالعات شتى فى دواوين الأدب وشروحه، يحفظ ما يطيب له منها ويختار، من خطب وأشعار، ويتولى مع بعض زملائه من أعلام النهضة الأدبية أمثال الشيخ المرحوم الراوية محمد العربى الكبادى دراسة أمهات كتب الأدب، من مشرقية كالكامل لأبى العباس المبرد، ومغربية كنفح الطيب لأبى العباس المقرى.

وقد كان رحمه الله إلى جانب هذا التخرج المكين فى العلوم الإسلامية الشرعية واللغوية والأدبية – استظهارا لأصولها وقوانينها، وحذقا لموضوعاتها وفنونها؛ وغوصا على كتبها ومعاقدها، وفهما لقضاياها ومشاكلها – يحضر دروس التعريب والنقل بالمدرسة العليا للآداب العربية، ويغشى مجالس العلماء وندوات الفكر، ويشهد المحاضرات التاريخية والأدبية ونحوها بالجمعية الخلدونية وجمعية قدماء الصادقية. ولا يسمع بكتاب قيم جديد ينشر باللغتين العربية أو الفرنسية إلا أسرع إلى اقتنائه وألم بما فيه شكلا ومضمونا. وتولد له من كل ذلك شغف بالمعرفة جعله ينقب عن المخطوطات النفيسة النادرة متأسيا فى هذا بأستاذه وقدوته وشيخه: والده. فأحاط بالتراث الإسلامى إحاطة كاملة، وألم بقضايا العلم، مكتملا لعناصره، جامعا لمقوماته، وعاش وسطه الفكرى والثقافى منتبها إلى كل ما يجرى به من التيارات، مشاركا فيما يحدث به من هزات وتطورات.

فلا بدع بعد ذلك إذا تميز على معاصريه من بنى جلدته ذكاء وعلما وإدراكا ورأيا. فقد اجتمع له ما تفرق فى غيره، وكان لنا منه وبه العالم الفرد الذى جمع بين أصالة التكوين وغزارة العلم وسعة المعرفة بالمصادر والكتب، وبين الدقة فى النظر والإتقان للأساليب العلمية والأخذ بالطرق المنهجية فى الدراسة والبحث.

عرفنا ذلك وعرفه كل من تخرج عليه أو اتصل به فى دروسه وتقريراته، وإنى ما أزال أذكر الدرس الأول الذى حضرته له سنة ١٩٤٢ وهو يشرح لنا صدر الرسالة الجدية لابن زيدون، فإن نبرات صوته من ذلك اليوم ماتزال ترن تملأ مسمعى: وتوالت الدروس والتقريرات من شيخنا العلامة البحر، كما اصطلح الناس بتونس على تلقيبه، فى اللغة وآدابها، والقرآن وتفسيره، والعقائد وأحكامها والفرق

واختلافاتها، وشتى الفنون الأخرى، كالمقاصد الشرعية وتاريخ التشريع وتاريخ الأديان ونحوها، ولم أكن أومن أن واحدا من الناس يستطيع أن يدرس كل فن من فنون العلم الشرعية واللغوية، فيجمع بين مختلف الاختصاصات، ويكون فى كل نوع إماما حتى حضرت دروسه وشهدت مجالسه. فهو اللغوى الأديب العالم الفقيه الأصولى المتكلم المؤرخ النضار المتقطع النظير غير منازع.

وقد سمت به همته رحمه الله رحمة واسعة إلى أن يضيف إلى نشاطه العلمى التدريسى هذا عملا آخر عظيم النفع كبير الجدوى فكان بعد انتخابه رئيسا للجمعية الخلدونية سنة ١٩٤٥ مؤسسا لحلقات من التعليم الثانوى العصرى أراد بها استكمال مناهج التدريس لطلبة الجامع الأعظم. وهكذا لأول مرة بتونس درست بتوجيهه وإشرافه كل الفنون الطبيعية والرياضية باللغة العربية. وانتدب لها أساتذة كثيرين من ذوى الاختصاص فى هذه المواد، كانوا وهم من أبناء لغة الضاد لايؤمنون بحكم تخرجهم بالمعاهد الأوروبية أن لغتهم الأصلية العربية تستطيع أن تضطلع بهذه المهمة أو تقوم بهذه الرسالة. وبفضل حرصه وعنايته مضوا فى السبيل التى خططها لهم، ونجحوا فى القيام بوظيفتهم، وتوجوا دروسهم بامتحانات أجروها على تلامذتهم فى نهاية دراساتهم، كان بها حصول الكثيرين من هؤلاء على شهادة الباكالوريا العربية التى وقعت معادلتها بالتوجيهية، وأذن لأصحابها بفضل سعى شيخنا الحثيث بالالتحاق بكليات الآداب والعلوم فى المشرق العربى والبلاد الغربية أين تخرجوا نهائيا بمصر وسوريا وإنجلترا، فى التاريخ والجغرافيا والآداب واللغات الأجنبية والعلمين الرياضى والطبيعى.

وبعد أن ركز التعليم الثانوى العربى العصرى بهذا المشروع، ولقى ما لقى من عنت الإدارة ومدير التعليم العمومى الفرنسى، أسس اللجنة القومية للتعليم فى تونس وتولى رئاستها.

وأضاف إلى هذا العمل الثقافى البناء تأسيس معهدين عاليين بالجمعية الخلدونية: هما معهد الحقوق العربى ومعهد البحوث الإسلامية. وقد كانت محاضرات شيخنا الجليل رحمه الله فى معهد البحوث الإسلامية محور نشاطه وحركة الدفع وسند التوجيه به.

كانت له طوال أربع سنوات محاضرتان فى كل أسبوع، إحداهما مساء الاثنين وثانيتهما مساء الأربعاء، وكان فيها كعادته المحلى والأسوة. تشهد هذه المحاضرات الجموع الغفيرة وتكتظ بها قاعة المكتبة بالجمعية الخلدونية والمسالك المؤدية إليها. وكانت محاضراته ارتجالا لاتزيد ولاتنقص الواحدة منها عن الساعتين إلقاء.

ومن على منبر معهد البحوث الإسلامية بالجمعية الخلدونية حلل الراحل الكريم آراءه السياسية وأفكاره الإصلاحية وتوجه بدعوته الإسلامية . فصور للحضور ومن وراءهم من الناس حقيقة الجامعة الإسلامية متناولا على التوالى والترتيب حسب المخطط الذى رسمه لنفسه والمنهج الذى أعده لمحاضراته خلال تلك الفترة القصيرة الثرية الوحدات الأربعة عمد تلك الجامعة : وهى الوحدة العربية والوحدة الإيرانية والوحدة الطورانية والوحدة الهندية ، وهكذا تعرض إليها واحدة واحده بالدرس والتحليل لعناصرها الكثيرة والمقومات المختلفة المتنوعة بها . وهو مع ذلك لا يفتأ يتتبع أحداثها ويساير تطوراتها ويقدم البيانات عن الحركات القومية والتحريرية بها ، مبشراً بالصباح الجديد والعهد السعيد .

هذا وقد رتب للمعهدين العاليين شهادات تتوج الدراسة بها .

وعقد سنة ١٩٤٧ مؤتمراً للبحوث الإسلامية بتونس دعا له الدارسين والباحثين من مختلف البلاد العربية والإسلامية

وقد عرف العلامة الفقيد الراحل فى مؤتمرات علمية كثيرة أخرى ،من بينها مؤتمرات المستشرقين ومؤتمرات مجمعكم الموقر هذا،وكان يأنس فيها ويصاحب بها شيخه وصديق والده العلامة المغفور له الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب،أو الباشا كما كان يريد أن يسميه . وكان هذا الإمام والمؤرخ النابغ مع ما يكن للشيخ الفاضل رحمه الله من مودة معجباً به مقدراً لعلمه وأدبه لما كان يلمس فيه من معرفة غزيرة ورأى صائب ،ومايطلعه عليه فقيدنا من بحوث ودراسات يعدها للمشاركة فى تلك اللقاءات العلمية العالية .

هذا وقد قام الراحل الكريم بمحاضرات إسلامية وعلمية كثيرة بجامعات متعددة وعرفته الأوساط العلمية بالقاهرة والكويت والسعودية والمغرب وليبيا وتركيا وباكستان من البلاد العربية والإسلامية ،كما عرفته الأوساط العلمية الأوروبية بإنجلترا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا وأسبانيا .

وإنى متى ماذكرت هذا النشاط الجم وتلك المحاضرات والمعارف القيمة يؤلمنى جدا ويؤسف أهل الفكر ألا تكون كلها مجموعة مدونة . وليس لنا من كل ذلك غير كتاب الحركة الفكرية والأدبية بتونس وكتاب التفسير ورجاله ومحاضرات فى التشريع الإسلامى والمحاضرات التى نشرها له المجمع أو غيره من الهيئات العلمية وكتاب تراجم الأعلام . أما المخطوطات التى أعرفها له أو حدثنى عنها والدراسات الكثيرة التى كان يعدها فإنى أذكر منها رسالة ترجم لها بكشف الذعرات فى وصف الشعرات ، تحدث فيها عن ملاذ إفريقية وقدوتها الصحابى الجليل أبى زمعة البلوى رضى الله عنه ،

وتفسيره القرآن بالمأثور ، وجمعه وترتيبه لديوان بشار بن برد ، مع شرح موجز لما أشكل من تراكيبه وأغلق من معانيه ، وتحقيقه لمعجز أحمد لأبى العلاء المعرى ، ورسائل أدبية وقصائد ومقطعات من الشعر .

ولو يتاح لأحد أن يتفرغ لجمع آثار شيخنا ودراستها وتحليلها والتعريف بها لكان للناشئة من ذلك خير توجيه وأفضل تكوين .

فقد عرفنا فى الراحل العزيز الشيخ سيدى محمد الفاضل ابن عاشور الرائد الكريم ، الجليس الحبيب ، والشيخ الموجه ، والمربى النصوح ، والمدرس المحقق ، والخطيب المصقع ، والمحاضر المبدع ، والناقد البصير ، والكاتب المفن ، والشاعر الفحل .

ولا عجب بعد ذلك أن رزق الشيخ الفاضل فى بلده وخارج بلده المحبة والتعلق من كل من اتصل به أو لقيه ، والإكبار والتقدير من كل من عرفه أو خبره .

غير أن هذين الجانبين السلوكى والعملى فى شخصية فقيدنا لا يمكن أن نتصور مداهما ولا أن ندرك على التحقيق طبيعتهما إذا نحن أغفلنا الجانب الثالث المؤثر فيهما والصاهر لهما وهو الجانب الدينى .

فالدين عند فاضلنا عقيدة وسلوك علانية وسرا .

هو عقيدة تعمر قلبه إيمانا ، وتملأ نفسه اطمئنانا ، وتشرح صدره إيقانا ، ومن تكن تلك حقيقته يرزق الصمود والثبات والقوة والجرأة والخشية الكاملة لله والتعلق الدائم بالأصول الإسلامية والمبادئ الشريفة الشرعية التى حببها لنا الرحمن ، ودعانا لها القرآن وحثنا عليها إمام المرسلين وقائد الغر المحجلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وقد كانت هذه العقيدة راسخة فيه ممتزجة بذهنه وقلبه لكثرة ماكان يتعهد به نفسه من تلاوة القرآن الكريم فى أوقات توجهاته ، ومن رواية الحديث الشريف باطراد وخاصة فى ليالى رمضان من كل عام بين يدى والده شيخنا الجليل .

والدين سلوك عنده ، بما حمل عليه نفسه من طاعة الله ومراقبته فى أمره كله ، وما كان ينزع إليه من ألوان المعروف والإحسان ابتغاء مرضاة ربه ، والتأسى برسوله ، فيما يأتى ويذر ويستقبل ويستدبر من شؤون وأحوال وشواغل وأعمال .

كانت روحه الكريمة الطيبة الطاهرة تزخر إيمانا وتفيض إحسانا . فإذا هو الداعى إلى الله المجاهد فى سبيله المجادل لأعدائه المثبت لدينه الذائد عن حماه . وإذا هو فى كل عمل يقدم عليه تربويا كان كالعناية بالأطفال والشبان والخاصة والعامة ، أو اجتماعيا كالحركات العمالية وتوحيدها وتنظيمها وتكتيل جهودها ، أو سياسيا كان كالدعوة إلى الوحدة وبناء الجامعة الإسلامية والعمل على توثيق الروابط والسعى فى ابتغاء العزة التى كتبها الله للمؤمنين ، أو فكريا كتركيز الأصول الثابتة العقائدية والدعوة إلى الايمان بالمثل الإسلامية والقيم

الدينية ، لايراقب فى ذلك كله إلا الله ولايهتدى فى عمله جميعه إلا بهديه وسنة رسوله :

وهو فى خلواته كثير الخشوع إلى ربه يدعوه تضرعا وخيفة ، ويتقرب إليه بألوان القربات والطاعات وقد شاهدت من هذه المشاهد أحواله فى طوافه وفى توجهاته فى الأسحار ،وماكان يقولهمن دعوات وأذكار ، وماكان يبدو عليه من عظيم الخشية وكبير التقدير لرسول الرحمة وشفيع الأمة صلى الله عليه وسلم . عرفت ذلك منه حين شرفنى رحمه الله بأن أتلو بين يديه ثلاثيات البخارى أمام المواجهة الشريفة،وأروى كتاب الموطأ لإمام دار الهجرة مالك بن أنس رضى الله عنه فى الروضة النبوية زادها الله سناء عام حججت معه سنة ١٣٨٥هـ . وقدكتب لى فى الأصلين الذين تلوت منهما الشهادة بصحة وتمام الرواية،كتب الله له فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة إنه سميع مجيب .

تلك هى الجوانب المتكاملة من شخصية العلامة فقيد العروبة والإسلام شيخى مقام والدى المقدس المبرور سيدى محمد الفاضل ابن عاشور . ولا أريد أن أطيل فى هذا القول ولا أقدر أن أفصل شيئا من نواحيها وجهاتها،لأنى ،وإن رضيت بأن أقحم نفسى فى هذا المجال،فإنما كان ذلك لأذكر لهذا المجمع الموقر فضله وأشكره باسم الأسرة الزيتونية أبناء الرحم العلمية التى شرفت بالانتساب إلى الراحل الكريم ، وأدعو الله مخلصا أن يرزقنا صبراً،ويدخرلنا فى الآخرة أجراً ، ويعلى مقام شيخنا الفقيد العزيز فى عليين ،ويجعله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

كلمة الأستاذ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور والد الفقيد :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تحية مباركة طيبة ، أُوجهها إلى السادة الأساتذة العلماء الجِلَّة رجال المجمع اللغوى ، وإلى السيد الأَمين العام الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور ، الذى أَلبىّ طَلِبتَه - بكتابه رقم ١٠٥ - أن يكون لأسرة زميلهم الفقيد العزيز ابنى - الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور - كلمة فى حفل تأبينه ، الذى يُقام فى هذا اليوم ، جَرْيا على ماجرت عليه تقاليدُ المجمع من تأبين أَعضائه الأَشقّاء فى مؤتمره كل عام ، ونِعْمَت السُّنَّة للوفاء بالعهد .

وأما بعد ، فلا أَيمنَ ، ولا أَبلغ فيما يحق أن أَفتتح به خطابى ، المَتلُوّ فى هذا المقام من الكلمة النبوية الجليلة «تدمَعُ العَيْنُ ويَحْزَن القلبُ ، ولانقول إلاما يرُضِى الرَّبَّ » .

فإذا كانت تلك النفسُ المحمديّة الزَّكيّة تعبّر عن تمكُّن الحزن منها وتجدُّده لفقدان فِلْذة الكَبِد ، فماذا يُظَنّ أَن يُقْدر به تأثُّر نفسِى الضّعيفة من الأَسى (فإنّا لله وإنا إليه راجعون) .

غيرَ أَنى أَجد سُلوًّا بما روّح على النفس ، من خالص تعزيات أُسرة هذا المجمع الجليل ، والتعبير عن صميم مشاركتهم لأسرة الفقيد فى مصابنا الجَلَل ، وخاصة ما أَلقاه ممثل المجمع ، الشاعر العبقرى ، الأستاذ عزيز أَباظة فى حفل الأَربعين الذى أُقيم بتونس . من شعر يَلوحُ منه بَرْق صداقة لَمّاعة ، ووَدْق عهود محفوظة غير مضاعة .

واليوم أَعاد إزجاء سحائبه ، ماهب عليها من لواقح هذا الحفل الجليل ،

مما دل على أنه ود لا ينضب ماؤه ولايرنق بمرور الزمان صفاؤه . ووددت لوكنت حاضرا بينكم بجثماني ليتظاهر المقال مع شواهد الحال ، بيد أني أرسلت كتابي هذامعبِّرا عني ، فما الكتاب إلا أثر القلم الذى أمسكته اليد ، إمساك الماتح بالعُرْوة ، ليفرغ سَجْلًا مما فى الضمير من جزيل الشكر ، والاعتراف بالجميل للسادة أسرة المجمع ، وإنى لأجد حال شكرى لهم ، مصداق ماودَّه أبوالعلاء ، أن يكون به لقاؤه لأبى حامد الإسفرائينى بقوله :

يممته وبودى أننى قلم
أسعى إليه ورأسى تحتَ الساعى

شكرًا أرجو أن يفى بحق ما أبدوه جماعاتٍ ووحدانا ، من مشاطرتى وسائر أسرة الفقيد العزيز فى الأسف والأسى ، من مقاويل ومستمعين مشاطرةً منبعثة عن صدق الأخوة ، ورعى صفاء الخُلة ، لفقيد كان ذكرهم بالجميل هِجِّيرا لسانه ، والتحفز للقائهم أهم شمانه .

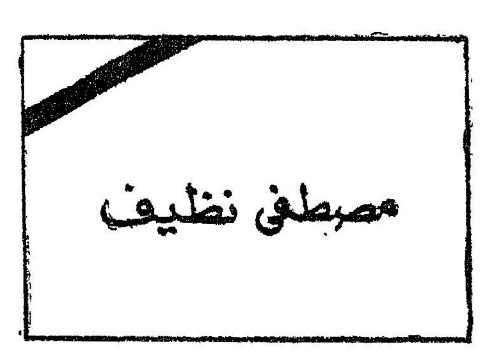
وللأستاذ الجليل رئيس المجمع الموقر ، من ذلك الحظُّ الأَوفر ، ولكل من الأستاذين نائب الرئيس والأمين العام مايوازنه .

وأبتهل إلى الله تعالى ، أن يجازى الفقيد العزيز أحسن الجزاء ، على مابذله من طاعة الله ورسوله ، فى تأْييد الشريعة الإسلامية ، والذب عن اللغة العربية : « ومن يُطعِ الله والرسول ، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً » .

وأعيد إليهم تحية الختام ، وذكرى السلام ، منى ومن أسرة الفقيد العزيز .

في الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين ١١ من المحرم سنه ١٣٩١ هـ الموافق ٨ من مارس سنة ١٩٧١ م أقام المجمع حفل تأبين لفقيده المغفور له الأستاذ مصطفى نظيف ، الذى استاثرت به رحمة الله فى ١٩٧١/١/١١ . وفيما يلى ما ألقى فى هذا الحفل :

كلمة الدكتـــور عبد الحليم منتصر فى تأبين المرحوم الأستاذ :



فمالك معتاض ولا عنك سلوة
نظيرك مفقود وحزنى مؤبد

أيها السادة :

أشفقت على نفسى ، حين رأيتم أن أقوم بتأبين فقيدنا العظيم مصطفى نظيف ، فأين أنا من الاحاطة بهذه الشخصية العظيمة الفذة ، التى يعز نظيرها فيمن أعرف من الرجال ، وأشفقت عليكم أن تستشعروا قصورى عن تجلية شخصيته ، لأنى أعلم إجماعكم على حبه وتقديره ، وهيهات أن أرسم صورة ترضيكم أو ترضون عنى من أجلها .

وإنى لأعترف بادئ ذى بدء بعجزى عن ترجمة أحاسيسى لفقده ، فقد فاق تقديره لدى كل حدود ، وليس غريبا أن يكون حزنى عليه مؤبدا كما يقول الشاعر ، حتى لقد رددت قول الأخطل الصغير :

سألتنيه رثاء خذه من كبـــدى
لا يؤخذ الشئ إلا من مصـادره

ثم عدت أردد قول شوقى :

قد كنت أوثر أن تقول رثائـــى
يامنصف الموتى من الأحيـــاء

عرفت أستاذى وصديقى مصطفى نظيف منذ نيف وعشرين عاما ، حين دعانى لإلقاء محاضرة عن الرواد الأوائل من العرب فى علم النبات ، وإذابه يقبل على بعد المحاضرة مهنئا هاشا باشا وفى عينيه رضا وفرح ، كأنى بها بسمة المعلم الفرح بتلميذه ، أو الوالد بابنه ، إنها بسمة الحب الأبوى الصادق الذى لايغيض أبدا .

ومنذئذ اتصلت بيننا آصرة قوية من الصداقة الصادقة الصدوق ، زادتها الأيام وثاقة . وأضافت اليها روابط العمل فى الجامعة والمجمع وفى الاتحاد العلمى والجمعيات العلمية والمؤتمرات العلمية وغيرها من أوجه النشاط العلمى ، الذى كان رحمات الله عليه ،

بمنحه من ذات نفسه وجهده الكثير ، لقد أضافت هذه الروابط فى أواصر الود والتقدير فتكررت اللقاءات ، والمقابلات ، والاحاديث والاتصالات ، بل والمكاتبات حين يشط المزار أو يعز اللقاء ، حتى لقد شاع وعرف، أنى قد اتخذت منه شيخى ومعلمى وأستاذى ، وتفاخرت بين لداتى بهذه المشيخة وتلك الأستاذية ، ولم يضق هو بها – وحين تحدثت إلى أستاذنا الدكتور كامل حسين فى أنى قد اتخذته هو الآخر شيخا لى ، قال بل هو شيخ لى ولك .

ولست أدرى من أى جوانب هذه الشخصية النادرة المثال أبدأ الحديث ، وكلها جوانب مشرقة مضيئة وضاءة، يكاد سنا ضوئها أن يأخذ بمجامع القلوب بله الابصار ، فثمة متانة فى الخلق إلى أبعد الحدود ، واعتداد بالكرامة فى أبلغ صوره ، إلى درجة من الامانة قل أن عرف لها نظير ، إلى دقة فى العمل ، وسعة فى العلم ، ورحابة فى الصدر ، لقد اجتمعت فى مصطفى نظيف صفات العالم بكل ما فى الكلمة من معنى ، إنه العيوف عن الصغائر ، والترفع عن الدنايا ، والزهد فى المال والجاه والسلطان ، والدقة فى البحث ، والعمق فى التفكير والاستعلاء بالعلم، مع الإحاطة والشمول فى المعارف العلمية ، كل ذلك فى عظمة العلماء، وتواضع العظماء .

أذكر حين عقد المؤتمر العلمى العربى الأول فى الاسكندرية سنة ١٩٥٣ وانتخب بالإجماع رئيسا له ، وحضر السيد رئيس الجمهورية فى موكبه المهيب ، وإذا بمصطفى نظيف يستقبله عند مدخل المدرج ، ويفتح خطابه الجامع قائلا . . لقد مضى الزمن الذى كان يسعى فيه العلماء إلى الحكام ، وجاء الزمن الذى يسعى فيه الحكام إلى العلماء .

وحين جاءه وهو مدير للجامعة خطاب ، ممن لايحق لهم أن يوجهوا الخطاب إلى مديرى الجامعات ، أصر على أن يحضر الكاتب بنفسه ليعتذر ويسحب الخطاب ، وكان له ماأراد ، وما أظن مثل هذا التصرف الحازم قد وقع بعد ذلك أبدا .

وعندما تعرض مجلس الجامعات إلى بعض الأقسام أو الكليات فى جامعة عين شمس دون أخذ رأى الجامعة ، إذابه يجمع أوراقه ، ويقول إذا اتخذتم فى ذلك قرارا فلن أكون مسئولا عن جامعة عين شمس ، وقلت له إنى متضامن معك ، ولكنه آثر أن يذهب إلى الوزير وحده ، وعندما توجه إليه أخذ بوجهة نظره وأقره عليها .

وحين قرأ فى صحيفة صباحية وهو على مائدة أفطاره حديثا لم يرقه ، رأى فيه مساسا به وبالجامعة ، كتب استقالته وتوجه من فوره إلى الوزير ، وطلب مطلبا معينا وجد فيه الترضية ، فلما لم يجب إليه ، قدم استقالته وعاد من فوره إلى منزله .

وحين توجهت إليه مع مجلس الكلية بعد استقالته ليقبل أن يكون أستاذا غير متفرغ بالكلية ، لم يتردد فى اجابتنا إلى مطلبنا ، وكان

آخر عهده بالتدريس الجامعى فألقى مقررا فى تاريخ العلم ، وآخر فى البصريات ، لقد ذهبت وظيفة المدير ، ولكن بقيت فى مصطفى نظيف الأستاذية التى لاتزول ، وما أظن الذين تتلمذوا عليه فى كلية العلوم بجامعة عين شمس . . سينسون هذه الشخصية أبدا . . وكان الحرج البالغ أنه يرد المكافأة عن أشهر الصيف ، وما أشك فى أن له فى ذلك قرينا أبدا .

قلت له يوما لقد كفرت بالقيم ، وهى التى عشنا بها وعملنا لها طيلة حياتنا ، فغضب رحمات الله عليه غضبا شديدا وقال إن مثلك لايكفر بالقيم أبدا ولاينبغى له ، وإنما يكون الكفر بالذين لم يبقوا عليها ويعملوا بها ويؤمنوا بها . . وتطرق الحديث إلى تحكم الأقزام بحكم مواقعهم ، فقال إن الأقزام لن يستطيعوا البقاء فى تلك المواقع أبدا وسيتركونها حتما يوما ما ، طوعا أو كرها ، وأما القيم فستبقى أبد الآبدين .

وانعقد مجلس الجامعة يوما برياسته فى هيئة محكمة تأديبية عليا ، لمحاكمة عضوين من أعضاء هيئة التدريس ، أما أحدهما فقد اتهم بتبديد أشياء فى إحدى تجاربه وبحوثه وكان يمكنه الاحتفاظ بها والإبقاء عليها ، وأما الآخر فقد اتهم بالتطاول على أستاذه — وقد حوكم الأول من قبل هيئات مختلفة وقد أدانته جميعا ، ثم جىء به إلى هذه الهيئة التأديبية العليا لترى رأيها فيه ، ولم يكن المتهم ممن يحسنون الكلام والدفاع ، وإنما يبرطم به برطمة ، فنهره الرئيس قائلا ، إننا نحن الذين نحاكمك ولست أنت الذى تحاكمنا ، فهمست فى أذنه أن يترفق بالمتهم حتى تثبت الأدانة وسألت المتهم أن يشرح لنا الهدف من التجربة ، وأن يتأنى فى حديثه ، ويسلسل الوقائع ، فإذا بالأرقام والنتائج الإيجابية فى صفه ، فقلت إياكم والحجر على حرية البحث العلمى ، إن للباحث أن يجرب كيف شاء ما دام يتبع الأساليب العلمية الصحيحة ، وإنه لم يثبت على المتهم أنه أخذ لنفسه شيئا أو أضاع على الدولة حقوقها ، ومن واجبه أن يكرر التجربة ، وأن يتثبت ولا يتعجل ، ونحن هيئة من المشتغلين بالعلم نحاكم زميلا فإذا أدناه ، فسيكف كل باحث فى معمله عن البحث ، وكان أن اقتنع الجميع ببراءة ساحته ، وكان الرئيس أول المهنئين له . أما الآخر فكان جزاؤه شديدا وعقابه صارما .

وانعقد مجلس النقابة يوما برئاسته ، وانبرى أحد الزملاء الشبان يفند ما انعقد عليه الإجماع تقريبا ، ويوجه الرأى وجهة أخرى ، ولما رآنى قد أسرفت فى لومه أوقفنى عند حد بقوله ، وأين حرية الرأى إذن تلك التى تدعو لها وتؤمن بها .

وكذلك كان عالمنا الكبير ، أبدا نصيرا لحرية الرأى ، ذابًّا عن حياضه ذيَّادًا عن حوزته ، مؤمنا بالقيم الإنسانية العليا ، من عدل وإنصاف وأمانة وخير ، لا يرضى عنها بديلا ، ولا يستطيع عنها حولا .

أما عن دقته وأمانته فى العمل فقد بلغ فى ذلك حدا قل أن عرفت له نظير ، فلا أذكر على طول الزمان الذى عرفته وعملت معه فيه سواء فى الجامعة أو النقابة أو الاتحاد العلمى أو المجمع اللغوى ولجانه ، أن تأخر يوما عن موعده ، أو حضر اجتماعا أو جلسة أو لجنة لم يكن قد درس الموضوعات المعروضة دراسة وافية مستفيضة ، أو أعد المادة المطلوبة أعدادا سليما ، أو أباح اجتماعا لم يحضره العدد القانونى ، فاذا لم يحضر العدد القانونى ، فلا اجتماع ، وإذا تأخر بعض الأعضاء عن ربع الساعة مثلا فلا اجتماع ، ولا خروج عن المناقشة فى الموضوع المطروح ولا جلسة تطول أكثر من الموعد المقرر لها. كأنما كل شىء عنده بمقدار ، كل ذلك فى جد صارم محبب ، لا مراء فى أنه قدوة صالحة للعمل الدقيق المنتج ، وكم كان يستبين — لا أقول الفرق بل البون الشاسع — بين جلسات يتولى أمرها ، وغيرها يتولاها سواه ، ففى الأولى ما ذكرت من جد ودقة ودراسة ، أما فى الثانية فالجلسات تستمر أياما ، وهذه المسألة أو تلك تؤجل لاستيفاء بياناتها ، وهذه تتشعب المناقشة فيها إلى غير اتجاه وغير هدى .

ومع هذه الجدية الصارمة المحببة التى أثرت عنه وعرف بها ، فقد كان يشفق على تلاميذه ومريديه أن يحتذوا به ، فقد ظل يذكر لى حتى قبيل وفاته بأيام بعض عبارات قلتها فى مناسبات خاصة كقولى فى تقرير على عن تصرف أحد المسئولين ، أنه تصرف أقل ما يقال عنه أنه قد جانبه التوفيق ، وعن قولى لآخر وقد عرض على أن يعتذر لى المسئول من موظفيه — بل — تعتذر أنت — فكان يقول وفى وجهه بسمة رضا وتحبيذ وتشجيع ، وفى صوته رنة اشفاق ، لا عليك أو رفقا ، وكم كان يسوؤه أن تتبدى عدم الجدية فى العمل أو الإهمال أو التسويف أو إضاعة الوقت فيما لا طائل فيه .

ولا مراء فى أنه كان فى ذلك كله أمة وحده ، لا أكاد أضع معه فى نفس المستوى أحدا — وكنا نتبين بعد نظره ، ولو بعد مدة ، حين يعلق على بعض القرارات بأنه غير مرتاح لها ، وإذا الأيام تثبت أنه كان على حق ، ولكن القرار سليم من حيث الشكل ومن حيث موافقة الأغلبية ، فهو يخضع له ، ثم يعلق هذا التعليق الخاص بأنه غير مرتاح له .

وقد كان عالمنا حفيا بنشر الثقافة العلمية ، داعيا إلى تأصيل العلم فى البيئة العربية ، وكان لا يفتأ يردد هذه المعانى فى محاضراته العامة وفى المؤتمرات العلمية ، استأذنته مرة فى إقامة موسم ثقافى لكلية العلوم فى مكان عام بعيدا عن أبهاء الجامعة ، بل فى مكان وسيط ، فرحب بالفكرة فى الحال ، وعرض أن يلقى محاضرة الافتتاح ، وكان والحق يقال كدأبه أبدا محاضرا ممتازا ، موضوعا وبحثا وعرضا ولغة وإلقاء وأسلوبا ، وكم أتمنى لو تجمع هذه المحاضرات العامة التى لم تشملها كتبه فى مطبوع خاص لتنشر على الناس فى كتاب

ففيها من الأفكار والآراء والدراسات مايستحق التسجيل والتخليد ، ولعلنا لا ننسى محاضراته الرائعة فى التاريخ للجامعات المصرية ، ولا دراسته الفذة التى أعدها بمناسبة العيد المئوى للمجمع العلمى المصرى ، فقد أبى ألا أن يستعرض تاريخ مصر فى يوميات الجبرتى ،فأرسلت فى طلبها ليعكف عليها فى دراسة أمينة وافية لتاريخ المجمع العلمى ،ومع ذلك فلم يتح لهذه الدراسة أن ترى النور لأسباب لا محل لذكرها ، ويتجلى صبره العجيب فى البحث والدرس حين أراد أن يؤرخ للجامعات ، فلا بد أن يرجع إلى سجلات الوقائع المصرية ويقرأها بنفسه ، يستقرئ القرارات الوزارية ومحاضر الجلسات الخاصة بهذا الموضوع ،حتى تكون الدراسة مدعومة بالأسانيد التى لا تقبل الشك ولا يقاربها مين ولا زيف .

سألته الرأى يوما فى طابى للعمل بالخارج ، وذكرت له رأى من أشار بالقبول ، لأن عملى هناك نفع عام وعملى هنا نفع خاص ، والعام يجب الخاص ، فقال متسائلا : وأليس عملك هنا من النفع العلمى العام ، وكأنما كان يريد أن يقول إنك لا تصبر على ضيم ، وأن النفع العام هنا أحق وأولى وأكرم . وكذلك كان بعيد النظر ، كأنه المعنى بقول الشاعر :

يرى فلتات الرأى والرأى مقبل
كأن له فى اليوم عينا على غـــد

أما غيرته على اللغة العربية واستعمالها لغة للعلم ، فكانت فائقة الحد ، وقد ذكر لى يوما أنه لا حظ هذه المفارقة العجيبة ، حين كان أستاذا بمدرسة المعلمين العليا فى العشرينيات ، وكان هو وصديقه المرحوم الأستاذ عبد الحميد أحمد يدرسان الكيمياء والطبيعة باللغة الإنجليزية ، على حين أن زملاءهما من الأساتذة الأجانب يدرسون الرياضيات باللغة العربية وقد أستقر رأيهما على التدريس باللغة العربية ، فلما كان الغد كان يحاضر فى علم الطبيعة باللغة العربية ، ومنذئذ اتخذها لغة التدريس سواء فى المعلمين العليا أو كلية الهندسة أو كلية العلوم بعد ذلك . وكان من رأيه أن المصطلحات ليست عقبة أبدا ، وأننا إذا انتظرنا حتى نفرغ من ترجمة المصطلحات ، ثم توحيد ترجمتها فى البلاد فسيطول انتظارنا جدا ؛ وأذكر له نظيرين فى هذا الرأى هما المرحوم الدكتور مشرفة والمرحوم الدكتور ولى فقد أجريت استفتاء حول هذا الموضوع منذ سبعة وثلاثين عاما ، فكان الرأى أن نبدأ فى الحال — وقد أتاح له ذلك فرصة تأليف مراجع أساسية فى علم الطبيعة باللغة العربية كان يذيلها بالترجمة العربية للمصطلحات الأجنبية .

وقد اشتهر عالمنا الأستاذ مصطفى نظيف بدراسته لأعمال العالم العربى الأشهر « ابن الهيثم » . ولا شك أن هناك تقابلا وتلاؤما بين الشخصيتين ، فهو يقول عن ابن الهيثم وكأنما يصف نفسه : إن ابن الهيثم فى منحى

تفكيره وفى طريقة بحثه ، رجل تتوافر فيه الصفات التى تتوافر فى رجالات العلم فى العصر الحديث ، فهو عالم بمعنى « سيانتست » بكل ما يؤديه هذا اللفظ من معانى ، وهو فى ميدان علم الطبيعة أن لم يكن من طراز المحدثين فى الجيل الحاضر فإنه من غير شك من طراز علماء الطبيعة فى القرن التاسع عشر ، وبحوثه المبتكرة فى علم الضوء تجعله فى مقدمة الأعلام الأفذاذ فى تاريخ هذا العلم ، ولكن له غير ما أضافه على صفحات هذا العلم من الصفحات المجيدة ، أثرا عاما عميقا ، جعل علم الضوء ، يتخذ صبغة جديدة وينشأ نشأة أخرى غير نشأته الأولى ، وهذا التأثير الذى أحدثه ابن الهيثم فى علم الضوء يتغلغل إلى الأساس ذاته الذى يقوم عليه هذا العلم جدير بالتقدير — ويقول : إن أثر ابن الهيثم فى علم الضوء نظيره فى تاريخ العلم أثر نيوتن فى علم الميكانيكا ، ولا يضيره أن يقال إن بعض بحوث ابن الهيثم قد سبقه إليها أوقليدس فى أحد شطرى قانون الانعكاس ، وبطليموس فى دراسة الانعطاف ، وآخرون فى بيان كيفية الإحراق فى المرايا المحرقة — ولكن كما كانت أصول علم الميكانيكا مبعثرة قبل نيوتن ، فأدرك حقائقها وأضاف إليها وربط بينها حتى صارت على يديه وحدة شاملة هى التى قام عليها علم الميكانيكا . وكذلك علم الضوء ، أو كما كان يسمى علم المناظر ، وأنه حتى الفكرة الأولية البسيطة من أن للضوء وجودا فى ذاته ، لم تكن من الأمور المسلم بها ، وأن أوقليدس وبطليموس وغيرهما ممن سبقوا ابن الهيثم كانوا متفقين فى أن الإبصار هو بخروج شعاع من البصر إلى المبصر ، فالذى ينعكس بحيث تكون زاوية السقوط فيه مساوية زاوية الانعكاس هو هذا الشعاع ، والذى ينعطف فى الماء مثلا إلى العمود هو هذا الشعاع ، فهو الذى يخرج من البصر ويقع على السطح العاكس فينعكس أو على سطح الماء فينعطف ، فإذا وقع بعد انعكاسه أو انعطافه على مبصر ، أدرك البصر هذا المبصر بالانعكاس أو الانعطاف .

لقد أعاد ابن الهيثم بحث هذا كله ، واتجه وجهة جديدة لم يولها أحد من المتقدمين ، وأصلح الأخطاء وأتم النقص وأضاف الجديد ، لقد أبطل علم المناظر القديم وأنشأ علم الضوء بالمعنى الحديث ، وإذا كانت دائرة المعارف البريطانية تقول إنه بعد بطليموس لم يظهر من يجاريه فى علم الضوء إلا ابن الهيثم ، فمن الحق أن نقول إن مصطفى نظيف هو مجلى علم الضوء فى البلاد العربية بعد ابن الهيثم .

ويقول إنه ما كاد يهم بهذه الدراسة عن بحوث ابن الهيثم وكشوفه البصرية حتى ملأ نفسه اعتقاده بأن من بحوث ابن الهيثم فى موضوعات علم الضوء ما لا يصح أن يعد مجرد زيادة اتسعت بها دائرة المعلومات ، بل حقيق بها أن تعد أحداثا قلبت أوضاع هذا العلم وعدلت مجراه ، ولا يكفى فيها نشر ما لم يطبع من مخطوطات بل هى جديرة

بعمل أبعد غورا وأشد جهدا من التقدمة لها بمقدمة والتعليق عليها فى الهوامش ، هى جديرة أن تدرس وتمحص مع شىء غير قليل من التلطف فى تفهم معانيها ومقاصدها، فبعد الأمد بيننا وبين صاحبها يجعلنا اليوم لا نألف بسهولة بعض اصطلاحاته وعباراته، بل ولا ماهية ما كان يسود القول فى عصره من الآراء والمذاهب العلمية ، ثم يقول إن بحوث ابن الهيثم فى موضوعات الضوء ، ما ورد فيها فى المناظر وما ورد فى المقالات الأخرى ، تبين أنها حقا جديرة بأن تدرس فى جملتها كوحدة ، دراسة يصحبها التحليل والموازنة ، فهى جميعا نتاج عقل واحد ، فقد توافرت فيه مميزات أولى التفكير العلمى الصحيح ، وهى من خير الأمثلة التى تدل على نضج الفكر وعمق النظر .

ويضع الأستاذ نظيف مثالا ينبغى أن يحتذى فى هذه الدراسات ، حين يقول إنه لا يكفى فيها تحرى الأمانة والصدق فى مجرد عرضها على ما جاءت عليه فى الواقع ، وإنما يجب تحرى العدل والإنصاف اللذين يقضيان بالحرص على تعرف ظروفها ومعرفة ملابساتها ، ثم معايرتها بالمعيار الذى يلائمها ، حتى نتبين قيمتها الصحيحة وتحل فى المكان الذى هى أهل له فى تاريخ نشوء العلم وتطور الفكر .

ويضيف أنه يرى أن من المعلومات التى يتضمنها الكتاب ما كاد يطويه الدهر فى ثنايا النسيان ومنها تفصيل مالا يزال العلم به مجملا أو مقتضبا وأنه ليأمل أن يكون لهذه الدراسة بعض الأثر فى تعديل الأوضاع التاريخية لبعض البحوث والكشوف العلمية الخاصة بعلم الضوء ، كما يأمل أن يكون من آثارها بعث ابن الهيثم بعثا جديدا فى الكتب التى تؤلف لطلبة مدارسنا فى هذا العلم ، وأن يستبدل أسمه بأسماء أمثال روجر باكون ومورلكيوس ودافنشى ودلابورتا وكيلر وغيرهم فى مواضع كثيرة، ألفنا فيها رؤية هذه الأسماء ، كما يأمل إصلاح كثير من الاصطلاحات والعبارات التى نستعملها الآن فى علم الضوء، فيستبدل بها خيرا منها مما ورد فى أقوال ابن الهيثم ويمتاز دقة ورصانة .

لقد وجد عالمنا فى ابن الهيثم صورة من ذات نفسه فشغف به ، وأقبل عليه ، وبذل فى دراسة أعماله جهدا رائعا ، ووضع مثالا يحتذى فى دراسة تاريخ العلم ، وأقبل المستشرقون والمهتمون على دراسة كتاب عالمنا عن ابن الهيثم الذى يقع فى جزأين تبلغ صفحاتهما نحو الألف عدا . وتتجلى فيها الأمانة العلمية والدقة الفائقة والصبر بغير حدود على القراءة والمقارنة والتحليل حتى يصل إلى الحقيقة ناصعة لا زيف فيها ، وجلى لنا وللعالم ابن الهيثم أبدع تجلية وأروعها ، ووضعه فى مكانه الصحيح بالنسبة لتاريخ العلم عامة وللبحوث والكشوف البصرية بصفة خاصة .

لقد خلص أستاذنا مصطفى نظيف من هذه الدراسة الممتعة بالنسبة لابن الهيثم ، إلى

مثل ما خلص اليه أستاذنا المرحوم الدكتور مشرفة من دراسة لأعمال الخوارزمى حين قال: « صحيح أنه كانت هناك معلومات مشتتة متناثرة فى الحساب قبل الخوارزمى ، وكان حل بعض المعادلات الجبرية معروفا قبل الخوارزمى ، ولكننا لم نعثر على كتاب واحد يشبه كتب الخوارزمى وكان لا بد أن تنتقل هذه المعلومات المتناثرة المشتتة إلى عبقرى كالخوارزمى ، لكى ينسقها ويعلمها للناس أجمعين » . وها هو ذا مصطفى نظيف يدرس ويقارن ويحلل أعمال بطليموس وأوقليدس وغيرهما ممن سبقوا ابن الهيثم ، وينتهى إلى القول بأن ابن الهيثم قد وضع أسس علم الضوء بالمعنى الحديث ، وأنه أبطل علم المناظر الذى كان معروفا أيام هؤلاء وأولئك ووضع أسسا ونظريات وآراء جديدة لم يسبق اليها .

وقد بدأ عالمنا بدراسة كتاب « فيتلو » فى البصريات الذى نشر فى القرن الثالث عشر الذى قال إنه وضعه على أساس كتاب بطليموس القلوذى وآخر لعالم عربى عرف باسم الهازن . ونشر « رزنر » سنة ١٥٧٢ ترجمة لاتينية للكتاب العربى بعنوان «الذخيرة فى الأوبطيقى للهازن » فتبين أن جل ما ورد فى كتاب « فيتلو » قد نقل من الكتاب العربى ، وقد قال دلابورتا بعد ذلك «لقد أخطأ فيتلو» فيما نقله عن الهازن وكان كالقرد المقلد . ولبث هذا الكتاب المنقول عن العربية مرجع أهل أوربا فى علم الضوء خلال القرون الوسطى . يقول مصطفى نظيف وقد تبين لى على التحقيق أن جل البحوث والكشوف الضوئية التى تنسب إلى علماء أوروبا حتى عصر النهضة قد وردت فيه ، وأن كثيرين من علماء أوروبا المشهورين فى تلك العصور لم يسموا إلى مستوى الآراء والفكر الأساسية التى ذكرها ابن الهيثم ، وأنه كان للكتاب أثر عميق فى توجيه دراسة علم الضوء إلى الوجهة الصحيحة ، ويقول إن مستواه العلمى بوجه عام قد سما سموا رفيعا فوق مستوى كثير من الكتب العلمية التى ألفها الغربيون فى تلك العصور ، بما فيها مؤلفات كبلر فى الضوء . وكذلك أثبت أن كتاب الذخيرة اللاتينى أنما هو ترجمة كتاب المناظر لابن الهيثم .

يقول وكأنما يصف نفسه ، وعظمة ابن الهيثم العلمية ، لم تشبها قط شائبة من الغرور أو يمسها ضعف من الخلق ، بل زادها متانة الخلق وجمال التواضع جلالا وبهاء . كان فاضل النفس ، وافر التزهد ، محبا للخير وفوق حبه عمل الخير لذاته ، وفوق زهده عن المال وترف العيش متواضعا ، مقدرًا السابقين من العلماء حق التقدير ، يذكرهم بالفضل والإحسان ، وينصفهم حقوقهم كاملة ، وهو إن ابتكر فكرة جديدة أو تناول بحثا لم يسبقه اليه أحد ، قنع بالإشارة إلى ذلك بمثل قوله ولا نعرف أحدا من المتقدمين ولا المتأخرين بين هذا المعنى ولا وجدناه فى شىء من الكتب ، ويروى عن القفطى : « سمعت أن ابن الهيثم كان ينسخ فى

مدة سنة ، ثلاثة كتب ضمن أشغاله ، وهى أوقليدس والمتوسطات والمجسطى ، فيستكملها فى مدة السنة ، فإذا شرع فى نسخها جاءه من يعطيه فيها خمسين ومائة دينار مصرى ، وصار ذلك كالرسم الذى لا يحتاج فيه إلى مواكسة ولا معاودة فيجعلها مؤونة لسنته ».

وهو يدافع عن الحاكم بأمر الله أبلغ دفاع بمناسبة قصته مع ابن الهيثم ، فقد صوره لنا المؤرخون بأنه كان شاذا غامضا ، فيقول كان به ميل إلى الحكمة والفلسفة وكانت له رغبة فى تشجيع العلم والعلماء ، أوى كثيرا من أطباء عصره ، وأسس فى القاهرة دار الحكمة وأنشأ فى المقطم مرصدا جعل فيه ابن يونس المصرى ، وأنه عندما بلغه قول ابن الهيثم : « لو كنت بمصر لعملت بنيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال وهو فى طرف الإقليم المصرى » . فاشتاق الحاكم إلى رؤيته ، ولعله أراد أن يستفيد به فيما قال فى أمر النيل ، ولعله أراد أيضا أن يأويه إليه ويشمله بعطفه لكى يستأثر بفخر استظلاله برعايته وانتسابه إليه ، فأرسل إليه مرغبا إياه فى الحضور إلى مصر ، وخرج الحاكم نفسه لاستقباله خارج مدينة القاهرة ، وأكرم وفادته ، وأمر باكرام مثواه ، وأنه لما رحل على رأس بعثة هندسية بأدق المعانى الحديثة لهذه العبارة ، تتبع مجرى النيل من القاهرة إلى جنوبي أسوان يدرسه ويعاينه ، وأنه لما لم يجد الأمر متفقا وفكرته الهندسية التى خطرت له ، عاد إلى القاهرة وهو فى أشد حالات الخجل واعتذر للحاكم » .

ولا مراء فى أن مصطفى نظيف قد أضاف إلى معارفنا بتصحيحه لتاريخنا العلمى ، حين قال بسبق ابن الهيثم لباكون فى ابتداع الطريقة العلمية والأخذ بأسبابها ، فيقول إن هذه الطريقة التى تعد من مبتكرات العصر الحديث هى الطريقة التى لا نتردد فى أن نقول إن ابن الهيثم اتبعها فى بحوثه وكشوفه الضوئية وهذه ناحية من نواحى ابن الهيثم لم يتناول بيانها على ما نعلم أحد ، وهى جديرة بالإشارة والتقدير فابن الهيثم أخذ فى بحوثه بالاستقراء . وأخذ بالقياس ، وعنى بالتمثيل ، وأخذ بهذه العناصر على المنوال المتبع فى البحوث الحديثة وهو فى ذلك لم يسبق فرانسس باكون فحسب بل سما عليه سموا . وكان أوسع أفقا وأعمق منه تفكيرا .

لقد عرض عالمنا لنظريات الإبصار فى الفلسفة اليونانية من فيثاغورس إلى أمبدقليس ومن أفلاطون إلى أرسطو وأبيقور ثم العصر الاسكندرى من أوقليدس وبطليموس إلى هيرون وثاون ؛ كما عرض آراء الإسلاميين المتقدمين عن ابن الهيثم من أمثال الكندى وقسطا ابن لوقا والرازى ، ويقول ليس من المعروف الآن أن أحدا من الإسلاميين المتقدمين على ابن الهيثم قد أضاف إلى علم الضوء شيئا جديدا ذا قيمة ولم يكن معروفا من قبل . فهم لاشك قد أصلحوا الكتب التى نقلت عن اليونانية وشرحوا

غوامضها وصححوا أغلاط براهينها الهندسية ، ولكن ظل علم الضوء عند المستوى الذى وصل إليه وبقى كذلك حتى تناول ابن الهيثم دراسته ثم عرض آراء ابن الهيثم فى الضوء وقارنه بالآراء السائدة فى عصره ، شرح آراءه فى الأضواء الذاتية والعرضية والمنعكسة والفجر والشفق ونقده لرأى أصحاب الشعاع وألوان الأجسام الكثيفة والأجسام المضيئة بذواتها والتقازيح ، وأن انتقال الضوء لايكون إلا فى زمان معارضا السرعة الآنية للضوء التى قال بها ابن سينا ، وتجاربه لإثبات سرعة الضوء والناحية الميكانيكية من نظرية ابن الهيثم فى الانعكاس والانعطاف والهالة وقوس قزح والكسوف وما إلى ذلك ، كل ذلك عرضه فقيدنا العظيم فى أسلوب أخاذ ، فى عمق ورصانة وأصالة ؛ فى وضوح وجلاء ، فى دقة وأمانة .

ولا يستطيع أن يقدر الجهد الذى بذله عالمنا العظيم فى قراءة هذه المخطوطات وتلك المراجع إلا من كابد هذا العمل نفسه ، وما أظنه يبالغ بعض ما بلغ فقيدنا عن دراسة لأعمال ابن الهيثم ، فهو يعرض آراء أصحاب التعاليم والفلاسفة الطبيعيين والأبيقوريين والأفلاطونيين والفلاسفة الإسلاميين ويناقشها مناقشة موضوعية ، ثم يثبت فى وضوح أن نظرية ابن الهيثم فى الضوء ، جديدة ، مخالفة لآراء هؤلاء جميعا ، ويقول : إن أعظم آثار ابن الهيثم فى الضوء أنه أبطل نظرية قديمة كانت شائعة توارثها الأجيال من عصر اليونان إلى عصره فى كيفية حدوث الإبصار وهى تتلخص فى أن الإبصار يكون بشعاع أو بحزمة من الأشعة على حسب التعبير الحديث ، تخرج من البصر إلى المبصر وخلاصة رأيه أن هذا الشعاع الذى يخرج من البصر إما أن يكون عاديا أو على حسب تعبيره جسما أولا ، فإن كان جسما ، فنحن إذا نظرنا إلى السماء ورأينا الكواكب ، فقد خرج من البصر جسم ملأ ما بين السماء والأرض ولم ينقص من البصر شىء ، وهذا كما يقول : « محال فى غاية الاستحالة وفى غاية الشناعة » وإن لم يكن جسما فهو لا يحس هو نفسه بالمبصر « لأن الإحساس ليس هو إلا للأجسام ذات الحياة ، والإبصار بالبصر لا به . فهو إنما يؤدى شيئا من المبصر إلى البصر ، وليس هذا الذى يقال إنه يخرج من البصر شيئا محسوسا وإنما هو مظنون » . وعارض أصحاب الشعاع ومن قال بنظرية الورود ، وكان رأيهم غامضا لا يغنى شيئا فى بيان كيفية ورود صورة المبصر إلى البصر ، فكان ابن الهيثم أول من ذهب فى أن للضوء حقيقة ووجودا ذاتيا ، وكان رأيه كفيلا بسد أكبر ثغرة فى النظرية وإزالة أخطر دواعى الخلل فيها .

لقد وجد عالمنا فى ابن الهيثم صورة مطابقة لنفسه كما ذكرنا ، فعكف على دراسة أعماله فى صبر ومصابرة ، أعجب بعيوفه عن الصغائر وزهده فى الترف والمال والسلطان وانكبابه المنقطع النظير على العمل ، فراح يترجم له وينقب عن مخطوطاته وكشوفه ، يجلوها على الناس ، ويعرفنا بهذا التراث

العلمى العربى المجيد ، وأنه ليروى قصة ابن الهيثم مع الأمير الذى دفع له أجر تعليمه فردها قائلا خذ أموالك بأسرها ، فأنت أحوج اليها منى عند عودتك إلى ملكك ومسقط رأسك ، واعلم أنه لا أجرة ولا رشوة ولا هدية فى نشر العلم وإقامة الخير . كما يروى فى اعتزاز قوله ، يكفينى قوت يوم فما زاد على ذلك إن أمسكته كنت خازنك ، وأن أنفقته كنت قهرما نك ، فاذا اشتغلت بهذين فمن يشتغل بعلمى وأمرى ، كما يروى قول سارتون عن ابن الهيثم : إنه أكبر عالم طبيعى مسلم فى جميع العصور والأزمان .

وفى الحق أن جهود عالمنا فى التعريف بالتراث العلمى العربى ، بإنشاء الجمعية المصرية لتاريخ العلم ورياسته لها طيلة حياته وإشرافه على إصدار ستة أعداد من مجلة هذه الجمعية ، وإنشائه للمحاضرات التذكارية لابن الهيثم التى ألقيت أثناء عمله فى كلية الهندسة ، وتضمنها عدد خاص من مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم والمقالات العديدة التى نشرها فى رسالة العلم فى موضوعات تتصل بتاريخ العلم عند العرب ، والمحاضرات التى ألقاها فى العيد الألفى لابن سينا والعيد الألفى لابن الهيثم وفى المؤتمرات العلمية ، وأنه لخليق بنا اعترافا بفضل عالمنا ، أن ننشىء كرسيا بأسمه لتاريخ العلم فى كل جامعاتنا ، وهو الكرسى الذى سعى لإنشائه منذ مدة طويلة ، وذلك تخليدا لذكراه فقد كان يأمل رحمات الله عليه أن يعرف شبابنا أمجادنا العلمية ، وأن أمتنا ذات أصالة فى العلوم الطبيعية اعترف بها المنصفون من مؤرخى العلم من الغربيين ، على حين يجهلها شبابنا ، ويظنون أنها مستوردة من الخارج ، ومن أسف أن تعثر إنشاء هذا الكرسى ، بحجة أى الأقسام يتبع ، ثم تبودلت المذكرات والتوصيات بإنشائه بين الجامعات وجامعة الدول العربية ، ثم اكتفى بتدريس مقدمة فى تاريخ العلم فى بعض الكليات لبضع سنين ثم ألغيت إلغاء باعتبارها إحدى المواد القومية التى تقرر إلغاؤها . أليس من الواجب وفاء لراحلنا العمل على إنشاء قسم لتاريخ العلم أسوة بكثير من الجامعات الأوربية خاصة وأنها لا تعطى العناية الكافية للعصر العربى الاسلامى ، وان اعترفت بفضله على العلوم الطبيعية. إنى أقدم هذا الاقتراح إلى المسئولين وهو إنشاء كرسى مصطفى نظيف لتاريخ العلم فى إحدى الجامعات المصرية ولتكن جامعة عين شمس التى عمل وكيلا ومديرا لها وأستاذا بكلية العلوم بها أو فى جامعة القاهرة التى عمل أستاذا بها نحو عشرين عاما .

ويعتبر تأريخه لعلم الطبيعة أو الفيزيقا كما كان يحب أن يسميه أخيرا فى كتابه الذى نشره سنة سبع وعشرين، ويقع فى نحو أربعمائة وخمسين صفحة يعتبر مثالا يحتذى ، فهو يقول: إن الإحاطة بكيفية نشوء العلم ومعرفة الأدوار المختلفة التى مرت بها نظرياته ، والوقوف على مواضع الضعف

فى النظرية الواحدة ، وكيف أدى البحث فى إصلاحها إلى الخروج بها من حال إلى حال ، كل ذلك أدعى إلى حسن تصور الآراء والنظريات المختلفة وإلى معرفة قيمتها النسبية وتقديرها تقديرا صحيحا ، كما أن تتبع كيفية نمو العلم وتدرجه ومعرفة ما قام به العلماء من الأعمال التى أحدثت هذا النمو والتدرج ، يوضح بجلاء أن العلم كالكائن الحى ، قابل للنمو والرقى ، ويبعث فى نفس القارئ حب الاقتداء بمشهورى العلماء الذين لهم الفخار فى رفع منار العلم .

ويقول إن من أكبر ما يشوق المبتدئين فى دراسة العلم أن تذكر لهم الحقائق العلمية منسوبة إلى كاشفيها ، ويمزج بذكرها ما يجعل شخصيات هؤلاء الكاشفين مألوفة لديهم ، وأن العناية إلى حد ما بالخطوات المتتابعة التى أدت إلى الكشف عن هذه الحقائق يساعدهم فى فهمها ، ويذكى فيهم حب البحث فى الموضوعات العلمية ، ويحملهم على الاهتمام بمزاولتها ودراستها .

ويضيف أن الغرض الذى يقصده من من الكتاب الإحاطة بأوليات تاريخ علم الطبيعة وسد الحاجة إلى كتاب يقف منه الدارسون على الكشوف الحديثة وما أدت اليه من الآراء والنظريات ، ويقول إن الكتب العربية التى تبحث فى تاريخ علم الطبيعة معدومة بتاتا ، وهى باللغات الأوربية نادرة جدا ، ولا يكاد يجد القارئ كتابا تناول البحث فى تاريخ علم الطبيعة منذ أول نشأته فى العصور القديمة وتدرج بها إلى أحدث الآراء والنظريات فى هذا العصر .

وأنه لتتبع نشأة العلم فى المدنيات القديمة والفلسفة اليونانية وعلاقتها بالعلم ونشوء فكرة العناصر وبقاء المادة فى الفلسفة اليونانية ثم التعاليم الرياضية والفلكية فى فلسفة فيثاغورس وعند أرسطو ونظريته فى حركة الأجسام ، ثم ينتقل إلى الحركة العلمية القديرة وتأسيس علم الهندسة عند أوقليدس وأرشميدس وبحوثه ، ويعرض للمخترعات العلمية فى العصر الاسكندرى ، ثم ينتقل إلى النهضة العلمية فى دولة الإسلام وعن تقدم علم الفلك عند العلماء العرب وفلاسفتهم فى علم الطبيعة ثم فى الميكانيكا ، ويعرض لكتاب ميزان الحكمة والبحوث الميكانيكية التى وردت فيه ثم منجزاتهم فى علم الصوت ومبلغ تقدم علوم الحرارة والمغناطيسية والضوء عند العرب .

ويمضى عالمنا الفذ فى تتبع نمو علم الطبيعة فى عصر النهضة الأوربية ، بادئا بأعمال كوبرنيق وكيلر وجاليليو ، ثم هيجنز ونيوتن وكافندش وغيرهم ودورهم فى تكون علوم الميكانيكا والأيدروستاتيكا ثم تورشيلى وباسكال وبويل ثم هولمهولتز ورالى وجاى لوساك ومكسويل وفراداى وآثارهم فى علوم الحرارة والصوت والضوء وهكذا إلى أن يصل إلى أحدث البحوث فى نظرية الكم

والنظرية النسبية لأينشتين وطومسون ورذرفورد والنظرية الإلكترونية — كل ذلك فى أسلوب سهل جذاب ، إنه الوضوح بعينه، هو السهل الممتنع .

أما كتابه البصريات الهندسية والطبيعية الذى نشره سنة ثلاثين ، ويقع فى أكثر من سبعمائة وخمسين صفحة من القطع الكبير ، فإنه هو الآخر فريد فى بابه، متألق فى أسلوبه ودقته ، وأنه ليتدرج كذلك من مبادئه الأولية إلى المستوى المعتاد لدراسة هذا العلم فى الجامعات ، ويقول إنه يبدأ بهذه الدراسة المستفيضة لعلم الضوء دون فروع علم الطبيعة الأخرى ، لأنه الفرع الذى نما وازدهر فى عصر التمدين الإسلامى ، وكان من أعظم مؤسسيه شأنا ورفعة وأثرا، الحسن بن الهيثم، الذى كانت مؤلفاته ومباحثه المرجع المعتمد عند أهل أوروبا حتى القرن السادس عشر ، ويقول إنه لمن المعرة ألا يجد الباحث كتابا عربيا يرتفع فوق مستوى المبادئ الأولية التى يدرسها طلبة المدارس الثانوية فى علم كانت اللغة العربية لغته حتى عصر النهضة فى أوروبا.

وقد عالج فى هذا الكتاب موضوعات الانعكاس والانكسار ، وما يرتبط بها من المسائل الخاصة بالعدسات وتركيبها وما إليها بالبراهين الهندسية، على اعتبار أن شعاع الضوء فى الوسط المتجانس الأجزاء المتشابه الخواص فى جميع الاتجاهات ، خط مستقيم ، وأنه ينقاد عند الانعكاس والانكسار إلى القوانين الأربعة المعروفة ، ويتكون من هذا الشطر الأول من الكتاب المقصود بالبصريات الهندسية ، وأما شطر البصريات الطبيعية فهو الذى يدور البحث فيه حول موضوع ماهية الضوء وما يتفرع منه أو يرتبط به من الموضوعات ، ثم عرض للحركة الاهتزازية والحركة الموجية والنظرية الموجية ثم يصف العين وآلات الإبصار المألوفة والتشتت والألوان وتعيين الأبعاد البؤرية للمرايا الكرية والزيغ الكرى والزيغ اللونى وقوس قزح وسرعة الضوء ، والمبادىء الأساسية فى النظرية الموجية ثم التداخل والحيود ، والاستقطاب والتحليل الطيفى وقوانين الإشعاع . . . . كل ذلك وغير ذلك مما لا يتسع المقام لذكره والإفاضة فيه ، فى لغة سهلة جذابة ، وفى أسلوب عربى سليم ، مع العناية بترجمة وتعريب المصطلحات العلمية .

وكم حدثنى رحمات الله عليه فى أمله فى أن يعيد طبع هذه الكتب ، ليضيف إليها ما استحدث فى العلم من آراء ونظريات وتجارب ، وأنا أعلم أن لديه ما كتبه بخطه فى هذه الموضوعات التى كان يود أن يضيفها ، وكم تمنيت عليه أن يملى على مايشاء من هذه الموضوعات ومن غيرها فى تاريخ العلم ، حتى تنشر ويعمم نفعها للقارئين والدارسين .

ولا مراء فى أن الأستاذ مصطفى نظيف شيخ علماء الطبيعة فى مصر بل وفى العالم العربى ، وأنه لرائد من رواد النهضة العلمية العربية فى العصر الحديث ، وقد اختير عضواً بمجمع

اللغة العربية سنة ست وأربعين ، ومنح جائزة الدولة فى الطبيعة سنة سبع وأربعين ، وجائزة الدولة التقديرية سنة ثمان وخمسين ، ووسام الجمهورية سنة خمس وخمسين ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى سنة تسع وخمسين .

وقد ولد عالمنا بمدينة الاسكندرية فى الثانى عشر من يناير سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وألف . وأوفد فى بعثة إلى إنجلترا بعد حصوله على الشهادة الثانوية وكان من الخمسة الأوائل فالتحق بجامعة برستول حيث تخصص فى الطبيعة مادة أساسية والرياضيات مواد ثانوية ، ولما عاد من بعثته سنة أربع عشرة عين بالتعليم الثانوى ثم نقل فى سنة ١٩٢٠ مدرساً لعلم الطبيعة بمدرسة المعلمين العليا حتى سنة ١٩٣٠ ، ثم عمل مفتشاً بوزارة المعارف وناظرا لمدرسة الفنون والصنائع ، ثم اختير أستاذاً مساعداً للطبيعة بمدرسة الهندسة التى صارت بعد ذلك كلية الهندسة بجامعة القاهرة

وفى سنة ١٩٣٤ رشح ليشغل وظيفة الأستاذية بدلا من الأستاذ الأجنبى ، ولكن حال نقله ناظراً لمدرسة أسيوط الثانوية دون تعيينه فى ذلك الوقت ، ثم أعيد الى وظيفته بمدرسة الهندسة ، ولما ضمت المدرسة إلى الجامعة متحولة الى كلية الهندسة ، عين أستاذاً للطبيعة ورئيساً للقسم ، إلى أن اختير وكيلا بجامعة عين شمس سنة خمسين ، وعين مديراً للجامعة سنة أربع وخمسين وظل يشغل المنصب إلى أن طلب إعفاءه فى أكتوبر سنة ست وخمسين ، فعين عضواً بمجلس الجامعة وأستاذاً غير متفرغ للطبيعة بكلية العلوم ، ثم استقال من عمله فى يونيه سنة ثمان وخمسين .

وقد كان عالمنا قطب الرحى فى كثير من الجمعيات والهيئات العلمية ، فهو إلى جانب عضويته بمجمع اللغة العربية ، ومجلس جامعة عين شمس ، عضو مراسل بالمجمع العلمى العراقى ، وعضو بالمجمع العلمى المصرى ، ورئيس سابق له ، وعضو بالأكاديمية المصرية للعلوم ورئيس سابق لها ورئيس الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، ورئيس الاتحاد العلمى المصرى ، ورئيس الاتحاد العلمى العربى ، والشعبة القومية للاتحاد الدولى لعلوم الطبيعة ، وكان عضواً بالمجلس الأعلى للعلوم طيلة مدة قيام هذا المجلس ، وعضواً بلجنة الطاقة الذرية وأول نقيب للمهن العلمية ، وأول من حصل على الجائزة التقديرية فى العلوم .

وكذلك كان الأستاذ نظيف منذ أول عهده من الداعين لتأصيل العلم فى البيئة العربية وإلى تدريس العلوم فى الجامعات باللغة العربية ، وبذل ما استطاع من جهد فى سبيل ذلك سواء كان بوضع الاصطلاحات أو بالتأليف أو بالقيام بتدريس المقررات المتقدمة فى علم الطبيعة باللغة العربية ، كما عنى بالتعريف بأهمية العلم وعلاقته بالمجتمع والتعريف بأهمية تاريخ للعلم وبمآثر العرب

فى العلوم وذلك فى محاضرات ودراسات ألقيت ونشرت فى مناسبات مختلفة ، وقد بلغ نشاطه الإنتاجى الذروة فيما بين منتصف العشرينيات ، حتى منتصف الأربعينيات بإنتاجه ما قدمنا من كتب فى علم الطبيعة وفى البصريات وفى دراسته للحسن بن الهيثم ، ثم فى بحوث ومحاضرات ودراسات ألقيت فى محاضرات عامة أو نشرت مقالات فى مجلات علمية ، ثم شغل بالمؤتمرات العلمية والاتحاد العلمى والأكاديمية واللجان العلمية والجمعيات المختلفة .

وقد أسهم الأستاذ نظيف فى أعمال لجان مجمع اللغة العربية ، ولكنه ركز جهوده بصفة خاصة فى لجنة العلوم الرياضيةوالهندسية والطبيعة وعلم النفس ، وشارك فى وضع مصطلحات الرياضة والطبيعة التى أقرت فى مؤتمرات المجمع منذ اختياره عضوا فيه كما شارك فى مراجعة معجم المصطلحات العلمية والفنية التى أصدرته القوات المسلحة منذ سنين .

ومن دراساته التى عرضت على مؤتمرات المجمع ، بحث عن نقل العلوم إلى اللغة العربية وثان عن العلم التعليمى فى الاصطلاح القديم وآخر عن العلم ودلالة اللفظ فى اصطلاح الفلاسفة الإسلاميين وأقسام العلم عندهم .

أيها السادة

قلت فى صدر هذا الحديث إنى أشفقت على نفسى من القصور عن الوفاء بحق فقيدنا العظيم ، وها أنذا أعتذر إليكم عن هذا القصور ، آملا أن تغفروا لى ذلك ، أسأل الله العلى القدير أن يتغمد فقيدنا العظيم بواسع رحمته وأن يسكنه فسيح جناته ، وأن ينزله منازل الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا ، والسلام .

• قصيدة الأستاذ عزيز أباظة :

أنبتت مصر العماليقَ الفحولا
فهووا عن أُفقها إلا قليلا

جزع الشعر على العلم فـــلا
فاعلا يلقى ولا يلقى فعولا

أَفدح الأَرزاءِ ما مسَّ الأُولى
إن تولَّوا ، لم تجد عنهم بديلا

عرف الناس لعمرى مصطفى
راهبًا فى معهد العلم بَتولا

ومصاب العلم فى أَعلامه
يجعل القول وإن صح عليلا

غارقًا فى بحثه ملتمسًـــا
لأَحاجى الكون بالدرس حلولا

واهبًا للعلم نفسًا حـــرة
تبذل الجهد وتأبى أن تقولا

واجدًا فى بحثــه لذتـــه
خلق الناس طباعا وميولا

صامتا يسمع فى مجمعـــه
فإذا قال فتصويبًا جليلا

يرسل القول وجيزًا محكما
إن فى إيجازه سبحًا طويلا

لم يكن من معشر إن عملوا
قرعوا الأجراس أو دقُّوا الطبولا

واسع الصدر إذا حاجيتـــه
وحَيِيًّا حين تُطريه خجولا

وجد الهيثم ذهنا صافيـــا
كشف الأستار عنه والسدولا

ليت شعرى كم لنا من هيثم
بين عينيه وبين النور حيلا

أيها الباحث عن تاريخنا
إن فى تاريخنا مجدا أثيلا

أنت ما قلبت فيه واجـــد
حكمة توثر أو فنا أصيلا

إن فى قرطبة علما عفـــا
ومنارات له أمست طلولا

إن فى بغداد إشراقا خبـــا
فاسألنْ دجلة عنه والمغولا

أمة أُمِّيَّـــة كم نشـــطت
تبعث العلم فروعا وأُصولا

سائلِ الصحراءَ كم قاعٍ غدا
للحضارات مقرًّا ومقيـــلا

أسرج الجوَّ أُناس أخذوا
عن أُناس أسرجوا فيها الخيولا

كان للعرب . فهل جدَّ لهم
أثر فى كل فن لن يزولا

ما لنا هُنَّا وكنا قمـــــا
فارعات . حسبنا الله وكيلا

هذه الدنيا وقد مالت بنـــا
فى سُراها دفعتنا أن نميـــلا

كل عام تنتحينا نُـــوَبٌ
فى زميل راحل يقفو زميـــلا

ليت شعرى مَنْ مِنَ الصحب إذا
أطبق الحين وأزمعتُ الرحيلا

قـــائم بينكمو يذكرنى
حامل فى يومه عبئا ثقيـــلا

لن يرى إلا حياة جَدِبـــت
ليس فضلا ما احتوت لكن فضولا

إن تكن طالت مما أبأسها
أن تضم العُقْم موصولا طويلا

هبك طالعت السها فى أوْجِها
وتطوَّلتَ صعودا ونــــزولا

كملايين الورى ؛ قد طالعت
أول السبل ولم تسطع وصولا

هل تسوم العمر يجرى القَهْقَرى ؟
هل ترد الموت بالحىِّ نزيلا !

آه لو عاد بىَ العمر إلى
باكرٍ منه ، لغيرتُ الدليــلا

هل تُنَقِّى النفس مما ضَمِنتْ
هل تزيل الحقد عنها والغليلا !

وقصدت الطوْد لم أُبدل به
هُضُباً طفت عليها وتلولا

هل تقيم العدل فى الدنيا فلا
يلبث الباطل فيها أن يزولا !

وصبرت الطبع عن أهوائه
وحبست السمع عن قال وقيلا

هل تقى الضَّعْفى من الأَقوى إذا
ضرب الخسف عليهم والكُبولا

ومضيْتُ النفس من ضغن وإن
سامنى الناس من السُّوءِ شكولا

أيها الإنسان مازلت وإن
جبت أقطار السماوات ضئيلا

وتكرَّمتُ فلم أدلِف إلى
دَرَج خُضت إليهن الوحولا

فاعتصم بالله واخشع ؛ إنه
إن يشأْ يَسِّر هذا المستحيلا

وتحنَّفت فكان الطهـــر لى
والهدى زادا ونقلا وشمولا

وخَفِ الله وسَلْهُ واقتــربْ
وتَطهَّرْ يعطك الله جزيلا

وترفعت فلم أجعل لمــــــا
أبتغيه غير ذى العرش مسولا

صحب الدنيا أُناس لم يكن
أمرهم إلا قدوما ورحيــــلا

أُمنيات كم تمناها الأُولى
أَخطأُوا فانفرطوا عنها فلولا

لم يعش يوما وإن عمَّـر من
لم يزده عيشه إلا خمولا

أيها الإنسان لم تؤت من الـ
ـعلم فى أطرافه إلا قليـــلا

إنمـــا الدنيا كتاب جامع
خالد . من زاد فى المتن فصولا ؟!

لا لعمرى ما توارى عـــالم
إن يُتْمًا فقدُ أمٌّ أو أبِ

طبّق الأَرض اسمه عرضًا وطولا
أو إذا سجّيت خِلاًّ وزميلا

من يكن بالعلم غذّى معهدًا
رَبِّ هذا عبدك اعتزّتْ به

فنظيف وحده علّم جيـــلا
أمم طبّقها علما أصيـــلا

يا نظيف العرض والنفس لقد
وهفا يصقل فيها جهـــده

حمد الشرق لك الجهد الجليلا
وهو ريان قبيلا فقبيـــلا

إن من أجلاك عنا بغتـــة
فاسكب الفضل عليه غدقـــا

قادر أن يَهَبَ الصبر الجميلا
إنك الرحمنُ ، واقبله قبولا

• • كلمة أسرة الفقيد للأستاذ كمال نظيف :

سيدى الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين
رئيس المجمع
السيد الأستاذ الوزير بدر الدين أبو غازى
السادة العلماء أعضاء المجمع
حضرات السيدات والسادة
السلام عليكم ورحمة الله .

لقد استمعت اليوم إلى كلمتين . . . كان لهما أثر كبير فى نفسى .. كلمة الأستاذ الدكتور عبد الحليم منتصر وكلمة الأستاذ الشاعر عزيز أباظة ، كان حزنى بالغا وأليما فرأيت أنكما مثلى أول من أحس فداحة المصاب ، وكان اشتياقى إليه وإلى ذكراه شديدا فكنتما خير من يذكرنى به .

أيها السادة :

إن مشاركتكم الصادقة لى هونت على وخففت من حزنى لفراقه رحمه الله . وكان عزائى أنه ترك لى ولأمثالى من الأعمال والمبادئ ما ينير لنا الطريق وما نسير على هداه . وأدعو الله أن يوفقنى فى أن أحذو حذوه فى أفعاله وفى جده وفى حسن بصيرته .

لقد كان رحمه الله يجل اللغة ويحترمها حتى فى مكاتباته وخطاباته العادية ، كما كان يجل النهضة العربية القديمة ويغار عليها فى العلم والأدب . كان دائم الاتصال بكم أهل العلم والأدب من مصر و الأقطار الشقيقة . وأذكر على سبيل المثال الفقيد المرحوم الدكتور قدرى طوقان الذى لبّى نداء ربه

بعده بوقت قصير . فكأنه كان على موعد معه فى السماء .

إن تأبينكم اليوم لوالدى لعمل جليل . وبرهان بين واضح على صدق مشاعركم الطيبة ، إنه تكريم لذكراه ولأسرته ولأصدقائه ولرفاقه الأخيار . لذلك أرجو أن تسمحوا لى بالتقدم إلى حضراتكم جميعا وإلى كل من تفضل بمشاركتى الحزن والأسى لفراقه ، بخالص شكرى وتقديرى .

وإنى أجد نفسى مهما أوتيت من قدر وبلاغة عاجزا عن أن أوفيكم قدركم من تقدير وشكر . جزاكم الله خيرا ، ورحم الله الفقيد وأسكنه فسيح جناته .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

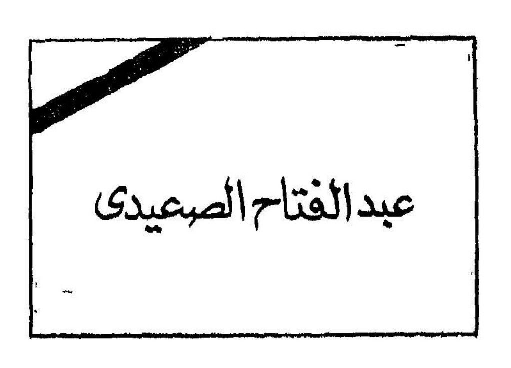
• • كلمة ختام الجلسة للدكتور طه حسين :

أما الآن وقد استمعنا لما ألقى من أحاديث تزيد حزننا وأسانا على فقيدنا العظيم ، فإننى أؤكد لكم أنه مهما قيل عنه فلن يؤدّى حقه كما ينبغى أن يؤدّى ، وأؤكد لكم أنى كنت — وما زلت — من أشد الناس إجلالا له ، وفخراً به ، وحبا كأعمق ما يكون الحب .

وإنى أشكر الخطباء أجزل الشكر ، وأرجو لأسرة الفقيد العظيم ولنا العزاء ، والصبر الجميل .

أقام المجمع فى الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين ٨ من ربيع الأول سنة ١٣٩١ هـ الموافق ٣ من مايو سنة ١٩٧١ م حفل تأبين لفقيده المغفور له الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى ، الذى استأثرت به رحمة الله فى ١٩٧١/٣/٨ . وفيما يلى ما ألقى فى الحفل من كلمات :

كلمة الأستاذ زكى المهندس فى تأبين المرحوم الأستاذ :



يعز على المجمع أن يجتمع اليوم لتأبين الزميل الكريم المغفور له الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى . ولقد كانت وفاته الفجائية فاجعة هزت أعصابنا جميعا ، وملأت قلوبنا حزنا وأسى ، وقد زاد فى ألمنا أن الفقيد كان فى طريقه إلينا لحضور حفل تأبين المغفور له الأستاذ مصطفى نظيف .

لقد خرج من بيته سليما معافى وهو لايدرى أن المنية كانت له بالمرصاد . وقد كان الفقيد ضحية من ضحايا الحياة الحضارية التى نحياها اليوم . فللحياة الحضارية ضحايا ، ولن يكون فقيدنا أول ضحية لها ، ولن يكون آخر ضحاياها .

إن حوادث الطريق هى إحدى ظواهر هذه الحياة الحضارية ، ولهذه الحياة ظواهر أخرى فاجعة .

إن الأزمات القلبية والذبحة الصدرية والضغط العالى والواطى وحوادث الطريق كلها ظواهر لتلك الحياة التى نحياها اليوم .

رحم الله الفقيد ، وأسكنه فسيح جناته .

• • كلمة الأستاذ عبد الحميد حسن :

نجتمع اليوم لنلقى نظرة مقرونة بالأسى على ما وعته الذاكرة ، وما انضمت عليه الجوانح ، من جليل الشمائل وحميد المآثر للزميل الكريم والصديق الحميم الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى عضو مجمع اللغة العربية ، الذى اختطفته حوادث الزمن وشرور الطريق وهو أقوى ما يكون صحة ، وأعظم ما يكون أملا فى متابعة جهوده اللغوية ، وأكثر اهتماما بالمشاركة فى الأعمال التى رسم مجمع اللغة العربية خطتها لتطوير اللغة العربية والنهوض بها إلى المستوى اللائق بماضيها المجيد .

ولقد كنا نأنس إليه فى لقاءاتنا فى المجمع ، ونرى فى قلبه الرحيم عطفا عميقا ومودة صافية ، ونلمح فى سجاياه التواضع وحب الخير ونحمد له بالتقدير دأبه المتواصل على البحث والتنقيب فى شتى نواحى اللغة العربية ، ودلالات مفرداتها ، وما ينطوى عليه كل ذلك من سعتها ووفائها بمطالب التقدم العلمى والفنى . لقد اختطفته يد الموت وما كان فى مقدور أحد أن يرد عنه عاديات الدهر ، أو أن يدفع ما كتب له فى الأزل . فهذا قضاء الله ولا راد لقضائه وليس لنا إزاء ما قدره الله إلا الرضا والتسليم.

جرت عادة الدنيا بكل الذى نرى
وليس لها صرف لما تتعود
فصبرا وتسليما لكل ملمة
إذا لم يكن يوما عن الخطب مبعد

نعم هذه هى طبيعة الحياة وسنة الله فى خلقه ، وهو الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه يرجع الأمر كله ، « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » .

حقا ، خلق الله الموت ليكون للناس واعظا ورادعا وحافزا ، وخلق الحياة وحدد لكل إنسان عمرا محتوما وأجلا معلوما ، وأخفى موعده لكى يتسع الأمل ، وينفسح مجال العمل ؛ والعمل الصالح هو رصيد الحياة ، وضريبة الصحة ، والعنصر الأساسى لبقاء المجتمع الإنسانى ، والعامل الأول فى عمران الكون ، وقد جعل الله العمل وثيقة ينال بها الإنسان النعيم المقيم والحياة الطيبة الخالدة . « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات

يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » (يونس ٩) .

ولقد كان الفقيد الكريم من خير العاملين المخلصين فى جميع مازاوله من أعمال فى التعلم والتعليم وما تقلد من مناصب .

ولد رحمه الله بسمنود فى محافظة الغربية فى ٢٠ من ديسمبر سنة ١٨٩٢ ، ودخل كتاب الأربعين ، وتعلم ما كان يدرس فى هذه الكتاتيب وهو حفظ القرآن الكريم ومبادئ الدين وشئ من الحساب وقواعد الكتابة والخط . وجوّد القرآن بمسجد « العدوى » على إمام القراءات بالجهة وهو الشيخ عزب جانى ، ثم طلب العلم بمسجد « سيدى سلامة » على الشيخ مصطفى البكرى .

ثم غادر سمنود إلى المنصورة فالتحق بمدرسة المعلمين وقضى بها سنتين ، ثم دخل بعد ذلك « دار العلوم » وتخرج سنة ١٩٢٠ .

وبذلك يكون الراحل الكريم قد أتم مرحلة الإعداد العلمى والثقافى ، وهى مرحلة لها أبعادها وعمقها فى مجال اللغة العربية والدين .

وتجزأ بعد ذلك مرحلة العمل والاستثمار وجنى الثمار . ويبدؤها المرحوم مدرسا بمدرسة بنى سويف الابتدائية . وهنا يلتقى بزميل كريم وصديق وفىّ رضىّ الأخلاق دمث الطباع فى تواضع وإخلاص ، وهو الأستاذ حسين يوسف موسى ، وقد ألّف الجد والنشاط والإخلاص بين قلبى الزميلين وأسفر ذلك عن ائتلاف علمى وتجاوب عملى فى البحث اللغوى ؛ فأخرجا كتابا قيّما وهو كتاب « الإفصاح » فى اللغة ، طبعت طبعته الأولى سنة ١٩٢٩ م ، وكان عدد صفحاته ٧٣٦ صفحة ، ثم طبعت طبعته الثانية التى تمت سنة ١٩٦٧ فى حجم كبير يقع فى جزأين بلغت صفحاتهما ١٣٩٤ صفحة . وهو كتاب عظيم الفائدة فى البحوث اللغوية على غرار المعاجم المعنوية ، مثل المخصص لابن سيده وفقه اللغة للثعالبى ، وغيرهما من كتب اللغة التى تجمع المفردات طبقا لما تنتمى إليه من فصائل المعانى ، مثل الأطعمة والأشربة والملابس والمساكن والرياح والسحب والأشجار والثمار وغير ذلك .

ويعد مرجعا ذا شأن فى وضع المصطلحات العلمية والفنية ، ودليلا موجها ومفيدا لمن يجولون فى ميادين اللغة وبطون المعاجم للبحث عن كلمات عربية تقابل المصطلحات الأجنبية ؛ لعلهم يظفرون بما يحقق ما ينشدون من الألفاظ الملائمة ، التى يمكن أن نشق طريقها فى المجال العملى فى يسر وسهولة .

وإلى جانب هذا المعجم اشترك الزميلان فى تأليف ثلاثة أجزاء فى متن اللغة والمحفوظات للمدارس الثانوية .

بعد ذلك استمر الراحل الكريم مدرسا فى مدارس متعددة وهى الناصرية ، فالمعلمين بالمنصورة فالمعلمين بعابدين فمدرسة فؤاد الأول الثانوية .

وفى إحدى مدارس المعلمين الأولية كانت جولته العلمية التى سعدت فيها بلقاه ، وكانت هذه المدارس فى القمة من نظام التعليم القومى المرتكز أولا وبالذات على اللغة العربية والدين ، إلى جانب المواد الثقافية التى يتزود بها المواطن الصالح ، وكذلك المواد التربوية اللازمة لإعداد من يقومون بتعليم الشعب فى أجياله المتعاقبة .

وقد حرص القائمون على إدارة التعليم الأولى إذ ذاك على أن ينشئوا أكبر عدد من هذه المدارس ، لكى تفى بتخريج العدد الكافى من المعلمين ، حتى يمكن تنفيذ التعليم الإجبارى بعد إعداد العدة له ، فأنشأوا خمسا وعشرين مدرسة وكانت منبثة فى أنحاء القطر المصرى من أسوان إلى شواطئ البحر المتوسط ، وقصدوا بتوزيعها على هذا النحو أن يحققوا فكرة التعليم المحلى ، حتى ينشأ الناشئ فى بيئته متعلما ، ثم يعود معلما فيها .

وكانت مناهج هذه المدارس فى اللغة العربية والدين حافلة بالعدد الكبير من الدروس فى مختلف موضوعات هاتين المادتين ، حتى يكون خريجو هذه المدارس أوسع أفقا فى اللغة والدين ، وبذلك يستطيعون أن يضعوا الأساس القوى المتين للقومية الصحيحة .

وفى إحدى مدارس المعلمين الأولية التقيت بالراحل الكريم مدرسا بمدرسة عابدين للمعلمين ، وكانت فى حى السيدة زينب بالقاهرة أمام المدرسة السنية الثانوية للبنات ، وقد تغيرت معالمها وحلت محلها مبان أخرى .

فى هذه المدرسة وفى غيرها من مدارس المعلمين لقيت زملاء أعزاء من بينهم الراحل الكريم ، زملاء لهم علم وفضل وتطلع إلى البحث والدرس والتجديد ، وكان لهم أثر عظيم فى النهضة التعليمية فى اللغة العربية والدين ، تلك النهضة التى نأمل أن تعود سيرتها الأولى فتعود للجيل الحاضر والأجيال القادمة أصالتهما ، وقوتها الخلقية والاجتماعية ، ثم مقدرتهما العلمية .

وقد لمست فى فقيدنا الكريم فى هذه المدرسة حبا للعمل ، ونشاطا جما ، وإخلاصا ، ومثابرة ، وقياما بالواجب على أكمل الوجوه ، وهذه هى الصفات الكريمة التى كانت شعارا له فى جميع ما تولاه من أعمال .

وفى سنة ١٩٣٦ م نقل إلى المجمع اللغوى رئيسا للتحرير . وفى سنة ١٩٤٣ م رقى إلى وظيفة المراقب الإدارى بالمجمع ، خلفا للمرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى ، وظل فى هذه الوظيفة حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٩٥٢ م . ثم اختير عضوا بالمجمع سنة ١٩٦١ ، وظل عاملا فى جد ونشاط وإخلاص ، إلى أن وافاه القدر المحتوم .

وكان نشاطه في مجمع اللغة العربية واسع النطاق ؛ فقد كان عضوا فى كثير من لجانه وهى :

١ ـ لجنة الكيمياء والصيدلة .

٢ ـ لجنة علوم الأحياء والزراعة .

٣ ـ لجنة الجيولوجيا .

٤ ـ لجنة المعجم الكبير .

٥ ـ لجنة المصطلحات الطبية .

وفى الكتاب الذى ألفه الدكتور مهدى علام لمجمع اللغة العربية وعنوانه « المجمعيون » جاء عن الراحل الكريم مايلى :

« وأسند إليه من قبل وزارة الصحة مراجعة دستور الأدوية من الناحية اللغوية ، وهى أول دستور رسمى يظهر باللغة العربية ، وقدنشر فى مجلة المجمع بحثا بعنوان «مصطلحات العلوم فى اللغة العربية ودور المجمع فيها » (ج ١٣ ص ٢٠٩) .

وفى هذا البحث تعرض لوضع المصطلحات العلمية فى عهد الترجمة فى عصر الدولة العباسية وما مرت به هذه المصطلحات فى دور النقل والترجمة العاجلة ، ثم فى دور التمحيص والتأنى بعد دراسة العلوم الجديدة ، وامتلاك زمامها وفهمها فهما عميقا مستوعبا .

ثم عرض للأدوار الأربعة التى تمر بها المصطلحات فى مجمع اللغة العربية وهى : لجان المجمع ، وجلساته ، ومؤتمره ، ثم رأى جماهير العلماء والمثقفين فى هذه المصطلحات بعد أن تطبع وتذاع ويطلع عليها الجميع ، وأشار إلى استعداد المجمع لإعادة النظر فى أى مصطلح كان إذا ظهر له وجه الصواب ، ورأى ضرورة التغيير .

وجاء أيضا فى كتاب « المجمعيون » فى معرض اقتراحات الفقيد الكريم مايلى :

« وله اقتراحات فى تيسير وضع المصطلحات العربية المقابلة للمصطلحات الأجنبية ، قدم بعضها لمجمع اللغة العربية والمكتب الدائم للتعريب بمدينة الرباط بالمغرب ، وترمى هذه المقترحات إلى استخراج مصطلحات العلوم من الكتب العربية القديمة ، وتوزيع كلمات المعجمات العربية على حسب معانيها لتكون مصطلحات كل علم بين يدى اللجنة الخاصة بوضع مصطلحاته ، فلا ترجع اللجان إلا إلى ما بين يديها من هذه الألفاظ العربية ، وفى هذا اقتصاد للوقت والجهد ، فوق ما فيه من ربط الحديث بالقديم ، مما ييسر على العلماء المحدثين الاطلاع والاستفادة من علوم الأقدمين » .

هذه بعض جهود الفقيد الكريم فى اللغة وفى نواحى المصطلحات العلمية والفنية ، وهى جهود تتسم بالنشاط الجم ، وتاج هذا النشاط هو كتاب « الإفصاح » ، فإن تأليفه وتمحيص ما احتواه من ألفاظ ، وتنسيقها وجمع متفرقها فى أنواع مؤتلفة ، كل هذا ينطوى على محصول لغوى غزير ، وإلمام له وزنه فى المجال اللغوى .

ولم يكن نشاط الفقيد مقصورا على هذا المجال اللغوى فحسب ، بل كان له رحمه الله إلى جانب ذلك اهتمام بالأدب وميل إلى الشعر تجود به قريحته فى بعض المناسبات ، مما يدل على استعداده للانطلاق فى هذا الميدان ، ولعل اهتمامه باللغة وبالتنقيب فى المعاجم قد استولى على اتجاهاته الفكرية ؛ فلم يدع له فسحة من الوقت لجولات فى مجال الشعر ، ولكن الموهبة كانت ثابتة الجذور فى أعماق عاطفته وخياله ، وكانت جذوتها تشتعل حينما تتهيأ المواقف التى تستحث قريحته وتحفز شاعريته .

ومن نماذج شعره قصيدته التى ألقاها فى الدورة الثانية والثلاثين لمؤتمر المجمع الذى عقد فى بغداد سنة ١٩٦٥ م . وأبياتها ٨٢ بيتا ، ومطلعها .

داعٍ دعا لاحتفال بابنة الضاد
نادى فأسمعنا من عُدوة الوادى

صوت ندىّ ببغداد دعا فسعى
قوم من العرب ماينادوهم النادى

وبعد ذلك يفيض فى وصف الطائرة وأجزائها فى أكثر من عشرين بيتا ، ثم يخاطب السفينة لينتقل إلى الحديث عن العراق فيقول :

دعِى السماء وعُوجى اليوم ناجية
نحو العراق ففيها خير مرتادِ

وفى السماء رجوم الشهب قد رصدت
وفى العراق نجوم الرائح الغادى

منازل العرب فى كل البلاد شوى
أنى رحلنا نزلنا بين أنداد

ثم يعاوده الحنين إلى الاعتزاز باللغة العربية فيقول :

ليلى بنى العرب فى أوطانهم لغة
بحبها وهواها قد شدا الشادى

وكلهم قيسها والحب يجمعهم
موثقا ضم منقادا لمنقاد

هى اللسان لدنياهم ودينهم
لحاضر مترف فيهم وللبادى

بها تنزلت الآيات واتضحت
مناهج الدين والدنيا لعبّاد

هى الرباط الوثيق العقد قد جمعت
أشتاتهم ثم ردوا صولة العادى

ثم يعود إلى تمجيد الماضى العربى والحث على استعادة أمجاده فيقول :

ياقوم عودوا لماضيكم فإن به
ركازكم فانفضوه نفض نقّاد

فيه لكم غُنْية عن كل مجتلب
يفنى القديم ويعيى همة الشادى

أحيوا الذى اعترف العلم الجديد به
وصرفوه كما شئتم بإعداد

هيا ابذلوا الجهد والأموال طائلة
فى خطة المجد تحقيقا لإسعاد

ثم يقول فى آخر القصيدة مشيرا إلى المقترحات التى كان قدمها كتابة :

قدمتُ مقترحا من قبل متضحـا
نثرا وإنى أثنيه بإنشـــاد

لا يرجع الوقت إن ضيعتموه سدى
والجد والجِد فى الدنيا بميعـاد

* * *

هذه سطور من الصفحة الناصعة لحياة الراحل الكريم الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى وهى صفحة حافلة بالخلق الرضىّ والإخلاص الوافى ، والجد المثابر والنشاط المتوقد، والبحث الدائب فى اللغة وألفاظها ومدلولاتها ومختلف نواحيها .

وقد ظل الراحل الكريم مدافعا عن المصطلحات العربية السليمة وعن الألفاظ التى تحل محل الدخيل وتثبت دعائم الأصيل .

وإنا لنذكر له جهوده فى هذه النواحى بالثناء والتقدير .

ونتجه إلى الله سبحانه أن يجزيه الجزاء الأوفى ، وأن يتغمده برحمته ويسكنه فسيح جناته ، وأن يلهم أسرته الكريمة وأصدقاءه ومحبيه الصبر الجميل .

كلمة أسرة الفقيد للدكتور فتحى عبد الفتاح الصعيدى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين

السيد نائب رئيس المجمع — السادة الأعضاء — حضرات السادة .

قضى الله — ولا راد لقضائه — بأن نبتلى بانتقال والدنا إلى الرفيق الأعلى ، فتلك سنته فى خلقه ، وكم كان الامتحان قاسيا ، إذ لم يكن بين مقامه بيننا ، وبين لقاء ربه ، بهذه الصورة الأليمة ، ما يتيح له أن يسمعنا كلمته الأخيرة ، التى كنا فى حاجة إليها .

ولكن ، كان فى مواساة مجمع اللغة الموقر لنا ، ومشاركة سيادة الرئيس والسادة الأعضاء إيانا ، خير عزاء لنا فى مصابنا . ولسنا ندرى ، بأى لسان نشكر هذه اليد الكريمة ، التى أسداها لنا المجمع ، فأثلجت صدورنا ، وضمدت جراحنا .

وإنى لأحس كأن روح والدنا تحوم حولنا الآن ، وترى هذه القلوب العامرة بالحب والتقدير ، فترتاح فى مثواها ، وتدعو لكم بطول العمر وسعادة الحياة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .